كلمة الوزارة

الصليبيون حجاج أم محاربون؟

الدكتور رياض نعسان آغا
وزير الثقافة

على هضبة خضراء قرب مدينة ميلك القريبة من فيينا يقع قصر شالابورغ الذي يشبه القلعة المنيعة. وفيه افتتح معرض أثري بعنوان (الصليبيون حجاج أم مغامرون أم محاربون؟) وكنت زرت قصر شالابورغ العام الماضي حيث أقيم معرض أثاري عن جنكيزخان. وقد تساءلت يومها عن سر اهتمام الباحثين النمساويين بجنكيزخان. واستبعدت

جواباً استحضرته ذاكرتي عن التحالف المغولي الصليبي لتقاسم بلادنا في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي، لأنني لم أجد ما يدعو إلى تذكر هذا التحالف بعد سبعة قرون ونيف، ولا سيما أن المغول والتتار دخلوا الإسلام الذي غزا عقولهم بنوره بعد أن غزوا أرضه بسلاحهم، لكن الدعوة التي وصلتني هذا العام للمشاركة في معرض أثري عن الصليبيين أثارتني، وقد قررت المشاركة مادام عنوان المعرض يفتح تساؤلاً عن الصليبيين أهم حجاج أم محاربون؟ وقلت لعلها مناسبة كي أفهم كيف يستعيد الأوروبيون تاريخ الصليبيين، وربما يتاح لي أن أقدم إجابة إسلامية عن السؤال، وقد شاركت سورية في المعرض بنحو ثمان وستين قطعة أثرية تعود إلى القرون الوسطى، ولقيت مشاركتنا ترحيباً رسمياً وأكاديمياً، لكنني حين اقتربت من قصر شالابورغ ظننت أن فيلماً سينمائياً عن عصر الصليبيين يتم تصويره في القلعة فقد بدا رهط من الفرسان على خيولهم المطهمة، وبيدهم السيوف والأدوات الحربية التاريخية، وحين بدأ حفل الافتتاح بدا واضحاً أن المعرض لا يخلو من روح التمجيد لعصر الفرسان الصليبيين، وقد فوجئت بمقدم الحفل يقدم تبريراً للحرب، ويحكي عن مضايقات كان يتعرض لها المسيحيون الأوروبيون من الحكام العثمانيين في القدس، الأمر الذي دعا البابا أربان الثاني إلى إطلاق ندائه الشهير في اجتماع زعماء الكنيسة في كليرمونت في شهر تشرين الثاني من عام ١٠٩٥ لتحرير الأماكن المقدسة من أيدي الكفار الوثنيين.

وقد تم في الحفل تقديم مشاهد تمثيلية تحكي تلبية الشعوب الأوروبية لنداء الله، فقد تعهد البابا لكل من يشارك في الحروب الصليبية بأن يغفر له ذنوبه، وقد استمرت الحروب الصليبية نحو مئتي عام شن خلالها الصليبيون عشر حملات، سبع منها للمشرق وثلاث اتجهت نحو بلاد العرب والمسلمين في

الشمال الأفريقي حيث لا توجد أماكن مقدسة لحج المسيحيين، وقد حاول صديقنا الباحث النمساوي (ماتيوس بفافين بخلر) أن يعطي أبعاداً أخرى لمبررات الحروب الصليبية حين تحدث عن الضغط الشعبي بين صفوف النبلاء الذين كانوا يورثون أملاكهم للابن الأكبر بين الذكور مما دعا الأبناء الآخرين يتجهون إلى الفروسية والغزو بحثاً عن الثروات، وقدم (ماتيوس) صورة أقرب إلى الحقيقة حين تحدث عن الصراعات بين ملوك الصليبيين الذين غرقوا في الدماء، وحين جاء دوري في الحديث على خشبة المسرح، كان علي أن أوضح أبعاد نظرتنا العربية الإسلامية إلى الحروب الصليبية، ولست هنا في معرض إعادة ما قلت، فالقراء الأعزاء يعرفون أبعاد فهمنا وتقويمنا لتلك الحروب، لكنني أكتب عن الموضوع لأشيد بالاستقبال الذي فاجأني عبر دوي من التصفيق من المئات الذين جاؤوا للاحتفال بعصر الفرسان الصليبيين حين قدمت لهم الحقيقة وعلى رأسهم وزيرة الثقافة في مقاطعة النمسا السفلى، وحتى من السفير المغولي الذي كان الدبلوماسي الوحيد المدعو إلى افتتاح المعرض، مما عزز قناعتي بسر الاحتفاء في العام الماضي بجنكيزخان، لقد فوجئ الحضور حين صححت المعلومة الأولى التي قدمت مبرراً للحروب الصليبية، فقد أوضحت أن العثمانيين الذين قال الباحث في مقدمته إنهم ضايقوا الحجاج المسيحيين، لم يكونوا قد ظهروا بعد على مسرح التاريخ، فقد جاؤوا بعد انتهاء الحروب الصليبية بقرون، وأوضحت أن المسلمين في القدس محكومون بتعاليم دينهم التي تحفظ حق المسيحيين في زيارة الأماكن المقدسة، وثمة العهدة العمرية التي تعتبر أهم وثيقة تاريخية إنسانية تحفظ الحقوق وتقدم أنموذجاً للتعايش والتعاضد الديني، وكان لابد من أن أذكّر المحتفلين بأن السيد المسيح سوري ولد في الناصرة، وبأن المسيحية انطلقت إلى أوروبا من دمشق، وبأن المسيحيين

في بلادنا قاتلوا الصليبيين مع أهلهم المسلمين، وتحدثت عن صلاح الدين وعن حطين، وأوضحت للمحتفلين أن الحروب الصليبية لم تنته في القرون الوسطى، فقد استؤنفت (للأسف) في مطلع القرن العشرين (حين جاء غورو إلى دمشق ورفس قبر صلاح الدين بقدمه وقال: ها نحن عدنا يا صلاح الدين) واليوم تستأنف الحروب الصليبية في مطلع القرن الحادي والعشرين في الغزو الأمريكي الأوروبي للعراق حيث تقتل الإنسانية وتدمر الشعوب (وأعترف أنني كنت أتوقع أن يمتعض القوم وبعضهم قادم بملابس الفرسان الصليبيين لكن الجمهور النمساوي المثقف المنفتح قاطعني بالتصفيق تعبيراً عن التأييد) وقلت إننا شاركنا في هذا المعرض لنتأمل التاريخ معاً، ونفيد منه العبرة التي تجعلنا نستنكر الحروب، والخطر أن نستعيد هذا التاريخ، وقد أكدت لنا تجاربه أن الحروب لم تجلب للبشرية غير الدمار (فثمة أكثر من عشرين مليون إنسان قتلوا في الحروب الصليبية في بلادنا) وذكرت الحضور بأن القدس شهدت مقتل سبعين ألف إنسان في يوم واحد صار فيه الدم نهراً في شوارع القدس كما يذكر المؤرخون، وحين أنهيت خطابي كان التصفيق الحار دليلاً على توافق مع دعوتنا إلى السلام، وقد أجرت قناة تلفزية نمساوية حواراً معي وكان السؤال الأخير (لو أننا عدنا إلى عصر الحروب الصليبية كان بوسعك أن تكون أحد الشخصيات الشهيرة في ذلك العصر فمن تختار أن تكون، قلت على الفور أختار أن أكون صلاح الدين الأيوبي لأنه طرد الصليبيين من بلادي وحرر القدس، وقد فوجئت بالمذيعة تصفق ربما لكوني قلت حقيقة ما أؤمن به.

المهم أنني ازددت قناعة عبر هذا اللقاء بضرورة الحوار مع الغرب وأهميته، لأن الكثرة المطلقة من المثقفين الأوروبيين منصفون ويريدون معرفة الحقيقة.

☆ ☆ ☆

كلمة العدد

المتنبي الحاضر أبداً

د. علي القيّم
رئيس التحرير

فتح الناقد والأديب اللبناني «عبده وازن» أبواب النقد والرأي مشرعة لشعراء الحداثة في الوطن العربي ليحاكموا شاعر العرب الأكبر «أبو الطيب المتنبي» هذا العملاق الرائد في الشعر والأدب العربي الذي ما زال حاضراً بشدة وقوة في حياتنا الثقافية والفلسفية والفكرية على الرغم من مرور أكثر من عشرة قرون على رحيله..

لقد تمت المحاكمة على صفحات جريدة الحياة اللبنانية- اللندنية، في ٢٥أيار/ مايو الماضي، وانتهت في ٣٠ منه، وكانت فرصة جيدة لاستعادة روح الشاعر وحياته وما يكتنفها من أسرار ومتناقضات..

العودة إلى المتنبي، هي استعادة لشاعر كبير استطاع أن يخرق جدار الزمن، وأن يتخطّى القرون المتوالية، فارضاً نفسه على المعترك الشعري الراهن، المعاصر والحداثي، مرسّخاً شعريته التي لم تتأثر بما تعرضت له من حملات عدائية، وبما واجهت من مواقف نقدية فهو كما قال عنه عبده وازن في مقدمة هذه الجملة: «ظاهرة حيّة، سرّاً من أسرار العبقرية الشعرية، شخصية إشكالية حافلة بالألغاز التي يستعصي سبرها أو إدراكها كاملة».

«المتنبي» الحاضر أبداً بأسراره ومتناقضاته، حاكمه أكثر من ثلاثين شاعراً من شعراء الحداثة العربية على اختلاف أهوائهم ومشاربهم وأجيالهم واتجاهاتهم(*)، ومن المفيد التوقف باختصار شديد عند أهم الآراء والطروحات التي يمكن تقسيمها إلى ثلاثة محاور:

- المحور الأول: شاعر أجير.. كان يتنقل بين مختلف أصحاب العمل، حاول أن يكون شاعراً ملكاً، ولم ينجح، وحاول أن يكون شاعراً فارساً ولم يوفق.. جرّب وظيفة في بلاط سيف الدولة إلا أنه ما لبث أن ملّها.. كانت النقمة

(*) ساهم في شهادات «المحاكمة»: أدونيس- سليم بركات- غازي القصيبي- عبد المنعم رمضان- عناية جابر- سميح القاسم- شوقي أبي شقرا- محمد أحمد السويدي- كمال أبو ديب- شوقي بغدادي- كاظم جهاد- بول شاؤول- أحمد عبد المعطي حجازي- أمجد ناصر- شوقي عبد الأمير- سعدية مفرح- كريم عبد السلام- عباس بيضون- عبد العزيز المقالح- عز الدين المناصرة- جودت فخر الدين- ما هر شرف الدين- فاضل العزاوي- محمد بنيس- محمد علي شمس الدين- صلاح ستيتيه- سعد الحميدين- سيف الرحبي- حاتم الصكر- ابراهيم نصر الله.

المتأججة هي الدافع التي قادت حياة شاعرنا الصاخبة إلى نهايتها الدامية.. لقد عبّر عن ظمأ النفس إلى الأمجاد، وسخر من قيادات زمانه.. ثمة اعتراض واضح على مسلكية «المتنبي» السياسية، حيث يمدح ثم يهجو قبل جفاف مداد المديح.. لقد وقف ذليلاً أمام «كافور الإخشيدي»، ومارس النفاق أمام سيف الدولة، إلا أن حركته السياسية كانت تحمل مبدأ (الشطب)، أي النفاق، والنرجسية الداخلية، أمام كافور، ومبدأ (المديح، والعشق السرّي لخولة) أمام سيف الدولة، وبما أنه كان يقول الشيء ونقيضه، فقد أثارت هذه التناقضات، جدلاً وسعاً، وضعه تحت أضواء تلك الزمان، وهكذا لعبت (الإثارة السياسية) دوراً في شهرته، وهو أيضاً (شاعر ملخصاتي) لشعراء آخرين، أي (شاعر سارق) مما أثار الجدل حول أصالة شعره أو عدمها، وفي المقابل هو شاعر ذكي موهوب، مصقول الصيغة الشعرية، هذا التناقض، جعل النقاد يهتمون بشعره..

أسطورة (النبوّة) في حداثته أثارت جدلاً في عصره أيضاً، كان ملتبساً بغموض، وساهمت في أسطرة صورة المتنبي مع أسطرة قصصه مع سيف الدولة وكافور، وحتى موته قتيلاً في سن الخمسين، وبالتالي كسب المتنبي شهرته في حالة التطابق مع السلطة، وفي حالة التناقض معها.. لقد كان «المتنبي» شاعراً انتهازياً، عرف كيف يدبّر شهرته، وكانت شهوته للسلطة واضحة.

☆ ☆ ☆

المحور الثاني: يعتقد أنه من المبالغة في عصر «المتنبي» محاسبته على أماديحه وأهاجيه، فهذه سنة الشعر في أيامه.. الشاعر آنذاك كفنان عصر النهضة يعمل للملك أو أمير أو وال، لا يجد غضاضة في أن يرتزق من شعره، العصر كان عصر المغامرة، وأتيح فيه لأناس بلا أصل وفصل أن يسودوا وأن يحكموا، أما أن يحلم «المتنبي» بإمارة أو ولاية فهذا يعني أنه لم يكتف بأن لا

يكون تابعاً، وإنما تطلّع إلى أعلى من ذلك، إلى أن يكون سيداً، في زمن كان الشعراء فيه أتباعاً، ولا حرية فيه إلا لمن كان سيّد نفسه، أي لمن كانت له سلطة وسيادة على غيره، ومن المبالغة في إعلاء الشعر أو أن نفصله عن السلطة أو السياسة ونقيّمه نقيضاً لهما، أما «الأنا» المتضخمة لدى «المتنبي» فلا ننسى أنها فتنتنا دائماً، وكانت بالتأكيد من جوانب شعره..

لقد كان «المتنبي» شاعراً متناقضاً من دون شك، وكان تناقضه مع نفسه، أكثر من تناقضه مع عصره، تشهد بذلك مطالع قصائده، والسبب راجع إلى تناقضات عصره، وإلى بداية أفول الدول العربية، وطموحه اللا محدود إلى استعادة بعض أمجاد الأمة الغاربة، وكم أوجعه أن لا يحكم العرب أنفسهم بأنفسهم، وكأنه بهذا المفهوم شاعر معاصر بكل ما في الكلمة من معنى، لقد حاول أن يقف في خندق المقاومة، لكنه فشل، وكان الحاسدون ضحايا الغيرة تجاه موهبته الكبيرة، وما أحرزه من شهرة واسعة، كانوا وراء ذلك الفشل، إضافة إلى الظروف العامة وما رافقها من انكسارات أدت إلى تخبطه السياسي ومن ثم إلى نهايته «التراجيدية».

لقد استطاع «المتنبي» من خلال قصائده أن يثبت عمّا في النفس البشرية (وهي نفسه بالذات) من قلق وغربة وحكمة واستخفاف وعبث واستعلاء وشغف بالمجد.. مشروعه ليس سياسياً، السياسة لديه جزء وتفصيل، مشروعه وجودي قائم على أنه هو «السوبر مان» المتحدّر من قوم وأعراق ونفوس، كأنها تأنف من سكنى اللحم والعظم.. لم يمدح «المتنبي» سوى «المتنبي» كل ممدوح آخر مستعار لأناه، حاول أن يكون نبيّاً فلم يستطع لأن ذلك لا ينبغي له أو لسواه بعد الرسول الأعظم (ص) فكان شاعراً، ولا ينبغي للنبي أن يكون شاعراً.. التناقضات جزء من عبقرية «المتنبي» يضاف إلى ذلك إحساسه

المتفرد والحاد بالعظمة والغربة معاً.. داخل غربته عاش وكتب وقُتل.. مدح أشخاصاً كثيرين، ليس ليمجدهم بل ليملأ فراغ الغربة والرغبة، كان يتماهى مع الآخر كي يصبح نفسه الآخر -السيد- كان يعارض نفسه كي يثبتها فيما يعارضها، كان يخلق فوضاه الخاصة، فيما يخلق نظامه الخاص، وفيما كانت السلطة آنذاك، رهان العرب الأول، وفيما كان يمتدح بعض ممثليها، كان يعلن رهانه الخاص.. في كل هذا، كان «المتنبي» يهدم الأنا القبلية، والأنا المذهبية، لا ينتمي إلا إلى ما يتسع لتناقضاته ويحتضنه، ويتيح له أن يقيم فيه.. شعره كان قطيعة وانشقاق، فهو مليء بالتمزق والانتهاك، والمخالفة والحيرة والمرارة، والتصدّع والترحل.. مسكون في الوقت نفسه بالعظمة التي يسميها بعضهم «فحولة» فيما هي نقض كامل وجذري للفحولة..

☆ ☆ ☆

- المحور الثالث: يرى أن «المتنبي» ملأ الدنيا وشغل الناس، فهو أكبر شاعر عربي ليس في الماضي فحسب، بل في الماضي والحاضر والمستقبل أيضاً، والظروف التي ساعدت على ظهوره لن يتكرر، والأسطورة تكتمل بهذا الاسم الفريد الذي رضي الجميع أن يحمله المتنبي.. إنه الشاعر العظيم الذي اخترق اللغات والأزمنة والأمكنة، «المتنبي» متناقض لأنه حقيقي، ومن لا يتناقض هو الزائف الذي يظن أنه يملك الحقيقة أو يموه لذلك، لأن الحقيقة ليست في متناول إنسان قط، لقد قرر «المتنبي» أن يبحث عن حقيقته الإنسانية عبر شعريته المتّقده، والتي أرهقت طموحاته المستحيلة في السياسة والحياة في خضم واقع سياسي تاريخي مرير عاش تفاصيله المتناقضة مرغماً في كثير من الأحيان..

إنه الشاعر الأكثر خلوداً في تاريخ الأمة العربية التي تباهي الأمم ببلاغتها الشعرية، وكأنها لا تملك سواها مادة وحسب، بل أيضاً كان الشاعر الأكثر احتفاء بتلك الشعرية والأقدر على ترسيخها في الوجدان العام سلوكاً وقصيداً.. لقد كان شاهداً على ملامح الساسة الخفيّة وهم يتداولون حيواتهم على كراسي الحكم متقلبين في المواقف ومنقلبين على الأعراف والموروثات..

لقد كان «المتنبي» النموذج الأول للمثقف المعتز بنفسه أمام الحاكم، والذي رأى في الموهبة الإبداعية مؤهلاً للحكم وامتلاك السلطة.. لقد كسر «التابو» الاجتماعي الذي يحرّم على الشاعر أن يتجاوز منزلة المهرج..

غريب أمرنا - نحن العرب- فما من أمة إلا واحتفظت بعظيم من عظمائها، تعيد اكتشافه وقراءته مرة بعد مرة، شكسبير عند الإنكليز، باشو عند اليابانيين، الشيرازي عند الفرس، طاغور عند الهند وغيرهم كثير، والعرب ليسوا استثناء من ذلك، فلماذا ننظر بعجب إلى ما يمكن تسميته بحالة الانشغال العربي بالمتنبي، والغريب أن البعض يعتبر الاهتمام بشاعر عظيم هو عودة غير مقبولة إلى الماضي، وكأن كل عودة إلى الماضي هي تخلف، كما أن البعض يجد في الاختلاف حول شاعر أو مبدع عظيم مبرراً لرفض الانشغال به، الاهتمام بالمتنبي لا يعني أن نتّفق معه في كل ما جاء به، وعندما نعيد قراءته ودراسته نقوم بذلك لنتعرف على الطبيعة التي حركته في إطارها الزمني، وسيظل حياً بشعره مهما اختلفنا معه أو حوله.

ثمة في شعر «المتنبي» ما يخترق المناسبات، وتظهر أبياته بمثابة كرات من نار تجتاز الآفاق والأزمنة، وعلى الرغم من موت بعض أدواته بفعل تطور التاريخ ومعه المفردات فإن الرمز يبقى سارياً ولا ينتكس، وقطفه البلاغي

العبقري للحكمة، وتلاعبه بالمعاني بطريقة فريدة، جعلت قارئه دائم التأهب للمفاجآت والتوليد..

☆ ☆ ☆

«المتنبي» الحاضر أبداً بأسراره وعبقريته وتناقضاته، والذي ما زال عصيّاً على الحكم الفصل، وما برحت قصائده تثير حفيظة قرائه، تفتنهم وتسحرهم بجمالها وروعتها النادرة.. لقد حملته الأجيال منذ أكثر من عشرة قرون في ذاكرتها، وتعاطفت معه بقوة وحب وعنفوان، وهذا التعاطف التاريخي جعله شخصية شعبية في معنى المماهاة بين البطل الشعبي، والشاعر الشعبي، وبقي قادراً بقوة على إثارة المخيلة العربية، شعره ما يزال يغري بالمزيد من البحث والتعمّق..

لقد كتب عن المتنبي الكثير من الدراسات والأبحاث، وسوف يكتب عنه في القادم من السنوات الكثير، وحسبه أن شعره من أجمل الشعر العربي كله وأروعه وأحقّه بالبقاء، فيه شعر الحرب والمديح والرثاء والحكمة والقيمة الفلسفية والفكرية التي لا نجدها عند غيره من شعراء العربية قديماً وحديثاً.. هو الشعر الذي بلغ فيه المتنبي الغاية التي ليس بعدها غاية.. يقول عبد الوهاب عزام «في ذكرى أبي الطيب»: الشعر الحماسي البليغ في ديوان هذا الشاعر العربي الذي لا نظير له في الإلياذة ولا الشاهنامة ولعله منقطع النظير في الانيادا الرومانية، والمهابهارتا والرامايانا الهنديتين.. إنه أروع شعر حماسي في اللغة العربية..

شعر «المتنبي» في «السيفيات» من أروع ما قيل في الحرب والجهاد، ولولا هذا الشعر العظيم لما عرفنا عن بطولات ومعارك وأمجاد سيف الدولة الحمداني إلا النزر اليسير.. لقد كان المتنبي على مستوى المعجزة القومية التي حققها

هذا القائد العربي الكبير الذي وقف لسنوات طويلة بقوة وعزم ونضال لا يلين أمام أقوى إمبراطورية في العصور الوسطى، وكان شعره الملحمي الرائع بكل صوره وأبعاده ومضامينه وشموخه عنوان مرحلة عظيمة في تاريخنا العربي المجيد، أليس هو القائل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغار صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم
ومن طلب الفتح الجليل فإنما
مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

«المتنبي» تجرأ على المألوف، وكان كالقابض على الجمر.. كان المبدع الكبير الذي بعث كينونة جمالية لا حدود لها في الشعر العربي، وسيبقى رغم كل ما قيل وسيقال يجتاز الآفاق والأزمنة، وهو القائل:

الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

☆ ☆ ☆

الدراسات والبحوث

كيف تدرس؟

د. فاخر عاقل *

هذا المقال كتبته قبل ربع قرن بطلب من طلابي ومعارفي، وأعيد اليوم نشره، بناء على طلب من الصديق رئيس التحرير، لأن الحاجة إليه ماسة. وأرجو أن يجد القراء فيه نفعاً يبرر نشره.

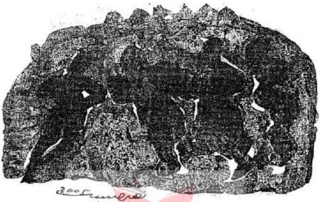
كما أرجو أن يرى القارئ فيه النصائح العلمية التي تساعده على كيفية الدرس:

* مفكر ومربي وأستاذ جامعي أثرى المكتبة العربية بمؤلفات تربوية عديدة

- العمل الفني: زهير حسيب.

١- ابدأ بإلقاء نظرة عامة على الدرس تطلع بواسطتها على مخطط البحث وعلى أجزائه المختلفة وموقع كل جزء من هذه الأجزاء وعلاقته بالأجزاء الأخرى. إن هذه النظرة العامة تطلعك على مجمل الدرس وتعطيك فكرة عن ترتيبه ونظامه وعن موضع الأفكار الخاصة والأقسام الثانوية وعن الصلة القائمة بين كل قسم والقسم الذي يسبقه والقسم الذي يتلوه. وقد درجت بعض الكتب المدرسية على إثبات هذا المخطط في مطلع الدرس، وهي عادة حسنة مفيدة تساعد التلميذ في دروسه وتعينه على الفهم. فإذا كان في كتابك مثل هذه المخططات فانظر فيها واخرج منها بفكرة عن الدرس. وبديهي أن أشير هنا إلى أن المقصود من هذه المخططات هو إعطاؤك هذه الفكرة الكلية لا أكثر ولا أقل، وليس المقصود منها إطلاقاً حفظها والاكتفاء بها والاعتقاد بأن في الإمكان أن تعتبر هيكلاً عظمياً يكسوه الطالب باللحم من عنده. إن هذا الاعتقاد خاطئ وإن هذه الطريقة لا تساعد على الدرس وفهم الدروس إطلاقاً.

٢- وبعد أن تكوّن فكرتك العامة عن الدرس الذي بين يديك انتقل إلى دراسة الأجزاء جزءاً جزءاً واحرص على الفهم. الدرس الذي لا تفهمه ولا تستكنه خفاياه وتطلع على دقائقه وتمثل على حقائقه درس ينسى بسرعة ولا يبقى في الذهن إلا أمداً قصيراً. يشكو الكثيرون من طلابنا ضعف الذاكرة وسرعة النسيان ويسألون عن علاج لضعف الذاكرة وعن طريقة التخلص من سرعة النسيان. وجوابي لهم دوماً افهموا ما تقرأون تحتفظوا به وقتاً أطول وعلى شكل أنسب. وأرجو ألا يفهم من هذا أني أنكر ضعف الذاكرة وأسبابه التي قد تكون جسدية أو غير جسدية، ولكني أحب أن أذكر لطلابنا أن معظم نسيانهم ناتج عن طريقة درسهم وعن عدم فهمهم ما يدرسون. ولقد أثبتت التجارب العلمية المختلفة أن نسيان المفهوم أصعب من نسيان غير المفهوم، وأن الدرس الذي تفهمه وتتعمق في معانيه يبقى في ذهنك مدة أطول من بقاء الدرس الذي تستظهره دون فهم، وأن نسيان النص أسهل من نسيان المعنى. ودليل ذلك بسيط فأنت قد تنسى نص بيت من الشعر أو آية من الآيات ولكنك تذكر



معناه أو معناها والعكس غير صحيح أي أنك لا تنسى المعنى وتذكر النص.

٣- كيّف طريقة دراستك بحسب الدرس الذي تدرس. ذلك أن لكل درس طريقة تختلف قليلاً أو كثيراً عن طريقة الدروس الأخرى، فطريقة دراسة التاريخ تختلف عن طريقة دراسة الهندسة، وطريقة دراسة النحو غير طريقة دراسة الأدب فاحرص على أن تكون طريقتك في الدرس موافقة للموضوع الذي تدرس. في دراستك للتاريخ اعتبره حكاية، واحرص على ربط المسببات بالأسباب، وليكن اهتمامك بالأسماء والتواريخ مرتبطاً باهتمامك بالعصر الذي تدرس والأسرة التي تدرس والمجتمع الذي تدرس. أما في دراستك للغة فلا بد لك من أن تذكر أن اللغة واسطة، واسطة للتعبير عن الأفكار شفوياً وكتابياً، وإنما أنما تتقن اللغة بمقدار ما تتقن التعبير. وإن هذا التعبير مستحيل إذا لم تتمرن عليه بالفعل فتتكلم اللغة وتكتبها ولا تحفظ المفردات مجردة، ثم إن هذا التعبير غير ممكن إذا لم تستفد فيه مما تعلمت من قواعد الصرف والنحو والإملاء. كما أن هذا التعبير لا يكون على خير ما تبتغي له إذا لم تقرأ لكتّاب اللغة المبرزين ولم تسمع أهلها

يتكلمون بها. وهكذا تجد أن لكل علم طريقة وأن لا بد لك من استعمال هذه الطريقة للتمكن من هذا العلم.

٤- اربط الدرس الجديد بالدرس القديم. إن هذا الربط بين ما تعرف وبين ما تتصدى لتعلمه مفيد جداً. أنه كفيل أولاً بإعطاء الدرس الجديد مكانه من البحث العام أو الموضوع الكلي، وهو ثانياً يوضح الدرس الجديد ويبين صلته بالبحث العام وبذلك يسهل فهمه وحفظه وبالتالي استدعاءه وتذكره، وهو ثالثاً يساعد على بقاء الدرس في الذهن مدة أطول وقاعدة أثبت.

المقصود من تجزئة البحث تسهيل درسه وتهوين حفظه، ولكن هذه التجزئة تصبح مضرة إذا لم ينظر إليها على أنها مؤقتة وإذا لم يتبين الطالب علاقة البحث الجزئي بالموضوع الكلي، ولم يصل الجديد بالقديم ويدعمه به ويقويه بواسطته.

٥- رتب المواد التي تدرسها وصنفها. إن هذا التصنيف وذاك الترتيب كفيلان، حين يقومان على أساس منطقي واضح وفكرة معقولة صحيحة، بأن يوضحا الدرس ويسهلا فهمه وحفظه ومن ثم استدعاءه وتذكره.

وليكن ترتيبك وتصنيفك للأبحاث التي تدرس قائمين على مبدأ منطقي معقول، وليكن هذا الترتيب وذاك التصنيف من عملك أنت فلا تكتف بما يقدمه إليك الكتاب أو المعلم أو أحد الرفاق. ولا تحسبن أن الوقت الذي تصرفه في هذا الترتيب وقت ضائع، بل على العكس إنه يساعدك على فهم الدرس والتغلغل في أسراره وخفاياه كما يساعدك على تثبيته في ذهنك وإبقائه فيه مدة طويلة واستدعائه حين تشاء.

٦- اربط بين ما تحفظ وما يساعدك على استدعائه وتذكره ولتكن الروابط التي تلجأ إليها منطقية معقولة. إن بعض طلابنا يحفظون كثيراً من الحقائق ولكنهم لا يعملون قاصدين واعين على ربطها بما يساعد على تذكرها فتكون النتيجة أن يعفي النسيان عليها وأن تضيع جهود الطالب وأن يتسرب إلى نفسه الشك في ذاكرته، مع أن السبب البسيط هو أن الطالب لم يعمل على ربطها بما يذكر بها. لنفرض أنك تحفظ ارتفاع جبل من الجبال فقارنه بجبل آخر واحفظ - إلى جانب حفظك مقدار علوه- مقدار زيادته في العلو عن جبل آخر أنت متأكد من حفظك

لعلـوه. ولنفرض أنك تحفـظ تاريخ موقعة حربيـة فاربطها بموقعة حربية أخرى واذكر أنها وقعت بعدها أو قبلها بكذا من السـنين. ولنفرض أنك تحـاول حفظ بعض الحقائق عن نبات معين فاربطه إذن بفصيـلته وقارنه بها وتذكر وجوه شـبهه بهـا ووجوه اختلافه عنها.

٧- ثـق بذاكرتـك. إن ثقتـك بذاكرتك واعتمادك عليهـا جديران بأن يسـاعداها في عملهـا حريان بـأن يثبتـا الحقائق فيها وأن يعيناها على تقـديم هذه الحقائق حين الطلـب. إن الكثيرين منا لا يثقون بذاكراتهم ولا يعتمدون عليها فيعمدون إلى كثرة الحفظ وتكـرار التعلم فيتعودون عدم الحفظ إلا إذا لجأوا إلى التكرار الكثير، وليس هذا فحسب بل إنّ عدم الثقة هذا معناه اسـتعداد مسبق للنسـيان وعدم الحفظ. وهنـا لا بد لي من التنبيه إلى أن حفظ الدروس وتذكرها يخضع للعادة وقوانينها خضـوع غيرها، فإذا اعتاد الإنسـان أن يحفظ من قـراءة إلى قراءتين وثابـر على ذلك سـاعدته عادتـه هذه على التقليل من مرات التكرار في المستقبل وإعانته على تذكر المضـمون بجهد أقـل. ولا بد لي بعد ذلك من الإشـارة إلى أهمية عامل الثقة في عامة الشؤون المتصلة بالدرس والتسميع. إن الطالب الذي يثق بنفسه وقدرته وذاكرته وكفاءاته طالـب مكتوب لـه أن ينجح، وأما الطالب الخائف المتردد الذي لا يثق بنفســه وقدرتـه وكفاءاتـه فطالب محتـوم عليه أن يفشل مهما درس وحفظ وجاهد.

٨- اقرأ بغية أن تحفظ وأن تذكر. يتخذ بعض الطلاب مـن الدروس موقفاً فيه كثير من اللامبالاة. إنهم يقرأون دروسهم قراءتهم لرواية أو مجلة، وإذا صـحّ أن في قراءة المجلة لذة ومتعة فإنه صـحيح أيضاً أن الإنسان لا يقرأ الرواية ليحفظها ويذكرها -إلا في أحوال نادرة- ولا يتصفح المجلة بنية أن يحتفظ بما فيها ويسـتخدمه في المسـتقبل، وإنما يقرأ الرواية للتسـلية ويتصفـح المجلة لتمضـية الوقت. وليس هذا هو الحال بالنسبة للدروس التـي يجـب أن يقرأها الطالـب ليحفظها ويتذكرها ويسـتفيد منهـا في حياته المقبلة. هذا وأحب أن أنبه هنا إلى الفرق الموجود بين مجرد الفهم من جهـة والحفظ والتذكر من جهة أخرى. نعم إن الفهم أساسـي وضروري في الحفـظ والتذكير ولكـن الفهم غير كاف

وحده للحفظ والتذكر، ولا بد للمتعلم من أن يبذل جهداً إضافياً كي يحفظ ويتذكر في المستقبل. إذن اقرأ لتفهم أولاً، وإذا فهمت قرأت لتحفظ ثانياً ولكي تحتفظ بما حفظت للمستقبل فتتذكره عند الحاجة ثالثاً.

٩- ويتصل بالنصيحة السابقة نصيحة أخرى وهي: حاول الحفظ والتذكر وأنت تدرس. معلوم إن بعض طلابنا يعتقدون أن مجرد القراءة والتكرار كفيلان بالتثبيت والتذكير. والواقع إن هذا خطأ فلا يكفي أن تقرأ كي تحفظ، كما لا يكفى أن تحفظ كي تتذكر. إن عليك وأنت تقرأ أن تقف عند الأفكار الرئيسية وتعمل على تثبيتها في ذهنك ثم تستعيدها لترى ما إذا كنت قد حفظتها، ثم تعود إليها بعد حين وفي فترات متقطعة لتجد ما إذا كنت تتذكرها. أما إذا اعتمدت على مجرد التكرار، تكرار القراءة فإنك لن تحفظ ولن تتذكر.

١٠- ولا بد لك حين تقرأ لكي تحفظ وتتذكر من إن تركز انتباهك حول ما تقرأ، بل لا بد لك من أن تكون تحت توتر نفسي عال مركز حول الموضوع الذي تحاول حفظه وتذكره. أن قراءة منتبهة واحدة خير من عشرات القراءات اللاهية يقوم بها قارئ مشتت الذهن موزع الانتباه والحق إن الانتباه قادر على توفير وقتك وجهدك. ولعله يهمك أن تعلم أن الدراسات العلمية الحديثة أجمعت كلها على أن الانتباه والقدرة على تركيزه حول موضوع معين عامل من أهم عوامل الذكاء ودعامة من أهم دعائمه. هذا وأحب أن أؤكد لك أن السبب في أن بعض الطلاب تكفيهم قراءة أو قراءتان للحفظ والتذكر في حين يحتاج البعض الآخر لعدد عديد من مرات القراءة لحفظ أسوأ وتذكر أقل، أقول إن السبب هو تركيز الأولين انتباههم وقراءتهم وهم تحت توتر نفسي عال. وشرود ذهن الآخرين و التهاؤهم عما يقرأون بتداعيات أفكار وأحلام يقظة تبتعد بهم عن غايتهم.

١١- لجأ في الدرس والحفظ إلى طريقة الكل لا إلى طريقة الأجزاء ومعنى هذا أن تلجأ حين تدرس موضوعاً من المواضيع إلى قراءته كله وفهمه بمجموعه، ثم تحفظه حين تحفظه بكليته دفعة واحدة. لنفرض أنك تحاول حفظ قصيدة من القصائد. ابدأ أولاً بقراءتها كلها وفهم معانيها وإدراك أجزائها. ولنفرض أنها تبدأ بالغزل ثم تنتقل إلى الفخر وتنتهي أخيراً

بالهيجاء وحينئذ أنصحك بألا تحفظها على **الطريقة** القديمة وذلك بأن تحفظها شـطراً شـطراً ثم بيتاً بيتاً، بل أنصحك بأن تحفظ القسـم الغزلي بكامله ودفعة واحدة وكذلك القسـم الفخري والهجائي بشـرط ألا تكون هذه الأقسـام أطول من اللازم: ولقد برهنت البحـوث العلمية بأجمعها على أن هذا النوع من الحفظ أكثر اقتصاداً في الوقت والجهد، كما برهنت على أنـه أبقى في الذهن وأثبت في الذاكرة. وإذا كان الأمر صعباً عليك بعض الشـيء فيما يخص الاسـتظهار وذلك على اعتبارك قد اعتدت هذا النوع من الحفظ في الماضـي فحاوله في الدروس الأخرى، حاوله في كل **المواضـيع التي** تحتاج للحفظ، حاول أن تحفظ هذه المواضـيع بكليتها لا بأجزائها وسـتجد حتماً أن هذه الطريقـة أكثر فائدة وأجدى عائدة.

١٢- طلبـت إليك نصـيحة سـابقة أن تربط بين الدرس الحاضر والدروس السابقة، كما طلبـت إليك أن تربط بين أجزاء الدرس الواحد، أما الآن فنصيحتي أن تكون الروابط التي تلجـأ إليها من النـوع الذي يفيدك في المستقبل، ومعنى هذا أن تلجأ أولاً إلى الروابط الطبيعيـة المنطقيـة ما أمكـن وأن تقلل من الروابط الاصطناعية ما وسعك ذلك، ومعناه بعد ذلك أن تسـتهدف في الروابط التي تلجأ إليها الحياة عامة والحياة المدرسـية خاصة، وأن تأخـذ بعـين الاعتبار هاتـين الحياتين ومطالبيهما. لنفرض أنك تدرس الفيزيولوجيا ولنفرض أنك تدرس إحساساً كالبصر، يجب أن تعلم أولاً أنه لا بد لكل إحساس من جوابذ أو خلايا عصبية حسية تتلقاه، ولا بد له بعد ذلـك من أعصـاب تنقله، ولا بد أيضـاً من مركز في الدماغ، وأخيراً ولا بد له من نابذ أو عضـو حركة يقوم برد الفعل. اربط إذن بين إحساس البصر وبين القاعدة العامة وتساءل ما هو الجابذ البصري وأين يوجد؟ إنه خلايا حسـية موجودة في القرنية العينية، فما هي القرنية؟ وماذا يحيط بها ويتصل من طبقات وأنسجة ؟ وهناك بعد ذلك العصب البصري فما هي صـفاته ؟ وهناك المركـز البصري علـى القشرة الدماغية ففي أي عضـو هو؟ إلخ وهناك أخيراً استجابتنا للمؤثر الضوئي فكيف تحدث وما هي أجزاء العين تسـتخدم في هذه الاستجابة ؟ وحاول بعد ذلك -وأنت تدرس العين- أن تتلفت حولك فترى عينيك

وعيون الناس، وتستعين بعيون الحيوانات، ثم حاول أخيراً أن تطبق دراستك على الحياة مستفيداً من دراستك في فهم آلية عينك والعناية بها.

١٣- حاول أن تكون روابطك عديدة متنوعة، أن تعدد الروابط وتنوعها مفيدان في التذكير، فإذا نسيت واحداً من هذه الروابط عدت إلى غيره فساعدك على تذكر ما نسيت وإيضاح ما غمض عليك، ولنعد إلى مثلنا السابق، مثل دراستك العين. أن بإمكانك ألا تقتصر في دراسة العين على القواعد العامة التي تعرفها الحواس المختلفة بل تضيف إلى ذلك ما تعلمته في الضوء ولا سيما فيما يخص العدسات وآلات التصوير. ذلك أن العين تشبه آلة التصوير تماماً ودراسة العدسات وأنواعها أساسية لفهم آلية العين في احديدابها وتفلطحها لاستقبال النور الشديد أو الضعيف، ولا شك أن ربطك لمعلوماتك عن الضوء بدراستك للعين مفيد في إيضاح الاثنين معاً، كما أنه مفيد بتذكيرك بالحقائق الضرورية لك والخاصة بالعين.

١٤- كرر ما تريد حفظه بصوت عال، فإذا صح أن القراءة الصامتة أسرع وأكثر اقتصاداً في الوقت والجهد من القراءة الجهرية، فإنه صحيح لا شك فيه أن القراءة الصامتة أكثر فائدة في الحفظ والاستظهار من القراءة الجهرية، والسبب في ذلك بسيط معقول وهو أن القراءة الجهرية تشرك في الحفظ حاسة السمع فتساعد بذلك على تثبيت المعلومات وإبقائها في الذهن مدة أطول وبشكل أضبط. وليس هذا فحسب بل إن عليك أن تسمع نفسك ما تريد حفظه بصوت عال أيضاً. إن بعض طلابنا يعتقدون أنه يكفي أن يستعرضوا في ذهنهم الفكرة أو الأفكار التي درسوا حتى يحفظوها ولكنهم لا يكادون يحاولون تسميعها فعلاً حتى يجدوا أنها طارت من ذهنهم ورد ذلك إلى أنهم لم يتمرنوا على تسميع ما يريدون تسميته بصوت جهوري عال.

١٥- استخدم ذاكرتك البصرية في الحفظ. يقول علماء النفس إنّ ثمة أنواعاً من الذاكرة البصرية وفيها يكون المعول على العين، والذاكرة السمعية وتستخدم الأذن ثم الذاكرة الشمية والذوقية والحركية وغيرها من الذاكرات، كما يقول علماء النفس إن بعض الناس ميال للاعتماد على بصره

أكثر من حواسه الأخرى، في حين أن البعض الآخر نزاع للاعتماد على سمعه وهكذا، ثم يقولون بأن العين هي العضو الأهم وأن فائدتها بالنسبة لمجموع الناس أكثر فائدة من الحواس الأخرى وأن نسبة استخدامها أكبر من نسبة استخدام غيرها من الحواس، هذا رغم إجماعهم على أن الغالبية العظمى من الناس تعتمد على مجموع حواسها أكثر من اعتمادها على حاسة بعينها والملحوظ أن بعض الطلاب يعلقون على الذاكرة السمعية أكثر من اللازم ويهملون الاستفادة من ذاكراتهم البصرية، ولذلك فإننا نراهم عاجزين عن حفظ ما يريدون حفظه إلا إذا رددوه بصوت عال و(سمعوه لأنفسهم) على حد تعبيرهم، ولعل الأنكى من ذلك أن أمثال هؤلاء الطلاب يعجزون عن الاستفادة مما حفظوا كما يعجزون عن تطبيقه إذا لم يرددوه بصوت مرتفع وأني وأن كنت لا أنكر قيمة الذاكرة السمعية ولا أقول بعدم الاستفادة منها، لأدعو إلى استخدام الذاكرة البصرية والاستفادة منها والاعتماد عليها وتعود القراءة الصامتة وترديد الأفكار أو الألفاظ في النفس؟ لا سيما وأن العلم قد برهن بما لا يقبل الجدل على أن القراءة الصامتة أدعى للفهم والحفظ والتذكير، وأكثر اقتصاداً في الجهد، المبذول والوقت المصروف. إذن اعتمد على عينيك وعلى ذاكرتك البصرية وليكن جل اعتمادك عليهما ولكن لا تتأخر عن الاستعانة بأذنك وذاكرتك السمعية حين يكون ذلك ضرورياً وحين تريد المبالغة في الحفظ والاطمئنان للتذكر.

١٦- استخدام بعض الحيل والطرق المساعدة للذاكرة. يصعب على الإنسان أحياناً حفظ بعض الأمور التي لا غنى له عن حفظها، كما يصعب عليه أحياناً أخرى حصر بعض الأمور التي يترتب عليه حفظها وحصرها وحينئذ يكون من المناسب أن يبحث عن حيلة أو طريقة تساعده على حفظ ما يريد حفظه وحصر ما يبقى حصره. وهذه الحيل كثيرة متنوعة تختلف من درس إلى درس ومن مادة إلى أخرى ومن شخص إلى شخص. وبعض هذه الحيل أوجدها لنا القدامى ويقدمها لنا المعلمون، ومن المفيد في بعض الأحيان على الأقل أن نلجأ إليها نستفيد منها، ومثال ذلك ما يقدمه لنا النحاة ومعلمو اللغة من أجروميات وكلمات تجمع القواعد الضرورية أو تحصر الحروف العديدة التي لا بد من حفظها. وهكذا يعلمنا أساتذتنا أن كل جمع مؤنث بتحفيظنا البيت التالي:

إن قومي تجمعوا وبقتلي تحدثوا

لا أبالي بجمعهم كل جمع مؤنث

كما يعلموننا حروف المضارعة

ويحضرونها لنــا في كلمة (أنيت) إلى آخر ما عندهم من طرق تساعد الطالب على الحفظ والتذكير. على أن الطالب لا يســتغني أحياناً عن استنباط مثل هذه الحيل لنفسه واللجوء إليها في حفظه وتذكــيره لبعض القواعد أو حصر بعض الأمور.

١٧- وهذا يوصلنا إلى قاعدة هامة جداً في الدرس والحفظ وهي وجوب عمل الطالب على استنباط الطرق والمناهج التي توافقه في درسه وحفظه أكثر من غيرها. الناس مختلف بعضــهم عن بعض في كل شــيء، في الجسد والنفســن. في العقــل والعاطفــة، في الذكاء والقدرات، في العادات وطــرق العيش، ومن المعقــول تبعاً لذلــك أن تختلف طرائقهم في الدرس والحفظ والتذكير، ثم إنه من المعقول أيضــاً أن تكون بعض القواعــد أو الطرائق المفيــدة لفلان من الناس مضرة لفلان الآخر أو أقــل فائدة له. ولذلــك كان لا بد للطالب من أن يكوّن لنفســه عاداته الفردية الخاصة في الدرس والحفظ والتذكير مســتعيناً فقط بالقواعد العامة. على أنه لابد للطالب الذكي من عدم الاقتصــار على الصدفة والاعتباط في تبني طرائقه الخاصة ومناهجه الفردية، بل لا بــد له من التعرف على ذاته ودراســة أحواله وملاحظة نفســه والتعــرف على ما يفيده ويضــره وما يقدم له فائــدة أكثر وما يعــود عليــه بنفع أعــم، وما يوفر لــه وقته وجهده، وكل ذلك قبل أن يتبنى هذه الطريقة دون غيرهــا أو يتخذ هذا المنهج دون ســواه. ومعنى هذا كله أن على الطالب قبل أن يتبنى طرائقه النهائية في الدرس والحفظ والتذكير أن ينظــر في نفســه وأن يجــرب وأن ينتقي عــن خبرة وقناعة. وقــد يحتج على هذا كله بأن الإنســان حين يتبنى طرائقه في الدراسة والحفظ وبالتالي بالاستدعاء والتذكير يكون حدثــاً لا يميز ولا يجرب، وأنه لا يكاد يتقدم به الســن ويصــبح قادراً على التمييز حتى تكون طرائقه قد أصــبحت عادات وتبلورت مما يجعل تغييرها أمراً شــاقاً عســيراً. وإنه لذلك يجــب أن يكون من عمل المعلم أن يعلم الطفل كيف يدرس ويحفــظ ويتذكر وأن يساعده على انتخاب طرائقه الخاصة وتبني مناهجه الفردية. وأنا مــع اعترافي بوجاهة هــذا الاعتراض أحب أن أؤكد لطلابنا أن في اســتطاعة الواحد منهم مهما تقدم به السن وحــين تتوفر فيــه الإرادة الحقــة والرغبة الأكيدة أقول إنّ في استطاعة الواحد منهم أن يعيد النظر في طرائقه وأن يميز بين الصالح والطالح وأن يحتفظ بالصــالح وينبذ الطالح وأن يعدل طرائقه من جديد.

١٨- لا تلجأ إلى التغيب إلا حين لا يكون من ذلك بد. أما المقصــود بالتغيب فالحفظ

عن ظهر قلب وكلمة كلمة، أو قل (الصم) أو (البصم) كما يسميه بعض طلابنا أن هذا النوع من الحفظ مضر جداً والنسيان أسرع إليه من غيره، أما الفهم والاحتفاظ بالأفكار الرئيسية فأمر أيسر ومدة بقائه أطول. وأنا أعلم علم اليقين أن بعض طلابنا لا يستطيعون أن يحفظوا إلا هذا النوع من الحفظ ولذلك فهم يجدون صعوبة بالغة في الحفظ إلا إذا غيبوا الأفكار عن ظهر قلب. أن السبب في ذلك هو أنهم اعتادوا هذا الأمر منذ صغرهم فأصبح عادة. والعادة كما يقال طبيعة ثانية، ولكني أحب أن أؤكد لهؤلاء أنه بالرغم من صعوبة تغيير هذه العادة فليس الأمر مستحيلاً، كما أحب أن أؤكد لهم أنه إذا كان في إمكانهم الاعتماد على هذا النوع من الحفظ في المدرسة الابتدائية فإن الاعتماد عليه صعب في المدرسة الثانوية.

ومستحيل في الجامعة. كما أحب أن أذكركم بأن الذي يحفظ المعلومات عن ظهر قلب لا يستطيع أن يتصرف بها ويستعملها ويستفيد منها تصرف الذي يفهمها واستعمله لها. وأخيراً أحب أن أؤكد لهم أن التجارب العلمية أجمعت على أن النسيان يتطرق إلى ما فهمت بمقدار أقل بكثير من تطرقه إلى ما حفظت دون فهم. وأن المعلومات التي تصبها في قوالبك الشخصية ويتمثلها عقلك تصبح ملكك الشخصي بخلاف المعلومات التي تحفظها بنصها والتي تشعر أنها أشبه ما تكون بالثوب المعار وقديماً قيل. الثوب المعار لا يدوم وإن دام فإنه لا يشعر بالدفء، على أني لا أحب أن يفهم الطالب أني أقول بعدم تغيب أي شيء، إن هذا أمر مستحيل طبعاً وغير مفيد حتماً، إن ثمة دساتير وقوانين وأقوالاً مأثورة وأشعاراً وآيات لا غنى لك عن حفظها عن ظهر قلب.

١٩- اترك أوقاتاً للراحة بين فترات الدرس. لنفرض أنك خصصت عشر ساعات لدراسة مادة من المواد فكيف تصرف هذه الساعات العشر؟ هل تصرفها في جلسة واحدة تدوم عشر ساعات؟ أم الأفيد أن تقضيها في جلستين مدة الواحدة منهما خمس ساعات تفصل بينهما فترة راحة؟ أم الأحسن أن تقسمها إلى أقسام ثلاثة متساوية تفصل بينهما فترتان للراحة؟ أم ماذا؟ الحق إنّ الجواب على هذا السؤال يقتضي ضبط شروط عديدة منها مثلاً نوع المادة المدروسة؛ ومنها سن الطالب الذي يدرس؛ ومنها عاداته في الدراسة؛ وغير ذلك من العوامل. ولكن المبدأ السليم في كل حال من الأحوال هو أن الأنسب أن تقسم الساعات العشر على عدد من الفترات، وأن طول هذه الفترات يجب أن يكون معتدلاً ووافياً بالغرض، فلا يكون

قصيراً بحيث لا يستطيع المتعلم أن يلم بجزء كامل من الموضوع، ولا يكون طويلاً بحيث يبعث الملل والسأم في نفس الطالب. وبالمناسبة أحب أن أذكر الطالب بحقيقة هامة جداً وهي أن التعب يختلط أحياناً بالملل فيخيل للطالب أنه تعب مع أنه ملان لا أكثر ولا أقل، ومعنى هذا يكفي أحياناً أن يغير الطالب الموضوع الذي يدرسه حتى يستعيد نشاطه وحيويته. ثم إن هذه الفواصل -فواصل راحة- تساعد على إنضاج ما تعلمنا وتعاون في استقراره في النفس ورسوخه في الذهن، أما إدخال المعلومات على المعلومات -لا سيما حين تكون من نوع واحد- فكثيراً ما ينتهي بالتشويش -تشويش ذهن المتعلم- ويعيق التعلم بدلاً من أن يساعد عليه.

٢٠- اجعل مراجعاتك في فترات متقطعة.

إن ما قلناه عن وجوب تخلل فترات الراحة أوقات الدرس صحيح فيما يخص فترات المراجعة. ومعنى هذا أنه من الأنسب للطالب أن يترك بين مراجعة وأخرى فترة من الزمن تستقر المعلومات خلالها في الذهن وتثبيت فيه. ومن الحقائق الثابتة إن المراجعة الأولى يجب أن تعقب الدرس بعد فترة قصيرة ثم تتباعد فترات المراجعة، ذلك أن التجارب العلمية برهنت بما لا يقبل الجدل على النسيان إنما أكثر ما يحصل بعد الحفظ بفترة قصيرة ثم تقل نسبته (أي نسبة النسيان) حتى تثبت، ولذلك كان من الأهمية بمكان عظيم أن تكون مراجعتك الأولى لما درست بعد فترة قصيرة من درسه لا تتجاوز اليوم الواحد ثم تعود إليه بعد فترات أطول. هذا ولا أنسى أن أشير إلى حقيقة أخرى برهن علم النفس على صحتها وهي أن مقدار النسيان يتناسب عكساً مع مقدار إتقان الحفظ، فالذي يحسن الحفظ ويبالغ فيه مبالغة معقولة ينسى في المعتاد أقل من الذي يكون حفظه ناقصاً وتثبيته سطحياً.

☆ ☆ ☆

٣٠

سيف الدولة الحمداني الأمير الشاعر الناقد

د. جهاد طاهر بكفلوني *

إذا ورد اسم الأمير سيف الدولة الحمداني إلى الذهن ارتسمتْ فيه تلك الصورة المشرقة المتألقة لذلك الفارس العربيّ الهمام الذي لم يعرف حسامه البتّار إلى الغمد سبيلاً، لأنّ الروم كانوا على حدود دولته متربّصين بها يكيدون لها كيداً، منتظرين تلك الساعة التي يعرف فيها جفن الأمير الحمدانيّ بعض الغمض لينقضّوا عليها مفرغين كلّ ما في قلوبهم من لؤم و حقد على هذه الدولة التي ظلّتْ شوكة فاتكة في حلوقهم.

---

* شاعر وناقد سوري.
العمل الفني: الفنان مطيع علي.

ولقد ظلّتْ رباطة جأش هذا الأمير البطل مثار إعجاب الشعر والشعراء في حياته وبعد رحيله عن الدنيا، وها هو بشارة الخوري الأخطل الصغير يقول في قصيدته التي استعاد بها ذكرى صنّاجة العرب أبي الطيّب المتنبّي:

ملاعبُ الصِّيدِ من حمدانَ ما نسلوا
إلاّ الأهلّة والأشبالَ والقُضُبا
الخالعينَ على الأوطانِ بهجتها
والرافعين على أرماحها القصبا
حسامُهم ما نبا في وجهِ مَنْ ضربوا
ومُهرهم ما كبا في إثرِ من هربا
ما جرّدَ الدهرُ سيفاً مثلَ ((سيفهمُ))
يُجري به الدمَ أو يُري به الذهبا
ربّ القوافي على الإطلاقِ شاعرُهم
الخلدُ والمجدُ في آفاقه اصطحبا
سيفان في قبضةِ الشهباء لا ثُلما
قد شرّفا العُربَ بل قد شرّفا الأدبا[1]

أمّا بدوي الجبل فيقول في حفلة ذكرى البطل إبراهيم هنانو عام ١٩٤٥:

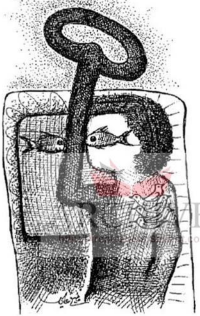
نماكَ وسيفَ الدولةِ الدارُ والهوى
وغنّاكما أندى ملاحمِهِ الشِّعرُ
وأقسمُ بالبيتِ المحرّمِ ما احتمتْ
بأمنعَ من كفّيكما البيضُ والسُّمرُ
فإن تفخرِ الشهباءُ فالكونُ منصتٌ
وحقّ بسيفيّ دولتيها لها الفخرُ[2]

هذا الوجه البطولي لهذا الفارس اليعربيّ الذي انبلجتْ أشعّة شمسه فغمرتْ صفحات التاريخ مجداً وشمماً لم يحلْ دون شروق شمس الأدب في ذهنه الرحب الخصيب، فقد أوتيَ سيف الدولة قريحة مخصاباً مكّنته من تمييز غثّ الشعر من سمينه، فكان إذا استمع على ما جادتْ به قرائح الشعراء الذين ازدحموا على بابه استحسن هذا البيت مشيداً بما فيه من رونق وجمال، وأماط اللثام عن ذاك البيت مبيّناً ما فيه من مواطن الضعف والخلل، يرفده في ذلك ذهن حاضر، وعقل وثّاب يخزن كمّاً هائلاً من منظوم ومنثور الأدب العربيّ الغنيّ غنى لا حدود له، ولم يقف الأمير الحمدانيّ عند هذا الحدّ من نقد الشعر بل تجاوزه إلى صياغة قصائد ومقطوعات بديعة ما تزال حتّى يومنا هذا شاهداً على تعدّد مواهبه، و إلى ذلك أشار أبو منصور الثعالبي قائلاً:

(كان بنو حمدان ملوكاً وأمراء أوجههم للصباحة، ألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وعقولهم للرجاحة، وسيف الدولة

مشهور بسيادتهم، وواسطة قلادتهم وكان- رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مأواه- غرّة الزمان وعماد الإسلام، ومن به سداد الثغور وسداد الأمور، وكانت وقائعه في عصاة العرب تكفّ بأسها وتنزع لباسها وتفلّ أنيابها، وتذلّ صعابها، وتكفي الرعيّة سوء آدابها.

وغزواته تدرك من طاغية الروم الثار، وتحسم شرّهم المثار، وتحسن في الإسلام الآثار.



وحضرته مقصد الوفود، ومطلع الجود، وقبلة الآمال، ومحطّ الرحال، وموسم الأدباء، وحلبة الشعراء، ويُقال: إنّه لم يجتمع قطّ بباب أحد من الملوك- بعد الخلفاء- ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر، ونجوم الدهر، وإنّما السلطان سوق يُجلب إليها، ما ينفق لديها[٢]).

المولد والنشأة (٣٠٣-٣٥٦ هـ/ ٩١٦-٩٦٧م):

(هو أبو الحسن، علي بن عبد الله بن حمدان بن حمدون التغلبي، المعروف بسيف

الدولة الحمداني. أمير حلب المعروف، ورأس بني حمدان وأشهر ملوك عصره.

ولد في ديار بكر، في بلدة اسمها (ميّافارقين)، وكان أبوه (أبو الهيجاء) عبد الله أميراً على الموصل وتوابعها.

نبغ عليّ بن عبد الله وأخوه الأكبر في خدمة الخليفة العبّاسي المتّقي لله ، فلقّب المتقي علياً بلقب (سيف الدولة)، وولاّه إمارة واسط في العراق.

كان سيف الدولة صاحب طموح وهمّة عالية، وقد رأى ضعف الإخشيديين في بلاد الشام فسار بجيشه إلى حلب وانتزعها منهم سنة (٣٣٣هـ/ ٩٣٤م)، وجعلها عاصمة لملكه الذي امتدّ أحياناً ليصل إلى حدود دمشق.

استطاع سيف الدولة أن يجعل حلب واحدة من أرقى حواضر العالم في عصره.

توفّي سيف الدولة في حلب، وحُمل إلى مسقط رأسه (ميّافارقين) فدُفن فيها(١).

الشخصيّة القياديّة:

حمل هذا الفارس العربيّ الخصال والسجايا التي جعلته مؤهّلاً للعب دور هامّ في التاريخ العربيّ، فقد ظهر في عصر كانتْ فيه الأمّة العربيّة مثقلة بجراحها، جراح انقسام الكلمة وما جرّه هذا الانقسام من صراع على السلطة، وامتدّتْ شهوات الحكّام العرب في ذلك العصر سكاكين تمعن في جسد الأمّة المنهك ناسية أو متناسية أنّ على الباب عدوّاً يعدّ العدّة للإغارة عليها مستفيداً من حالة الضعف التي كادتْ تلقيها هشيماً في مهبّ الريح.

ولقد أدرك ببعد نظره أنّ بناء الجيش القويّ ونشر الأمن في ربوع البلاد وتأسيس اقتصاد متين، كلّ هذا يعتبر حجر الأساس في وضع خطّة تؤتي أُكُلها في إيقاف العدوّ المتربّص بالوطن عند حدّه، والانتقال بعد ذلك إلى إبعاده عن الحصون والثغور وإراحة الوطن من شرّه المستطير.

وهذا ما أقدم عليه فعلاً لا اكتفاءً بوضع الخطط، فنجح في تمتين الجبهة الداخليّة، وأراح نفسه ودولته من شرّ بعض القبائل التي باعتْ نفسها للشيطان وحاولت تمزيق الوحدة الداخليّة في إمارته متحالفة مع الروم، الذين تفرّغ لمناجزتهم وخضد شوكتهم بعد أن أذاقهم مرارة الهزيمة في معارك مشرّفة ستظلّ محتفظة بماء رونقها في الوجدان العربيّ، واستطاع بالإشراف المباشر بناء

جيش قويّ صان كرامة الأمّة العربيّة وحفظ ماء وجهها وحدودها في فترة حالكة عصيبة عرفت فيها الأمّة من الأزمات ما لو عصف بغيرها من الأمم لجعلها أثراً بعد عين.

مثل هذه الخصال كانتْ لا تتوافر إلاّ في أمثاله من القادة المؤمنين بقدسيّة تراب الوطن، والاستعداد للتضحية بغير حساب صوناً لعزته وكرامته.

فما هي هذه الشخصيّة التي حملتْ تلك السجايا، ومكّنتْ صاحبها من تحقيق تلك المنجزات الشامخة؟!

يطلّ علم النفس على العالم الداخليّ للشخصيّة فيقول عنها ما يلي:

(يمكننا تعريف الشخصيّة أنّه ((الفرديّة الواعية))، ولكن لهذا المصطلح كما في علم النفس على الغالب، معانٍ عديدة، وقائمتها تتجاوز أبعاد هذا المقال.

وبوسعنا مع ذلك أن نأخذ المسائل التي تتفق فيها آراء الغالبيّة من علماء النفس بالحسبان. فكلمة شخصيّة أوّلاً

ترجع إلى المظاهر غير المعرفيّة من الشخص، أي إلى الانفعالات والإرادة، لا إلى الذكاء والاستعدادات، وليستْ ثانياً ذات صلة بالاستعدادات المتغيّرة نسبيّاً أو الضعيفة الأهميّة، وهي ثالثاً خاصة بالسلوكات، أي بما يجعل الشخص يتصرف على هذا النحو أو ذاك.

فمفهوم الشخصيّة يشمل ((الاستعدادات الدائمة نسبياً، التي تميّز تصرّف فرد من الأفراد خلال مرحلة طويلة.

لسمات الشخصيّة ونماذجها شأنها شأن القابليّات العقليّة، أصل وراثيّ جزئيّاً فالعوامل الوراثيّة، مع أنّ تأثير الوسط لا يكون عدماً، تؤدّي دوراً كبيراً جداً في درجة الانبساطيّة- الانطوائيّة والاستقرار أو عدم الاستقرار الانفعالي لدى فرد من الأفراد.

الشخصية هي العنصر الثابت في سلوك شخص، وذلك ما يميّزه ويفرّقه عن الأشخاص الآخرين.

فكلّ إنسان هو في وقت واحد شبيه بالأفراد الآخرين من جماعته الاجتماعية الثقافية ومختلف عنهم بالسمة الوحيدة لتجاربه المعيشة.

فليست الشخصية اجتماعية على وجه الحصر ولا بيولوجية فقط: إنّها مجموع متبنين من الاستعدادات الفطريّة والاستعدادات

المكتسبة بتأثير التربية، وعلاقات الفرد المشتركة المعقدة في وسطه، وتجاربه الحالية والماضية واستباقاته ومشروعاته[5]).

هذه الخصال في شخصيّة سيف الدولة هي التي كانت البذرة الصالحة لتكوّن شخصيّة قياديّة قُدّر لها أن تلعب دوراً هامّاً في التاريخ العربيّ.

الشعراء يتغلغلون إلى أعماق شخصيّة سيف الدولة:

إذا كانت الدراسات الحديثة قد حاولت التسلّل إلى أعماق النفس البشريّة مسلّطة الضوء على الزوايا السحيقة البعيدة الغور فيها، وحقّقت قدراً من النجاح يُعتدّ به، فإنّ الشعراء الذين أحاطوا بسيف الدولة إحاطة السوار بالمعصم لسوا ما فُطرت عليه نفسه من مناقب كريمة، ونجحوا إلى حدّ بعيد في التغلغل إلى أعماق تلك النفس، ولا بأس من إسقاط ما جادت به قرائحهم على معطيات علم النفس الحديث لنتبيّن مدى النجاح الذي أصابوه، مقارنة مع ما لغة علم النفس المعاصر.

الفرديّة الواعية:

ركّز الشعراء الذين وقفوا في رحاب سيف الدولة مشيدين بخصاله ومزاياه، مترنّحين بالانتصارات الكبيرة التي حقّقها في مقارعة الروم، على هذه الخصوصيّة في شخصيّته، فسيف الدولة في نظرهم يختلف عن الآخرين حسن تدبير وبعد نظر، ودقّة متناهية في قراءة الأحداث وتحليلها وتركيبها للخروج بموقف صائب، فهو المزارع الذي يحسن استغلال الأرض، ويختار البذور الملائمة لتكون الغراس قادرة على مقاومة الظروف الصعبة، ويشرف بنفسه على رعاية هذه الغراس ليجني المحصول مطمئناً إلى حصاده الرائع.

يقول المتنبّي في قصيدة الحدث الحمراء مركزاً على تميّز سيف الدولة وفرديّته:

تُفيتُ الليالي كلَّ شيءٍ أخذتَهُ
وهنّ لما يأخذنَ منكَ غوارمُ
إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً
مضى قبل أن تُلقى عليه الجوازمُ
تجاوزتَ مقدارَ الشجاعة والنُّهى
إلى قول قوم أنت بالغيب عالمُ
ولستَ مليكاً هازماً لنظيره
ولكنّك التوحيدُ للشركِ هازمُ
تشرّفُ عدنانٌ به لا ربيعةٌ
وتفتخرُ الدنيا به لا العواصمُ

ألا أيُّها السَّيفُ الذي ليس مغمداً
ولا فيه مرتابٌ ولا منه عاصمُ
هنيئاً لضربِ الهامِ والمجدِ والعُلا
وراجيكَ والإسلامِ أنَّكَ سالمُ(٦)

الإرادة والذكاء:

سيف الدولة كما رسم الشعراء صورته المشرقة بطل قويّ الشكيمة، متين الإرادة، إذا وضع نصب عينيه هدفاً ما سار لبلوغه غير مكترث بحجم الصعاب التي قد تقف حائلاً يحول بينه وبين الوصول إلى الهدف.

وهو متوقّد الذكاء يعرف كيف يضع الخطّة اللازمة للوصول إلى مبتغاه، وإلى ذلك يشير الوأواء الدمشقي بقوله مادحاً سيف الدولة:

يكاد يريك الشيءَ قبلَ عيانِه
ويقضي لك الحاجاتِ قبلَ المطالبِ
إذا ما انبرى في هفوةِ الفكرِ رأيُهُ
رأى بعيانِ الرأيِ ما في العواقبِ
تعوّذهُ أعداؤه من ذكائه
إذا ما اكتفى بالرأيِ دونَ التجاربِ
رَكوبٌ لأعناقِ الأمورِ إذا سطا
عفا باقتدارٍ حين يسطو بواجبِ(٧)

تأثير البيئة:

كانت البيئة التي نشأ فيها هذا الأمير العربيّ بيئة حرب مستمرّة لا تعرف إلى السكينة سبيلاً، ففي الداخل حكّام يتصارعون لنهش جسد الخلافة الممزّق، وعلى الحدود عدوّ ينتظر الفرصة المناسبة للانقضاض على فريسته ينشب فيها مخالبه وأظفاره.

وكان من الأمور البديهيّة أن يُربّى هذا الأمير تربية أبناء الأمراء فيُعدّ أفضل إعداد، ليشبّ عن الطوق فارساً قويّ البنية، شجاع القلب يحظى بمكانة كبيرة بين أبناء المجتمع الذي يعيش بين ظهرانيه.

وكانت الفروسيّة والتدرّب على فنون القتال المختلفة برنامجاً يوميّاً يخضع له سيف الدولة، فنما مشبعاً بشعور عارم بالفخر فهو سليل تلك الأسرة النبيلة التي سيكون لها أي شأن في حماية الثغور العربيّة وحمل راية الدفاع عن العروبة والإسلام.

وبنو حمدان الذين انحدر سيف الدولة من أصلابهم هم سادة الكرم والبطولة والنخوة، وفيهم يقول أبو فراس الحمداني وهو أحد أمرائهم وشعرائهم المعدودين:

لئن خُلِقَ الأنامُ لحسوِ كأسٍ
ومزمارٍ وطنبورٍ وعودِ
فلم يُخلَقْ بنو حمدانَ إلاّ
لمجدٍ أو لبأسٍ أو لجُودِ(٨)

تأثير البيئة كان مثار اهتمام الشعراء لدى تناولهم شخصيّة سيف الدولة، ويبدا أنّ هذه النقطة هي الأكثر إلحاحاً من قبلهم، فإذا قرأنا مديحهم وجدنا التركيز على صفات البطولة والشجاعة والاستعداد الدائم لملاقاة العدوّ أشدّ من التركيز على الصفات الأخرى كالكرم ورحابة الصدر بسط اليد للقاصدين.

وتكاد تكون مدائح المتنبّي في سيف الدولة منصبّة انصباباً تامّاً على الإشادة بالصفات التي اكتسبها من البيئة التي ترعرع فيها، فممدوح المتنبّي هو ذلك الفارس البطل الذي يلتذ بسماع حمحمة الخيول وقعقعة الرماح وصليل السيوف أكثر من التذاذه بسماع أصوات القيان وشدو الطيور، وكلمات الحرب والعثير والنصر ذات موسيقى محببة إلى نفس سيف الدولة.

وها هو أبو الطيّب يخاطبه قائلاً:

قد نابَ عنكَ شديدُ الخوفِ واصطنعتْ
لكَ المهابةُ ما لا تصنعُ البُهَمُ
ألزمتَ نفسكَ شيئاً ليس يلزَمُها
ألاّ يواريَهم أرضٌ ولا علَمُ
أكلّما رمتَ جيشاً فانثنى هرباً
تصرّفتْ بكَ في آثاره الهِمَمُ
عليكَ هزمهمُ في كلِّ معتركٍ
وما عليكَ بهم عارٌ إذا انهزموا
أما ترى ظفَراً حلواً سوى ظفرٍ
تصافحتْ فيه بيضُ الهندِ واللِّمَمُ[٩]

وفي قصيدة أخرى يتوجّه إليه بالخطاب قائلاً:

ليس إلاّكَ يا عليّ همامٌ
سيفُهُ دون عِرْضِهِ مسلولُ
كيف لا تأمنُ العراقُ ومصرٌ
وسراياكَ دونها والخيولُ
أنتَ طولَ الحياةِ للرومِ غازٍ
فمتى الوعدُ أن يكونَ القفولُ
وسوى الرومِ خلفَ ظهركَ رُومٌ
فعلى أيِّ جانبيكَ تميلُ
ما الذي عنده تُدارُ المنايا
كالذي عنده تدارُ الشَّمولُ[١٠]

أمّا أبو فراس الحمداني فيقول في الأمير سيف الدولة:

لقد ظلنتُكَ بين الجحفلين ترى
أنّ السلامةَ من وقعِ القنا تصِمُ
نشدتُكَ اللهَ لا تسمحْ بنفسِ عُلاً
حياةُ صاحبِها تحيا بها الأممُ
هي الشجاعةُ إلاّ أنّها سرَفٌ
وكلّ فضلكَ لا قصدٌ ولا أممُ

إذا لقيتَ رقاقَ البيضِ منفرداً
تحت العجاجةِ لم تُستكثر الخَدَمُ
تفدي بنفسك أقواماً صنعتهمُ
وكان حقّهمُ أن يفتدوك همُ(١١)

الثبات:

سيف الدولة رجل المبادئ والمواقف، الملتزم بالكلمة التي يقولها، ينجز الوعد الذي يقطعه على نفسه، وقد لمس الشعراء هذه السجية سجيّة الثبات في شخصيّته، وكانت موضوعاً كثيراً ما تناولوه في قصائدهم.

يقول السريّ الرفّاء في وقعة سيف الدولة مع الدمستق وبناء حصن الحدث:

لم تحمدِ الرومُ إذ رامتكَ وثبتها
والليثُ لا يحمدُ العقبى مواثبُهُ
رأتك كالدهرِ لا تكبو حوادثُهُ
إذا جرينَ ولا تنبو نوائبُهُ
وجرّبتْ منك يا ابن عبد الله فتىً
قد أمّنته الذي تُخشى تجاربُهُ
أصاخَ مستمعاً للثغرِ تنجدهُ
رماحُهُ حين يدعو أو رغائبُهُ
له من البيضِ خِلٌّ لا يباعدُهُ
ومن قنا الخطّ خِدنٌ لا يجانبُهُ(١٢)

ويقول أبو فراس الحمداني:

وأنتَ أشدّ هذا الناسِ بأساً
وأصبرُهم على نُوَبِ القتالِ
وأهجمُهم على جيشٍ كثيفٍ
وأغورهم على حيٍّ حِلالِ
ضربتَ فلم تدعْ للسيفِ حدّاً
وجلتَ بحيثُ ضاقَ عن المجالِ(١٣)

ويقول المتنبي:

أسيفَ الدولةِ استنجدْ بصبرٍ
وكيفَ بمثلِ صبرِكَ للجبالِ
وأنتَ تعلّمُ الناسَ التعزّي
وخوضَ الموتِ في الحربِ السّجالِ
وحالاتُ الزمانِ عليكَ شتّى
وحالُكَ واحدٌ في كلِّ حالِ
رأيتُكَ في الذين أرى ملوكاً
كأنّكَ مستقيمٌ في مُحالِ(١٤)

الأمير الشاعر:

جاش صدر هذا الأمير العربيّ بمقطوعات شعريّة تدلّ على امتلاكه ناصية اللغة العربيّة الخصبة، والخيال المترف الذي يحسن رياضة الغوص في بحور الشعر ليشتار منها اللآلىء الكريمة.

اسمعه في صباه يقول:

أقبّلُه على جزَعٍ
كشربِ الطائرِ الفزِعِ

رأى مـاءً فـأطـعـمـهُ
وخـافَ عـواقـبَ الطمعِ
وصادفَ فرصةً فدنا
ولم يلتذَّ بالجرعِ(١٥)

هذه الأبيات ربّما مرّتْ في ذهن الشاعر الشريف الرضيّ فجادتْ قريحته الغنيّة بأبيات تنتمي إلى الحديقة المبدعة نفسها أو تحمل أريج ورود مشابه لأريج الورود الحمدانية:

وربّ يوم أخذنا فيه لذتنا
من الزمانِ بلا خوفٍ ولا وجَلِ
بتنا ضجيعين في ثوبِ الظلام كما
لفّ الغصنين مرّ الريح بالأصلِ
طوراً عناقاً كأنّ القلبَ من كثبٍ
يشكو إلى القلبِ ما فيه من الغللِ
وتارةً رشفاتٌ لا انقضاءَ لها
شربَ النزيف طوى علاً على نَهَلِ
وكم سرقنا على الأيّام من قُبَلٍ
خوفَ الرقيبِ كشُربِ الطائرِ الوجِلِ(١٦)

ولسيف الدولة مقطوعة غزليّة ترقى بجدّة معانيها وسموّ خيالها إلى مرتبة أكابر الشعراء، يقول في تلك المقطوعة مبدياً خوفه وإشفاقه على إحدى جواريه التي كان يخشى هبوب النسيم على وجنتيها الوردتين:

راقبتني العيونُ فيكِ فأشفقتُ ولم أخلُ قطُّ من إشفاقِ
ورأيتُ العذولَ يحسدني فيكِ
مجداً يا أنفسَ الأعلاقِ
فتمنّيتُ أن تكوني بعيداً
والذي بيننا من الودِّ باقِ
ربّ هجرٍ يكونُ من خوفِ هجرٍ
وفراقٍ يكونُ خوفَ فراقِ(١٧)

وله متغزّلاً:

تجنّى عليّ الذنبَ والذنبُ ذنبُهُ
وعاتبني ظلماً وفي شقّه العتبُ
وأعرضَ لمّا صارَ قلبي بكفّه
فهلّا جفاني حين كان لي قلبُ
إذا برمَ المولى بخدمةِ عبدِهِ
تجنّى له ذنباً وإن لم يكنْ ذنبُ(١٨)

وللشريف الرضيّ مقطوعة غزليّة رائقة المبنى والمعنى تشمّ في شذاها نفحة تذكّر بأبيات سيف الدولة، يقول الرضي فيها:

جنى وتجنّى والفؤادُ يطيعُهُ
فيأمنُ أن يُجنى عليه كما يجني
إلى كم تُسيءُ الظنّ بي متجرّماً
وأنسبُ سوءَ الظنّ منك إلى الضنّ
و والله لا أحببتُ غيرك واحداً
أليّةَ برٍّ لا تُخافُ فتستثني

فإن لم تكنْ عندي كسمعي وناظري
فلا نظرتْ عيني ولا سمعتْ أذني[19]

الأمير الناقد:

كان سيف الدولة شديد الاهتزاز للشعر البديع، تمرّ به أبيات القصيدة التي تُنشَد بين يديه فيحيلها لا شعورياً إلى مختبر دماغه الشعري، ذلك المختبر الذي يملك قدرة ممتازة على فرز الأبيات فيميز الخبيث من الطيّب، وربّما تدخّل في مسار القصيدة مصحّحاً مصوّباً كما تحدّثنا كتب الأدب التي استفاضت بذكر مواقفه مع الشعراء وقصائدهم.

وقد سرد الثعالبي في كتابه هذه الواقعة: (واستنشد سيف الدولة يوماً أبا الطيّب المتنبّي قصيدته التي أوّلها:

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ
وتأتي على قدرِ الكرامِ المكارمُ

وكان معجباً بها كثير الاستعادة لها، فاندفع أبو الطيب المتنبي ينشدها، فلمّا بلغ قوله فيه:

وقفتَ وما في الموتِ شكٌ لواقفٍ
كأنّك في جفنِ الردى وهو نائمُ
تمرُّ بك الأبطالُ كلمى هزيمة
ووجهُك وضّاحٌ وثغرُك باسمُ

قال: قد انتقدنا عليك هذين البيتين، كما انتقد على امرئ القيس بيتاه:

كأنّيَ لم أركبْ جواداً للذة
ولم أتبطّنْ كاعباً ذاتَ خلخالِ
ولم أسبأ الزقَّ الرويَّ ولم أقلْ
لخيليَ كرّي كرّةً بعد إجفالِ

وبيتاك لا يلتئم شطراهما، كما ليس يلتئم شطرا هذين البيتين، وكان ينبغي لامرئ القيس أن يقول:

كأنّيَ لم أركبْ جواداً ولم أقلْ
لخيليَ كرّي كرّةً بعد إجفالِ
ولم أسبأ الزقَّ الرويَّ للذة
ولم أتبطّنْ كاعباً ذاتَ خلخالِ

ولك أن تقول:

وقفتَ وما في الموتِ شكٌ لواقفٍ
ووجهُك وضّاحٌ وثغرُك باسمُ
تمرّ بك الأبطالُ كلمى هزيمة
كأنّك في جفنِ الردى وهو نائمُ

فقال: أيّد الله مولانا! إن صحّ أن الذي استدرك على امرئ القيس هذا كان أعلم بالشعر منه، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا، ومولانا يعلم أنّ الثوب لا يعرفه البزّاز معرفة الحائك، لأنّ البزّاز يعرف جملته، والحائك يعرف جملته وتفاريقه، لأنّه هو

الذي أخرجه من الغزلية إلى الثوبية، وإنّما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد؛ وقرن السماحة في شراء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء، وأنا لمّا ذكرت الموت في أوّل البيت أتبعته بذكر الردى- وهو الموت- ليجانسه، ولمّا كان وجه الجريح المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً، وعينه من أن تكون باكية، قلت × ووجهك وضّاح وثغرك باسم× لأجمع بين الأضداد في المعنى، وإن لم يتسع اللفظ لجميعها.

فأعجب سيف الدولة بقوله، ووصله بخمسين ديناراً من دنانير الصلات، وفيها خمسمئة دينار)[٢٠].

وليست هذه الرواية فريدة في مكان وزمان حدوثها، فقد تكرّرت المشاهد التي يقف فيها سيف الدولة ناقداً خبيراً بالشعر، وهناك واقعة أخرى تثبت الحقيقة القائلة إنّه كان ناقداً ممتازاً، وقد أوردها الثعالبي في (يتيمة الدهر):

(وكان أبو بكر وأبو عثمان الخالديان من خواص شعراء سيف الدولة، فبعث إليهما مرة وصيفة ووصيفاً، ومع كلّ واحد منهما بدرة وتخت من ثياب مصر، فقال أحدهما من قصيدة طويلة:

لم يغدُ شكرُك في الخلائق مطلقاً
إلاّ ومالك في النوالِ حبيسُ
خوّلتنا شمساً وبدراً أشرقتْ
بهما لدينا الظلمة الحنديسُ
رشأ أتانا وهو حسناً يوسفُ
وغزالة هي بهجة بلقيسُ
هذا ولم تقنعْ بذاك وهذه
حتّى بعثتَ المالَ وهو نفيسُ
أتت الوصيفة وهي تحملُ بدرةً
وأتى على ظهرِ الوصيفِ الكيسُ
وبررتنا ممّا أجادتْ حوكَهُ
مصرُ وزادتْ حسنَهُ تنّيسُ
فغدا لنا من جودكَ المشروبُ والمنكوحُ والملبوسُ

فقال له سيف الدولة: أحسنت إلاّ في لفظه ((المنكوح))، فليست ممّا يُخاطب بها الملوك، وهذا من عجيب نقده)[٢١].

لذلك كان لزاماً على كلّ من أنشد الأمير شعراً أن يعرض أنفس ما لديه من بضاعة لأنّه في حضرة ناقد خبير عالم باللغة ومواطن جمالها، ذي ذهن وقّاد متيقّظ.

وهذه الحقيقة أدركها الشاعر الصنوبري، فاختار رويّاً صعباً هو الصاد وأنشد سيف الدولة قصيدة عصماء يقول فيها:

هذي المكارمُ لم تزلْ قنصاً لكم
ما إنْ لهنَّ سواكمُ قنّاصُ
أخلصتَ ودّك للرسولِ وآله
فلينفعنّك ذلك الإخلاصُ
متقدّماً في الودّ ليس بحائص
إنّ المؤخَّرَ حظّهُ الحيّاصُ
ودلفتَ للعلماء فاستنقصتهم
علماً وليس بعلمك استنقاصُ
بحثاً وفحصاً ما يزال يضلّ من
سَننيهما البحّاثُ والفحّاصُ
فمتى تغصْ في العلم تأتِ بدُرّةٍ
لم يأتِ قطُّ بمثلها غوّاصُ
لا أنني وحدي أقصّ بمدحه
كلّ الأنام بمدحه قصّاصُ (٢٢)

ملهم الشعراء:

لقد كان عصر سيف الدولة عصر ازدهار الشعر العربيّ، وعروجه على سماء باذخة حلّق في أجوازها البعيدة كوكبة من الشعراء الكبار الذين أثروا الأدب العربيّ بنتاجهم النفيس، واستطاعوا أن يحفروا أسماءهم في سفر الخلود بمداد العبقريّة الخالصة التي انفلتتْ من القيود ووجدت الميدان أمام انطلاقها رحباً فسيحاً فأخذتْ تعدو فيه ولم نشعر يوماً أنّ اللهاث نال منها، لأنّ خيول إبداعها كانت مطهّمة عراباً جرتْ وما مسّها من لغوب.

والحقّ يُقال إنّ هذا الأمير العربيّ النبيل هو الذي هيّأ المضمار الفسيح الحرّ لخيول هؤلاء المبدعين الكبار، أنزلهم المنزلة اللائقة بهم، فسموا به كما سما بهم، قدّر عطاءهم الرائع فأخلصوا في مادة الإبداع التي قدّموها بين يديه ماءً عذباً فراتاً، وخمرة لذّةً للشاربين.

كان سيف الدولة ملهم الشعراء، وعلى بساط إلهامه حملوا قيثارة الشعر الصافية وأجادوا العزف عليها وتركوا لنا أنغاماً خالدة على مرّ الزمان.

وسيذكر التاريخ وأنّى له أن ينسى أسماء أولئك الشعراء والأدباء والفلاسفة الكبار الذين كان مجلس سيف الدولة يغصّ بهم كما تغصّ السماء بالنجوم الزاهرة.

وحسبه أنّ مجلسه شهد اجتماع عدد من كبار شعراء وأدباء العربيّة، كالمتنبي، أبي فراس، السريّ الرفّاء، أبي العبّاس النامي،الصنوبري، ابن خالويه وغيرهم.

هذا هو الأمير سيف الدولة الشاعر الناقد الذي سيبقى عصره صفحة وضّاءة في تاريخنا العربيّ الزاخر بالصفحات المشرقة المنيرة.

المصادر والمراجع

١- شعر الأخطل الصغير- دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع بيروت- الصفحة ١٢١.

٢- ديوان بدوي الجبل- دار العودة بيروت- الصفحة ٢٦٦.

٣- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر- تأليف أبي منصور الثعالبي النيسابوري- شرح وتحقيق الدكتور مفيد محمد قميحة- دار الكتب العلمية بيروت- الصفحة ٣٧.

٤- الموسوعة الإسلامية الميسرة- المشرف العام الدكتور محمود عكّام - الناشر دار صحارى للطباعة والنشر والتوزيع- دمشق- حلب- الصفحة ١٣٧٨ والصفحة ١٣٧٩.

٥- المعجم الموسوعي في علم النفس- ترجمة وجيه أسعد- الجزء الثالث- منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية الصفحات ١٤٠٦، ١٤٠٧، ١٤٠٨، ١٤٠٩.

٦- ديوان المتنبّي- المكتبة الثقافية - بيروت- الصفحات ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٩.

٧- ديوان الوأواء الدمشقي، عني بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه الدكتور سامي الدهان- دار صادر بيروت- الصفحة ٢٢.

٨- ديوان أبي فراس- دار صادر بيروت- الصفحة ٩٧.

٩- ديوان المتنبّي- الصفحة ٣٣١ والصفحة ٣٣٢.

١٠- ديوان المتنبّي الصفحة ٤٣١ والصفحة ٤٣٢.

١١- ديوان أبي فراس- الصفحة ٢٦٠.

١٢- ديوان السري الرفّاء- دار صادر بيروت- الصفحة ٣٢.

١٣- ديوان أبي فراس- الصفحة ٢١٠.

١٤- ديوان المتنبّي- الصفحة ٢٦٨.

١٥- يتيمة الدهر- الجزء الأوّل- الصفحة ٥٤.

١٦- ديوان الشريف الرضي- صحّحه وقدّم له الدكتور إحسان عبّاس- دار صادر بيروت- الجزء الثاني- الصفحة ٢٢٢.

١٧- يتيمة الدهر- الجزء الأوّل- الصفحة ٥٤ والصفحة ٥٥.

١٨- يتيمة الدهر- الجزء الأوّل- الصفحة ٥٥.

١٩- ديوان الشريف الرضي- الجزء الثاني الصفحة ٥٠٦ والصفحة ٥٠٧.

٢٠- يتيمة الدهر- الجزء الأوّل- الصفحة ٤٣ والصفحة ٤٤.

٢١- يتيمة الدهر- الجزء الأوّل- الصفحة ٤٤ والصفحة ٤٥.

٢٢- ديوان الصنوبري أحمد محمّد بن الحسن الضبي - تحقيق الدكتور إحسان عبّاس- دار صادر بيروت- الصفحة ٢٠٧ والصفحة ٢٠٨.

☆ ☆ ☆

بحث في المفهوم الفلسفي لكلمة (مه) السومرية

فايز مقدسي *

من الصعوبة بمكان فهم معاني و دلالات كلمة (مه *ME*) السومرية موضوع هذا البحث. وهي واحدة من أشد مفردات اللغة السومرية القديمة تعقيداً وغموضاً. دون أن نلقي الضوء على مفاهيم أخرى أساسية في التصورات الفكرية السومرية- الأكادية الساحقة في القدم كمفهوم الزمن و مفهوم التكوين أو نشوء الكون و خلق العالم و الإنسان. إضافة إلى مفهوم التماثل أو التطابق بين الأرض و السماء. ثم حكاية الطوفان الشهير، دون أن ننسى مدلولات بعض المفردات السومرية ــ الأكادية الأساسية. وذلك لأن كل تلك المفاهيم ترتبط ارتباطاً أساسياً بمفهوم كلمة (مه) و تساهم في كشف غوامض هذه الكلمة. و سوف نبدأ بحثنا هذا بمفهوم الزمن.

---

* شاعر وباحث سوري مقيم في باريس.

العمل الفني: الفنان رشيد شمة.

مفهوم الزمن

هناك كلمتان أساسيتان في السومرية الأكادية هما كلمة /بالا bala و كلمة فالو paLu/ لفهم و إدراك مفهوم الزمن والأبدية.

الكلمة الأولى السومرية /بالا/ من الجذر /بال/ تدل على التبدل الذي يحصل و على ما انطوت صفحته و على كل تغيير يتم دونما تحضير مسبق. إنها تحدد الزمن الذي يستغرقه حدث ما من الأحداث قبل أن ينقضي و يتحول إلى ذكرى ماضية. الكلمة الثانية هي نفس الكلمة الأولى و إنما في صيغتها الأكادية /فالو/ وهي بدورها تدل على عهد من العهود، أو الفترة التي يستغرقها حكم ملك من الملوك، أو عهد سلالة مالكة يبدأ وينتهي. وبشكل عام تدل الكلمة على فصل من الزمن أو مرحلة من التاريخ.

في الكلمة الأولى، ومن خلال الدلالات، نلمح ظلال كلمة /بلى/ بكل تفرعاتها من الشيء البالي إلى تعبير /أدركه البلاء، وصار شيئاً بالياً. أي على فترة من الزمن عاشها شيء أو شخص ثم انتهى أو أدركه التلف. و هو نفس معنى الكلمة السومرية. ومن الطريف الإشارة إلى كلمة كانت تُستخدم في سنوات خلت في سورية هي /البالة/ كاسم للألبسة المستعملة القديمة.

في الكلمة الثانية /فالو/ أو /فال/ نعثر على ملامح فعل /فلّ، يفلُ /بمعنى/ هرب، يهرب/ كما في قولنا. فلول العدو. إنها بدورها تدل على ما كان لفترة ثم انقضى.

والكلمة في صيغتها السومرية و الأكادية توضح المفهوم الرافدي القديم للزمن. إنها تدل على حقبات متتالية و متعاقبة ومنذ البدء عبر نظام مكتمل تشرف عليه القوى العظمى /الآلهة/ ولا يحيط به العقل البشري لأنه يصعب عليه إدراك مراميه أو بواعثه. كما أن الإنسان لا يستطيع أن يتدخل ليمنع حدوثه أو أن يخل بهذا النظام. المخطط الإلهي يقرر الأحداث وزمنها وكم من الوقت تدوم قبل أن تنقضي. ما من شيء يستطيع أن يجعل حكم ملك من الملوك يدوم إلى الأبد لأن الأبدية، ومن خلال مفهوم الكلمتين السابقتين، ليست من خصائص هذا العالم الأرضي. وهذا ما تشير إليه ملحمة جلجامش في مقاطعها النهائية بالقول إن الآلهة عندما خلقت الإنسان قدرت عليه الموت. هذه الشريعة /

الموت/الحياة العابرة التي لا تدوم والتي / تفل ويدركها البلاء/ لا يخضع لها الإنسان وحسب بل الطبيعة / في تعاقب فصولها/ والمدن والممالك. ونلاحظ أن هذا المفهوم عن الزمن قد كان وراء نشوء / أدب المراثي/ حيث كان الشعراء يندبون و يبكون المدن المهدمة بفعل الحروب أو الكوارث بعد أن عرفت عصرها الذهبي. هنا أيضاً نرى أن حاضرة كبرى تقوم و تزدهر ثم تنتهي لتقوم على أنقاضها حاضرة أخرى في دورات زمنية لا نهاية لها تعلن أن لا شيء يدوم. أو كما يقول المثل الذي ما زال يجري على ألسنة الناس و حتى اليوم: «كل حال يزول».



الكون ومفهوم التقابل والتطابق بين الأرض والسماء

مفهوم التوأم.

في التصور الرافدي القديم الأرض والسماء توأمان. السماء هي انعكاس صورة الأرض، والأرض هي انعكاس صورة السماء. كل واحدة تطابق الثانية. ونفهم من النصوص العالية المستوى التي تتعرض للموضوع أن عالم الحيوان والنبات والمعدن وكل ما هو أرضي له نظائره في العالم السماوي. ويبدو

أنه على هذا النحو نشأ التصور اللاهوتي للعالم وللكون. كل الظواهر الطبيعية الكونية وكل نشاط بشري يتم له ما يماثله في السماء وذلك على صورة (إله) يرمز لظاهرة من تلك الظواهر ويجسدها أو يدل على طاقة من الطاقات البشرية.

وهكذا فالإله /شمش/ هو الشمس أو نظير الشمس السماوي، والإله /سين/ هو توأم القمر السماوي وكذلك الآلهة والظواهر الأخرى. بمعنى آخر فكل ما نراه هو شبيه لشيء آخر وتوأم له. وكل ما هو غير مرئي ويسمن السماء له قرينه الأرضي، فإذا حدث الرعد على الأرض فذلك يدل على أن الإله /حدد/ توأم الرعد الأرضي قد تحرك. ويشكل هذا التطابق السماوي ـ الأرضي جوهر الفكر الرافدي في رصده للكون والظاهرات الطبيعية. هناك تجسد أرضي لكل ما هو موجود في السماء. المعبد على سبيل المثال هو صورة بيت الآلهة في السماء. الحديقة أو البستان هي صورة الجنة في السماء. و هكذا فالسماء والأرض ليستا في الواقع سوى انعكاس لمظاهر متعددة لواقع واحد هو الكون برمته. وطبيعة الأرض والسماء واحدة في الجوهر تم الفصل بينهما بعد خلق العالم. والفصل بين التوأمين الأرض والسماء هو اللحظة الكبرى في الفكر الكوني الرافدي كما تتبين من العديد من القصائد المتعلقة بنشوء العالم. بعد فصل السماء عن الأرض تقوم السماء بتلقيح الأرض ويلد عنهما العالم. لذلك يحمل العالم صورة السماء وصورة الأرض وهذا الحدث هو ما يسمى بالسومرية/ إي- نام- غيش- هور- ان- كيا /i-nam-gish-hur-an-ki-a/. والأمر يعني أن اسم السماء /شا- ميه sha-me/ يدل على «ما هو مكوّن من المياه». وهذه المياه السماوية هي التي لقحت وأخصبت رحم الأرض. لذلك، ومجدداً، يحمل العالم صورة الاثنين.

صورة التوأم أو صورة المرايا هذه، كما نفهم من شروح المطلسين القدامى، تتيح للإنسان أن يقرأ الكون وأن يفسر ظواهره. وهناك كلمات توضح هذا التطابق ككلمة المجرة فهي بالأكادية تدعى /لوماشو lumashu/ وتعني الكلمة حرفياً الانعكاس أو الصورة المزدوجة أو الصدى. أي أن كل مجرة هي انعكاس للأخرى. الكلمة الثانية

هي /مول -افين mul-apin/ وهي تدل على هيئة الإله السماوي حين يبدو للبشر، أو الظاهرة الخارقة للعادة كما يراها البشر. وقراءة الكون على أساس أن كل ما يحدث في السماء له ما يماثله على الأرض كانت الخطوة الأولى في علم النجوم والتنجيم ومحاولة قراءة المستقبل.

فكرة التطابق بين الأرض والسماء نجدها ممثلة أيضاً في الملك والإله فقد كان الناس يعيشون ضمن حدود الحاضرة ــ المملكة، وهو نظام أو تقليد قديم جداً، مقر الملك والحكومة وكل المرافق الإدارية والاقتصادية والثقافية والدينية. وكانت تتبع الحاضرة ــ المملكة مساحة من الأراضي الريفية/ الزراعية حيث يعيش ويعمل الفلاحون والرعاة. وهكذا ففي القصر الملكي في الحاضرة كانت تتمركز السلطة الزمنية العليا. هذه الصورة الأرضية تتطابق مع سلطة سماوية أو ما فوق أرضية وغير زمنية على رأسها الرب الأكبر المتحكم في أمور العبادة والدين، أو الحياة الروحية للبشر. وهو بدوره يسكن في /قصر/ أي المعبد /السماء/ تحيط به أسرته وحاشيته من ابناء وبنات أي أرباب وربات أقل أهمية ولكن لكل دوره الخاص به. وهم يماثلون أركان الحكم إلى جانب الملك من مستشارين ووزراء وقادة.

وكما كان للمملكة عاصمة فقد كان للحكومة السماوية حاضرة مقدسة هي «نيفور Nippur» المدينة التي لم يكن لها دور سياسي يذكر في التاريخ، والتي تتطابق مع العاصمة الملكية التي لها الشأن السياسي الأعلى مقابل المقدس ــ الديني. وكذلك في فكرة الشر والعقاب. الشر هو العقاب الذي تنزله الآلهة بالبشر (المرض على سبيل المثال) لمخالفتهم النظام الكوني. وهو على الأرض العقوبة التي ينزلها الملك بالبشر لمخالفتهم القوانين السائدة.

و كان هناك ضمن نظام التطابق الكوني ثالوث إلهي يحكم السماء ويتطابق مع الثالوث الأرضي: الملك، ولي العهد، والسلطة. وكان هذا الثالوث الإلهي مؤلفاً من الإله /آن An/ انو بالأكادية /والإله /إنليل En-lil/ والإله /إنكي Enki، ويدعى أيضاً /إيا Ea/.

الله /آن/ هو المؤسس الإلهي للسلطة الملكية. والملك يعتبر نفسه ابناً له بحيث يتطابق رب السماء /آن/ مع رب الأرض /

الملك/ ./إنليل/ يمثـل ولي العهد الملكي. أما /أنكي/ فهو يمثل النظام والسلطة والطاعة- يأمــر فتتحول أحكامه إلى قوانين تسري على الكـون كما تسري أحـكام الملك في كل أرجاء المملكة. وأيضـاً فكما أن أحكام الملك تتحول إلى شرائع يُعمل بها، فـإن أحكام الآلهة هي «قدر ومصـير» كل ما هو حـيّ وكائن. وهي أحـكام مدونة منذ الأبـد في «لوح الأقدار». الشهير.

وهكذا فصـورة الحكومة الأرضـية هي انعكاس لصورة الحكومة السماوية في مفهوم التطابق الكوني.

ومن غرائب الأمـور أن نعثر، وبعد قرون عديدة من الزمن، على أفكار مماثلة لما سبق وذلك في النص الهرمســي الشهير ب: /لوح الزمــرد/ والذي يُنسـب إلى /هرمس المثلث العظمة وهو النص الذي يُعتبر أســاس الفكر الباطني وعلوم الســيمياء حيث نقرأ: «الحق إن ما هــو موجود تحت (علـى الأرض) هو مثـل ما هو موجـود فوق (في الســماء) وما هو في الأعلى مثل الموجود في الأسـفل وذلك ليتم صـنع المعجزات من شيء واحد. لأن كل الأشياء انبثقت من الواحد وبتأملات الواحد. وهكذا فكل الأشياء قد خُلقت من هذا الشيء الواحد.»

عرف العالم حكاية الطوفان الشهير الذي تقصــه ملحمة «جلجامش» الشهيرة في اللوح الحــادي عشر منها، /وهو لوح مضــاف إلى الملحمة كما اكتشف العلماء فيما بعد/، وذلك منذ أواخر القرن التاســع عشر عندما أعلن الأركيولوجي /جورج سميث/ في محاضرة له ألقاها في الجمعية الأثرية التوراتية في لندن، أنه تمكـن من العثور بين الألواح المســمارية المكتشـفة في نينوى على نســخة تعود للزمن الآشــوري مــن ملحمة جلجامش تقص في قسم منها أحداث طوفان كبير أغرق الأرض، وتشــابه إلى حد مذهل الطوفان المعروف في الكتب التوراتية بطوفان «نوح».

غير أنه، وفيما بعد، تمكن المختصون من اكتشــاف نصوص مســمارية رافديه أخرى، أســبق زمنياً من النســخة الآشــورية بكثير، تقص حكاية هــذا الطوفان. ومن أقدم هذه النصــوص الحكايــة المعروفة باســم «أترا- هاسيس Atra- hasis»، والتي يقدر العلماء أنهــا تعود إلى بداية الألف الثاني قبل الميلاد ويبدو أنها أضـيفت إلى ملحمة جلجامش في

وقت لاحق. وهي تروي الأحداث على النحو التالي:

كان الآلهة يعيشون في دعة وهناء دون أن يعكر عليهم صفوهم وسكونهم شيء. غير أن صخب وضجيج البشر صار يعكر على الآلهة سكونهم. فيقرر الإله /انليل/ القضاء على الإنسانية جمعاء، ويعزم على إنزال المطر لإغراق العالم في طوفان لا مثيل له. غير أن الإله /أيا/ الذي صنع البشر أو خلقهم تأخذه الشفقة بهم ويرفض أن يندثر الجنس البشري كلياً. وهكذا، ولإنقاذ البشرية من الفناء، يختار شخصاً ورعاً وتقياً وحكيماً اسمه / اترا- هاسيس/ ويعلمه بقرار /انليل/ ويطلب منه أن يصنع سفينة، وأن يصعد إليها مع أهله والحيوانات الأليفة وكل ما هو ضروري. وعلى هذا النحو ينجو /اترا- هاسيس/ ومن معه من الطوفان، ويضحي للآلهة حتى ينال النعمة في عيونهم.

هذه الحكاية التي روينا أحداثها باختصار نعثر عليها، كما سبق، في النسخة الأكادية من ملحمة جلجامش الملك الشهير والذي، وبعد موت صديقه انكيدو، يرغب في أن يكتشف سر الخلود فيمضي إلى تخوم الدنيا ليلتقي بالشخص الوحيد الذي نجا من الطوفان وهو يدعى «أوتانا بيشتيم» Utanapishtim/ ومعه زوجته.

ونرى هنا أن أوتانا بيشتيم يحل مكان اترا- هاسيس، ويحمل اسماً رمزياً يعني / الحكيم المستنير ذو الأيام الماضية الغابرة/. وتروي الحكاية أن السفينة التي ركبها /أوتانا بيشتيم أثناء الطوفان ظلت تعوم طويلاً على المياه الهائجة حتى رست أخيراً على جبل عال اسمه /نيصير Nisir/ حيث يطلق أوتانا بيشتيم ثلاثة طيور لا يعود ثالثها إلى السفينة فيعرف أن المياه قد انحسرت، وأن الطير الذي لم يعد قد عثر على مكان من اليابسة انحسرت عنه المياه فحط عليه.

ولقد وقف العلماء منذهولين من العثور على حكاية الطوفان التوراتية في الألواح المسمارية الأقدم عهداً من التوراة بزمن بعيد.

إلى ذلك فهناك حكايات أخرى عن الطوفان أقدم من التي ذكرناها ومدونة باللغة السومرية. ففي الأدب السومري نعثر على ثلاث حكايات على الأقل حول الطوفان وأقدمها عثر عليه المختصون في قصيدة

تدعى /جلجامش والموت/ وتعود لمنتهى الألف الثالث قبل الميلاد. وهي تقص لقاء جلجامش مع شخص اسمه /زيوسودرا Ziusudra/ الذي يصبح هنا وبدوره الشخص الوحيد الذي نجا من الطوفان. واسمه بدوره يعني / الخالد/ وهو المرادف السومري لاسم /أوتانا بيشتيم / الأكادي. والحكايات السومرية تجعل حدوث الطوفان في أزمنة ساحقة في القدم. ولقد كانت حكاية الطوفان معروفة في المرويات السومرية- الأكادية بحيث إن المؤرخ والعالم البابلي الشهير /بيروس Beros حوالي القرن الثالث قبل الميلاد/ وضع لنا، أي لحكاية الطوفان، ترجمة يونانية في العصر السلوقي أثناء سرده لتاريخ بلاد ما بين النهرين القديم متطابقة تماماً مع النسخ القديمة السومرية ـــ الأكادية.

ويبدو أن حكاية الطوفان كانت شائعة ومعروفة ومنذ القدم في كل أنحاء وأقاليم «الهلال الخصيب»، حيث إنه عُثر على نسخ ملحمة جلجامش وحكاية الطوفان في مناطق متعددة مثل /مجيدو/ في فلسطين، ونسخة عن حكاية /اترا- هاسيس/ في أوغاريت/ في سورية مما يدل على شيوع الحكاية منذ عهود غابرة. وهكذا فلا غرابة أن الأسفار التوراتية قد اقتبستها وضمتها إلى مجموع الكتب.

و لقد وجد أحد كبار المختصين في مجال الأركولوجيا وهو /ليونار وولي Woolly/، وأثناء حفرياته مع زملاء له في مدن العراق القديمة /اور/ و/شورباك/ و/كيش/، أن طبقة من الأرض في تلك المدن السومرية الغابرة تحتوي آثاراً تدل على حدوث طوفان قديم حيث إنهم عثروا على بقايا رمال وحجارة وفخار تبلغ كثافتها عدة أمتار كان واضحاً أنها ترسبت عن سيل عظيم من المياه جرفها إلى هذا المكان. كما دلت الأبحاث على وجود بقايا حياة إنسانية مما أكد لهم حدوث طوفان في زمن غابر. غير أنهم مالوا بعد ذلك إلى تفسير الأمر بحدوث فيضانات نهرية /دجلة أو الفرات/ في الألف الرابع قبل الميلاد.

التكوين:

هناك أكثر من قصة ذات أصول قديمة جداً تتعرض على نحو ما إلى حكاية نشوء الكون والعالم وخلق الإنسان وبالتالي إلى أسماء القوى الأولية /الآلهة/ التي صنعت

أو خلقت العالم. وكثيراً ما يبدأ نص أدبي ما بحكاية الخلق كتمهيد ثم ينتقل ليقص فيما بعد أموراً أخرى. مما يدل على أن ذكر خلق العالم في النصوص القديمة كان ضرباً من الأسلوب الافتتاحي لبعض القصائد والحكايات. وهو أسلوب يبدو أنه حافظ على ذاته إلى اليوم حيث إننا وعندما نبدأ حكاية ما فإننا نبدأ بعبارة شهيرة هي «كان ياما كان في قديم الزمان». وعلى سبيل المثال نجد أن قصيدة /جلجامش وانكيدو والجحيم/ المدونة بالسومرية القديمة، والتي لا علاقة خاصة لها بخلق العالم، تبدأ بالإشارة إلى انفصال السماء عن الأرض في البدء، وهو فصل يُعتبر بمثابة بداية التكوين. وكذلك فهناك إشارة إلى التكوين وخلق العالم في القصيدة الحوارية /الشجرة والقصبة/ التي تبدأ بدورها بالإشارة إلى أنه في البدء قامت السماء التي تمثل العنصر المذكر بإخصاب الأرض التي تمثل العنصر المؤنث. وأيضاً نعثر على صيغة افتتاحية مشابهة في قصيدة حوارية أخرى هي /الصيف والشتاء/ حيث نرى الإله /انليل/ . يضاجع /الجبل المقدس/ عنصر مؤنث /فينتج عن ذلك نظام الطبيعة أو دورة الفصول. كما أننا وفي القصائد الابتهالية الأكادية، وفي النصوص الطبية، نعثر على افتتاحيات تشير إلى التكوين في صيغ شعرية كالتالية: «لما خلق الإله /انو/ السماء، والسماء خلقت الأرض، والأرض خلقت الأنهار، والأنهار خلقت الطين، والطين صنع الدودة...»

أو قصيدة أخرى من هذا النوع:

«المحراث صنع الشقوق في الأرض، والشقوق صنعت البذرة، والبذرة صنعت الحبة، والحبة صنعت العقدة، والعقدة صنعت السنبلة......»

ونجد هنا أن فعل الخلق قد تم على مراحل ولم يحدث دفعة واحدة!

لا يمكن التحدث عن خلق العالم في التصور السومري-الأكادي دون أن نذكر القصيدة الشهيرة التي تقص حكاية خلق العالم والإنسان، والتي تحمل كعنوان العبارة الافتتاحية منها، أيّ، /الإنوما إيليش Enoma elish/ أو /عندما في الأعالي /ويكفي تقريب كلمة / انوما/ من كلمة /عندما/ وكلمة /إليش/ من كلمة /على/ حتى نفهم العبارة دونما حاجة إلى ترجمة. والقصيدة هذه هي العمل الأدبي

الأساسـي الذي يقص خلق العالم والإنسان. والـذي يجعل الإلـه /مـردوك/ وراء هذا الخلـق. كما أنها تتميز بأنهـا تقص مراحل التكوين بتفصيل كبير ومرحلة بعد مرحلة.

كما أنها القصيدة المشرقية الأكثر اكتمالاً بين كل نصـوص التكوين المشرقية القديمة. وهي تحكي كيف أن العالم تشكّل من جسـد الربـة الأم الأولى /تيامـات/ التي هزمها / مردوك/ وقطعها إلى نصفين ثم صنع السماء من القسـم الأعلى من جسدها، ومن نصفها الأسفل صـنع الأرض. وجعل السماء مسكناً للأربـاب. ثم نظم مـكان وحركـة الأجرام والأفلاك السماوية وحدد وظيفة وحركة كل جرم. وعلى هذا النحو نشأ الزمن أو الوقت.

ويبدو أن هذه القصـيدة كانت ما تزال تُنسخ وذلك حتى القرن الثالـث قبل الميلاد بدليل العثور على النسخة التي نقلها العلامة البابلي /بيروسـ/ Beros/ إلى اليونانية في العهد السـلوقي. وقد ذكرها /أوزيـب/ في القرن الرابـع بعد الميـلاد، كما نجد ذكـراً لها في كتابات الفيلسوف الدمشقي Damascius القرن الخامس بعد الميلاد.

بعد أن شكّل /مردوك/ السماء والأرض، أو بعد أن فصـلهما عن بعضهما، قام بصنع الجبال العالية من أثداء /تيامات/. ثم صنع النهرين الكبيرين دجلة والفرات من عيون / تيامات/، (ولاشك أن تعبير/عين ماء/ متعلق بذلك)، ثـم وبعد ذلك فقد بـدأ /مردوك/ عمله الكبير، أيّ: خلق الإنسان. لقد أخذ ترابـاً وجبله بدم الإله /كنجو/ ثم صـنع الإنسـان الأول الذي جاء إلى الحياة وفيه، كما لا يغيب عن الذهـن، طبيعتـان الأولى إلهية والثانية أرضية. أو نصفه ترابي ونصفه الآخر إلهي.

قصـيدة الخلـق هـذه تعتبر مـن أطول النصـوص القديمة فهي تحتوي على ١١٠٠ بيت من الشـعر مدونـة على سـبعة ألواح. وقـد عـثر على عدة نسـخ منهـا في مكتبة الملك /اشوربانيبعل/ وهي تبدأ بعبارة ذات أهمية بالنسـبة إلى مفهوم الاسـم في الفكر السـومري- الأكادي حيث إنّ ما هو موجود لا يوجد عياناً قبل أن نسـميه. فالاسـم هو أسـاس الوجود. وكل ما هو غير مسـمى فلا وجـود له. والعبـارات الأولى من القصـيدة تبدأ على النحو التـالي: «عندما في الأعالي لم تكن السـماء قد سُميت بعد. وتحت لم تكن الأرض قد تلقت اسـماً بعد». فكأن السـماء

والأرض كانتا في حالة الغمر أو الخواء الأول. أيّ حالة ما قبل الوجود أو التكوين.

ويتفق البحاثة المختصون اليوم، وبعد الدراسة المتعمقة للنص، على أن القصيدة ذات وحدة بنائية وتركيبية لا يُشك فيها. فهي بالتالي بعيدة عن أن تكون خليطاً غير منسق كل مقطع فيها يتحدث عن شيء لا رابط يربطه بما قبله أو بعده. بل إنها مبنية بناء مكتملاً متدرجاً من البداية إلى النهاية. وإن الأحداث واضحة في ذهن الشاعر الذي دوّن النص. وأيضاً فإن نص القصيدة قد قام بوضعه، ودفعة واحدة، شاعر واحد. إذ ليس هناك أيّ خلل في التركيب الأسلوبي الشعري أو في تتابع الأحداث. تبقى قضية زمن تدوين النص. والبعض يرجح الألف الأول قبل الميلاد. غير أنه ما من شك أن القصيدة كانت معروفة منذ زمن أقدم بكثير. وربما تم تثبيتها كتابياً بعد ذلك لتحفظ ضمن الآثار الأدبية الرافدية العالية المستوى حيث إنها أقدم قصة خلق للعالم والإنسان، أو أقدم «سفر تكوين» في التاريخ وصل إلينا. ولعل الإله /مردوك/ أخذ مكان أرباب أقدم منه في القصيدة للمكانة الكبرى التي كانت له في بابل ومنذ الألف الثاني قبل الميلاد. وهو أمر نلاحظه في النسخة الآشورية من القصيدة حيث اختفى اسم /مردوك/ وحل مكانه اسم الإله /آشور/.

تحليل نص القصيدة يبين أنها تحتوي في آن واحد على مبدأين الأول لاهوتي والثاني تكويني وبشري.

و نشوء العالم يتم في القصيدة على النحو التالي:

في البدء لم يكن هناك سوى /تيامات/، أو المياه المالحة أو البحار.(وهذا هو معنى اسم تيامات Tamtu/) و /ابسو/Absu/، والاسم بالسومرية يعني المياه العذبة أو منابع المياه تحت الأرض، وكانا يعومان على سطح المياه في سكون مطلق لا يعكر صفوه شيء.

ثم عرف ابسو تيامات فحملت منه ووضع الهين شابين هما /لاهمو/ Lahmuو / لاهامو/Lahamu/ وهما بدورهما انجبا /انشار Anshar/ و/كيشار Kishar/. وعن هذين ولد الإله /انو Anu/ و عنه ولد الإله /ايا Ea، رب الحكمة. ثم تكاثر الأرباب الشباب /الأجيجي أو الأجيجو Agigi/ والكلمة بقيت إلى اليوم في المحكية الدارجة

في كلمة /عجـي وعجيان التـي تطلق على الصغار، وفي عجيج أيّ الضجة./

هؤلاء الآلهة الشباب في حركتهم وشغبهم يعكرون صـفو السـكون الذي كان يحيا فيه (ابسـو وتيامات) فيقرر هذان القضاء على الآلهة الشـباب كلياً. وهكذا تنشـب المعركة الأولى. غـير أن الإله (ايا) الذي يقود المعركة يخرج منها منتصراً، وينحي (ابسو) عن عرش المياه ويجلس مكانه. وبعد هذا الانتصار يلد للإله (ايا) ابناً من زوجته (دام كينا) فيسميه (مار-دوك). وهو أشـد قوة وحكمة من أبيه كما سوف نرى.

تقـوم (تيامـات) وتشـن حربـاً جديدة على الأرباب الشـباب للقضـاء عليهم وهي تقود هذه المرة برفقـة قرينها الإله /كنجو/ Kingo/ جيشاً من الوحوش المخيفة بحيث إنه لا يتجرأ أحد على التصـدي لها. فيقترح (ايا) أن يقوم ابنه (ماردوك) على رأس جيش الشباب لمحاربة (تيامات). ويقبل (ماردوك) تنفيذ المهمة الخطيرة غير أنه يشـترط على الجميع أن يسـموه إلهاً علـى جميع الآلهة. ويقبـل الجميع بهذا الشرط، وهكذا يصـبح (مـاردوك) الإلـه الأوحـد. وتـدور بعدها معركة مصـيرية بين المعسـكرين يخرج منها (مـاردوك) منتصراً ثم يقـوم بأعمال الخلق كما ذكرنا، ويتربع على عرشه في معبد مدينة (بابل) التي تصير مدينة تربط السماء بالأرض ومركز الكون.

أما المقاطع النهائية من القصـيدة (التي اختصرنـا أحداثهـا المطولة) فهي مكرسـة لتمجيد أفعال (مـاردوك) حيث يقوم جميع الأرباب بإطلاق الأسماء الخمسين عليه، وكل اسم من هذه الأسماء يحدد وظيفة من وظائفه وصـفة من صـفاته بحيث إنه يجمع في ذاته كل صفات ووظائف الأرباب الآخرين ليصبح الرب الأوحد الذي خلق العالم والإنسان ونظم دورة الحيـاة. ولعل هذا التوحيد في التاريخ. وهو أمر مشـترك نعثر عليـه في ثقافة بلاد ما بين النهرين (العراق) ومنطقة بلاد الشام كما سوف نبين في مكان آخر من هذا البحث، ولدى دراستنا للقصائد والنصوص الكنعانية، ومن خلال تحليلنا الأسـماء الإلهية القديمة والتي سـوف نـرى أنها ما زالت شـائعة إلى اليوم ولها نفس الدلالات الغابرة.

وفي الواقع فالنصوص السومرية القديمة /عدة آلاف من السنين من اليوم/ تقدم أكثر

من تصــور لنشــوء الكون وتكوين العالم. كما تقدم في الوقت نفســه، ومن خلال النصوص والقصائد الأســطورية، جرداً بأسماء الآلهة الذين يجســدون العناصر الطبيعية حيث إن كل عنصر كوني أو طبيعي يتجسد في شخص أحــد الآلهة. وهذا التعــدد يبين مدى جدية تأمــلات المفكريــن الســومريين، ومنذ زمن سحيق، في رصدهم لحركة الكون وما فيه من ظواهر في محاولة، وإن بدت لنا اليوم بدائية، للبحــث عن أجوبة على الأســئلة الفلســفية الكبرى التي طرحها الإنسان على نفسه منذ وجد.

الفكر السومري، ومن بعده الاكادي ومن ثــم البابلي والكنعاني، تصــور أنــه في البدء كان هناك الميــاه العظمــى الأولى /المحيط الأعظــم/. وهذه المياه كانــت موجودة ومنذ الأبــد. وحتى يتــم وعي هذه الميــاه فقد تم تجسيدها في شــخص إلهي هو الربة/ناممو Nammu/. ثم نرى أن هذه المياه العظمى، أو الأم العظمــى /ناممــو/ وضــعت مولوداً يسمى /الجبل الكوني/ وهو مكون من السماء واســمها /آنAn/ ومن الأرض واسمها /كي ki/. ثــم ومن اتحــاد الاثنين ولــد الهواء أو الأثير مجســداً في الآله /انليل Enlil/ الذي يقوم بفصل الأرض عن السماء. ويأخذ الآله /آن/ الســماء ملكاً له. أمــا /انليل/ فيأخذ أمــه الأرض /كي/ ويتحد بها، أي أن التراب يتحد بالهواء، فيصبح اسم الأرض عندئذ / نين ماه Ninmah/، أي/ الســيدة العظمى أو الأم الكبرى. ثم تأخذ الأرض اسماً جديداً هــو /نين هــور ســاج Nin hur sag/ أي ســيدة أو أم الجبل الكوني الــذي انبثق،كما سبق، عن المياه الأولى. وهكذا يصبح اسمها /نين تــو Nin tu/ أي الســيدة والأم التي تحمل الحياة في رحمها أو التي تحمل وتضع الأطفال بمعنى أنها تضمن استمرار الحياة. بعد ذلك ينشأ القمر /نانا Nanna/ الذي هو أحياناً أبو الشمس /أوتو Utu/ وأحياناً ابن الشــمس. ثم، وعن اتحاد الهواء والتراب وقد انضم إليهما الماء في صورة الإله /انكي Enki/ ينشــأ البشر والحيوانــات وكل أنواع النبات.

لقد اعتقد العديد من المختصــين، وبعد دراســات وأبحاث كثيرة وبلغــات مختلفة، أن القناع اللاهوتي الديني وأسماء الآلهة الكثيرة التي تحفل بها النصوص، ينبغي أن لا تخفي

عنا محاولات الفكر السومري لإعطاء تفسير طبيعي /فيزيائي/ لنشوء الكون. والدليل على ذلك هو تعدد التفسيرات والتقاليد حول الموضوع.

في أرجاء المدن والمعابد السومرية التي تتفق أو تختلف ولكنها جميعها جهدت لإعطاء تصور معقول بالنسبة لعقل الإنسان آنذاك كما أصبح حال الفلسفات فيما بعد. وعلى هذا النحو ينبغي النظر إلى الأسماء المتعددة للأم الأولى أو السيدة العظمى. إنها دلالة على تطور العقل وفهمه للكون. لأننا نجد أن أسماء الأم الكبرى /المياه العظمى/ تعددت وتبدلت، كما أسلفنا، من /ناممو/ إلى /نين هور ساج/ إلى /نين ماه/ إلى /نينتو/ وصولاً إلى /ماه/ الذي سوف يصبح /ماما- Mama/ أي نفس الكلمة التي نستعملها اليوم، وفي أكثر لغات الأرض، للدلالة بمحبة على الأم. وهي الكلمة التي أصبحت بالأكادية /بيلت- إلي Belet-ili/، سيدة أو أم الآلهة.

تروي المنقولات السومرية الغابرة حكاية حكماء تطلق عليهم اسم / أبجال ABGAL أو أباكالو أو افاكالو APKALLU وأصبح الاسم بالأكادية فيما بعد /أمي/أمية/ أو أوممانو /UMMANU/. وهؤلاء الحكماء يُعتبرون نخبة خاصة تمتلك على جميع أسرار العلوم و الفنون والآداب، أو كل أسس المعرفة والثقافة. وهم يضاهون الملوك في مكانتهم العالية ومركزهم السامي. وتضيف المرويات أن هؤلاء العارفين الكبار تلقوا المعرفة الكبرى عن الإله /أيا/، إله المعرفة في المجمع السومري، فوضعوا أسسها وحافظوا عليها وأورثوها إلى الأجيال التي أتت بعدهم.

وتقول الحكاية إن هؤلاء الحكماء الأوائل قد خرجوا في البدء من المحيط العظيم / المياه الأولى/ لكي يكشفوا للبشر أسرار المعرفة ويعلمونهم أسرار صنع الأشياء. وأن عددهم سبعة، وأن أصولهم ليست بشرية تماماً.

لأن نصفهم إنسان ونصفهم الثاني سمكة أو حوت /نون NUN/. وهم قد عاشوا في زمن قبل الطوفان الكبير والشهير المذكور في ملحمة جلجامش. وظهور الحكماء من الماء مع المعرفة الأولى يفصل رمزياً ما بين الفترة البدائية الوحشية والفترة التي بدأ فيها بناء الحضارة حيث كشف الحكماء للناس، ودفعة واحدة، أسس إقامة الحضارة بشقيها الروحي

والمادي. قبل أن يعـودوا فيختفوا في أعماق المياه. والملفت للنظر أن كشـف هذه المعرفة للبشر كان بمثابة /تحدي/ للآلهة التي لم تكن راضية عن هذا الأمر. وعلى هذا النحو، فإننا نسـتطيع اعتبار عمل هؤلاء الحكماء بمثابة أول تمرد ميتافيزيقي في التاريخ يجعل البشر يتشـاركون المعرفـة الإلهيـة، أو بمعنى آخر وبعبارات أخرى، معرفة الخير والشر. وظهور هؤلاء الحكماء من الماء يفسر ذكر أسـمائهم في نصوص **الطقوس** الخاصة بالتطهر بالماء والتي تسمى /ماقلو/Maqlu/، وفي طقوس غسـل أفواه تماثيل الآلهـة بالماء /فت - في/ Pit- Pi/ أو فتـح فيـه، أي /فتح الفم أو الفوه، وفي كل الطقوس المائية الأخرى.

أما أسماء هؤلاء الحكماء فهي:

أونا- نادابا. ويسـمى أيضـاً- أدابا. / Una- naadapa/.

اوان- ني- اوججا. Uan-ne-ugga.

اينمدو- ججـا. /ويذكر اسـمه كمؤلف أعمال أدبية/Enmedu-gga.

اينم-جا-امما. Enmgala-mma.

ان-ميبا-لوججا. Enmebalu-gga.

انين-ليلدا. Anen-lilda.

وأخيراً اونوا-بوزو. Utua-bzu.

إضافة إلى هؤلاء الحكماء السبعة فهناك أربعـة حكماء من البشـر منحهم الإله /أيا/ حكمة واسـعة وتُنسـب إليهم علـوم الطب والموسـيقى وابتكار القيثارة ووضع الأناشيد والقصائد /المراثي. وهؤلاء الحكماء الأربعة يُطلـق عليهـم اسـم /أوممانـو/ /عارف/ أو الأمنـاء الذين يحفظون أسـرار المعرفة. ولعل أفضل صـورة تاريخية لهؤلاء الحكماء الآسـطوريين هو الحكيم الآشوري الشهير / أحيقار/ وهو شخص تاريخي اشتهر بالحكمة وكان وزيراً للملك الآشـوري /أسارحادون/. وقد شاعت قصته في كل أرجاء الشرق القديم وكانت معروفـة إلى أواخر العهد السـلوقي حيث تذكره النصوص باسم /أومانو/ الحكيم أو العارف.

يتفق المختصـون اليوم عمومـاً على أن المفكريـن السـومريين لم يكونـوا في حالـة بدائيـة في تصـوراتهم وإنمـا في مرحلـة متقدمة وتسـتحق التقديـر والاهتمام. وأنه وراء الأسـاطير كان هناك بحث علمي منظم ومتقـدم بالنسـبة لأوانـه وإلى مـا كان في حوزتهم آنذاك من وسـائط لرصـد ظواهر

الكون. وإننا يجب أن ننتبه إلى التقدم الكبير الذي تم في الزمن البابلي، الذي ورث الزمن السومري، في مجال علم الفلك ورصد حركة الأجرام السماوية والكواكب إضافة إلى التطور الهام الذي تم في مجال الرياضيات والطب والصيدلة. الرياضيات التي تمثل بداية انتقال الفكر من مفهوم المحسوس / الأسطورة/ إلى مفهوم المجرد أو التجريدي /الرياضيات/ في نظرته إلى الكون وفي فهمه للكون وإن كانت تلك الأبحاث تتم في نمط حكاية تجري في السماء هي أقرب إلى أذهان الناس من الفكر التجريدي.

ولفهم وتوضيح كل ما سبق ينبغي أن ندرس التعابير وبعض المفردات الأساسية في الفكر السومري. وهي مفردات يختلف العلماء المختصون حول معناها المحدد وإن كانوا يتفقون حول دلالتها العامة.

على سبيل المثال فهناك كلمة /نام- تار Nam-Tar/. وهي تدل عند البعض على ما هو مقرر أو مكتوب من قبل إرادة مطلقة لا يمكن أن تُناقش أو أن تتبدل. أي القدر بمعنى من المعاني، أو الإرادة الإلهية. أما عند البعض الآخر فهي تعني القوة أو الفعالية الجوهرية. وكذلك كلمة /إينيم Inim/ فهي تعني/الكلام الحيّ/ وتدل أيضاً على/الكلام الذي يحيّ./ أو، وأيضاً، الكلام الذي إذا ما نطق به الإله تحول إلى قوة وإلى فعل أيّ أنه يحدث. يعني كأنه مفهوم /كن فيكون/. حيث يتم الخلق عن طريق الكلام الإلهي.

أما كلمة /كيش- هور Gish-hur/ فهي تعني الصورة أو الأنموذج الأولي. ولكنها تدل أيضاً في بعض الصيغ التركيبية على مفهوم الدائرة السحرية التي لا يمكن الخروج منها /رمزياً تعني الموت الذي لا مفر منه، والمصير المحدد/. والبعض يعطيها دلالة /القاعدة/ أو الأساس الذي نبني عليه أو ننطلق منه.

نلاحظ أن هذه المفردات الأساسية في السومرية، وهي كثيرة، تبين أن التصورات الكونية القديمة كانت محددة في مفاهيم لغوية لها مدلولات خاصة فهي أشبه بالمصطلحات.

غير أنه هناك كلمة أساسية في الفكر السومري تُعتبر من أصعب الكلمات بحيث إنها تستعصي على الفهم المحدد لتعدد مدلولاتها. إنما من الصعب إدراك الفكر السومري دون هذه الكلمة. وهذه الكلمة هي

/مـه/ME/. وهي تدل عموماً على الوجود والكينونة، أو على فعل الكون غير أن مدلولها يتجاوز ذلك بكثير.

البعض فسر كلمة /مـه/ بالقـوة أو بالجـبروت. البعض الآخـر أعطاها معنى القـدرة الإلهية. آخـرون وجدوها تدل على تنظيم المسـيرة الكونية في حركتها المستمرة. وهناك من رأى فيها مفهوم القضـاء الإلهي. أو، وأيضاً، فكرة الأنموذج الأولي والأساسي. وثمـة من قـال إنـه لا يوجد لهـذه الكلمة من معـادل في اللغات الأخـرى، ولكنها قد تدل علـى القدرة الديناميكيـة التي تحرك الكـون. غير أنه مـن المتفق عليـه اليوم في مجال السـومريات، ومن خلال الصـيغ التي تأتـي فيها الكلمة، تحديد معنى هذه المفردة بمجمـوع الأسـس التـي تنظم وتنسـق كل الظواهر الكونية لتسمح لها أن تؤدي مهامها على نحو أبدي ومسـتمر وكما حددت الآلهة التي صـنعت الكون ذلك. أي، وبمعنى آخر، فإن ال /مه/ هي المفهوم البدئي للقاعدة، أو للقواعد، التي يقوم عليها وجود الكون والعالم والبشر وكل الكائنات الأخرى، والتي تسـهر على استمرار الطبيعة.

علـى أنه من الضـرورة الإشـارة إلى أن الأناشـيد والقصـائد التي تتحـدث عن أل /مه/ لا تشـير إليها في صـيغة المفرد وإنما في صـيغة الجمع. فهي تتحدث عن خمسين مفهوم أو دلالة للكلمة ثم تختصر الخمسـين في سبعة /الرقم الكامل/. وهكذا نجد أن كل كائن وكل شيء له /مه/ خاص به. وكذلك كل الأفعال الصـالحة أو الطالحة من الفضيلة إلى الرذيلـة إلى الألم إلى الفعل الجنسـي إلى الفن والأدب والقوة والسلام والقضاء والفرح والمهن والحب.

إضافة إلى ذلك فإن القصائد والأساطير تعلمنا أنه لكل أنواع أل /مه/ أجسـام مادية محسوسة.

هذا ما نعرفه من قصيدة أو حكاية الربة /إنانـا/ التـي سرقت أسـرار ال /مه/ التي تشـير إلى امتلاء سطح سـفينة الربة بال / مه/، وسوف نعود إلى هذه الحكاية. كما أننا نعرف أن ال /مه/ ليسـت صنيعة إلهية. إنها بالأحرى جبروت عمومي أبدي الصـفة يحل في الأشخاص والأشياء والقرارات والعواطف ويتحكم بهـا. ولقد قام البعض بتشـبيه ال /مـه/ بنظرية المثل عنـد أفلاطون. غير أن

الفرق يتمثل في أن المثل الأفلوطنية يمكن أن تدرك إنما ال /مه/، وفي صيغة الجمع، لا يمكن التوصل إلى معرفتها أو كشف أسرارها. والحقيقة فلقد تعذر فيما بعد على الكتبة الأكاديين إدراك كنه هذه الكلمة تماماً. ولقد نقلوها إلى لغتهم بكلمة /بارشو/ او /فارشو/Parshu/ التي تدل، وعلى نحو غامض، على طقس العبادة الديني. غير أن معنى الكلمة الأكادية يبقى صعباً على الفهم بدوره.

إضافة إلى ما سبق فهناك استخدام آخر لكلمة /مه/ في الأدب السومري اللغة حيث نراها تدل أيضاً على التبدل الذي هو صفة الكون والطبيعة والحياة والإنسان. وهنا أيضاً تتخذ الكلمة صيغة الجمع. وهي تُجمع رمزياً من العددين المكتملين: العدد سبعة٧ والعدد خمسون٥٠ ليصبح المجموع٥٧ وقد يمتلك البعض على /مه/ واحد أو على أكثر ففي قصيدة /نزول/إنانا/ إلى الجحيم / نراها تحمل في يدها سبعة /مه/. أما الذي يمتلك على مجموع ال /مه/ فهو الإله الأكبر والأعظم أبو الآلهة جمعاء وصانع أو خالق الكون. لذلك نرى أن مجموع ال /مه/ يماثل نظام الكون المكتمل والمسيّر. وعلى هذا النحو فيمكن أن نفهم ال /مه/ في صيغة الجمع على أنها القوة الموجودة في الكون والتي تسيّر الكون في حركة منظمة.

على أن بعض العلماء، وبعد درس متعمق ومن خلال قراءة النصوص قراءة جديدة، وجدوا أن ال /مه/ قد تدل في الحقيقة على جوهر الكائنات والأشياء، أيّ، مادُعي بالروح أو النفس أو المبدأ الأول في الفلسفات التي أتت فيما بعد. ونلاحظ في هذا المجال أن اللغة السومرية نفسها في تطورها راحت تميل في استخدامها لكلمة ال /مه/ إلى الدلالة على معنى /الجوهري والأساسي/ أو على مبدأ يمكن نعته ب /الطاقة الحيوية/ ومن الغرابة أن آخر استعمالات الكلمة دلت على معنى /الأنا/ الموجود بذاته والمطابق لهويته أو الكائن بذاته بالمعنى الفلسفي.

و لقد تعددت فيما بعد الدراسات والأبحاث لفهم دلالات هذه الكلمة فظهرت نظرية تقول إن ال /مه/ تندرج في إطار أربعة مفاهيم. أولاً هناك /مه/ المشيئة أو الإرادة الإلهية ثم هناك /مه/ الحتمية التي تنطبق على الآلهة وعلى البشر وكل الموجودات،

ومن ثم فهناك /مه/ المثالية، وهو كما سبق وأسلفنا يجعل من أل /مـه/ عالماً من المثل البدائية التي تحدث عنها /أفلاطون/، وأخيراً فهناك /مه/ الديناميكية المحركة، أيّ القوى الإلهية أو الجبروت الإلهي أو، وأيضاً، القدرة الخارقة للطبيعة والتي لا تُدرك.

هناك اسم آخر قد يستطيع تنوير جانب من جوانب كلمة ال /مه/ وهو اسم الربة /جولا – Gu-la/ ولهذه الربة اسم آخر ذو دلالة هو /مه-مه/Me-Me/ الذي يأخذنا مباشرة إلى كلمتنا موضوع البحث. وهي كانت تُعتبر في المجمع الإلهي الرافدي القديم من الأرباب الكبار من حيث إنها ابنة الرب /أنو/ والسماوات عرش لها مما يدل على عظم مكانتها. ولقد كانت /جولا/ ربة العلاج أو تركيب الأدوية مما أعطاها لقب /حارسة الطب/ وللأمر دلالته وارتباطه بمفهوم ال / مه/ كقوة حارسة منظمة. وكانت /جولا أو مه مه/ شفيعة مدينة /ايسين/Isin/ التي كانت بدورها مركزاً أساسياً لدراسة الطب وتخريج الأطباء. ونلمح في اسم المدينة /ايسين/ كلمة /اس أو ازو Azu/ أي، وكما سبق، طبيب. وقد وضعت في الربة المذكورة قصيدة عثر عليها في أنقاض مكتبة آشوربانيبال في نينوى تذكر الربة باسم /ازو جولاتا –Azu-gallatu/ أيّ، «الطبيب العظيم أو الأكبر». ومن غرائب الاتفاقات أن اسم الشاعر الذي كتب هذه القصيدة ووقعها هو /بولوسا-رابي Bullussa-rabi/ ويعني الاسم قوة الشفاء العظمى أو الطاقة المتجددة مما يعود بنا إلى معنى أساسي من معاني ال /مه/. ومن الغرابة بمكان أن نعثر في اسم شاعرنا القديم هذا على اسم شهير آخر هو اسم /بولس/ الرسول الذي حدثت له الرؤيا الشهيرة على أبواب /دمشق/ ودفعته إلى نشر المسيحية في العالم، وكان شائعاً أن اسم بولس لاتيني الأصل.

و تشير القصيدة التي نتحدث عنها إلى /جولا -مه-مه/ على أنها ذات معرفة عالية بأمور الطب. كما أنها تعرف أسرار صنع الأدوية، أيّ فن صناعة الكيمياء ومعرفة الأعشاب والنباتات الضرورية لتركيب الأدوية الضرورية إضافة إلى معرفة أجزاء وتركيب الجسد البشري وتأثير العناصر الطبيعة عليه. هكذا فهي التي تنظم حركة الجسد وهذه خاصة من خاصيات ال /مه/ كما رأينا.

وقبل أن تختتم هذه الصفحات المخصصة لكلمة /مه/ أحببنا أن نشير إلى أنه، وفي اعتقادنا الشخصي، هناك الكثير من الكلمات الغامضة الدلالة في لغاتنا القديمة نستطيع فهمها وإلقاء الضوء على معانيها بالعودة إلى لغتنا المحكية وإلى لغة الطفولة. وعلى سبيل المثال فهناك كلمة أساسية من كلمات الطفولة هي لفظة /م/ التي أعطت لفظة /مم-مم/ التي تستعملها الام وهي تحث رضيعها على رضاعة الحليب الأمومي، أيّ مادة الحياة الأولى. وهي الكلمة التي أعطت كلمة /ماما/ يعني الأم، أصل الحياة والأساس الذي تقوم عليه حياة الإنسان، أيّ مفهوم /مه/ السومري، والكلمة واحدة. وكذلك كلمات سومرية أكادية أمثال /نانا/ و/ست/ وهما يطلقان على الجدة بمعنى السيدة الموقرة وهو معنى الكلمتين في اللغات القديمة. وهناك قرى في المشرق تحمل اسم /مامو/ و/تل مامو/. فيكون اسم /تل مامو/ أم الجبل أو سيدة الجبل وهو ترجمة حرفية للاسم السومري /نين- كور- ساج --Nin kur-sag/ أي، سيدة أو أم الجبل، أو، وأيضاً ال /مه/ أو /ماما/ العالية التي ترى ولا تُرى. إنها القوة الكونية العظمى والطاقة الحيوية الأولى. أو /مم، مم الطفولة/الغذاء/ الأولي. ولا يفوتنا أن في حرف الميم نعثر على كلمة /ماء/ في أقدم لفظ لها /م/. والماء كما لا نجهل، كحليب الأم، أساس الحياة.

كلمة /مه/ تدل أيضاً على التصور السومري للوجود. و/المه/ في صيغة الجمع/ هم الركائز التي تقوم عليها حركة العالم والكون والآلهة والبشر في نظام وانسجام. /المه/ هم العناصر التي تشكل (هارمونيا) الكون. /المه/ أيضاً هم تجسيد وتسمية لكل القوى الخفية واللامرئية وإدخالها في عالم الواقع أو تحويلها إلى واقع مادي ملموس. وفي الحقيقة فبدون إدراك دلالة /المه/ يصعب فهم تصور الكون واستيعاب الفكر اللاهوتي السومري ــ الأكادي في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد. حيث إن قوانين /المه/ المئة (والاحتمال كبير أن يكون معنى الكلمة الرقم مئة، وأن تكون الكلمة السومرية دخلت العربية بنفس المعنى)، ظلت ركيزة من ركائز الفكر في ثقافة المشرق حتى مجيء المسيحية وبعد ذلك الإسلام.

/المه/ هم من ناحية أخرى رموز البنية

الثقافية الأساسية حيث جسد سكان أرض الرافدين القدماء القوى الطبيعية والكونية في أشخاص وفي قيم ومثل ليفهموا هذا الوجود وليحافظوا على تناسقه. وقوانين /المه/ ترسم الخطوط الأساسية للفكر السومري- الأكادي:

العالم القائم يتحكم به ثلاثة أرباب /قوى كونية/ أساسية وخالدة وهي التي تحفظ قوانين /المه/.

هناك أولاً الرب (انو) العلي أو رب السماوات والأعالي. ثم الرب (إنليل) وهو رب الأجواء. إضافة إلى الرب (إنكي) وهو المتحكم في المياه. وتحت سلطة هؤلاء هناك قوى (أرباب) متعددين يمثلون أو يجسدون قوى ومظاهر الكون. إنما الثلاثة الأوائل هم الذين يحرسون الكون بما فيه ويحددون القواعد الأساسية. فالإله (انو أو آن) هو الذي أسس السلالات الملكية /الملك رمز الإله على الأرض / و(إنليل) حدّد النظام السياسي. أما (إنكي) فهو رأس الحكماء الذي يحسم الأمور عندما تتعقد.

/المه/ المثة، أو «المخطط الإلهي البدئي» (بالأصل: كيش -هور-أوصورتوم) -gish-hur-usurtum. يُفترض منها، إذا انصاع لها الجميع، أن تسهر على مستقبل البشر والعمران. أما أحكام /المه/ (بالأصل: غرزا-بارسوم garza-parsum) فهي بمثابة القضاء والقدر (بالأصل: نار -تار-شيمتوم nar-tar-shimtum)، والتي يحددها الآلهة الكبار الثلاثة لكل الكائنات والمخلوقات. وشرائع /المه/ تبين أيضاً تدخل الإلهي في البشري واتحادهما في صورة الكون الكلي. وكل حكم (نار-تار) يُلفظ بالكلام ويصدر ويتحول إلى واقع على مثال /كن فيكون/.

واصطلاح /المه/ نعثر عليه في العديد من الوثائق الأدبية المسمارية. ولكن وكما ذكرنا فالقصيدة التي تحمل اسم (إنانا وإنكي)، والتي تحكي كيفية استيلاء (إنانا)، وعن طريق الحيلة، على بعض أحكام /المه/، هي التي تعطي الصورة الأوضح. والقصيدة هذه مطولة شعرية تتألف من حوالي ٨٠٠ بيت من الشعر، وتعدد أصناف /المه/ التي هي، وكما قلنا أكثر من مرة، أسس العمران في المفهوم السومري- الأكادي. ونعود فنذكر هنا بعض قوانين /المه: الملكية. السلطة.

الوظائف المقدسة. الحب والعلاقة الجنسية. العلاقات الاجتماعية. السعادة. العدالة. السلام. التجارة. الأسفار. نظام السقاية. العلوم التقنية والصناعات المختلفة من صهر المعادن إلى دبغ الجلود. الهندسة المعمارية. فن الكتابة. الطب. الموسيقى والفنون الجميلة. المهارة الذهنية والمعرفة. أيّ كل الأسس التي لا يقوم العمران الإنساني دونها. كل هذه الأسس تُعتبر أيضاً العلاقة التي تربط وشائج ما هو مرئي بما هو غير مرئي، بين ما هو طبيعي وبين ما هو خارق للطبيعة. /اله/ على هذا النحو، وإن بقيت دلالاتها غامضة، فإنها في مجموعها «سلم الارتقاء».

غير أن المعنى يعود ويتعقد حين تأتي الكلمة /مه/ في النصوص مع أفعال وتعابير أخرى. عندئذ تعود دلالات /اله/ فتتنوع. وهكذا يصبح معنى هذا المصطلح «الشيء المرغوب فيه» (بالأصل: ال -دوغ al-dug) أو الشيء الذي يُعطى (سوم sum) أو وأيضاً الشيء الذي يُعطى ويتشارك به الجميع (هال -با hal-ba) أو الشيء الذي نأخذه خلسة أو نسرقه (سا- sa) والذي نحتفظ به (داب شو dab-shu) كما أنه الشيء الذي نحمله باليد (شو-لا- shu-la) كما إننا نتزين به أيضاً (شو-تاغ shu-tag). وهكذا نرى إلى أيّ حد يتعقد مدلول هذا المصطلح الغامض.

كما أننا نجد أن الآلهة هي بنفسها التي تسهر على قيام قوانين /اله/ على العدالة (شي-سا Shi-sa) وأن يتم تحقيق هذه القوانين (شو-دو shu-du)، أي الانتقال من حالة الكمون إلى حالة الوجود. وقوانين /المه/ قد تتعرض للاندثار ولكنها تعود فتظهر لتحكم من جديد مسيرة العالم والحياة وتحفظ النظام الكوني.

في القوانين الرياضية السومرية - الاكادية يرمز /للمه/ بالعددين المكتملين رياضياً ٧و ٥٠ مما يدل على أن مفهوم /اله/ هو مفهوم كوني مكتمل. والكائن الكامل أو المكتمل هو بالضرورة الذي يكتسب أسرار / اله/ المثة (بالأصل: إن -مه/ شار-را. En-me-shar-ra)، حتى لو كان هذا الاكتساب عن طريق الاختلاس /كما فعلت /إنانا مع إنكي في القصيدة السالفة الذكر/.

بعض الباحثين المتخصصين الذين كرسوا العديد من الدراسات الجدية لمفهوم

/الـمـه/ وجدوا، وبعـد تحليل لغـوي عميق ومقـارن لقصـيدة /إنانـا وإنكـي/، وبعد درسـهم للمقابلات اللغوية الأكادية لكلمة / المه/ السـومرية، أن الكلمة تدل في الحقيقة على جوهـر الوجود. وجـود الكائن ووجود الشـيء. إنها «الطاقة الحيوية» للوجود كما هو في الواقع. أي الوجود الإخصـابي الذي لا يكف عن الولادة والموت والولادة من جديد في تجدد مسـتمر ودائم بفعل تلك الطاقة / المه/. إنها طاقة، إذا امتلكها الإنسـان، تدفع بـه إلى الارتقاء وإلى الاكتمـال وبالتالي إلى السـعادة التي هي غاية الوجود. إنها تتيح له كشف حجب غوامض الكون والنفوذ إلى عالم الأسرار وكشـف كل ما هو غامض في الكون. ولكن هناك شرط واحد للتوصل إلى ما سبق ذكره. وهـذا الشرط هو التحلـي بالعدالة. وهنا نصـل إلى مفهوم إنساني أخلاقي يتعلق بالفضـيلة وعالي الأهمية: كل قوانين /المه/ تفقد قواها إذا لم يكن الإنسـان، وحتى الإله، عادلاً.

فيما بعد، ومع تطور اللغة السـومرية مع الزمـن، صـار /للمـه/ دلالات مختلفة أكثر خصوصـية وتدخل في مجال الفلسـفة حيث انتبه المختصون إلى أن الكلمة صارت تُستعمل في نصـوص متأخرة لتدل على (الجوهر) ثم على (جوهـري الذاتي) أو (طاقتي الحيوية) وصـولاً إلى الدلالة على مصطلح (أنا ذاتي) أو، وبتعبير آخر، (أنا نفسي) أو، وأيضاً، (أنا الذي هو أنـا) أيْ وجود الكائن الشخصـي كفرد والذي لا يماثله آخر.

ينبغي أن نذكـر أن علماء آخرين وجدوا في كلمة /المـه/ معادلاً لكلمـة /مانا/ التي تدل على القوى الخارقة للطبيعة الكامنة في اللاشعور، والتي يحصل عليها بعض البشر.

ولقـد اسـتنتجوا أن دلالـة الكلمة هي «قوة الروح الغامضـة» وقالوا إن /المه/ قوة إخصـابية كونية ويدل على ذلك اسـتعمالها في نصوص «الأعراس المقدسة» والتي تهدف طقوسـها ونصوصها الشـعرية إلى إحداث الإخصـاب من خلال رموز العملية الجنسية بين الرجل والمرأة ، وإنها بالتالي، وفي الواقع، محاولة تهدف إلى استحضـار القوى الفائقة للطبيعة التي تسيّر الكون.

كما أننا لا نعدم من أعطى /للمه/ معنى «الأحـكام القدرية» التـي لا مفر منها والتي يخضع لها الآلهة والبشر. وهنا تصير /المه/ بمثابة القضاء والقدر.

غير أنه يبقى من الصعب فهم التصور الأساسي للفكر المشرقي في عهده السومري دون كشف حجب هذه الكلمة الأساسية: ال /مـه/ التي تحتل المكانة الأولى في ذلك الفكر. إنما هذا الدور تلعبه أيضاً كلمة / بارشو/ الأكادية. والكلمتان غامضتان في دلالتهما. هذا إضافة إلى اختلاف المفهوم الديني السومري عن نظيره الأكادي فيما يخص فكرة الخطيئة الأولى التي لا تحتل مركزاً هاماً في التصورات السومرية التي لا تبين على نحو واضح سبب المصائب التي قد يتعرض لها الإنسان. بينما يميل الفكر في عهده الأكادي إلى ربط ما يحدث للإنسان بالقدر أو القرار الإلهي.

إذا عدنا الآن إلى كلمة /بارشو/ فيمكن، وببعض الاجتهادات الشخصية، أن نقول إن الكلمة /بارشو/ ربما أصبحت في الآرامية لاحقاً /بـرخ/ أو / بـورخ/ أو /بوراخـا/ باستبدال حرف الشين بحرف الخاء، وهو استبدال يحدث كثيراً، فنرى أن معنى الكلمة يأخذ معنى /البركـة/ (وهي كلمة متأتية أصلاً من كلمة/بوركا/ أي الركبة التي تدل على الحركة في الساقين. والحركة تدل بدورها على القوة حيث إن مفهوم إعطاء البركة لشخص أو لشيء، هو منحه قدرة الحركة والتكاثر، أيّ، منحه القوة والقدرة. وهكذا نجد أن الكلمة الأكادية في صورتها الآرامية ذات دلالات فلسفية متعددة المعاني ككلمة /مه/ السومرية. ولا ننسى أن نضيف أن كلمة /بـروخ/ قد أعطت فعل /برك/ في اللغة المحكية وهو يعني اليوم /جلس/ أما معناه الأصلي فهو /سجد/ أو /ركع/ بالمعنى الديني. وضمن هذا السياق التحليلي نستطيع أن نلاحظ أيضاً أنه هناك قرية قرب مدينة حلب في سورية تدعى /برسية/ أيّ /بارسه /Barse/ قد نرى فيها ظلالاً لكلمة /بارشو/ الأكادية، والتي هي المعادل لكلمة /مه/ موضوع بحثنا هذا، والشين تقلب سيناً كما نعلم، عندما ننقل كلمة قديمة إلى العربية ككلمة /شلم/ التي تصبح /سلم/. إذا اعتمدنا كلمة /بارسه/ أو وحتى كلمة / بارشو/ فإننا نلاحظ أن الكلمتين تقاربان في اللفظ والمعنى تعبير /ب.رش./ الذي يُعني /برأس/ ويدل على البداية أو البدء. وهو تعبير محفوظ في قولنا /رأس الحكمة مخافة الله./ أيّ بداية أو أول الحكمة مخافة الله.

أصـا اللفظ /باراسـن/، إذا بدلنا الياء بألف، كما يحدث في لغاتنـا القديمة التي لا تدون سوى الأصـوات الصـامتة من الكلمة، ففي نصفه الثاني كلمة /أس/ السومرية الأكادية والتي بقيت في العربية والتي تعني، كما نعلم، الطبيب الذي يواسي المرضى ويشفيهم، وهو الاسـم الذي أعطى فعل /واسـي -يواسي/ بالعربية. كما أننا نرى في القسـم الأخير من الكلمة في شـكليها الأكادي والآرامي شـيئاً مقارباً لكلمة /رش أو راشـو/ الآرامية والتي تعني رش الماء أو سـقي الزرع، أيّ السقاية. معنـى الرش هذا يعود بنـا إلى معنى الكلمة الأكادي الخاص بالطقس الديني، أي الذبيحـة الإلهية، أو الحيوان الذي يُضـحى بـه في المعبد وينفر دمه عند الذبح ويرش ما يحيط به. وأخيراً يجب التنويه إلى أن الكلمة تحتـوي على معنـى /ريشـن/ أيّ /الرأس/ والكل يعرف أن كلمة الرأس تدل على الرئيس وعلى الفكر والعقـل وعلى كل ما هو مرتفع وله مكانة عالية.

إذا عدنـا إلى كلمتنـا الأساسـية /مه/، والتي كما سـبق وقلنـا، تدل علـى المفهوم الأساسـي السـومري حـول الكـون والعالم والمقومـات الضرورية لقيام الحضـارة، أيّ، وبتعبـير آخر، على القوة الكونية التي تتحكم في مصير الخليقة والإنسان والحضارة. فإننا نعثر على هذه الكلمة في العديد من النصوص الأدبية والأسـطورية من العهد السـومري. غـير أن أكثر هذه النصـوص فائـدة لبحثنا هو القصـيدة التي تحمل اسم /إنانا وانكي/ والقصـيدة هذه تحكي حكاية الربة /إنانا/ ربة الخصوبة وسيدة مدينة /أوروك/ مضت إلى مدينـة /إيريدو/ مقام الرب /إنكي/ إله الحكمة، وبالتالي الرب الذي يملك مفاتيح كل القوانين والأسرار الإلهية والمعارف. وعندما تصل /إنانا/ إلى مقر /إنكي/ يقيم لها هذا الأخير وليمة كبرى تكريماً لها واحتفاءً بها. ويحتسي /إنكي/ في هذه السهرة كمية كبيرة من الخمور حتى إنه يروح يترنح من السـكر ويفشي وهو ثمل /لإنانا/ بالقوانين والأسرار الإلهية وواحداً بعد الآخر، وهي تبلغ المئة ١٠٠، والبعض يعتقد أن هذا هو معنى كلمة /مه/، وأن /مه/ ليست سـوى لفظ العدد مئة ١٠٠ وهو أمـر مرجع وقوي الاحتمـال طالما أنه عدد القوانين الأساسية. هكذا تغتنم /إنانا/ فرصة ثمل /إنكي/ وتغادر عائدة إلى مدينتها بعد حصولها على أسرار ال /مه/ ME.

و القصيدة التي نتحدث عنها تتألف في نسختها السومرية من حوالي ٨٠٠ بيت من الشعر وتتضمن تعدد العناصر الأساسية التي لا تقوم الحضارة أو العمران دونها. وعلى هذا الأساس تقوم أهمية القصيدة. إنها بمثابة كتاب الحياة الأساسي. وقد تمكن المختصون من استخلاص أكثر العناصر والقوانين الرئيسية التي تندرج في القصيدة، والتي تشكل بمجموعها أسس أل /مه/ في صيغة الجمع. وهكذا وإضافة لما سبق وذكرناه في الصفحات السابقة فهناك /مه/ السلطة الملكية على الأرض، أي السياسة والحكم، و/مه/ السلطة المقدسة للمعبد، أيّ الجانب الروحي أو الديني من الحياة. ومن ثم فهناك /مه/ العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة /سر استمرار الحياة والتناسل/. ثم /مه/ قبلة الحب. إضافة إلى العهر والدعارة، وإلى تنظيم العلاقات الاجتماعية والحياة الاقتصادية. ثم كل الفضائل التي يجب التحلي بها وعلى رأسها العدل والتأني، وأيضاً المهارة في العمل، أو النقائص التي ينبغي التخلص منها كالكذب وعدم احترام المواثيق. كما تتعرض القصيدة قوانين الحملات العسكرية وطقوس البكاء والندب والسلام والمعاهدات وضرورة استقرار النظام السياسي. وتذكر القصيدة أيضاً ال /مه/ المتعلق بالقوافل التجارية وتربية المواشي ودور الرعاة وتنظيم الري والسقاية وأهمية إعلام الناس، عن طريق إشعال النار كإشارة خطر، بالكوارث الطبيعية كفيضان الأنهار، إضافة إلى ضرورة إطفاء النار في الدار قبل النوم. وهناك أيضاً ال /مه/ المتعلقة بكيفية استخدام وصهر المعادن والعمل على الجلود والاقمشة والقصب ويأتي بعد ذلك الهندسة المعمارية ثم فن الكتابة على الألواح ثم الموسيقى والآلات الموسيقية. ثم نجد، وفي أعلى الدرجات /مه/ الذكاء والمعرفة. هكذا تبدو /المه/ في صيغة الجمع، وكأنها منهاج عمل كامل لبناء الحضارة الإنسانية بكل جوانبها وتفرعاتها المادية والروحية.

☆ ☆ ☆

ظاهرة النفاق عبر التاريخ

عبد الباقي يوسف *

مقدمة:

النفاق أن تظهر أمراً مخالفاً لما أنت عليه. فتدعو إلى أمر وأنت مؤمن بنقيضه وهو لا يكون مع الآخرين فحسب، بل يكون مع الذات أيضاً. والمنافق يعيش حالة ازدواجية متواصلة مع نفسه قبل أن يظهرها للآخرين. ويتوصل المنافق بنفسه مرحلة من الفصام تستولي على كل حركة ظاهرية وباطنية تبدر منه عن شعور وعن غير شعور.

---

* أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان شادي العيسمي.

لا أريد أن يُفهم النفاق على أنه حالة مرضية أو وراثية وأن المنافق هو ضحية مغلوب على أمره، بل الشخص يميل إلى كل مفصل من مفاصل النفاق مع سبق الإصرار، وهو ذاته ينمّي هذا النفاق في ذاته وسلوكه، لأن المنافق هو شخص يستعين بذكائه في ممارسة السلوك النفاقي حتى يستطيع أن ينجح في تمثيل هذا الدور ببراعة وتفوق. أما الشخص المغلوب على أمره أو قليل الذكاء فإن النجاح لا يحالفه في مثل هذه المهمة. وليس عبثاً أن الدين نهى عن النفاق وأعلم المنافقين بأنهم /في الدرك الأسفل من الجحيم/. والناس أيضاً يتقون شر المنافق ويتجنبونه بما أمكن لأن النفاق في واقع الأمر يكاد يجمع بين مختلف النزعات السلبية التي ظهرت في الإنسان غير السوي، فالنفاق أخذ شيئاً من الرياء، وشيئاً من السادية، وشيئاً من السيكوباتية، وشيئاً من المازوخية، وشيئاً من الشيزوفيرنيا. والمنافق يعيش كل هذه النزعات داخله فيبلغ مرحلة متطورة من النفاق إلى أنه يمارس النفاق في كل حركة تبدر منه. والناس يدينون المنافق ويتصرفون معه بغاية الحذر لأنهم يدركون بأنه شخص لا يصدر منه الحق طرفة عين، ويترفعون بأنفسهم على أن يصاحبوا منافقاً.

سيكولوجية الإنسان المنافق

المنافق هو كائن منبوذ في كل الأعراف والأديان والعقائد والتقاليد الاجتماعية، بل حتى في الأنظمة السياسية؛ ففي هذه الأنظمة يوصَم المنافق بـ/الخيانة العظمى/ لكونه يعيش على تراب الوطن ويتشمّس بشمسه وبذات اللحظة يعادي مواطنيه فيكون جاسوساً عليهم بغية إلحاق الأذى بهم وبديارهم، فيعاقب هذا المواطن بارتكاب الخيانة العظمى وهي أعلى عقوبة سياسية وجزائية ووطنية واجتماعية يواجهها مواطن في وطنه. وفي عالم الإيمان وضع الإسلام شرط الإيمان كخطوة أولى دخول أي إنسان كتاب المؤمنين، فإذا تحقق هذا الشرط في نفسه وقلبه واغتسل المرء بمياه الإيمان المباركة، دخل كتاب المؤمنين وصار أحد سكان البيت الكبير الذي باركه الله، وإن لم يتحقق هذا الشرط في نفسه وقلبه ولسانه فإن باب المؤمنين يلبث مغلقاً أمامه حتى لو تظاهر بكل أركان الإيمان، فالإيمان هو الركن الأول الذي يفتح الباب للدخول إلى عالم الأديان،



وهو الركن الأول الذي يُخرج أي مسلم من ملة الأديان والمتدينين.

فليس على الدين من حرج إذا أعلن البعض عدم إيمانه بهذا الدين، وأنه يعيش في قطيعة عن أركان الإيمان، ولكن يلتبس على الدين شيء من الحرج والغموض إذا أعلن هذا البعض إيمانه نفاقاً وهو في دواخله أبعد ما يكون عن الإيمان. فالأول شخص واضح يكون التعامل معه على وضوحه، وهو يتعامل مع المؤمنين في مصالحه وتعامله وواجباته الاجتماعية، وكذلك هم لا يجدون حرجاً من التعامل معه بناء على قاعدة الوضوح التي رخص بها الله في بنية وجوهر العلاقة مابين الناس، وأما الثاني فيعده المؤمنون منهم وفي كتابهم، فيتسنى له إفساد البيت وهو داخله، ولعل /عبد الله بن سبأ/ مثال على ذلك.

كلمة واحدة لها مدلولات متعددة وهي الكلمة /الأحذر/ الموجهة إلى الإنسان وهي كلمة تشبه المشط المغروز أسنانه بالسكاكين الحادة فيأتي التحذير الإنساني السوي ألا تتمشطوا بهذا المشط.

كثيرون يرون بأن النفاق اختفى من عصرنا وأنه كان مقصوراً في أيام الجاهلية ثم إلى سنوات من ظهور الإسلام فأتى الإسلام

وحسم أمره، فانقسم العباد في أيامنا إلى فئتين اثنتين واحدة مؤمنة والأخرى ملحدة.

والواقع هذا مفهوم محدود لقضية هي من أخطر القضايا التي تواجه إنسان كل زمان ومكان لأنه حيثما وُجد الإنسان كان النفاق على مقربة منه وآية النفاق هي آية باقية بقاء الإنسان، لكنه يأخذ أشكالاً وألواناً مختلفة على مدى العصور وربما ظهر في كل عصر بوجه ليحقق الديمومة في تاريخ الإنسان.

يمكن أن نرى في حياتنا شخصاً يقوم بزيارة بيت فكأنه ذاهب إلى بيت مقدس فيتطيب ويصطحب معه ما يأخذ وما إن يدخل باب ذاك البيت حتى يبدأ المديح والثناء والتعظيم لصاحب البيت ويضفي على هذا البيت وصاحبه هالة من القدسية والتكبير والتعظيم وعندما يعود إلى بيته يبدو كأنه قد عاد من مقدس وقد غُفرت له ذنوبه، ويرغم على أهله أن يتعاملوا معه على أنه بالفعل عائد من بيت مقدس، وكيف كان بيتاً عادياً من بيوت الناس وقد دخله طاهراً مغتسلاً وامتثل بين يدَي صاحبه في وقار وخشوع وقدّم إليه ما قدم.

والناس هنا يذهبون في فرق ثلاثة على الأعم، فأما الفريق الأول فإنه قد ذهب فيما ذهب لأمر امرأة يراها أو يختلي بها، وأما الفريق الثاني فإنه ذهب فيما ذهب لأمر مصلحة مالية رغب في كسبها، وأما الفريق الثالث فإنه ذهب فيما ذهب لأمر شيء من خمر على مائدة عامرة يقضي ليله فيها، ويمكن أن تتداخل مآرب متفرعة.

ويمكن أن نرى في زماننا لوناً من النفاق لدى رجل راح يؤله امرأة بغية التقرب منها ومتى ما نال منها مراده تخلى عنها، فهو إذا وجدها انهال عليها بالثناء والتعظيم والتكبير وأضفى عليها هالة من القداسة حتى إنه لا يمسسها كي لا يسيء إلى قداستها، فهو بشر وهي من غير البشر فيقعد بين يديها خاشعاً مستسلماً ذليلاً من خشيتها حتى تشعر معه هذه المرأة المسكينة بأنه عبد وأنها مخلوقة مُنزّلة. ما يهم أن يتعامل الإنسان مع الإنسان على أنه إنسان، وأن يتعامل الإنسان مع الحيوان على أنه حيوان، وأن يتعامل مع الزرع على أنه زرع، وأن يتعامل مع الجماد على أنه جماد.

أمام هذه الألوان نعثر على لون آخر من

ألوان النفاق في زماننا وهو شرك الذات بالله فنقع على شخص يميل كل الميل إلى التكبر والعزة والتعظيم والتجليل أمّا لمال أو لسلطان أو لجاه أو لنفوذ فيتصرف في الناس كأنه إله صغير في الأرض فيأمر بالثواب والعقاب ليس على طريقة البشر ولكن على طريقة الآلهة ويأمر بالعمار والدمار ولا يمشي في الشارع. وبناء على ما في قلبه من مرض فإنه يأمر الناس بالفعل أن يتعاملوا معه بهذه الخصوصية.

لا أريد أن أستعرض أبواب النفاق كلها وهي كثيرة في زماننا ولكنني أضرب مثلاً لأبيّن بأن النفاق لا يقف عند. وعلى هذا فيمكن ملاحظة أن النفاق يتحول لدى فئة من الناس من حالة ظاهرية إلى حالة باطنية فتراها مؤمنة في الظاهر لكن على أساس باطني كله شرك، وتراها تصلي لكن صلاتها لا تزيدها إلا بعداً عن الله، وتراها تصوم وليس لها من صيامها غير الجوع والعطش، وتراها تتلو القرآن والقرآن يلعنها فينتقم الله منها: ﴿وإذا أردنا أن نُهلك قرية أمرنا مُترفيها ففسقُوا فيها فحقّ عليها القولُ فدمّرناها تدميرا﴾ الآية(١٦) من سورة الإسراء.

ونرى تدمير القرى بأشكال مختلفة في زماننا حتى وهي مكتظة بالمساجد ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مُشركون﴾ الآية (١٠٦) من سورة يوسف. عليك أن تميز بين ما هو حق الله وما هو حق الإنسان فما لله هو لله وما للإنسان هو للإنسان وحتى النظرة التي تنظرها إلى الله فإنها تحمل خصوصية لا يجوز أن تنظرها لغير الله.

إن الملائكة تتعامل مع الملائكة على أنها ملائكة، والجن يتعامل مع الجن على أنه جن، والحيوان يتعامل مع الحيوان على أنه حيوان، والزرع يتعامل مع الزرع على أنه زرع، والجماد يتعامل مع الجماد على أنه جماد. إذا كانت أبواب الصدق تقربك من إنسانيتك فإن أبواب النفاق تلك تجردك من كل حالة صفاء لهذه الإنسانية.

ويمكن أن نقع على أشكال متفاوتة في النفاق بين مجتمعاتنا المعاصرة، فنقع على نماذج المنافق السياسي، والمنافق الأخلاقي، والمنافق الوصولي، فنجد شخصاً ينادي بمبادئ وفي ذات الوقت يكون أول من ينتهكها، ونجد مَنْ بح صوته وهو ينادي بالأخلاق، ويكون في حقيقته مجرداً من حرمة الأخلاق،

ونجـد عاملاً يمدح سـنوات في مديره فقط لبلوغ مرتبة عليا.

النفاق في الدين

النفـاق هو حالة مـن الغموض، والمنافق هو شخص ظلامي، فعندما يقول لك شخص بأنه ملحد وتكـون أقواله وأفعاله مبنية على مذهبه فإنـه يبدو واضـحاً أمامك، ولكنك عندما ترى هذا الشخص يطيل ذقنه ويحمل قرآناً بيده ويسـبّح الله في جامع فإنه يتحول إلى كائـن غامض بالنسـبة لك، ورغم أنك لم تكـن تتعامل معه بحذر في الحالة الأولى، إلا أنك سـتنظر إليه بريب في الحالـة الثانية. لهذا دعا النبي أن يكون الإنسـان واضحاً في مواقفه وألا يميل إلى الغمض فيُساء فهمه.

يقول النبي عن شخصية الإنسان المنافق: /آيـة المنافق ثلاث: إن تحـدث كذب، وإن وعد أخلف، وإن أؤتمن خان/.

وكان عليه الصـلاة والسلام إذا مال إلى أمر، أفصـح عنـه بالقول البيّن. تـروي أم المؤمنين عائشـة رضي الله عنها: /كان كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كلاماً فصلاً يفهمه كل من يسمعه/. وفي صحيح البخاري عـن أنس عن النبي: /أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتـى تُفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم، سلم ثلاثاً/.

كل هـذا حتى يبقى الإنسـان واضـحاً ويستطيع أن يمارس حياته بوضوح. قال الله في فئة المنافقين: /لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصـداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشـقة وسـيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسـهم والله يعلـم أنهم لكاذبون/. حتى قال: /ويقلبون لك الأمور/. ثم: /حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ومنهم من يقول ائـذن لي ولا تفتنـي ألا في الفتنة سقطوا/. وقال الله: ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنّكم والله يشهد أنهم لكاذبون﴾ الآية(١١) من سـورة الحشر.

وبلغـت المواجهة بـين المسـلمين والمنافقين حداً أنزل الله فيه سـورة من القرآن حملت اسـم /المنافقين/ وبدأ المسـلمون عند ذاك يطردون المنافقين من المسـاجد، فعندما رأى النبي صـلى الله عليه وسلم أن هذه الظاهرة تفاقمت وتسربت إلى بيوت الله، وذات يوم رأى أناساً منهم يتحدثون خافضي أصواتهم وقد

لصق بعضهم ببعض، أمر بطردهم، فقام أبو أيوب، خالد بن زيد بن كليب إلى عمرو بن قيس أحد أبناء بني غنم بن مالك بن النجار -وكان صاحب آلهتهم في الجاهلية- فأخذ برجله فسحبه حتى أخرجه من المسجد وهو يقول: أتخرجني يا أبا أيوب من مربد بني ثعلبة ؟!. ثم أقبل أبو أيوب أيضاً إلى رافع بن وديعة، أحد بني النجار فلببه بردائه ثم نتره نتراً شديداً، ولطم وجهه ثم أخرجه من المسجد وأبو أيوب يقول له: أف لك منافقاً خبيثاً، أدراجك يا منافق من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقام عمارة بن حزم إلى زيد بن عمرو وكان رجلاً طويل اللحية، فأخذ بلحيته فقاده بها قوداً عنيفاً حتى أخرجه من المسجد، فقال: خدشتني يا عمارة قال: أبعدك الله يا منافق، فما أعد الله لك من العذاب أشد من ذلك، فلا تقربن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقام أبو محمد مسعود بن النجار إلى قيس بن عمرو بن سهيل، وكان قيس غلاماً شاباً، وكان لا يعلم في المنافقين شاباً غيره، فجعل يدفع في قفاه حتى أخرجه من المسجد. وقام رجل من بلحدرة بن الخزرج، رهط أبي سعد الخدري يقال له عبد الله بن الحارث إلى رجل يقال له الحارث بن عمرو، وكان ذا جمة، فأخذ بجمته فسحبه بها سحباً على ما مر به من الأرض حتى أخرجه من المسجد. فقال: لقد أغلظت يا بن الحارث. أجابه ابن الحارث. إنك أهل لذلك، أي عدو الله لما أنزل الله فيك فلا تقربن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنك نجس[1]. قال الله: /ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون/. ويقول: /وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون/. ويقول الله فيهم: ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾ الآية(١٣) و(١٤) من سورة البقرة. ويصفهم الله وقد ضرب بهم مثلاً: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾ الآية (١٧) من سورة البقرة.

مثل النفاق في الناس كمثل جسد فسد فيه عضو خفي لبث يصدر الفساد حتى أتى على كامل الأعضاء، لا يمد المنافق خطوة لإفساد غيره قبل أن يكون قد مدها لإفساد نفسه لأن النفس الصالحة لا تنجح في مهمة إفساد غيرها قبل أن يتحقق فيها فساد. ينهى الله الناس عن النفاق حتى لا يكونوا منافقين. يقول محيي الدين بن عربي بأن الله ذم المنافق ويقول في ذي الوجهين وهو المنافق: إنه يقول آمنا بالله وبما جاء من عند الله وليس كذلك، وإنما يفعل ذلك خداعاً لله والذين آمنوا، وجعل الفساد صلاحاً، والصلاح فساداً، والإيمان سفهاً، والمؤمنين سفهاء، ويأتي المؤمنين بوجه يرضيهم، ويأتي الكافرين بوجه يرضيهم، فأخبر الله بأن هؤلاء هم الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، وأنهم الصم عن سماع ما ذكّرهم الله به، والبكم عن الكلام بالحق، العمي عن النظر في آيات الله. يتبين من هذه الأمثلة التي وردت في الإسلام بأن المنافق يبتغي بنفاقه أن يشوّه الحقائق ويعتمد في مهمته على التردد إلى الأماكن الآهلة بالسكان. فالمنافق لا يحقق شروط النفاق إذا لبث في مسكنه وأحكم الباب على نفسه، وعندها ليس مطلوباً من أحد أن يدخل بيته ويتهمه بالنفاق، فالنبي صلى الله عليه وسلم أمر بطردهم عندما تسربوا إلى مسجده ومسلميه وابتغوا الفساد والشقاق. وبذات الوقت فإن النبي يقعد إلى الكافر ويدعوه إلى دين الله الجديد لأن الكافر في حقيقة الأمر هو شخص واضح معني بالرسالة، ومن أصحاب النبي من كانوا كفاراً ولكنهم لم يكونوا منافقين. ثمة حديث آخر للنبي ورد في صحيحَي البخاري ومسلم يوضح فيه أن الإنسان يمكن له أن يحمل خصلة من نفاق، ففي صحيحيهما عن عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر[٦]. فالنفاق هو قول وفعل وممارسة، والشخص لا يكون منافقاً بكلمة تقال له أو بفعل يُساء فهمه فيه أو حتى بكذب اضطر إليه، بل وحتى بكذب وجد نفسه فيه مضطراً. وحتى يحمي

الديـن مؤمنيه من النفاق فقد وضـع قاعدة ثابتـة تيسر لهم بعض المواقف المحرجة التي يتعرضـون لها فأباح فيهـم أن: /الضرورات تبيـح المحظورات/ و: /من اضـطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه/. ولكن المنافق لاشـيء يضـطره إلى النفاق والدين نفسه يقول: /لا إكـراه في/ ومـن هنا تميـز المنافق عن غير المنافـق وجاء النبي صـلى الله عليه وسـلم موضـحاً هذا التمييز بينهما: /ليس الكذاب الذي يصـلح بين الناس فينتمي خيراً ويقول خـيراً/[٣]. وفي رأي لأبي حامد الغزالي يقول فيه: /الكلام وسـيلة المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن التوصـل إليه بالصدق والكذب جميعـاً، فالكـذب فيه حرام لعـدم الحاجة إليه، وإن أمكن التوصـل إليه بالكذب ولم يكن بالصـدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذاك المقصود مباحاً، وواجب إن كان المقصود واجباً، فإذا اختفى مسلم من ظالم وسأل عنه، وجب الكذب بإخفائه، حتى لو أخبره بوديعة عنـده فأخذها الظالم قهراً، وجب ضـمانها علـى المودع المخبر، ولـو اسـتحلفه عليها، لزمـه أن يحلف يوري في يمينـه، فإذا حلف ولم يـور، حنث على الأصـح وقيل لا يحنث، وكذلك لو كان مقصود حرب أو إصلاح ذات البين أو اسـتمالة قلب المجنى عليه في العفو عـن الجناية لا يحصـل إلا بكذب، فالكذب ليس بحرام، وهذا إذا لم يحصـل الغرض إلا بالكذب/[٤]. ويقول: /الذي له مثل أن يأخذه ظالم ويسـأله عن ماله ليأخذه، فله أن ينكره، أو يسأله السلطان عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها، فله أن ينكرها ويقول: مازنيت، أو ما شربت مثـلاً/[٥]. حدث هذا كله حتى يتميـز المؤمن عن المنافـق ولا يخلط الحابل بالنابل، إضافة إلى ذلك فقد يجنح مؤمن إلى ذنب وهو مؤمن، لكنه يسـتر نفسـه في ذنبه، والدين هنا يبيح له أن يسـتر نفسـه في ذنبه وألا يبـوح بـه لأحد، ويطلـب العفو من ربه بالسر، في حين أن المنافق يقوم بنشر الفاحشة بغية الترويج لهـا وجعلها قاعدة. وفي جميع الأحوال فـإن النوايا هي التي تحدد الأفعال وقد جاء في بيان رسـول الله صلى الله عليه وسـلم: /إن العبد لا يُكتب في المسلمين حتى يسـلم الناس من يده ولسانه، ولا ينال درجة المؤمنين حتى يأمن جاره بوائقه، ولا يعد من المتقين حتى يدع مـالا بأس به حذراً مما به البأس. أيها الناس أنه من خاف البيوت أدلج،

ومن أدلج في السير وصل، وإنما تعرفون عواقب أعمالكم لو قد طويت صحائف آجالكم، إنه نية المؤمن خير من عمله، ونية المنافق شر من عمله/[٦]

خرج مسلم عن محمد بن أبي عمر عن سفيان عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال: قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم فيلقى العبد فيقول: ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى يا رب فيقول: أفظننت أنك ملاقيّ؟ فيقول: آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع فيقول: ههنا إذن. قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهداً عليك. ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي؟! فيختم على فيه ويقال لفخذه: أنطق. فينطق فخذه ولحمه وعظامه بعلمه، وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق، وذلك الذي سخط الله عليه/[٧].

عندما شاء الله أن يخلق الإنسان تحاورت معه الملائكة بأنه يجعل من يفسد ويسفك الدماء /ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك/ ولكن الله يجيب على الكلام المستقبلي الذي تقوله الملائكة عن الإنسان: /إني أعلم ما لا تعلمون/ فإذا سواه الله ونفخ فيه من روحه فقعوا ساجدين.

ثم مرد إبليس خارجاً عن طاعته ورافضاً مشيئته، وعندما اكتمل الإنسان الأول وغدت له خصوصيته الخلقية المستقلة أول ما فعله هو أن عصى الله وخرج عن طاعته، بيد أن الله وأمام تراجع هذا الإنسان عن الخطيئة عفا عنه. ومرة أخرى عندما أنجب هذا الإنسان ولده الأول فإن هذا النسل الأول أول ما فعله هو أن سفك دم أخيه الأول. ولكن الله لبث يعفو عن الإنسان وغدا يوجهه نحو السلم والتكاثر والعفو، فأنزل كلامه على عباده وكل هذا الكلام هو درس وعلم وتوجيه وتربية من الله للإنسان، ولكن الإنسان مرة أخرى يقتل الأنبياء ويرفض الكتب الموجهة إليه ويستمر في المعصية والشر والطغيان، وإلى جانب ذلك لبث الله يعفو عنه ويستمر في إرسال الأنبياء والرسل في سبيل أن يرتقي الإنسان إلى أن يكون سلماً وعفواً وإشراقاً في حديث عن الحارث الأشعري عن النبي

أنه قـال: /إن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسـلام عن عنقه إلا يراجع، ومن دعا بدعـوى الجاهليـة فإنه من جثى جهنم. فقال رجل: يا رسـول الله وإن صـلى وصام؟ قال: وإن صلى وصام فادعوا بدعوى الله الذي سـماكم المسـلمين والمؤمنين عباد الله/[٨]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: /تجيء الأعمال يوم القيامة فتجيء الصلاة فتقول: يا رب أنا الصـلاة. فيقـول: إنك على خير. ثم تجيء الصـدقة فتقول: يارب أنا الصدقة فيقـول: إنك على خـير ثم يجيء الصـيام فيقول: يا رب أنا الصـيام فيقول: إنك على خير ثم تجيء الأعمال على ذلك فيقول: إنك على خـير ثم يجيء الإسـلام فيقول: يا رب أنت السـلام وأنا الإسـلام فيقول: إنك على خـير، بك اليوم آخذ وبـك أعطي/[٩]. وقال الدرامـي: أخبرنا الحكم بن المبـارك أنبأنا عمر بن يحيى قال: سـمعت أبي يحدّث أبيه قال: كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صـلاة الغداة فإذا خرج مشينا معه إلى المسـجد فجاءنا أبو موسـى الأشعري فقال: أخرج إليكم أبو عبد الرحمن بعد؟

قلنـا: لا، فجلس معنا حتـى خرج، فلما خـرج قمنا إليه جميعاً فقال له أبو موسـى: يا أبا عبد الرحمن إني رأيت في المسجد آنفاً أمراً أنكرته ولم أرَ والحمد الله إلا خيراً، قال: ما هو؟ قال: إن عشـت فستراه قال: رأيت في المسـجد قوماً حلقاً جلوساً ينتظرون الصلاة في كل حلقة رجل وفي أيديهم حصـى فيقول كبروا مئـة فيكبرون مئة، فيقـول هللوا مئة فيهللون مئة، ويقول: سـبحوا مئة فيسبحون مئة، قال: فماذا قلت لهم؟ قلت: ما قلت لهم شـيئاً انتظار رأيك وانتظار أمرك، قال: أفلا أمرتهم أن يعدوا سـيئاتهم وضـمنت لهم ألا يضيع حسناتهم شيء؟ ثم مضى ومضينا معه حتـى أتى حلقة من تلك الحلق فوقف عليهم فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الله حصـى نعد به التكبير والتهليل والتسـبيح، قال: فعدوا سيئاتكم فأنا ضامن أن لا يضـيع من حسناتكم شـيء، ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم، هؤلاء صـاحبة نبيكم صلى الله عليه وسلم متوافرون، وهذه ثيابه لم تبل، وآنيته لم تكسر، والذي نفسي بيده إنكم لعلـى ملة هي ما أردنـا إلا الخير قال وكم من مريد للخير لن يصـيبه، إن رسـول

الله صـلى الله عليه وسـلم حدثنا أن قوماً يقرؤون القـرآن لا تجاوز تراقيهم، وأيم الله لعل أكثرهم منكم، ثم تولى عنهم فقال عمرو بن سلمة: رأينا عامة أولئك الحلق يطاعنوننا يوم النهروان مع الخوارج. وفي الصـحيـح: /من فارق الجماعة شبراً فميتته جاهلية/.

لقد جاء الإسـلام لينشر رسـالة السـلم في النـاس، وأي مـكان يحقـق للناس هذه الرسـالة يكون بيتاً من بيوت الله، وأي مكان يفرق الناس ويدعوهـم إلى التهلكة والعداوة والبغضاء يكون بيتاً من بيوت الشيطان. لقد ألف الله بين قلوب الناس برسـالة الإسـلام وجعلهم بنعمته إخواناً.

في كل الاتجاهـات تأتي الاديـان لتعزز حالة الإنسانية في الإنسان، تجعله يشرق بنور إنسانيته على ذاته وعلى العالم. والإسلام هو دين الإنسان منذ بدء الخليقة، لكنه يأتي عبر رسل وأزمان وظروف وبأشكال ولغات مختلفة اختلاف الناس. لقد كان الإنسان بحاجة إلى الإسلام فأنزله الله عليه خيراً وسلاماً ورحمة ليس للمسـلمين فحسب بل للعالم كافة، ولكل مخلوق خلقه الله، فيمكن لشخص ما أن يكف أذاه عن إنسان أو عن حيوان أو عن نبات من خلفية الإسـلام، ولا يمكن لهذا الشخص أن يلحـق الأذى بكائن إلا إذا خـرج عن تعاليم الإسلام، ففي اللحظة التي يعتدي فيها على حقوق الآخرين سيكون قد ناقض تعاليم دينه حتى لو كان في بيت من بيوت العبادة، وعندها سيفقد بيت الله هذا خصوصيته الإسلامية، وينزع الله منه نوره لأنه ما عاد يؤدي مهمته في نفع النـاس وما عاد بيتـاً من بيوت الله وقد انطفأ فيه نوره.: /أقبل رسول الله صلى الله عليه وسـلم حتى نزل بذى أوان بلد بينه وبين المدينة سـاعة من نهار، وكان أصـحابُ مسـجد الضرار قد كانوا أتـوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسـجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشـاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنـا فيه فقال: (إني على جناح سـفر، وحال شغل)، أو كما قال صلى الله عليه وسلم (ولو قد قدمنا إن شـاء الله لأتيناكم، فصلينا لكم فيه). فلما نزل بذى أوان، أتاه خبر المسـجد، فدعا رسـول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدُّخشُـم، أخا بني سالم ابن عوف، ومعن بن عدي، أو أخاه عاصـم بن عدي، أخا بني العجلان، فقال: (انطلقا إلى المسـجد الظالم

أهلــه، فاهدمــاه وحرقــاه) فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشـم، فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار مـن أهلي، فدخل إلى أهله، فأخذ سـعفاً مـن النخل، فأشـعل فيه ناراً، ثم خرجا يشـتدان حتى دخـلاه، وفيه أهله، فحرّقاه وهدّماه، وتفرقـوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل: (والذين اتخذوا مسـجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين)(١٠).

ورد في صـحيح مسلم أن رسول الله قال: ((تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صـلاة المنافق، يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شـيطان قام فنقـر أربعا لا يذكر فيهـا إلا قليلا))(١١). ثمـة حادثة وردت في (فتـح الباري) وفيها أن أهل الشـام يقرؤون بقراءة أبي بن كعب، فيأتون بما لم يسـمع به أهل العراق، وهؤلاء يقرؤون بقراءة عبد الله بن مسعود، فيأتون بما لم يسمع به أهل الشام، فخطأ بعضهم بعضا. وكان ممن رأى الخلاف حُذيفة بن اليمان -صـاحب سر رسـول الله صلى الله عليه وسـلم- فسمع ناساً من أهل حمصـ يزعمون أن قراءتهـم خير من قراءة غيرهم، وأنهـم أخذوا القرآن عـن المقداد، ورأى أهـل البصرة يقولـون مثل ذلك، وأنهم قرؤوا على أبي موسـى الأشـعري، فغضب حُذيفة حـين رأى ذلك واحمرت عيناه، فقام في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قـال: /هكذا كان منْ قبلكـم اختلفوا، والله لأركـبن إلى أمير المؤمنـين/. وجاء فزعاً إلى المدينـة، ولم يدخـل بيتـه حتى أتـى عثمان فقال له: /يـا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبـل أن يختلفوا في الكتـاب اختلاف اليهود والنصـارى/. وقد صـادف ذلك أن اختلافاً مثله وقـع في المدينـة بين متعلمـي القرآن ومعلميه، فتعاظم ذلك في نفسه فخطب الناس فقال: /أنتم عندي تختلفـون وتلحنون فمن نأى عني من أهل الأمصار أشد فيه اختلافاً وأشـد لحناً. ثم قال: اجتمعوا يا أصـحاب محمـد فاكتبوا للنـاس إمامـاً. فلما اجتمع الصحابة عنده ذكرهم في أمر اختلاف الناس في القراءة، وقال: فقد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتـي خير من قراءتـك، وهذا يكاد أن يكون كفراً. فقالوا له: فما ترى؟ قال: أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة ولا اختـلاف/(١٢). وقد واجه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حشـوداً من هؤلاء

الذين يتزيون بزي الإســلام ويبنون مساجداً في سبيل تحقيق هذه الفرقة في الناس يصف هذه الفرق بقوله: /أخلاقكم دقاق، وعهدكم شـقاق، ودينكم نفاق، ومأوكــم زعاق والمقيم بين أظهركم مرتهن بذنبه، والشاخص عنكم متدارك برحمــة من ربه، كأني بمســجدكم كجؤجؤ سـفينة قد بعـث الله عليها العذاب من فوقها ومن تحتها وغرق من في ضــمنها. ويصــف الذي يفتي لهؤلاء: قد ســماه أشباه الناس عالماً وليس به، جلس بين الناس قاضياً ضــامناً لتخليص ما التبســ على غيره، فإن نزلت به إحدى المبهمات هيأ لها حشواً رثاً من رأيه، ثم قطع به، فهو في لبس الشـبهات في مثل نســج العنكبوت لا يدري أصــاب أم أخطأ، فإن أصــاب خاف أن يكون قد أخطأ وإن أخطأ رجا أن يكون قد أصاب/[١٣].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: كان الناس يســألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وأنا أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت يا رســول الله إنــا كنا في جاهلية وشرّ فجاءنــا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟

قال: نعم، فقلت: وهل بعد هذا الشر من خـير؟ قــال: ((نعم وفيه دَخَــن)) قلت: وما دَخَنه؟ قال: قوم يستنون بغير سنتي ويهتدون بغير هديــي تعرف منهم وتنكــر، قلت: فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم فتنة عمياء ودعاة على أبــواب جهنم مــن أجابهم إليها قذفوه فيها)) قلت: يا رســول الله صفهم لنا قال: ((قوم من جلدتنا ويتكلمون بألسـنتنا - قلت يا رسول الله ما تأمرني إن أدركت ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصــل شــجرة حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك)).

وقد شــاء الله أن يخص المنافقين بسورة في كتابــه العزيز يقــول فيهــا: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشــهد إنك لرسول الله والله يَعْلَمُ إنك لَرَسُــولُهُ والله يشــهد إنَّ المنافقين لكاذبون ۝ اتخذوا أيمانهم جُنَّةً فصدُّوا عن ســبيل الله إنهم ســاء ما كانوا يعملون ۝ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهــم لا يفقهــون ۝ وإذا رأيتهــم تعجبك أجســامهم وإن يقولوا تســمع لقولهم كأنهم خُشُبٌ مسندة يحسبون كلَّ صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنَّى يؤفكون ۝

وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوَّوا رؤوسهم ورأيتهم يصدُّون وهم مستكبرون ۞ سَوَاءٌ عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ۞ هم الذين يقولون لا تنفقوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضُّوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ۞ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزّ منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ۞ يا أيها الذين آمنوا لا تُلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ۞ وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموتُ فيقول ربي لولا أخَّرتني إلى أجل قريب فأصَّدَّق وأكن من الصالحين ۞ ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلُهَا والله خبير بما تعملون﴾.

المراجع

١- عن سيرة ابن هشام ج٢ص ١٣٦ - ١٣٧ط٢ دار الحديث، القاهرة ١٩٩٨.

٢- عن الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار للإمام النووي، ص ٣٣٦، باب النهي عن الكذب وبيان أقسامه، مكتبة الغزالي١٩٧١.

٣- المرجع السابق ورد في صحيحي البخاري ومسلم عن أم كلثوم رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً. وأم كلثوم هي بنت عقبة بن أبي معيط القرشية الأموية أخت عثمان بن عفان لأمه وهو الحديث الوحيد الذي ورد لها في الصحيحين.

٤- المرجع السابق ص ٣٣٦- ٣٣٧.

٥- المرجع السابق ص ٣٣٧.

٦- نقلاً عن كتاب /الوصايا/ لابن عربي، ص ٢٨٩، دار الإيمان ١٩٨٦دمشق قال ابن عربي: /معناه موجود بالأحاديث صحيحة متفرقة ولم أجد نصه.

٧- الحديث أخرجه الترمذي وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه. رواه أبو داود في /السنة/ باب /في الرؤية/، والترمذي رقم ٢٥٥٧ في صفة الجنة باب /ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى/ وهو حديث صحيح.

٨- رواه أحمد والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

٩- رواه أحمد.

١٠-هكذا رواه ابن اسحاق من غير اسناد. وذكره ابن كثير في تفسيره (١٣٩/٤) والشوكاني في /فتح القدير/ ٢م٥٦٨من طريق ابن اسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر وابن قتادة وغيرهم مرسلاً. سورة التوبة، الآية١٠٧.

١١-أخرجه مسلم في صحيحة: كتاب المساجد باب التكبير بالعصر رقم: ٦٢٢. وأبو داود في سننه: كتاب الصلاة، باب في وقت صلاة العصر رقم ٤١٣، والترمذي في سننه كتاب المواقيت، باب ما جاء في تعجيل العصر رقم ١٦٠.

١٢-تفسير الطبري ٢١/١ فتح الباري ١٥/٩.

١٣-نهج البلاغة -ج١ ط٢ - دار الأندلس - بيروت ١٩١٣.

طرق البحث في الآثار وعلم الإنسان الطبيعي

محمد الخطيب *

تهتم الآركيولوجيا Archeology (علم الآثار) بدراسة العناصر المادية التي تساعد على وصف وتفسير تطور الثقافات الإنسانية، فالآركيولوجي يقوم بدور المؤرخ بين علماء الأنثروبولوجيا إذ يحاول إعادة بناء الوقائع كما حدثت في الماضي، ولكنه يختلف عن المؤرخ في أن الأخير يهتم فقط بالتاريخ المكتوب منذ عدة آلاف من السنين، أما الآركيولوجي فيرجع بدراسته إلى عدة ملايين من السنين لمتابعة نمو الثقافة الإنسانية قبل التوصل إلى معرفة الكتابة، ولهذا فإنه يعتمد على الأشياء التي تركها الإنسان

* أديب وباحث سوري

- العمل الفني: الفنان مطيع علي.

القديم في تجميع الشواهد التي توضح كيفية نمو الثقافات القديمة وانتشارها واتصالها بعضها ببعض.

وتهتم الأنثروبولوجيا الطبيعية Physical Anthropology (علم الإنسان الطبيعي) بدراسة الإنسان ككائن بيولوجي، ولها مجالات رئيسية يُعنى بها علماؤها كدراسة التطور البشري من خلال تحليل الحفريات وملاحظة سلوك الرئيسيات المختلفة. ويرى المختصون بهذا المجال أن جنس الإنسان العاقل قد تطور من أجناس بشرية أخرى.

وتعد نظرية التطور من أهم موضوعات هذا القسم. وهي النظرية القائلة بأن الأجناس والأنواع تتطور وتتغير أجسامها ووظائف أعضائها أثناء تكاثرها على مر العصور، وتحدد سلسلة طويلة من الأجناس الحية التي تبدأ بالخلية الواحدة وتنتهي بالإنسان العاقل، أكثر الأجناس تطوراً وتعقيداً.

يهتم علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية بدراسة الخصائص الجسمية للسلالات البشرية ودراسة هجراتها وتحركاتها وتأثير العوامل الجغرافية من مناخ وإقليم في أسلوب حياتها.

إن العلماء المحدثين في الأنثروبولوجيا الطبيعية يستعينون الآن بعلم الوراثة والكيمياء العضوية من أجل تحقيق مزيد من الفهم للتنوع البشري، وأساليب التكيف لدى الجماعات المختلفة مع البيئات التي تعيش فيها[1].

وهكذا فإن الأركيولوجيا والأنثروبولوجيا الطبيعية هما فرعا الأنثروبولوجيا اللذان يهتمان بصفة خاصة بماضي الإنسان، ويوجد في محيط الأركيولوجيا علماء تخصصوا في الكشف عن ماضي الثقافات ذات التاريخ المكتوب وآخرون تخصصوا في الكشف عن ثقافات ما قبل التاريخ وهي تشكل أكثر من ٩٧٪ من تاريخ الثقافة الإنسانية على الأرض، ونظراً لعدم توفر سجلات مكتوبة في الحالة الثانية فإن تحديد الزمن لكل ما يعثر عليه العلماء مما أنتجه الإنسان في الماضي يصبح مسألة حيوية بالنسبة لهم، إذ تتوقف عليها قدرتهم على وضع تصور ملائم لما حدث في العصور المبكرة للإنسان، وفي محيط الأنثروبولوجيا الطبيعية يتخصص بعض العلماء في تتبع تطور النوع البشري في حين يتخصص آخرون في مجالات التنوع

البشري القائمة حالياً بين الشعوب المختلفة.(٢)

١- مصادر المعلومات:

بقدر اهتمام الأركيولوجيين بالعثور على الأشياء التي صنعها الإنسان القديم من أدوات حجرية أو فخارية أو مقار للإقامة أو لإيقاد النار أو غير ذلك، فإن علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية يهتمون بالعثور على الحفريات التي تعبّر عن التطورات السابقة للإنسان في مختلف العصور، فهذه الأشياء المصنوعة التي خلّفها الإنسان القديم وكذلك الحفريات تمثل إذاً المادة الخام التي يستخدمها هؤلاء العلماء في محاولاتهم إعادة بناء الماضي، ولهذا يهتمون بتطوير الأساليب التي تساعدهم على تحديد المواقع التي يمارسون فيها أعمال التنقيب، وعلى اتخاذ أفضل الوسائل للكشف عن الشواهد التي يبحثون عنها وتحديد تواريخها. فنقطة البدء دائماً في الحصول على مصادر



المعلومات هي تحديد الموقع الذي تجري فيه عملية التنقيب، وبعض المواقع تكون الآثار ظاهرة فيها للعيان كما هو الحال بالنسبة لحضارة المصريين القدماء، ولكن معظم المواقع تبدو فيها مخلفات العصور القديمة في صورة أكوام كبيرة من الركام والأحجار كما هو الحال في بعض المناطق الساحلية في أوروبا الشمالية حيث كان الإنسان القديم

يعيش في الكهوف والملاجئ الصخرية، ويتم الكشف أحياناً عن هذه الأماكن خلال عمليات الحفر لمد خطوط السكك الحديدية أو الأنابيب أو حفر المناجم أو غير ذلك، كما يستدل عليها عندما تكون مطمورة تحت الحقول بملاحظة أن النباتات التي تنمو فوقها تكون مختلفة في بعض خصائصها عن النباتات المحيطة بها، ويمكن الاستعانة في ذلك أيضاً بالتحليل الكيميائي للتربة للكشف عن عناصر الفوسفات والكالسيوم والفوسفور التي تُعبّر عن وجود العظام وبعض المواد العضوية الأخرى، ويلجأ بعض الباحثين إلى الاستعانة بالتصوير الجوي في ملاحظة مثل هذه الأماكن لأنها تهيّئ محيطاً أوسع للملاحظة، وقد يستدل عليها من خلال قطع الفخار المتناثرة وعندئذ يحتاج الباحث إلى إجراء اختبار المقاومة الكهربائية لمعرفة مدى إمكانية التنقيب في المنطقة، ويستخدم الجهاز الخاص بذلك في إرسال شحنات كهربية إلى باطن التربة على أبعاد مختلفة ثم قياس استجابة كل جزء للشحنة على أساس أن الاستجابات تختلف بحسب المكوّنات الموجودة تحت سطح الأرض، وهذه الطرق وغيرها تساعد على الكشف عن المواقع التي كان يعيش فيها السكان القدامى أو يذبحون فيها حيواناتهم أو يصنعون فيها أدواتهم ووسائلهم الإنتاجية أو يستخرجون منها قطع الأحجار أو المعادن اللازمة لهم أو يدفنون فيها موتاهم أو يقيمون فيها طقوسهم وشعائرهم. ويحمل اكتشاف أحد مواقع التنقيب أهمية كبيرة لكل من الأركيولوجي والأنثروبيولوجي الطبيعي على حد سواء، فالأول يبحث عن الأشياء التي صنعها وخلفها سكان الموقع وكذلك كل البيانات التي يستطيع استخلاصها عن حياتهم وعلاقاتهم بالبيئة المحيطة بهم. والثاني يبحث عن السمات الفيزيقية (الطبيعية) للهياكل والبقايا العظمية لهؤلاء السكان، ولكن توجد بعض المواقع التي أخذت أهمية خاصة في تاريخ الأنثروبولوجيا الفيزيقية نظراً للعثور على أجزاء عظمية فيها تشير إلى مراحل معينة من التطور البيولوجي للإنسان، ويطلق أحياناً على الإنسان الذي يميز كل مرحلة منها اسم الموقع الذي عثر عليه فيه مثل إنسان جاوة وإنسان بكين وإنسان صولو، ومن المواقع الحديثة ذات الأهمية بالنسبة لكل من

الأركيولوجي والأنثروبولوجي الطبيعي موقع (أولدفاي) في تنزانيا الذي كان في الزمن القديم بحيرة تعيش على جوانبها جماعات من إنسان جنوب إفريقيا، وشهد مراحل متعاقبة من تطورات هذا الإنسان تشكل ثروة علمية كبيرة للمتخصصين في هذا المجال. فالباحث الأركيولوجي إذن يستطيع أن يركب صورة تقديرية لحياة الإنسان القديم من خلال دراسته للأشياء والمعالم التي يتم العثور عليها في مواقع التنقيب، ولهذا فهو يحرص في كل موقع على أن يتعرف على التفصيلات الدقيقة لكل هذه الأشياء والمعالم فلكل منها أهميته بالنسبة له، فموقع المعيشة مثلاً يعطيه صورة عن حجم السكان الذين كانوا يقيمون فيه من خلال شكل المكان ومساحته، وإذا اكتشف مكان الدفن فإنه يقدم مؤشرات تقريبية عن هذا الحجم أيضاً، كما يمكن معرفة نوع الحياة التي كانوا يعيشونها من حيث الصيد والالتقاط أو الزراعة من خلال فحص عظام الحيوانات والمخلفات النباتية وخاصة عندما يتم العثور على بعض القدور التي كانت تُخزن فيها الحبوب، كما أن انطباع أشكال الحبوب والنباتات وآثار الحيوانات على الطين ثم تحولها إلى حفريات بعد ذلك يمكن أن يكون دليلاً لا يقل أهمية عن الأشياء الأصلية ذاتها.[3]

ويمكن كذلك استنتاج بعض الأفكار والتصورات عن التنظيم الاجتماعي للسكان عن طريق العثور على أماكن تشير إلى تجمعات عامة أو مخازن أو طرق بين المساكن، وأيضاً بعض الأفكار عن التفاوت الاجتماعي عندما تتم ملاحظة فروق واضحة بين مقار الإقامة أو تركيز الأشياء ذات القيمة كالأحجار الكريمة في أماكن محددة، وكذلك عن عمليات التجارة عن طريق اكتشاف بعض الأشياء المعيّنة كالأصداف البحرية والزجاج البركاني التي تشير إلى أنها جلبت من أماكن بعيدة، وتقدم أماكن قتل الحيوانات مؤشرات أقل مما تقدمه أماكن الإقامة ولكنها يمكن أن تقدم شاهداً في بعض الحالات على عمليات الصيد الجماعي، فقد أظهر بعض المواقع أن السكان كانوا يطاردون قطعان الجاموس ويحاصرونها حتى تقع من فوق الحافة العالية ثم يذبحونها ويجففون بعض لحومها للتغذي عليها فيما بعد وقد عثر في الموقع على كميات كبيرة من العظام، أما

أماكن الصناعة واستخراج الأحجار والمعادن فإنها تكشف عن الأساليب التكنولوجية وصناعة الأدوات المختلفة، كما توضح أماكن إقامة الشعائر والطقوس نوع الحياة الروحية لديهم، ويساعد في هذا الصدد أيضاً ملاحظة الأشياء التي تدفن مع الموتى والنقوش التي تسجل أحياناً على جدران الكهوف.

أما الباحث الأنثروبولوجي فإنه يهتم بصفة خاصة بالبقايا العظمية الطبيعي التي يتم العثور عليها والتي تمثل المراحل المختلفة لتطور الإنسان كالأسنان وعظام الفك والجماجم والعظام الأخرى بالجسم، وعلى الرغم من أن الأسنان تتعرض للنخر لدى الإنسان وهو حي إلا أنها من أكثر أجزاء الجسم البشري قدرة على الاستمرار بعد موته حتى إنها تشكل أحياناً المصدر الوحيد لبعض الدراسات، وتعتبر الأسنان مصدراً جيداً للمعلومات الخاصة بحجم الكائن الحي ونوع تغذيته، كما تساعد الجمجمة على التعرف على حجم المخ وشكله وطريقة ارتباطه بالحبل الشوكي، وقد أوضحت الدراسة المقارنة للجماجم المختلفة التي عثر عليها أن التطور البشري كان مصحوباً بزيادة تدريجية في حجم المخ وسعة الجمجمة، وتفيد عظام الأطراف والحوض والعمود الفقري في استنتاج المعلومات الخاصة بكيفية التحرك والسير، كما يحرص العلماء على التعرف على الخصائص الجيولوجية للطبقات التي يعثر فيها على الحفريات ويستخلصون بعض الشواهد عن الظروف البيئية والأحوال المناخية التي كان الإنسان القديم يعيش في كنفها.

ومن ناحية أخرى تفيد البقايا العظمية كمصدر للمعلومات عن السن والنوع، وتوجد عدة وسائل يستعين بها العلماء في هذا الشأن، فالسن مثلاً يمكن تحديده عن طريق الأسنان من حيث درجة تآكلها والترسيبات التي عليها وفقد بعضها ووجود الأسنان اللبنية أو الدائمة وشكل الفك لدى كبار السن، كما تساعد الجمجمة في ذلك بملاحظة درجة انغلاق والتحام العظام المكونة لها، إضافة إلى أنها تساعد في معرفة النوع، فجماجم الذكور تكون أكبر حجماً وأقل استدارة وأثقل وزناً من جماجم الإناث، كما أن الجبهة تكون أعرض وأكثر تسطحاً وعظام الوجنتين والعظام فوق المحجرية تكون أكثر بروزاً،

إضافة إلى أن الفكين يكونان أكثر ضخامة لدى الذكور وسقف الحلق أكثر اتساعاً وعظمة الذقن أكثر تربيعاً، وتساعد باقي العظام على تحديد النوع أيضاً وخاصة عظام الحوض والأطراف.

وفي حين يهتم بعض الأنثروبولوجيين الطبيعيين بالحفريات فإن البعض الآخر يهتم بالاختلافات البيولوجية بين الجماعات البشرية الحالية، ويدركون أن لهذه الاختلافات أسساً نشوئية وبيئية أدت دورها منذ عصور بعيدة ومازالت تؤديه حتى وقتنا الحاضر، وهم يسعون لدراستها من خلال فحص الخصائص التشريحية للأجسام والأعضاء والأنسجة، وكذلك المقارنة بين الاستجابات الفيزيولوجية للجماعات المختلفة كما في حالات التعرض للحرارة أو البرودة الشديدة أو سرعة التنفس بعد المجهود الحركي أو تحت ظروف معينة، وقد أطلق العلماء الذين ركزوا اهتمامهم على دراسة التباين الحالي بين الجماعات البشرية في الخصائص التشريحية والفيزيولوجية على تخصصهم اسم: الأنثروبولوجيا البيولوجية، وهم يعملون في تعاون مع العلماء في عدد من العلوم الأخرى كالطب والصحة العامة والكيمياء الحيوية.[4]

٢- الحفريات:

يقصد بكلمة حفرية أو أحفورة Fossil «كل ما يحفر عليه في صخور القشرة الأرضية من بقايا وآثار الحياة السابقة نباتية كانت أو حيوانية»[5] ويبدأ تكوّن الحفرية عندما تتلاشى الأجزاء العضوية سريعة الانحلال من العظمة مثلاً وتترسب عليها العناصر المعدنية التي تترسب إليها من التربة خلال فترة طويلة من الزمن وتتخلل المسام الموجودة بها ولهذا يجدها العلماء أثقل من العظام العادية المناظرة لها، أو تتحول العظمة إلى حفرية بفعل التغيرات الكيميائية التي تحدث في المواد غير العضوية فيها، أو عندما تتلاشى العظمة بكاملها مخلفةً وراءها قالباً تملؤه بعد ذلك العناصر المعدنية الموجودة في التربة، ويمكن اعتبار الآثار المطبوعة على الطبقات الرسوبية للنباتات وآثار أقدام الحيوانات والإنسان القديم من الحفريات أيضاً، وتوجد في بعض المتاحف نماذج لآثار أقدام الديناصور الذي عاش على الأرض منذ ملايين السنين.

وعلى الرغم من أن معظم الحفريات المكتشفة خاصة بأجزاء نباتية أو حيوانية أو بشرية إلا أنه يحدث في القليل النادر أن تساعد بعض الظروف على المحافظة على الكائن الحي بالكامل، كما حدث بالنسبة لبعض الحيوانات التي كانت تعيش في المناطق الثلجية وحافظت على البرودة العالية لطبقات الثلج المطمورة فيها على بقائها بكاملها حتى تم العثور عليها، وقد عثر على أحد حيوانات الماموث في سيبريا بعد عدة آلاف من السنين بعد موته وكانت طبقة الشعر ما تزال فوق جلده، ونفس الشيء يمكن أن يقال عن الجو الجاف الذي يمكن أن يحافظ على بقايا الكائنات العضوية فترات طويلة من الزمن كما حدث بالنسبة للمومياوات التي تركها قدماء المصريين، وقد عثر على حيوانات كاملة في أوروبا كانت قد سقطت في عصور قديمة في برك القار ولم تتحلل كغيرها من الحيوانات التي تموت في الهواء الطلق، كما عثر على بعض الحشرات وأوراق النباتات محفوظة في قطع من الكهرمان التي عثر عليها في باطن الأرض في كثير من أنحاء العالم، «ويتراوح عمرها بين ٢٠، ٩٠ مليون سنة ويبلغ من دقة حفظها أنه يمكن أن تلاحظ تفاصيلها وتدرس كما تدرس الحشرات الحية».(٦)

ومن الأماكن الرئيسة التي يتجه إليها العلماء في بحثهم عن الحفريات الكهوف ووديان الأنهاروالبحيرات ، فقد لجأ الإنسان القديم إلى الكهوف لحماية نفسه من الحيوانات المفترسة والتقلبات الجوية العنيفة، كما عاش حول الأنهار والبحيرات وطمرت آثاره في طبقاتها الرسوبية، وقد عثر على بقايا إنسان بكين في أحد كهوف الصين، كما عثر على بعض النقوش والرسوم التي صنعها الإنسان القديم على جدران الكهوف في فرنسا وإسبانيا، وعثر على حفريات لسنابل القمح في بعض كهوف المكسيك، وعلى كثير من الحفريات الآدمية في المواقع التي كانت بحيرات وأنهاراً في العصور القديمة في كينيا وتنزانيا، وعندما يعثر العلماء على بعض الحفريات من العظام المتنوعة فإنهم يحاولون الكشف عن ناحيتين مهمتين:

أولهما: محاولة التعرف على عمر الحفرية أي الزمن التقريبي الذي عاش فيه الكائن الحي الأصلي، وتوجد عدة طرق يستخدمها العلماء في هذا الصدد.

وثانيهما: محاولة التعرف على نوع الحفرية وما إذا كانت تنتمي لحيوان أو إنسان، وما إذا كانت لذكر أو لأنثى، وما إذا كانت لإنسان حديث أو قديم، وإضافة لطرق تحديد تواريخ الحفريات تساعد الدراسة الأنثروبومترية على توضيح الفروق الدقيقة بين الإنسان والحيوان وأيضاً بين الذكور والإناث فهناك عدد كبير من المعاملات التي تساعد على معرفة نوع الحفرية كمعاملات الرأس واللوح والفخذ مثلاً.

٣- إجراءات التنقيب:

تكتسب إجراءات التنقيب لدى علماء الأركيولوجيا والأنثروبولوجيا أهمية كبيرة مستمدة من أهمية الأشياء التي يبحثون عنها والتي تحتاج إلى دقة بالغة في معالجتها عند العثور عليها، كما تستمد أهميتها كذلك من أن أي موقع تجري فيه أعمال الحفر والتنقيب يعتبر بعد ذلك موقعاً مدمراً على أساس أن من المستحيل أن يأخذ من جديد الصورة التي كان عليها، ولهذا يحرص الباحثون فيه على تسجيل كل التفصيلات الدقيقة كيفياً وكمياً في كل خطوات العمل، لأن هذا التسجيل سيصبح هو نفسه بديلاً عن الحالة الأصلية للموقع والتي لم تعد قائمة.

أولاً- التنقيب في الأركيولوجيا:

بعد أن يتم الكشف عن الموقع يخلى سطحه جيداً وترسم له خريطة بمقياس الرسم، ثم يقسم إلى مربعات متساوية ويعطى لكل مربع رقم وتحدد أركانه بالقوائم، ثم تحدد نقطة ثابتة بداخل الموقع أو على حدوده بحيث تظل باقية كنقطة مرجعية طوال أعمال التنقيب في صورة قطعة بارزة من الصخور أو جزء من حائط قديم أو عمود معدني يدق في الأرض، وعندما تكون مساحة الموقع كبيرة جداً يقسم إلى مواقع جزئية تُجرى في كل منها الإجراءات السابقة على أن تضمها جميعاً خريطة كبيرة تمثل الخريطة الرئيسية لمواقع التنقيب، وعند بدء الفصر في أحد المربعات تستخدم أدوات خاصة يراعى فيها الحرص الزائد على إزالة الأتربة وغربلتها حتى لا يضيع أي شيء، وعندما يتم اكتشاف شيء ما يسجل المربع الذي يقع فيه والعمق الذي تم العثور عليه ثم يعطي رقماً ويصنف ويقيد في سجل خاص ويوضع في حقيبة من القماش عليها البيانات الخاصة به، وعندما يتعمق الحفر يتم تمييز الطبقات المختلفة للتربة لأن الأشياء التي يعثر عليها في الطبقات السفلى

تكون غالباً أقدم من تلك التي يعثر عليها أعلى منها، ولو أنه يحدث أحياناً بعض التغييرات التي تقلب هذا الترتيب الطبقي رأساً على عقب كأن يقوم سكان الموقع في الزمن القديم بعمل حفر كبيرة أو تكون التغيرات قد حدثت بفعل العوامل الطبيعية.

وفي بعض الأحيان لا يكتفي الأركيولوجيون بالحفر فوق اليابسة بل يغوصون تحت الماء أو يستخدمون غواصين مدربين في أعمالهم، وقد أمكن بهذه الطريقة استخراج كثير من الجرار والتماثيل الرومانية من السفن الغارقة، والمعروف أن الإنسان القديم كثيراً ما كان يلقي مخلفاته في البحيرات أو القنوات بحيث كانت تشكل كومات تحفظ كثيراً من الأشياء بحالة جيدة، إضافة إلى أن إلقاء بعض القرابين والأضاحي في الماء كانت من العادات الشعائرية القديمة لدى بعض الشعوب، ويقسم الأركيولوجيون مجموعات الأشياء التي يتم العثور عليه في الموقع إلى أشياء مصنوعة وهي الأدوات التي يصنعها الإنسان ويمكن نقلها من مكان لآخر، وأشياء غير مصنوعة وهي البقايا النباتية والحيوانية والبشرية والأصداف والأحجار البركانية وما يشبه ذلك، ومعالم وهي الأشياء التي يصنعها الإنسان، ولا يتم نقلها من مكانها مثل المساكن وأماكن التخزين والمدافن والمعابد.

ثانياً- التنقيب في الأنثروبولوجيا الطبيعية:

يشبه التنقيب في الآركيولوجيا في معظم إجراءاته وإن كان يحتاج لخبرة أكبر لدى الباحثين في النواحي المتصلة بالجيولوجيا. وكذلك إلى حرص زائد في التعامل مع الأشياء التي يتم العثور عليها، وعندما يتم الكشف مثلاً عن بقايا هيكل عظمي لإنسان قديم يبدأ الباحث في إزالة الأتربة عنه باستخدام أدوات صغيرة لا تسبب أضراراً لأي شيء، ثم يستخدم فرشاة خاصة لتنظيفه من المواد العالقة به ثم تدهن العظام بمحلول اللك أو الراتنج حتى تزداد مقاومة العظام للانحلال والتفكك عند استخراجها من مكانها، ولا يتم أخذ العظام وحدها وإنما يقتطع قالب كامل من التربة التي تحتها ويظل القالب في مكانه حتى يسقى بمحلول اللك لتزداد صلابته، وتغطى العظام بلفائف من النسيج المغمور في مصيص باريس ثم يعالج القالب كله بهذه الطريقة ويترك ليجف حتى يصبح

كتلة متماسكة، وعندئذ ينقل بعناية ويوضع في صندوق خاص ويرسل إلى المعمل، وخلال ذلك يكون الباحث قد رسم خريطة للموقع وحدد عليها السمات والخصائص المختلفة للمكان الذي عثر عليه فيه وكافة البيانات التي تساعد على دراسة الحفرية، وبعد وصول الهيكل العظمي وهو داخل القالب إلى المعمل يفصل عنه بإجراءات وأدوات دقيقة تصل أحياناً إلى استخدام المجهر في بعض العمليات الخاصة بالحفريات الصغيرة، ومن أشهر العلماء في هذا المجال في العقود الأخيرة عائلة ليكي التي تتألف من لويس ليكي L. Leakey (١٩٠٣-١٩٧٢) وزوجته ماري وابنه ريتشارد، وكانت معظم أعمال ليكي وزوجته في موقع أولدفاي بتنزانيا.[٧]

٤- التحليلات المعملية:

تُجرى كثير من بحوث العلماء في الأركيولوجيا والأنثروبولوجيا الفيزيقية داخل المعامل حيث تفحص العينات المختلفة باستخدام أجهزة دقيقة تساعد على تحديد تواريخ هذه العينات وتوضيح خصائصها مما يساعد على تصنيفها والربط بين الجديد منها وبين العينات الأخرى السابقة، وتختلف أساليب الفحص والتحليل بحسب الأنواع المختلفة من العينات، ومن ذلك مثلاً:

أ- الأدوات الحجرية:

فهي تخضع لفحوص دقيقة يستخدم فيها المجهر أحياناً لملاحظة الشكل العام وأماكن الشطف والحزوز ودرجة التآكل والخامة التي صنعت منها وغيرها من الخصائص التي تساعد على التعرف على أنواع الأنشطة التي كانت تستخدم فيها، والعصر الذي تنتمي إليه والتطور الذي طرأ على صناعتها.

ب- البقايا الفخارية:

يتم العثور على هذه البقايا في المواقع التي كانت تقطنها مجتمعات زراعية وأحياناً في مواقع المجتمعات التي كانت تعيش حياة الصيد والالتقاط، ونظراً لأن الأواني والقدور تكون في الغالب مزينة بنقوش معينة وتتعرض أنماط هذه النقوش للتغير من زمن لآخر فإن بالإمكان الاستعانة بها في محاولة استعادة بناء التسلسل الزمني لهذه الأنماط في منطقة يكون قد تم استخدام الأواني والقدور فيها خلال فترة زمنية طويلة، وقد استعان عالم المصريات بتري W. Petrie بالتغيرات التي طرأت على أشكال القدور الفخارية

في استخلاص التطور الزمني للمدافن التي وجدت فيها، ومن بين المؤشرات التي اعتمد عليها شكل المقابض إذ إنها تدرجت عبر الزمن من الحجم الكبير إلى الصغير ثم تلاشت ووصفت مكانها خطوط منقوشة، وتساعد هذه النقوش أيضاً على تتبع ترقي الفن الزخرفي لدى الإنسان القديم في عصوره المختلفة، كما تشير الأدوات الفخارية إلى تطور حياة السكان في المواقع المختلفة من حياة التجوال والترحال التي لا تناسبها هذه الأدوات لقابليتها للكسر إلى حياة الاستقرار التي تسمح بصنع أنواع عديدة منها لنقل الغذاء وطهيه وتخزينه.[8]

ج- الأدوات المعدنية:

يتم العثور على كثير من هذه الأدوات في بعض المواقع، وتفحص لمعرفة خصائصها والمواد التي صنعت منها وتحديد تواريخ صنعها والكيفية التي صنعت بها وغير ذلك من البيانات التي تساعد على وضع تصور للمرحلة الجديدة في التطور الثقافي للإنسان والتي استخدم فيها المعادن بدلاً من الأدوات الحجرية في كثير من الأغراض، وقد تبين للعلماء أن الإنسان القديم بدأ باستخدام النحاس واستمر استخدامه له فترة طويلة، وكان يشكله بطرقه على البارد أو باستخدام النار أو بصهره وصبه في قوالب، وتوصل بعد ذلك إلى خلط النحاس لتكوين سبيكة جديدة أشد صلابة هي البرونز ، وقد تابع العلماء التطورات العديدة التي طرأت على الأساليب التكنولوجية للإنسان بعد توصله إلى صناعة الأدوات المعدنية كعمليات التعدين والصهر والسبك والطرق واستخدام الأفران المتطورة وصناعة بعض المعدات والأدوات التي لم يكن يعرفها من قبل كالقوالب والسندان والمطرقة وغيرها.

د- البقايا النباتية:

يهتم العلماء بتحليل هذه البقايا الحفرية تحليلاً معملياً للتعرف على نوع النباتات التي كانت موجودة وقت طمرها، وإذا عثر على أنواع أخرى من البقايا في الموقع نفسه ولكن في طبقات أخرى أكثر قدماً فإن بالإمكان التعرف على التغيرات التي طرأت على الحياة النباتية من فترة لأخرى، وبهذه الطريقة أمكن التعرف على مراحل نشأة الغابات في أوروبا بعد انحسار الجليد إذ أوضحت الشواهد أنها بدأت أولاً بغابات من أشجار

البتولا ثم بأشجار البلوط فأشجار الصنوبر المختلطة بالأنوع الأخرى، ويفيد تحليل هذه البقايا النباتية كذلك في تقديم صورة عن الظروف الإيكولوجية التي كان على الإنسان القديم التكيف معها خلال العصور المختلفة في الماضي. ففي الموقع الذي يجري فيه التنقيب يمكن أن يعثر العلماء على بقايا نباتية حفرية في طبقة سفلية من التربة تشير إلى وجود الغابات خلال فترة زمنية معينة، ثم تعلوها طبقة أخرى يعثر فيها على بقايا من الفحم النباتي كدليل على حدوث عملية حرق الأشجار بغرض تهيئة الأرض للزراعة، ثم تعلوها طبقة بها بقايا النباتات البرية التي كست المنطقة بعد هجرة الإنسان منها.

هـ- البقايا الحيوانية والبشرية:

يُخضع العلماء عظام الحيوانات للفحص والتحليل المعملي إذ تقدم لهم بيانات عن أنواع الحيوانات التي كانت مستأنسة خلال حقبة معينة ومدى اعتماد السكان على عمليات الصيد وأنواع الحيوانات التي كانوا يصطادونها، والتطور الزمني للأنواع الحيوانية وخاصة تلك التي انقرضت فيعرف بالتقريب زمن انقراضها، والحيوانات التي عاشت خلال الحقب الباردة والحقب الدافئة، وهناك أنواع من الحيوانات الصغيرة كالطيور والقوارض والرخويات لها حساسية خاصة بالنسبة للتغيرات المناخية ومن ثم فإن بقاياها تشكل شواهد هامة على الأحوال المناخية، وقد ساعدت التحليلات الدقيقة للعظام والأسنان البشرية التي تم العثور عليها على المقارنة بين الصورة الأخيرة للإنسان وبين الصور الأولى له وملاحظة الاختلافات في حجم الجمجمة وتكوين الفكين وشكل الجبهة وأطوال الأطراف وتركيب العمود الفقري، وقد استنتج العلماء معلومات عديدة عما وراء هذه الاختلافات التشريحية من اختلافات أخرى تتصل بكيفية المشي والقبض على الأشياء وتناول الطعام وغيرها.(9)

٥- بعض طرق تحديد التواريخ:

يهتم علماء الأركيولوجيا والأنثروبولوجيا الفيزيقية اهتماماً بالغاً بطرق تحديد تواريخ الأشياء التي يكشفون عن وجودها خلال عمليات التنقيب Dating Techniques فهذا التحديد يمثل الأساس الذي تقوم عليه عمليات التفسير والربط بين العينات المختلفة من أجل إعادة بناء الماضي، وتكوين

صور تقريبية عن مسارات التطور في مجالات الثقافة الإنسانية أو تقدم النوع البشري، وتختلف طرق التحديد من حيث مدى دقتها وقدرتها على قياس مدى معين من الزمن القديم وصلاحيتها لنوع دون آخر من الأشياء المراد تحديد تواريخها، وهناك تعاون وثيق بين الأركيولوجيين والأنثروبولوجيين في تبادل المعلومات في هذا المجال، وسوف نشهد أمثلة لذلك بالنسبة للنوعين الأساسيين في عملية تحديد التاريخ وهما:

أولاً: التحديد النسبي:

وهو يعني إيجاد علاقة زمنية بين مجموعة من الأشياء التي يتم العثور عليها في موقع معين أو مجموعة مختارة من المواقع، ويكون التساؤل في هذه الحالة منصباً لا على عمر الشيء بالنسبة للوقت الحاضر وإنما على وقوعه قبل أو بعد غيره، ويتم هذا التحديد من خلال مدخلين رئيسيين أحدهما يعتمد على خصائص الطبقات الأرضية Stratigraphy التي يعثر فيها على الأشياء، والثاني يعتمد على إيجاد ترتيب متسلسل بينها Seriation، ويقوم المدخل الأول على أساس مبدأ التراكب Suprposition الذي ينص على أن الطبقة (أ) الموجودة في الأرض تحت الطبقة (ب) لا بد أن تكون قد ترسبت قبلها وبالتالي تكون أكبر منها عمراً، وينطبق هذا أيضاً على الأشياء التي يتم العثور عليها في كل منهما، لكن لا بد من الحذر من نقطتين هامتين في هذا الصدد وهما احتمال حدوث تغير في ترتيب الطبقات نتيجة بعض العمليات الصناعية أو الطبيعية، واحتمال عدم التماثل بين عمر المخلفات التي يتم العثور عليها وعمر الطبقة الجيولوجية التي يعثر عليها فيها، لأن هذه الطبقة قد تحوي نوعين مختلفين من هذه المخلفات نتيجة تعاقب الإقامة في الموقع نفسه في تاريخين لاحقين، إضافة إلى أن بعض مواقع التنقيب كأماكن الدفن مثلاً قد تتداخل فيها البقايا الأحدث مع البقايا الأقدم فتحتاج من ثم إلى دقة بالغة في تحديد التواريخ.

أما المدخل الثاني فأساسه محاولة إعادة بناء نمط النمو الخاص بعنصر أو بعناصر ثقافية معينة، وذلك بترتيب المخلفات التي يعثر عليها طبقاً لوضعها النسبي في خط التسلسل الذي يجمعها كلها، ومن ذلك مثلاً المحاولة التي أشرنا إليها من قبل عالم

المصريات بيتري بالنسبة لترتيب أنوع القدور الفخارية التي عثر عليها في بعض مواقع الدفن وبالتالي تحديد تواريخ هذه المواقع ذاتها، ولكن محاولة إيجاد تسلسل في ترتيب العناصر الثقافية وإن كان يكشف عن التغير الذي لحق بها عبر الزمن إلا أنه قد لا يحدد بدقة اتجاه هذا التغير، فليس من الضروري مثلاً أن يكون هذا الاتجاه قد تم من الشكل البسيط إلى الشكل المركب إلى أشكال أخرى أكثر بساطة، ولهذا يشعر العلماء بحاجتهم إلى وسيلة ما تمثل العامل المساعد في تحديد الاتجاه، كالاسترشاد بترتيب الطبقات الجيولوجية التي عثر فيها على الأشياء المراد ترتيبها، أو ببعض المخلفات النباتية والحيوانية والبشرية التي تأكدت معرفة تواريخها والتي يعثر عليها مصاحبة لتلك الأشياء.(١٠)

ثانياً: التحديد المطلق:

وهو يعني إيجاد طريقة للربط بين العينة المراد تأريخها وبين مقياس زمني عام يمتد من الماضي وحتى الوقت الحاضر، وأهم الطرق المستخدمة في هذا النوع من التحديد ما يلي:

أ- طريقة الكربون ١٤ المشع:

وتقوم على أساس اكتشاف العلماء أن سائر الكائنات العضوية سواء كانت نباتية أم حيوانية تحتوي على نسبة من الكربون ١٤ المشع، فالنباتات تكتسبه من البيئة المحيطة بها والحيوانات تكتسبه من خلال التغذي على النباتات أو الحيوانات الأخرى، وعندما يموت حيوان ما فإن نسبة الكربون ١٤ الموجودة في جسمه تبدأ في التناقص بمعدل ثابت يعرفه العلماء، وهذا المعدل يساعد على تحديد تاريخ الحفرية عن طريق قياس نسبة الكربون ١٤ المتبقية فيها، وتستخدم هذه الطريقة في تحديد التواريخ التي ترجع إلى حوالي ٤٠ ألف سنة سابقة، وقد أعلن في عام ١٩٧٧ عن تطوير جديد لها لمعالجة نقاط الضعف فيها، ويفيد هذا التطوير في زيادة المدى الزمني لاستخدامها إلى أكثر من الضعف بحيث يصبح في الإمكان تحديد تواريخ الحفريات في مدى زمني قدره ١٠٠ ألف سنة تقريباً، ويفيد كذلك في الاكتفاء بما قيمته جزء من ألف جزء من الكمية التي كان يلزم أخذها كعينة من الحفرية لإجراء القياس عليها حسب الطريقة القديمة، وفي

الوقت نفسه رفع درجة الدقة في تقدير التاريخ بنسبة كبيرة، ومن نواحي الضعف في هذه الطريقة أنها لا تستخدم إلا بالنسبة للحفريات العضوية في حين يرغب العلماء دائماً في الربط بين هذه الحفريات وبين المخلفات الأخرى غير العضوية التي تكتشف معها.

ب- طريقة البوتاسيوم- أرجون:

وهي تستخدم في تحديد التواريخ الموغلة في القدم لبعض المخلفات التي لا يمكن للطريقة السابقة تحديد تواريخها، وهي تعتمد على فكرة انحلال البوتاسيوم إلى أرجون بمعدل ثابت، ومن ثم يمكن تقدير عمر قطعة من الأحجار عن طريق قياس نسب البوتاسيوم والأرجون فيها واستخدام صيغة حسابية تعبر عن الزمن الذي يستغرقه تحول البوتاسيوم إلى أرجون، وتفيد هذه الطريقة بصفة خاصة في قياس عمر المواد الغنية بعنصر البوتاسيوم وتكون قد تعرضت في الماضي لحرارة شديدة كالصخور البركانية مثلاً، فعندما يكتشف العلماء طبقات من هذه الصخور تتخللها طبقات رسوبية عادية فإن الحفريات التي يعثر عليها في الطبقات الرسوبية يتم تقدير أعمارها من خلال تحديد تواريخ الطبقات الصخرية التي تقع تحتها والطبقات التي تقع فوقها، وقد أمكن بهذه الطريقة تقدير أعمار بعض الحفريات البشرية التي عثر عليها في موقع اولدفاي بتنزانيا.

ج- القطاعات العرضية في الأشجار:

أفضل طريقة معروفة لتأريخ الخشب هي التأريخ بحلقات الأشجار. وتقوم هذه التقنية على احتساب حلقات النمو السنوية الظاهرة على المقاطع العرضية للأشجار المقطوعة. ويقوم علماء الآثار بمطابقة نموذج حلقات شجرة قديمة يعثر عليها في موقع ما، مع حلقات تلك المواد الخشبية القديمة لتحديد عمر الموقع. ويعتبر التأريخ بحلقات الأشجار هو الأكثر دقة في مجالات التأريخ كافة، ولكنه يستخدم فقط مع المواد الخشبية التي لا يتجاوز عمرها حوالي ٨٠٠٠ سنة.(١١)

د- تحليل رقائق الرسوبيات الحولية:

فهذه الرقائق أو الطبقات الرقيقة تتكون في البحيرات الثلجية نتيجة تدفق الثلوج الذائبة إليها من المناطق المجاورة حاملة الرسوبيات التي تهبط نحو القاع، وعند

حلول الشتاء تتجمد البحيرة ويتوقف التدفق، وعندما يحل الصيف التالي تحل طبقة جديدة من الرسوبيات فوق الطبقة السابقة، وقد تختلف هذه الطبقة الجديدة عن سابقتها من حيث السمك بحسب الدفء وطول فترة الصيف، ويكوّن مجموع الطبقات ما يشبه الحلقات الخشبية في سيقان الأشجار، وقد أمكن من خلال عد هذه الطبقات السنوية في السويد عمل تحديدات تاريخية ترجع إلى عشرة آلاف عام قبل الميلاد، وهي تفيد من ثم في تقدير عمر الحفريات المطمورة في هذه الطبقات والتي ترجع إلى عصر البلستوسين المتأخر وأوائل العصور الحديثة في شمال أوروبا، ومن نقاط الضعف في هذه الطريقة أنها محدودة الاستخدام جغرافياً، وأن نسبة الحفريات التي توجد داخل الرقائق الرسوبية تكون قليلة للغاية.[١٢]

هـ- طريقة الزجاج البركاني الداكن:

وهي تستخدم في تقدير تواريخ الأدوات التي كان يصنعها الإنسان القديم من هذا النوع من الزجاج فقد لوحظ أنه عند تعرضه للجو يتشرب نسبة من الرطوبة تكوّن على سطحه طبقة ذات لون مختلف، وعن طريق قياس العلماء لمدى سمك هذه الطبقة يستطيعون تقدير مدى الفترة التي مضت عليها وهي معرضة لتأثير الرطوبة الخارجية، ولكن نقطة الضعف الأساسية في هذه الطريقة أن نسب الرطوبة تختلف من منطقة لأخرى ولهذا ينبغي استخدامها في كل منطقة بحسب ظروفها الخاصة.

و- طريقة قياس نسب الفلورين:

فالمعروف أن العظام والأسنان تمتص الفلورين من التربة المحيطة بها بمعدلات معينة، وعندما يقيس العلماء نسب الفلورين الموجودة في العظام المكتشفة في نطاق منطقة ما ويقارنون بينها يستطيعون التعرف على أقدامها وأحدثها عمراً، ونقطة الضعف في هذه الطريقة أنها تفيد في المقارنة بين العظام المكتشفة داخل منطقة معينة وليس بين تلك التي تكتشف في مناطق مختلفة لأن نسب الفلورين تختلف من تربة لأخرى.[١٣]

٦- المكان والزمان وعملية التفسير:

لاحظنا تعدد طرق تحديد التواريخ سواء كانت نسبيّة أم مطلقة، وأن لكل منها نقاط القوة والضعف الخاصة بها، ولهذا يميل العلماء إلى الجمع بين أكثر من طريقة

حسب طبيعة الموضـوعات التي يتم فحصها وحتى تصـبح تقديراتهم أقرب إلى الصواب، وبالتالي يتمكنون من تفسـير مراحل وأنماط النمو الثقافي والتطور البشري في عصـور ما قبل التاريخ، ولكن محاولة التفسير هذه تواجه بعض الصـعوبات التي تتصل بمكان وزمان المخلفـات والحفريات موضـع البحث، وقد يبدو أن من السـهل الربط بين العناصر التي يتـم العثور عليها داخل موقع حضري واحد، ولكن الواقع غير ذلك لأنه إذا كان من السهل تحديد مـكان كل عنصر منها تحديداً دقيقاً بالنسبة للنقطة المرجعية المختارة داخل الموقع، فإن من الصعوبة بمكان تحديد العلاقات بين مكان هذا العصر وأماكـن العناصر الأخرى وهي التي تشكل ما نسميه بناء الأركيولوجي فاكتشـاف هيكل عظمي لإنسان على مقربة منه سكين أو نصل حاد عملية سهلة من حيث تحديد مكان كل عنصر ولكنها صعبة وقابلة للاحتمالات العديدة بالنسبة لتحديد العلاقة التي تربط بينهما، ومن ناحية أخرى بعد أن يتم تحديـد تواريخ العناصـر المختلفة تبقى أمام العلماء مهمة تحديد مواقعها على خط النمو الثقافي لسكان المنطقة.

يقوم علماء الآثار والأنثروبولوجيا بدراسة الأدوات والظواهر وتحليلها بغية الحصـول على معلومـات مثل: كيف صـنعت الأدوات وأين اسـتخدمت. وفي بعض الأحيان يحصل العلماء علـى معلومات من خـلال التجربة المباشرة. ففي أواسـط الثمانينات من القرن العشرين قـام آثاريون من كمـبردج بانجلترا بإعادة بناء سفينة إغريقية كلاسيكية وتسمى تريريم وأبحروا بهـا. وبهذه الطريقة تعلموا الكثير عن صـناعة السـفن الإغريقية وفن الملاحة في العصور القديمة. وتساعد الأدوات والظواهر على تفسـير الحيـاة الاجتماعية التي كانت قائمة في الأزمنة القديمة. فحجم البيوت يمكن أن يبين عدد الناس الذين كانوا يعيشـون في بيت واحد. وتدل كمية الأحافير التي يُعثر عليها في أحد القبور وقيمتها، على الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها الشخص المدفون.

أما تقويم الموجودات الطبيعية، فيكشـف عن معلومات مثل نوع الطعام الذي كان الناس يتناولونه وما إذا كانوا ينتجون المحاصـيل أو يجمعون النباتـات البرية. ويمكن للمعثورات الطبيعية أن تكشف أنماط الهجرات القديمة.

فوجود بذرة مــن الحبوب غريبة عن منطقة مثــلاً، يمكن أن يكشــف عن كيفيــة وتاريخ انتقال المواد من مكان إلى آخر.

وقد يقوم الآثاريون الدليل الأثري بمساعدة متخصصين في حقول أخرى. فعلماء الحيوان يســاعدون في التعرف على عظام الحيوانات، وطرق الذبــح التي كانت ســائدة. كما يقوم علماء النبات بتحليل البذور، ليحصــلوا على معلومات حول النشــاطات الزراعية القديمة ويعمل مع الآثاريين أيضاً متخصصون آخرون مثل الجيولوجيين والمعماريين والمهندســين. ويعمد المتخصصــون في بعض الحالات إلى تشــغيل أجهزة الحاســوب التي تيسّر عملية التقويم وتعجّل بها إلى حد كبير.[14]

المراجع

(١) د. فاروق مصطفى اسماعيل: الأنثروبولوجيا الثقافية، ط٣، ١٩٨٦، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة، قطر، ص(٢٧-٢٨).
(٢) د. فتحيــة محمد ابراهيم ومصطفى حمدي الشنــواني: مدخل إلى مناهج البحث في علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، دار المريخ، المملكة العربية السعودية، الرياض ١٩٨٨، ص٢٩٢.
(٣) نفس المرجع، ص٢٩٣-٢٩٤.
(٤) نفس المرجع، ص٢٩٥-٢٩٦.
(٥) زغلــول راغــب النجــار، أحمــد محمــود داود: صور مــن حياة ما قبل التاريــخ، الكويت، دار البحوث العلمية، ١٩٧٩، ص١٦.
(٦) ليولابــورت: التطــور والسجــل الحفــري، ترجمة: محمد السيد غلاب، القاهرة، مكتبة الانجلو مصرية، ١٩٨١، ص١٥٢.
(٧) د. فتحيــة محمد ابراهيم ومصطفى حمدي الشنــواني: مدخل إلى مناهج البحث في علم الانسان، مرجع سابق، ص٢٩٩-٣٠٠.
(٨) نفس المرجع، ص٣٠١.
(٩) نفس المرجع، ص٣٠٢.
(١٠) نفس المرجع، ص٣٠٤.
(١١) الموسوعــة العربية العالميــة، المملكة العربية السعوديــة، الرياضــ، ١٩٩٤، المجلــد الأول، ص١٩٦-١٧٠.
(١٢) فــؤاد البستــاني: دائــرة المعــارف، مجلــد٩، بيروت، ١٩٧٩، ص٢١٨.
(١٣) نفس المرجع، ص٢١٩.
(١٤) الموسوعــة العربيــة العالميــة، مرجــع سابــق، ص١٧٠.

☆ ☆ ☆

١٠٥

تجربة شعر الأطفال في مصر

بيان الصفدي *

«وبالجملة فتربية أولاد الملة وصبيان الأمة وأطفال المملكة ذكورا وإناثا من أوجب الواجبات.
كيف لا؟ والتربية مطلوبة حتى في غير الآدمي.»

الطهطاوي - ١٨٧٢

انفتحت مصر العربية على العصر مبكرا. وكان التعليم هو المدخل الكبير لوضعها على سكة النهوض الحضاري. واستطاع محمد علي أن يكون رائدا في هذا المشروع.

---

* شاعر وناقد سوري

- العمل الفني: الفنان علي الكفري.

وعلى الرغم من أنه لم يتلقَّ تعليماً، إلا أنه امتلك رؤية ثاقبة من جهة الخيار الشامل في البناء العصري، لهذا بدأ في إرسال البعثات العلمية منذ ١٨٠٩، وقد كانت البعثات تضم أحياناً بعضاً من الأسرة الحاكمة، فكان أشهرهم الخديوي إسماعيل الذي عاد إلى مصر من باريس مدفوعاً إلى جعل مصر قطعة من أوروبا، وإليه يعود الفضل في هذه الأبهة العمرانية التي نراها إلى الآن في الكثير من المباني والشوارع في القاهرة والإسكندرية على نحو خاص، على الرغم مما جرَّه هذا التحديث الباذخ من أعباء على الخزينة المصرية، ووضع البلد فيما بعد تحت رحمة القوى الاستعمارية.

وقد أدى هذا الاحتكاك مع الحضارة الغربية إلى الاهتمام بالثقافة الطفلية المرافقة للتعليم، فظهرت التجارب الأولى في شعر الأطفال، إضافة إلى الحاجة التعليمية الخاصة للنصوص الأدبية التربوية، فانتبه رواد التعليم الأوائل في مصر حتى إلى دور المسرح المدرسي تربية وفناً، ونستطيع أن نتعرف إلى بداياته فيما كتبه د. سيد علي إسماعيل حول بدايات المسرح في مصر.

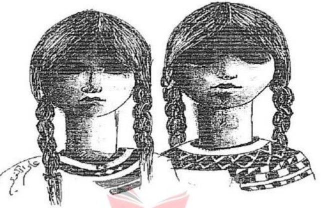
وتذكر الدكتورة جيهان السيد عن كتب الأطفال «نتيجة لما شهدته مصر في القرن التاسع عشر من نهضة ثقافية وفكرية في إطار المشروع الحضاري الذي بدأه محمد علي(١٨٠٥-١٨٤٩) والذي استهدف إقامة دولة حديثة في مصر، نتيجة لذلك ظهرت كتب للأطفال في ذلك الوقت لتمثل الإرهاصات الأولى في تاريخ كتاب الطفل المصري». (كتب الأطفال ص٧) وقد طبع في القرن التاسع عشر في مصر ٢٦٢ كتاباً للأطفال و٧ كتب عن الطفل.

رفاعة الطهطاوي

كان لرفاعة الطهطاوي (١٨٠١- ١٨٧٣) فضل كبير على ثقافة الأطفال في مصر، لأنه أدخل القصص والحكايات إلى المناهج المدرسية، فقد قال محمد عثمان جلال في مقدمة «الأماني والمنة في حديث قبول وورد جنة»:

«وبعد، فلما كانت كتب الأدب لازمة للمدارس الأولية لتأليف قلوب التلامذة الأبية، وكان أسهلها ما يدخل عليهم بالحكايات والقصص المسليات، اخترت كتاباً من أشهر ما في اللغة الفرنساوية وترجمته باللغة العربية وهو في هذا المعنى قدوة ولمن أراد أن يتأدب أسوة لما احتوى عليه من الحكم والأمثال والمعاني التي هي كالسحر الحلال والماء الزلال».

وكان رائد صحافة الأطفال من خلال مجلة «روضة المدارس المصرية» عام ١٨٧٠،



وألـف العديد من الكتب المدرسية، والكتب الأولى في علم التربية.

ووضـع أولى محاولات شعر الأطفال وقد جاءت على لونين، لون النشيد المدرسي الذي صـارت الحاجة ماسـة إليه، ولون الإرشـاد التربوي المباشر، لهذا وضع مثلاً نشيداً وطنياً بعنوان «حب الوطن»:

يا صاح حبُّ الوطنِ
حلية كل فطنِ
محبة الأوطانِ
من شعب الإيمانِ
في أفخر الأديانِ
آية كل مؤمنِ

وللطهطاوي منظومة طويلة نسبياً أسماها «منظومة في تأديب النشئ» قدم لها بقوله: «وقد كنت نظمت في كتاب تعريب الأمثال في تأديب الأطفال منظومة لطيفة، تحسن بعنوان التعريب نسجها، فيحسن هنا بمناسبة المقام إدراجها» ومنها:

من رام أن يكتسب اللطافه
عليه طول العمر بالنظافه
فإنها من شعب الإيمانِ
تطلب في الثياب والأبدانِ
وشرّ أوصاف الفتى هو الغضبْ
يفضي إلى ارتكاب ما لا يُرتكبْ

مما يعدُّ من صفات الذمْ
كتم الصغير عن أب وأمْ
سراً حقيراً أو جليلاً بل يجبْ
إبداؤه وعنهما لا يحتجبْ
من يعصِ والديه ضلّ وندمْ
وساء حاله وللرشد عُدمْ
والولد الصالح عند الأهلِ
يحب بل يكرم عند الكلّ
يمتاز عن أقرانه في المكتبِ
تشمله بركة المؤدبِ
الرفق بالفقير والضعيفِ
من حسن أخلاق الفتى الشريفِ

وفي قصيدة أخرى بعنوان «مجموعة حكم» نقرأ:

يحسن حفظ اللوح للصغير
على مرار بل وللكبير
يرسخ في الذهن وليس يُمحى
جزِّئه بالتقسيم واقبل نصحا
الكبرُ ناشئ عن الحماقه
وما لعاقل عليه طاقهْ
ولا يليق من غلام الطاعه
خروج رأيه عن الجماعه

والتجربة المصرية ما لبثت أن امتدت واتسعت وتعمقت على يد نخبة من الشعراء ورجال التربية ونسائها، على ندرة المساهمة النسائية، وظلت تجارب شعر الأطفال تتقدم، وتزداد التزاماً بما يتطلبه هذا اللون الشعري الجديد من شروط فنية وتربوية.

إن الدعوات التي أطلقها الطهطاوي في النهضة الثقافية، ترددت أصداؤها لدى كثيرين ظهرت واضحة عند الزعيم الوطني الكبير مصطفى كامل، عندما دعا عام ١٨٩٣ إلى الأدب التهذيبي الموجه للتلاميذ على صفحات مجلة «التلميذ» التي أنشأها للأطفال لبث الروح القومية فيهم وتربيتهم تربية عصرية، ومن الجميل أن يكون شعار المجلة «حبك مدرستك.. حبك أهلك ووطنك» لكن المجلة أصدرت تسعة أعداد وتوقفت.

قال مصطفى كامل في افتتاحية المجلة:

«ولما كان أسمى غرض لنا هو تهذيب الأحداث فقد عزمنا أن ندرج في كل عدد من أعداد جريدتنا نشيداً أو نشيدين على نمط السلاسة والتهذيب التام، حتى إنه بعد مضي خمسة أو ستة أشهر يمكننا أن نجمعها في كتاب نضم إليه بعض الشذرات والمحاورات المفيدة يكون قاعدة أساسية لتهذيب الأبناء، وإنا لا نعدم في ذلك العمل مساعدة الفضلاء والأدباء والشعراء، وإلى القراء نشيداً جاءت به القريحة لعده باكورة لهذا العمل:

هلموا يا بني الأوطان طرًا
لنُرجع مجدنا ونعزّ مصرا

هلموا كي نوفي القطر حقا

نسيناه فضاع بذاك قدرا

هلموا وادركوا العلياء حتى

تنال بلادنا عزاً وفخرا

هلموا واتركوا الشحناء منكم

وكونوا أوفياء فذاك أحرى

أليس يشيننا ترك المعالي

تباع بغيرواديـنا وتشرى

ونحن رجالها وبما لديها

من الإسعاد والخيرات أدرى

نسينا البرُّ للنيل المفدى

وخلنا أننا جئناه برا

فصار أن نسمي البذل عزا

وَعار أن نسمي الشح برا

وعار أن يكون لنا وجود

ويحظى غيرنا فوزاً ونصرا

فقوموا واطلبوا للنيل عزاً

ولا تبقوا ببذل كي يسرا

وسيروا نحو هذا النهر حتى

تنادوا أجمعين بعز مصر»

نخلص من هذا إلى أن مصطفى كامل قد سبق أحمد شوقي بالدعوة إلى شعر الأطفال بخمس سنين.

محمد عثمان جلال

إن أول كتاب شعري للأطفال ولد على يد الشاعر محمد عثمان جلال (١٨٢٨ - ١٨٩٨) باسم «العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ» أواسط القرن الثامن عشر، وظل أشهر كتاب للأطفال ما يقرب من قرن كامل في الوطن العربي، وكان جلال الذي ولد في بلدة «ونا» من بني سويف من أوائل تلاميذ رفاعة الطهطاوي النجباء حيث أدخله مدرسة الألسن، وعمل في وظائف متعددة خاصة بالترجمة عن الفرنسية، وترجم عدداً من الكتب والمسرحيات منها «عطار الملوك» و«أرجوزة في تاريخ مصر» و«الأربع روايات في نخب التياترات» و«الروايات المفيدة في علم التراجيديا» و« سيد» وله رواية «المخدمون» وديوان شعر بالعامية وآخر بالفصحى.

احتوى الكتاب ما يقارب المئتي حكاية مترجمة شعراً عن لافونتين الفرنسي وبعض الحكايات من التراث العربي والحكايات المحلية المصرية.

ومن نماذج تجربة الشاعر حكاية «الكلب والذئب»:

ذئب ضعيف مرَّ بعد العصرِ

يسعى على القوت بجنب القصرِ

فجاءه كلب كبير الجرمِ

مُقرى من الدنيا بمصّ العظمِ

ومذ رآه وحده ضعيفا

مكسَّراً مهشَّماً نحيفا

قامت بـه مـروءة الـكـلابِ
ولم يـعُـدّه مـن الـذئـابِ
وإنمـا أقـرأه الـسـلاما
فـطـأطـأ الـذئـب لـه، ونـاما

وبعد أن يتعافى الذئب تستمر الأحداث على هذا النحو:

قال له الكلب: ولمْ أراكا
دون الذئاب .. السقم قد براكا
ما ضرّ لو جئت معي في الدارِ
تأكل بالليل وبالنهارِ
حتى تعود في مجاري الصحةْ
وتأكل اللحمة كل لمحةْ
وكلْ ذا أحسن من نَطّ الخلا
وربما نطّ يقطّ الأرجلا

وهنا تصل الحكاية إلى نهايتها التي تأتي قوية ذات دلالة جوهرية دائمة :

وبينما الكلب يزجّي النصحا
والذئب يرجو في يديه الصلحا
إذ لمح الذئب بجيد الكلبِ
آثار أطواق الأذى والكربِ
قال له: يا كلب ما بالجيد؟
فقال: هذا أثر الحديدِ
لأنهم بالليل يطلقونني
وإن أتى النهار يربطونني
قال: وهل تريدني أُرتبَطُ؟
دعني إلى الشوك به أختبطُ!
لا رأي في الأكل وفي التنعُّم
ما دام في جيديَ طوق الأدهم
وبالغنى ليس لي افتتانُ
ما دام فيه الذل والهوانُ

عبد الله فريج

بعد ذلك ظهر عمل هام آخر للشاعر عبد الله فريج (٠٠٠ – ١٩٢٧) باسم «نظم الجمان في أمثال لقمان» ١٨٩٣، وقد عاش الشاعر في الإسكندرية ، وعمل رئيس معلمي اللغات في المدرسة الخيرية، وكان صديقاً لعبد الله النديم، وعمل وقتاً قصيراً في التعليم في القاهرة.

يقول فريج في مقدمة كتابه:

«إنني لما رأيت الديار المصرية، قد رقت في الحضارة إلى درجة عليّة، لاسيما في زمن مولانا العباس، الذي أينعت فيه المعارف كرياض الآس، هذا وقد قرر المجمع اللغوي في بعض جلساته، وبعد النظر المدقق في مباحثاته، أن تكلف تلامذة المدارس الأميرية، في عهد الوزارة الرياضية، بحفظ منتخبات من أشعار البلغاء، فيكتسبوا بذلك ملكة الإنشاء، قد أخذتني الغيرة الوطنية، أن أخدم بلادي بخدمة رضية، تعود على أبنائها بالفائدة، وتأتي لهم بالمنافع الزائدة، فاستعنت في ذلك الواحد الفتّاح، مصدر الحكمة وينبوع الصلاح، وعمدت إلى أمثال سيدنا لقمان

الذي شهد له بالحكمة في منزل القرآن، وإلى ما جرى مجرى ذلك من الأمثال الرائقة ، ذات المواعظ المفيدة والمحاسن الشائقة، ناظماً كلاً منهما أرجوزة وافية وبديع النظام، ثم جعلتها خدمة أدبية، لتلامذة المدارس الابتدائية، ليلتقطوا ما فيها من دُرّ النصائح والحكم، التي يحق أن يسعى لتحصيلها القدم، فتجعل له استعداداً في الأفكار، يتوصلون به لإدراك ما فوقها من الأشعار» .

ويُظن أن الشاعر وضع هذا الكتاب ليكون داعماً له في قبوله في التعليم، وقد أهدى فريج عمله إلى أحمد حشمت باشا ناظر المعارف وقتها، ومدحه بقصيدة في أول كتابه.

ومن حكايات الكتاب «الأرنب والسلحفاة» ونصها:

لقد حكوا عن أحد السلاحفِ
حكاية من الزمان السالفِ
بأنها مع سيرها المُقارِبِ
تسابقت مع أحد الأرانبِ
واتفقا أن جعلا الحدّ الجبلْ
ليكسب الرهان مَن قَبْلاً وصلْ
فاغترّ هذا الأرنب الخفيفُ
وقال: خصمي مشيه ضعيفُ
فنام وهو جفنه قريرُ
والسلحفاة أخذت تسيرُ
فوصلت من قبله للحدْ
وهذه لا شكّ عقبى الجِدْ
فهاكها نصيحة يا قاري
منظومة كساطع الدراري
إذا أردت الفوز داوِمْ في العملْ
إذ كل من سار على الدرب وصلْ

ولفريج حكاية شعرية ذائعة الصيت باسم «ذئب ورعيان»:

هيا اسمعوا حكاية السرحان
يا معشر الأحباب والخلان
لأنه قام من الصباح
بحيلة وراح للمراح
وقد رأى ملابس الرعيان
وهم نيام تحت ظل البان
فلبس الزعبوط والعمامه
ملفوفة كأنها غمامه
وأخذ عصاه في اهتمام
منتصباً يمشي على الأقدام
بها يهش صائلاً على الغنم
من غير ما ريبة أن يُتَّهم
وظن معروفاً بذي الطريقه
بأنه راعٍ على الحقيقه
فقال: إن اليوم في إمكاني
أشدو لهم بأفصح اللسانِ
وإذ عوى بصوته المشؤوم
ذاك الذي يحكي صياح البوم

قد أيقظ الرعيان يا أحبابُ
وعرفت عـواءه الكلابُ
والكل منهم عادياً أتاهُ
مشرعاً في يده عصاهُ
وأثخنوه بالجراح القاسيهْ
حتى بدا قد أعدموه العافيهْ
وقال وهو في نزاع محرقِ:
إن البلا موكل بالمنطقِ

أحمد شوقي

عندما أصدر أحمد شوقي (١٨٦٨-١٩٣٢) الجزء الأول من الشوقيات عام ١٨٩٨ أثبت قسماً سماه «باب الحكايات» ضم حكايات وأناشيد للأطفال من الصفحة ١٦١ حتى ١٩٨ «إضافة إلى أربع قصائد في ابنته أمينة من الصفحة ٢٠٠ حتى ٢٠٥، فكان هذا الجهد الريادي في شعر الأطفال في زمن لا يثمّن ذلك، مما يحسب له، وقال في مقدمة هذا الجزء الأول:

«جربت خاطري في نظم الحكايات على أسلوب حكايات لافونتين الشهيرة. وفي هذه المجموعة شيء من ذلك، فكنت إذا فرغت من وضع أسطورتين أو ثلاث أجتمع بأحداث المصريين وأقرأ عليهم شيئاً منها فيفهمونه لأول وهلة ! أو يأنسون إليه. ويضحكون من أكثره، وأنا أستبشر بذلك، وأتمنى لو وفقني الله لأجعل للأطفال المصريين مثلما جعل الشعراء للأطفال في البلاد المستحدثة منظومات قريبة المتناول، يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم. والخلاصة أنني كنت ولا أزال ألوي في الشعر على كل مطلب، وأذهب من فضائه الواسع كل مذهب.

وهنا لا يسعني إلا الثناء على صديقي خليل مطران صاحب المنن على الأدب، والمؤلف بين أسلوب الإفرنج في نظم الشعر وبين نهج العرب، والمأمول أن نتعاون على إيجاد شعر للأطفال والنساء، وأن يساعدنا سائر الأدباء والشعراء على إدراك هذه الأمنية.»

واضح أن اختيار شوقي الكتابة للأطفال كان بوعي كامل بطبيعة التجربة وخصوصيتها، وواضح أيضاً أن اهتمامه قد بلغ إلى حد أن يشرك الأطفال في الحكم على نجاح ما فعل، ولم يكتف الشاعر بكتابة الشعر للأطفال، بل ترددت في ديوانه دعوات حارة للعلم وأهله، وإعلاء لشأن الطفولة في حياتنا:

البنون هم دمنا
والحياة والوَرَدُ
فتنة إذا صلحوا
محنة إذا فسدوا

وفي قصيدة سماها «رسالة الناشئة» كتب الشاعر:

اطلب العلم لذات العلم لا
لظهور باطل بين الملا
إنما الأيام والعيش كتاب
كل يوم فيه للعبرة بابُ

وله قصيدة صغيرة جداً عنوانها «الحمار في السفينة» يقول فيها:

سقط الحمار من السفينة في الدجى
فبكى الرفاق لفقده وترحَّموا
حتى إذا طلع النهار أتت به
نحو السفينة موجة تتقدمُ
قالت: خذوه كما أتاني سالماً
لم أبتلعه، لأنه لا يُهضَمُ

وكتب الشاعر واحدة من الحكايات المميزة هي «النملة والمقطم»:

كانت النملة تمشي
مرة تحت المقطمْ
فارتخى مفصلها من
هيبة الطود المعظمْ
ليت شعري، كيف أنجو
إن هوى هذا وأسلمْ
....
سقطت في شبر ماء
هو عند النمل كاليمْ

إبراهيم العرب

إبراهيم العرب شاعر لا نعرف عنه الكثير، وقد توفي عام ١٩٢٧، لكنه سجل ريادة مهمة أخرى بإسهامه المبكر في شعر الأطفال، حيث أصدر كتاب «آداب العرب» وهو مجموعة حكايات شعرية تربوية، تبلغ تسعاً وتسعين قصيدة تخللتها بعض القصائد الوعظية الخالية من الحكاية، وهي الطابع الرئيسي للكتاب، ومن غلافه نعرف أنه صدر عام ١٩١١ مصدَّراً بعبارة «نظارة المعارف العمومية» أي ما يوازي وزارة التربية والتعليم في أيامنا، وقد كتب على الغلاف أيضاً:

« قررت نظارة المعارف العمومية طبع هذا الكتاب على نفقتها وتدريسه في المدارس الابتدائية بنين وبنات وفي مدارس المعلمات السنية ومدارس معلمي الكتاتيب» وفي الكتاب تسع وتسعون حكاية شعرية مأخوذة من «لافونتين وكليلة ودمنة والتراث العربي».

وجاء في مقدمته:

« أما بعد فهذا كتاب خدمت به نابتة الوطن المحبوب وأجريت فيه الأمثال والحكم المأثورة ليأخذوا منه ما يربي نفوسهم ويقوّم أخلاقهم ويطبعها على أصوب آراء المتقدمين.

وقد التزمت أن أجعل مواعظ كتابي أقاصيص قريبة التناول واضحة المعنى سهلة النظم يقرؤونها بلا ملل وينتهون منها إلى

تلك الكلم الجوامع كأنها نهايات طبيعية لتلك المواضع العذبة المشرب.

على أنني جاريت السابقين من كتّاب العرب وأدباء الغرب فجعلت حكم تلك العظات دائرة على ألسنة بعض الحيوانات المعروفة ليكون الإخبار بذلك أفكه والمواعظ أبلغ في ضرب الأمثال وسرد الحكم.

فإن كنت قد وفقت إلى ما يرضي أو بعض ما يرضي فما ذلك إلا من فضل النهضة العلمية الحاضرة».

ومن النماذج البارزة على هذه التجربة نقدم للقارئ الحكاية التالية:

مشى السرطان يوماً باعوجاج
فقلّد شكل مشيته بنوهُ
فقال: علام تنحرفون؟ قالوا:
سبقت به ونحن مقلدوهُ
فخالف سيرك المعوجّ واعدل
فإنا إن عدلت معدّلوهُ
أما تدري أبانا كل فرعٍ
يجاري بالخُطا من أدبوهُ
وينشأ ناشئ الفتيان منا
على ما كان عوّده أبوهُ

محمد الهراوي

محمد الهراوي (١٨٨٥ - ١٩٣٩) شاعر ومربٍّ ، عمل في التعليم وفي دار الكتب المصرية ، ومنح كل جهده لكتابة شعر الأطفال ، فأصدر عدة كتب، وهو أول من أدخل الصور الفوتوغرافية المرافقة للقصائد، من أعماله «سمير الأطفال - للبنين» في ثلاثة أجزاء. و«سمير الأطفال - للبنات» في ثلاثة أجزاء. و«أغاني الأطفال» في أربعة أجزاء. و«السمير الصغير» و«الطفل الجديد» و«ديوان ألف باء» و«أبناء الرسل للأطفال» وله مسرحيات للأطفال هي «الذئب والغنم» و«حلم الطفل ليلة العيد» و«الحق والباطل» و«المواساة».

أطل الهراوي على الوسط الثقافي والتعليمي بكتاب «سمير الأطفال للبنين» ١٩٢٢ ثم أتبعه بعد سنة بـ «سمير الأطفال للبنات» في ستة أجزاء .. وفي عام ١٩٢٤ أصدر «أغاني الأطفال» ، وفي عام ١٩٢٦ أصدر «السمير الصغير» للأطفال الصغار جداً، أما آخر أعماله فكان «الطفل الجديد» الذي اطلعت على طبعته الثالثة عام ١٩٣٣ .

امتازت قصائد الهراوي بالبساطة والرشاقة والتنوع والطرافة، إلى الحد الذي يجعلنا نقول إنه أول من كتب قصيدة طفل تراعي الشروط النفسية واللغوية للطفل.

يقول الشاعر في «دار الكتب المصرية» مخاطباً طفلة:

في مصر دار للكتب
يؤمها أهل الأدبْ
معروضة الأسعارِ
بالليل والنهارِ
معرضها ذو الطُّرَفِ
مزيَّن بالتحفِ
من صور العظامِ
وكتب الأعلامِ
مصاحف القرآن
بالرسم والألوانِ
والورق البَرديّ
وخطه الكوفيُّ
هذا .. إلى نقودِ
في الزمن التليد
من فضة وذهبْ
باسم ملوك العربِ
أما خزائن الكتب:
من كل علم وأدبْ
فإنها مبوَّبه
في فنها مرتبهْ
وقاعة المطالعه
للبحث والمراجعهْ
صُفَّت بها المناضد
وحولها المقاعدُ
فللعلوم راجعي
وفي الكتاب طالعي
فالعلم في الكتاب تغذية الألباب

ومن هذا النمط أيضاً قصيدة «الحساب» ونصها:

لي في الحساب عددُ
يجري به لساني
به أجيب سائلي
في يوم الامتحانِ
أما أنا: فواحد
فرد من الإنسانِ
واثنان: أمي وأبي
في القلب يسكنانِ
وجمعنا ثلاثة:
طفل ووالدانِ

ومثلها قصيدة «الكلب والحصان»:

الكلب جاء مرة
إلى الحصان يمزحْ
فقام عند بابه
يطرقه وينبحْ
فانتبه الحصان من
نوم وجاء يفتحْ
فوقف الكلب له
بذيله يلوحْ
وقال «هو» في وجهه
ومال عنه يمرحُ
قال له الحصان: «خذ
عندي كلام يفرحُ»
فرجع الكلب له
وقال: «قل ما يشرحُ»

فقال: «توت، في أذنه
وعاد وهو يرمحُ

كامل الكيلاني

و شهدت مصر ظهور كامل الكيلاني (١٨٩٧- ١٩٥٩) أشهر الأدباء الذين تفرغوا لأدب الطفل، فقدم للمكتبة العربية أغزر عطاء عرفته حتى الآن، بلغة سليمة جميلة، وروية ثقافية شاملة، ولم يكتفِ الكيلاني بالترجمة والإعداد والتأليف القصصي والمسرحي، بل وضع للأطفال عدداً لا بأس به من القصائد، وهي مبثوثة في مختلف الكتب التي نشرها، وقبل ذلك عاشت أجيال من الأطفال العرب على كتابته لرحلات السندباد البحري .

وفي شعر الكيلاني الكثير من العذوبة والشفافية والسهولة والقرب من عوالم الطفولة، مع مسحة من الإدهاش والسخرية اللطيفة، ويمكننا أن نذكر قصيدة «الوقت» التي يقول فيها:

قالت الطير: «لقد حل الشتاء
حل فصل البرد واشتد الصقيع
فوداعاً أيها الغصن وداعاً
سوف ألقاك إذا عاد الربيع»
قالت الأوراق للغصن «وداعاً
أيها الغصن فقد حل الشتاء
سوف ألقاك إذا ما الطير عادت
في الربيع الطلق تشدو بالغناء»
ثم قال الوقت للناس: «وداعاً
إنني أنفس شيء في الوجود
ترجع الأوراق والطير جميعاً
وأنا من حيث أمضي لا أعود»

ومن ألطف ما نقرأ قوله في «نشيد الحمار»:

آنست يا حماري
حللت خير دارِ
أحسنت إذ أتيتا
أنعم بما فعلتا
حمارنا الظريفا
الوادع اللطيفا
لست تلاقي عندنا
إلا السرور والهنا
منذ حللت بيننا
أصبحت فيه ضيفنا
تنام فوق فرشِ
منمنم من قشِّ
تطعم خير مأكلِ
منخّل مغربلِ
نهدي إليك سكّره
مع الشعير والذره
منك القليل تبذله
لك الكثير تأكله

لا تحـــزنَـــنْ ولا تـخـفْ
ســـوف نـضـاعـف العـلـفْ

ومــن تجاربــه المميــزة قصـيدة عــن الحيوانات:

جــمــعٌ مـــن الحـــيـــوان قـد
ســــعــدوا وطـــاب لــهــم مـقــامْ
قــد رتـبـــوا الـبـيـت الجـمـيـل
وأتــقـــنـــوا طـبـخ الـطـعـــامْ
متعاونين على الحياة بكل جدٍّ واهتمامْ
قد ذللوا كل الصعاب وأدركوا أقصى المرامْ
وتبادلوا من فرط حبهم احتراماً باحترامْ
قد أخلصوا وصفت قلوبهمُ فعاشوا في وئامْ
في كل شيء قلدوا الإنسان إلا في الكلامْ

محمد إبراهيم تره

محمد تره مربٍ وشاعر (١٨٨٦ - ١٩٣١) وعرف بالاستنارة والانفتاح، وأهم ما عرف به هو نظمه لحكايات «كليلة ودمنة»، ولأن مكانة الرجل أهم من الكتاب فقد كتب مقدمات له كل من الدكتور إبراهيم ناجي ومحمد حسين هيكل وخليل مطران وعباس العقاد، وقدم أحمد شوقي للكتاب بأبيات منها:

بـيـان ابـن المـقـفـع عـاد شـعـراً
وفـصـل بـالـحـقـيـقـة والـصـوابِ
جـــزاك الله تـــرة كـــل خـيـر
عـن الـنـشء المثـقـف والشبـابِ

وكتب مؤلفه في مقدمته مشيراً إلى كتاب «كليلة ودمنة» الذي:

«قررت وزارة المعارف تدريسه بمدارسها فرأيت حين تدريســه بالمدارس الثانوية أن الطالــب لا يخـرج منه بفائدة كـبرى إلا إذا أعاد قراءته مراراً مع التدبُّر. لما أن قصصه مشتبك متداخل يأخذ لاحقه برقاب سابقه. ففكرت في أن أقرِّبه إلى عقول النشء بنظمه مــع المحافظة علــى مغزاه. فأقـدرني الله بتوفيقه على ذلك.»(١)

وتره كأكــثر من اهتمــوا بالكتابة للطفل كان معلّماً عرف ضرورة هذا اللون من الشعر للأجيال، فهو يدرك أن اللغة في الاســتخدام الحياتي تتطلب أن تتماشــى مع سنّ الإنسان سواء أكانت مفردة أم جملة.

ونلاحظ أن التقريظ الذي ناله كتابه يعكس ما يمثله من رؤية معاصرة لقيت الترحيب من الكتَّــاب، ولنأخذ مثالاً علــى طريقة تره في نظم الحكايات:

نـاسـك أجــرى عـلـيـه راتـبـاً
مـن تقيِّ السمن بعض المحسنينْ
يـأكـل الـبـعـض ويُـبـقـي جُـلَّـه
دائـمـاً في جـرة يـبـغـي الـخـزينْ
نـام مـشـغـولاً يمـنّـي نـفـسـه
وهـو صـاح إن غـلا السمن الثمينْ

فاشترى في الوهم شاة ولدت
ونما أولادها طول السنينْ
فاشترى من ذاك أرضاً واصطفى
زوجة جاءت بمرضيّ البنينْ
ورأى أن ابنه شذ، فلم
يقبل التأديب والنصح المبينْ
فهوى وهماً عليه بالعصا
فأصاب السمن ضرباً باليمينْ
كسر الجرة سهواً فغدا
يندب الحظ ولا يخفي الأنينْ
والأماني ضلّة إن صادفت
يقظاً كان أشرّ الحالمينْ

تجارب متنوعة

بدايات شعر الأطفال المبعثرة ظلت ثقيلة الظل في الغالب كما نلاحظ في هذه القصيدة للمربي الكبير علي فكري:

أطع الإله كما أمرْ
واملأ فؤادك بالحذرْ
الدين لا تلعب به
لعب الصوالج بالأكرْ
حافظ عليه فإنه
نعم السعادة تدخُر
وأطع أباك لأنه
رباك من عهد الصغر
واخضع لأمك أرضها
فعقوقها إحدى الكبر

حملتك تسعة أشهر
بين التمرّض والضجر
فإذا مرضت فإنها
تبكي بدمع كالمطر

وحتى حافظ إبراهيم كانت له محاولات عدة، إضافة إلى حماسته الشعرية المعروفة للتعليم، لكنها مثقلة بمباشرة وجفاف في بنائها الشعري، ومن تجاربه «على لسان طفلة»:

أخشى مربيتي إذا
طلع النهار وأفزعُ
وأظل بين صواحبي
لعقابها أتوقعُ
لا الدمع يشفع لي ولا
طول التضرع ينفعُ
وأخاف والدتي إذا
جن الظلام وأجزعُ
وأبيت أرتقب الجزاء وأعيني لا تهجعُ
ما ضرني لو صنت أثوابي فلا تتقطعُ
وحفظت أوراقي بمحفظتي فلا تتوزعُ
فأعيش آمنة وأمرع في الهناء وأرتعُ

ومع ندرة المساهمة النسائية إلا أن المصادفات الجميلة جعلتني أقع على نص نادر لشاعرة مصرية اسمها أمينة نجيب عاشت بين ١٨٧٣ - ١٩١٧ وعنوانه «العصفور» ونصه:

امـــــرح صــغـيـر الـطـيــور
واقـــفـــز هـــنـــا لا تـــبَـــالِ
إنـــــــا نـــعـــــدُّك مــنـــا
بـــل واحـــــدُ الأطـــفـــالِ
كـــم وثـــبـــة لـــك كـــانـــت
تـحـيــــة لـلــجـــمـــالِ
عـــــبَّرت عـنـهــا فـصـيـحـاً
عـــــن حـــبـــك المـتـعـالي
كـــمـــا شـــــدوت بـلـحـن
مـــن روح هــــذا الجـــلالِ

ومن الأمثلة المبكرة والنادرة على قصائد الأطفال التي ترافق إحدى الألعاب عثرت على نص مجهول الشاعر بعنوان «لعبة الشجرة» كتب منذ مئة سنة تقريباً، ومنه:

وسـط الحـديـقـة والشـجـرْ
والـشـــجـــر والـشـــجـــرْ
نجري ونلعب بالأكرْ
ونـنـظـف الأيـــــدي كـــذا
الأيـــــــــــدي كـــــذا
ونزيل بالماء القذرْ
وكـــــذاك نـلـبـس ثـوبـنـا
ثـــوبـــنـــا ثـــوبـــنـــا
ثوباً نظيفاً مفتخرْ
وكـــــذا نـنـظـف نـعـلـنـا
نـــعـــلـــنـــا نـعـلـنـا

أدواتـــــنـــــا نـحـمـل كـــذا
نـحـمـل كـــذا نـحـمـل كـذا
كي لا يحل بها ضررْ
وكذا نسير لدرسنا
في يوم برد أو مطرْ
وكـــــذا نـــعـــود لـبـيـتـنـا
لـبـيـتـنـا لـبـيـتـنـا
من غيرهم أو ضجرْ

فيما بعد أسهم كثير من الشعراء بقصيدة أو أكثر كما فعل الشاعر أحمد الكاشف، ومن محاولاته هذه القصة الشعرية بعنوان «النعجتان»:

في وسط قنطرة تلاقت ذات يوم نعجتانِ
بالكبرياء شهيرتان غليظتان عنيدتانِ
إحداهما نظرت إلى الأخرى بعين الإمتهانِ
ودنت تصيح الآن لي: أخلي الطريق بلا توانِ
فأجابت الأخرى بكبر لست أبرح عن مكاني
واشتد بينهما اللجاج فهاجتا تتدافعانِ
حتى هوت في لجة اليم الخضم الاثنتانِ
عظم المصاب فصاحتا مما جرى تتأسفانِ
أيريحنا ذا الاتساع الآن في هذا الهوانِ؟
ويلاه من عقبى التناهي في الشراسة والتفاني!
إن السلامة والكرامة في التسامح والليانِ

ويقترب العقاد من عالم الطفل في قصائد «عيش العصفور» و«يا قمر» و«طفل» التي فيها:

يستعبد الناس كأن لم يكن
يسمع بالدستور في عمره
وينزل الأهل على حكمه
ويرغم الصحب على أمره
لم ينه عن شيء يعنّى به
إلا ارتمى يسعى إلى كسره
ويجذب القطة من ذيلها
ويضرب الكلب على ظهره
فإن تلوّى منهما واحد
على يديه طار من ذعره
وصاح يستعدي عليه الورى
كأنه البادئ في شره
ألا ترانا وهو يلهو بنا
أسرع ما كنا إلى بره
بحيلة منه فلا غيرها
يردنا طوعاً إلى أسره

وأسهم مصطفى صادق الرافعي بعدد من القصائد الموجودة في ديوانه أو المبعثرة في بعض الكتب والمجلات ومن قصائده الجميلة «الحمار»:

يا راجياً لطف الحمار فلمته
هل عند رجليه سوى رفساته
كل الكلام يضيع في آذانه
ما دمت لا تحكيه في نهقاته
والعقل تخلقه العصا في ظهره
ضرباً يترجم جلده لذعاته
إن الحمار وإن تلقب في الورى
بالفيلسوف هو الحمار بذاته

وللدكتور أحمد زكي أبو شادي تجارب لطيفة في شعر الأطفال، وقد كان اهتمامه بهذا اللون كتابة وتشجيعاً، فخصص صفحات له بعنوان «شعر الأطفال» في مجلة أبولو الشهيرة، ولنأخذ نموذجاً له هو «العصفور»:

ساكن الأغصان غرّد
للمنى شعراً وغنّ
صوتك الصداح سحر
يطرد الأحزان عني
......
أنت لا تخشى هموماً
أنت تحيا في اجتهادِ
تبصر الدنيا نعيماً
لم ينغص بحدادِ

ويبدو لي أن الاتجاه الرومانسي قد أسهم في دعم شعر الأطفال والكتابة فيه، فهذا الدكتور عبد العزيز عتيق يكتب قصيدة «العيد»:

أيها العيد مرحباً
بك يا عيدنا السعيدْ
أنت أقبلت زائراً
فلبسنا لك الجديدْ
وفرحنا كما ترى
نتلقاك بالنشيد

واشترينا لك الدمى
وجمعنا لك النقود
كل بيت مزين
لك بالزهر والورود
فلتدم فرحة لنا
وليدم وجهك السعيد

ويكتب محمود أبو الوفا حكاية شعرية بعنوان «ريش الطاووس» وهو من الذين كتبوا عدداً من الأغاني والأناشيد:

نشر الطاووس ذيلا
واستوى يمشي اختيالا
يبسط الزهو أو
العُجب حواليه ظلالا
ما له لا يملأ الأعطاف تيهاً أو دلالا
وهو ما وجّه عينيه يميناً أو شمالا
لا يرى إلا عيوناً
تتمناه ابتهالا

وإبراهيم ناجي الشاعر الرومانسي الكبير كتب «نشيد الطالبة» الذي يقول فيه:

إني أحب العلم فهو
التاج يرفع كل أمّة
إن تحمدوا نعم الإله
فإنّ حبّ العلم نعمه
وإليه أغدو كالطيور
طبعي التغني والبكور
وإلى الحياة أسير تملؤني
البشاشة والسرورْ
ويدي لمن حولي تمدّ
على المحبة والودادْ
أغدو على حب لهم
وأعود صافية الفؤادْ
لأبي وأمي طاعتي
ورضاهما هو مغنمي
وعليّ أن يغدو
احترامي كاملاً لمعلمي

وكذلك فعل الشاعر الغنائي المعروف أحمد رامي في قصائد «الطالب» و«أمي» و«حفيدتي» التي يقول فيها:

أنا أحب رانية
قرة عيني الغالية
إذا رأيت وجهها
نسيت كل ما بيه
أشتاق أن أضمّها
وهي عليّ حانيه
وأستطيب قبلة
من العيون الساجيه
لله ما أجملها
حين تكون راضيه
وما أرقّ خطوها
رائحة وغاديه

وبرزت قصائد سيد قطب الذي كان ذات يوم ناقداً تحديثياً وشاعراً رومانسياً، ومن ضمن اهتماماته كتابته لشعر الأطفال كقصيدة «الوادي المقدس» التي يقول فيها:

يا نيل كم من شراع
يا نيل كم من سفينْ
أسلمتها للوداع
على مدار السنينْ!
وينشط الزرزور
يجمِّع العيدانْ
لعشه المعمور
يفرخه الوسنانْ

وله قصيدة عن «الصيف» يقول فيها:

ما أجمل المصيفا
وجه الطبيعة وجهٌ الشطيفا
وظله الخفيفا
للناس أجمعينا
على الرمال نمرح
ونرتمي ونفرحُ

وممن أبدع وامتاز بتجاربه سعيد جودت السحار، وخاصة في القصائد المناسبة لأطفال السنوات الابتدائية الأولى، ولعله من القلة التي تعرف الصياغة الأسلم للطفل فنياً وتربوياً ولغوياً، وكمثال على شعره قصيدة «الأرجوحة»:

ما عشت لا أنسى
أرجوحة الخيلِ
زدنا بها أنسا
أرجوحة الخيل
في العيد زرناها
يا ما أحيلاها!
طارت بمن فيها
لما ركبناها
صرنا أغانيها
صرنا حكاياها

☆ ☆ ☆

أرجوحة الخيل
دوري بنا دوري
يا حلوة الشكلِ
ملهى العصافيرِ
يا بهجة الطفلِ
دوري بنا دوري

وله قصيدة محلقة بعنوان «لو كنت أطير»:

آه لو كنت أطير
مثل عصفور صغير
آه لو كنت أطير!
كنت أعلو في الهواء
طائراً نحو السماء
ثم امضي في الفضاء
أنظر الكون الكبير
آه لو كنت أطير!

كـنـت أحـيـا في صـفـاء

بـين أغـصـان ومـاء

في حـمـى رب الـسـمـاء

حـيـثـمـا شـئـت أسـيـر

آه لو كنت أطير!

ولعل من الأسماء البارزة والمتفرغة تقريباً لشعر الأطفال هو الشاعر أحمد زرزور، ويمكن أن نمثل من خلاله لتجربة شعر الأطفال الآن بما فيها من نجاحات وإخفاقات، ففي شعره سهولة وعذوبة وأفكار إنسانية وطفولة تحمل القيـم الإيجابيـة، مع ميل واضـح إلى تمثل الهموم العربية في كل مكان وخاصة القضية الفلسطينية، لكن مع الأسف كثيراً ما تخدش جمـال التجربة هفـوات لغوية وعروضـية عديدة، ولأضرب عليهـا أمثلة محدودة بادئاً بالهفوات العروضية كقوله:

وحدوا الصف وسيروا أقوياء

ليس للضعفاء في الدنيا مكان

أو:

أطالب الأحرار

كي يثأروا لرفاقي

لدم البريء المراق

أو:

لكنك يا حجر شريكي

أو:

حركها الريح فزحفت

ما قالته أسودُ الأفق

فسقطت

أو:

عن الحق جاء

يوقظ الصحراء

أو:

وترجل ودعا الأحرار

أو:

وسرى الهلع بكل مكان

أو:

وكما لا يفلح جبناء

ومن الهفوات الخاصة بالقافية:

لا غيره أملكه

معبراً عن غضبي

مما يلاقي شعبي

أو:

وصل الركب

وخيول ادركها التعب

أو:

وارتفعت رايات الفتح

وتعالت صيحات الفرح

وفي الهفوات اللغوية نقرأ:

والريح يهب يزمجر

أو:

وهيا سارعوا للصيف

قبل رحياه بكره

أو:

هذي رفحُ

فلتسترحوا

والمؤسف تربوياً أن يقول في كلام له عن تجربته وخاصة في بلد أهله سمر البشرة أو سودها أحياناً:

« وعندما التحقت بالمدرسة الابتدائية غاظني أن السواد طال السبورة أيضاً، فتساءلت في نفسي: لماذا لا يكون لونها أخضر أو بنفسجياً أو حتى بنياً؟ وسوف تظهر الطباشير الأبيض عليها أيضاً». .

كان سؤالاً مهموماً بالرغبة في الفرح في الحياة، وهكذا وجدتني أكتب قصيدة بعنوان «لونها أسود، لماذا ؟» في شكل حواري بيني وبين سبورة فصلنا، تاركاً للسبورة بحياد أن تجيب على سؤالي :

سبورة في فصلنا

سألتها عن لونها: لماذا كان أسود؟

قالت: لكي تضيء فوقه

بالطباشير الأبيض الجميل

كتابة نبيلة

تنوّر العقول

ونعتقد أن هذا الاحتقار للسواد شيء مما يحمل إرثاً مرفوضاً من التمييز بسبب اللون، لا يليق أن نحمله لأطفالنا.

لكن إنجاز أحمد زرزور نقرؤه في أمثلة من نوع «أغنية شجيرة الصفصاف»:

شجيرة الصفصاف

نمت على الضفاف

تحنو على الطريق

بظلها الصديق

شجيرة الصفصاف

تقول: لا أخاف

من عطش أو جوع

فالنهر تحت ساقي

يجري بلا انقطاع

ومن أمثلة القصائد ذات الهم القومي «بطاقة الجدار» التي يقول فيها:

على جدار خيمتي

بطاقة ملونه

لريوة مخضرة

وقلعة ومئذنه

وطفلة حزينة

بين الخيام جائعه

ترنو إلى الأفق البعيد في المساء دامعه
على جدار خيمتي
بطاقة بديعه
تختال في ظلالها
صديقتي الطبيعه
ولوحة لدارنا
ببابها القديم
فكم على سطوحها
غنت لنا النجوم
هل تعرفون إخوتي
في لوحة الجدار؟
وأين يا أحبتي
تكون هذي الدار؟
بطاقتي حكاية
من أرضنا السليبه
تحكي لكم عما جرى
في قدسنا الحبيبه!

وممن قدموا نتاجاً معروفاً محمد السنهوتي ومحمد رضوان وأحمد نجيب ومحمد عوض محمد وعلي متولي صلاح وعبد العليم القباني وسمير عبد الباقي وأنس داوود وأحمد الحوتي وحسين علي محمد وعبد المنعم العقبى وناصر المحلاوي وبهاء شاهين وابراهيم شعراوي،وكثيرون غيرهم ممن يتوقف عليهم مستقبل شعر الأطفال في مصر.

المصادر والمراجع

١- إبراهيم، حافظ: ديوان حافظ إبراهيم. جزآن. دار العودة. بيروت ١٩٩٦.
٢- إسماعيل، د. سيد علي: تاريخ المسرح في مصر في القرن التاسع عشر. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ٢٠٠٥.
٣- ترد، محمد عبد الرحيم: زعموا أن .. أو كليلة ودمنة بالصور. مطبعة الاعتماد. القاهرة. بلا .
٤- جلال. محمد عثمان: الأماني والمنة في حديث قبول وورد جنة. المطبعة الوطنية. القاهرة ١٢٨٨هـ .
- العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ. تحقيق: عامر البحيري. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٨٧القاهرة، واطلعنا على طبعتي١٨٧٠ و١٩٠٦ في مصر.
٥- الحوتي، أحمد: حكاية الزهرة التي حاولت تغيير لونها. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٩٤.
٦- الخولاني، محمد صالح: أغنيات وحكايات صغيرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ٢٠٠٦
٧- دراسات في أدب الأطفال. مجموعة مؤلفين. الهيئة العامة المصرية للكتاب. القاهرة ٢٠٠٦.

٨- داود، د. أنس: حكايات السنونو. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٩٣.
٩- الرافعي، مصطفى صادق: شرح ديوان مصطفى الرافعي. أسامة محمد السيد. جزآن. مؤسسة الكتب الثقافية. بيروت ١٩٩٣.
١٠-زلط، د. أحمد: ٠أدب الأطفال بين أحمد شوقي ومحمد عثمان جلال. دار النشر للجامعات المصرية. القاهرة ١٩٩٤.
- أدب الطفولة بين كامل الكيلاني ومحمد الهراوي. دار المعارف. القاهرة ١٩٩٤.
١١-زرزور، أحمد: أغنية الطفل الفلسطيني. الهيئة العامة لقصور الثقافة. القاهرة ٢٠٠١.
- كي يسلم الجميع. المركز القومي لثقافة الطفل واليونيسف. مطابع الشروق. القاهرة ١٩٩٢.
- مدن الفتح الإسلامي. الهيئة العامة لقصور الثقافة. القاهرة ١٩٩٩.
- مرحباً بالندى. الهيئة العامة للكتاب. القاهرة ٢٠٠٤.
- ويضحك القمر. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٨٨.
١٢-أبو زويع، إحسان: القراءة للأطفال. للثالث روضة. شركة فن الطباعة. القاهرة. بلا.
١٣-السحار، سعيد جودة: أناشيد مدرسية. مكتبة مصر. القاهرة. بلا.
١٤-سري، إنصاف: روضة الأطفال. أربعة أجزاء. مطبعة المعارف. القاهرة ١٩٢٤.
١٥-سليم، محمد شريف: مجموعة من النظم والنثر. المطبعة الأميرية. القاهرة ١٩١٩.
١٦-السنهوتي، محمد: ديوان السنهوتي للأطفال. جمع ودراسة د. أحمد زلط. دار الشرق. القاهرة ١٩٩١.
١٧-سويلم، أحمد: أطفالنا في عيون الشعراء. دار المعارف. القاهرة ١٩٨٨.
١٨-السيد، د. جيهان محمود: كتب الأطفال الصادرة في مصر في القرن التاسع عشر. دار الثقافة العلمية. الإسكندرية ٢٠٠٧.
١٩-أبو شادي، أحمد زكي: الشفق الباكي. المطبعة السلفية. القاهرة ١٩٢٦.
٢٠-شبلول، أحمد فضل: أشجار الشارع. دار النشر. عمان ١٩٩٤.
٢١-شحاتة، د. حسن: أدب الطفل العربي. الدار المصرية اللبنانية. القاهرة ١٩٩١.
٢٢-الشرقاوي، رأفت: أحلام أطفال الفضاء. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ٢٠٠٦.
٢٣-شعراوي، إبراهيم: حكايات وأغان. أربعة أجزاء. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٩٨-١٩٩٩.
٢٤-الشعر للأطفال (الحلقة الدراسية الإقليمية لعام ١٩٨٩) الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٨٩.
٢٥-شوقي، أحمد: الشوقيات. ط١. مطبعة الآداب والمؤيد. القاهرة ١٨٨٩.
- الشوقيات للمدارس. مطبعة المعارف. القاهرة ١٩٢٧.
٢٦-الشيال، د. جمال الدين: تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في مصر محمد علي. مطبعة الاعتماد. القاهرة ١٩٥١.

٢٧-صبري، عبد الفتاح وعلي عمر: القراءة الرشيدة. أربعة أجزاء. ط ٩. القاهرة ١٩٢٧. بلا .

٢٨-الطهطاوي، رفاعة: المرشد الأمين للبنات والبنين. ط ١. مطبعة المدارس الملكية. القاهرة ١٢٨٩هـ.

- ديوان رفاعة الطهطاوي. جمع ودراسة: د. طه وادي. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٩٣.

٢٩-العريبي، إبراهيم: آداب العرب. المطبعة الأميرية. القاهرة ١٩١١.

٣٠-علي، د. سعيد إسماعيل: تاريخ الفكر التربوي في مصر الحديثة. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٨٩.

٣١-قناوي، د. هدى محمد: الطفل وأدب الأطفال. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة. ١٩٩٤.

٣٢-الكيلاني، كامل: ديوان كامل الكيلاني، إعداد: عبد التواب يوسف. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٨٨.

- محفوظات. وزارة المعارف العمومية. المطبعة الأميرية. القاهرة ١٩١٨.

- محفوظات. وزارة المعارف العمومية. المطبعة الأميرية. القاهرة ١٩١٨.

٣٣-موسى، محجوب: أغاني الأطفال. دار الصحابة للتراث. ط ١ طنطا. بلا.

٣٤-ناجي، إبراهيم: الأعمال الشعرية الكاملة. تحقيق ودراسة: حسن توفيق. المجلس الأعلى للثقافة. مطابع لوتس بالفجالة. القاهرة ١٩٩٦.

٣٥-النجار، د. حسين فوزي: علي مبارك أبو التعليم. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٨٧.

٣٦-نجيب، أحمد: ديوان شعر أحمد نجيب للأطفال والناشئين. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٩٥.

- فن الكتابة للأطفال. دار الكاتب العربي. القاهرة ١٩٦٨.

٣٧-الهراوي، محمد

- سمير الأطفال للبنات. ثلاثة أجزاء. مطبعة دار الكتب المصرية. القاهرة ١٩٢٣.

- سمير الأطفال للبنين. ثلاثة أجزاء. مطبعة دار الكتب المصرية. القاهرة ١٩٢٢.

- السمير الصغير. ط ١. مطبعة دار الكتب المصرية. القاهرة ١٩٢٦ .

- الطفل الجديد. ط ٣. مطبعة دار الكتب المصرية. القاهرة ١٩٢٣.

٣٨-وادي، د. طه: الشعراء المجهولون في القرن التاسع عشر. ط ١. دار الثقافة. الدوحة ١٩٨٦.

٣٩-أبو الوفا، محمود: أشواق. مطبعة مصر. القاهرة ١٩٤١.

- أناشيد البراعم المؤمنة. مؤسسة الأقصى ١٩٧٣. بلا.

مجلات: «سمير» و«علاء الدين» و«قطر الندى»

☆ ☆ ☆

الفكر والحياة

علاقات الفكر والعاطفة والغريزة نموذجاً

صقر خوري *

من نافل القول أن نقول، إن إنسان هذا العصر، يحتاج إلى جهازه العصبي، كوسيلة للتفكير، بالدرجة نفسها التي يحتاج فيها إلى جهازه الهضمي مثلاً. ذلك إن المستجدات والتعقيدات التي طرأت على مجمل ظروف الحياة، تستدعي أن يعمل الإنسان فكره، في كل خطوة يخطوها. ولذلك نلاحظ بجلاء، الصدام الحقيقي بين الفكر الذي يتفاعل -بقابلية- مع المنجزات العلمية والتقنية، والفكر الذي لم تتهيأ له مثل هذه الفرص،

* باحث في التراث-ناقد (سورية)

- العمل الفني: الفنان عبد السلام عبد الله.

التي تساعده على الانفلات من آسار الثوابت الذهنيــة الأولية، أو البدائيــة أو الماورائية.. الفكر الأول دائـم الحركة والنقلة، من وإلى، لأنه يعيش دقائق الحياة وتفاصيلها، ودقائق الحياة وتفاصيلها بالنسبة إليه، تيار متواصل لا يني عـن الحركة ولا يـكل.. بينما الفكر الآخـر، يهنا إلى الركون والركود، والتسـليم بالحـادث كمـا يحـدث، وتهيمـن الرتابة والسذاجة، على مجمل سلوكاته، حيث يرفض مجرد التعبير بأسـلوب جديد، عما يجدّ من الأحداث، ويسـتدعي نظراً فكرياً معيناً، أو جـدلاً فكرياً معيناً، حتى يصـبح، تدريجياً، وتلقائياً، خارج الحياة الفاعلة، بعكس الفكر الفاعل، الذي يتعامـل مع الأحداث بقدرات عالية، ويجيب، بما يناسـب، على الأسـئلة، التي تطرحها التطورات الجادة .

وعلى هـذا، فإننا نعتبر في الحياة، الفكر الذي يواكـب الحياة أو يسـبقها، أما الفكر الـذي يتخلف عنها، فلا يمكن أن يعبّر تعبيراً صـحيحاً عن تطورها، لأن التعبير الصحيح عن تطور الحيـاة، يجب أن يتميـز، أول ما يتميز، بعمق الأصالة والمحتوى، أما المشاركة الآليـة، التي تعتمد مجرد المصـادفة وتوافق الظـروف، فإنهـا لا تكفـي لاسـتيعاب كل مقومات الحيـاة وكل مقولاتها، وفرزها عن مجـالات الآليات الفكريـة ومناهجها، وبناء عليه، فـإن ما يميز الحياة الفكرية عن حياة العبـث، هو الذي يمكّن الفكـر لأن يفعل في الأحـداث، بدلاً من أن ينفعل فيها، إضـافة إلى أن التخلص من فوضوية السلوك، الناتج عن اعتماد توافق الاحتمالات والصـدف، أو عدم توافقها، يعتبر في حد ذاته، خطوة جادة نحو الاستقلال الفكري والتفوق الفكري من ثم.. فكيف يرقى الفكر المراحل، التي تضمن له النضـج المتنامي، والخصوصـية البنائية والأدائيـة ؟! هذا ما تجيـب عنه المجادلات التالية، التـي تناقش، علاقة الفكر بالتربية، وعلاقته بالمجتمـع، والعواطـف، والغرائز، والسلوك السوي، الناتج عنها.

أولاً: الفكر والتربية:

المنهـج الـذي سـنتبعه، لنربّـي الفكر، التربية السـليمة، سـيبدأ بالبدايات الوراثية الأولى، وينتهي، وهـو ينتقل انتقالاً متدرجاً، عبر التربية المسـتديمة، مـن كفايات فكرية حاضـرة، إلى كفايات فكريـة قادمة، مروراً بتربية المكتسـبات، المكتسـبة على الدوام..

ما هـي هذه الموروثـات، ومتى نربيها، وكيف، حتـى تتماهى مع المكتسبات، وتشكل وإياها، كفايات فكرية فاعلة، تؤول إلى كفـاءات فكرية راقية، هذا هو موضوع فقراتنا التالية..

١- الموروثات الفكرية:

لا نـقـصـد بـالمـوروثـات الفكرية، ما عناه «يونغ» من أن الطفل يرث، من ضمن ما يرث، ذكريات آبائه وأجـداده.. ما نقصده بالموروثات الفكرية، هو كل مكونات الفكر العضوية، أو هو كل مراكز الفكر والتفكير، في القشرة الدماغية، وأدواتها، وتوصيلاتها العصبية، أي كل ما هو فيزيولوجيا، السيكيولوجيا قادمة، أو كل ما درجنا على تسميته، بـالـدمـاغ، أو المخ والمخيخ، أو حوامل العمليات العقلية، والتي نسمّي نواتجها فكراً، بعد هذه العمليات، أو المحاكمات، أو لنقل، التي تصير فكراً، بعد أن نفكر فيها.. وهي كذلك تعتبر



أدوات فكرية، بناء على ما سوف تكون.. ويكون وجودها -كـأدوات فكرية- وجـوداً واقعياً، يصير وجوداً فعلياً، حينما يستطيع حاملها، الانتقال من العمليات الحسية الفيزيولوجية،

إلى العمليات التجريدية السيكولوجية، أي حينما تدخل ملكوت التفكير المجرد..

٢- متى تربى هذه الموروثات:

منذ مكونات الخليـة حتى تكوّن الخلية، وتستمر ما دامت في الحياة، وتكون هذه التربية، تربية تكوينية، في المرحلة الأولى، ثم تصبح وظيفية، في المرحلة الثانية.

أ- المرحلة التكوينية:

والتي لا تتجاوز عمر الثلاث إلى أربع سنوات، أو لنقل عمر الطفولة الأولى، أو الطفولة المبكرة، إذ علينا في هذه المرحلة، أن نحافظ على سلامة النماء العضوي لهذه الأعضاء، حيث إنّ أي إعاقة مرضية، أو غير مرضية، لهذا النماء، يحتاج تعويضها إلى أضعاف الجهد والمدة، الذي تحتاج إليهما في آنها الطبيعي، هذا إن عوضت، وإن لا ستبقى الإعاقة إعاقة أبدية، أو عاهة عاصية على العلاج، وذلك لسببين: الأول، لأن أي ظرف صناعي، حاضن للنماء، لا يوازي، ولا يعادل أي ظرف طبيعي، من ظروف النماء، والثاني: لأن أي نماء لاحق أو مستدرك، أو تعويضي، لا يعادل أي نماء، في آنه الطبيعي، إضافة إلى أن نماء أي عضو، نماء فيزيولوجياً أو سيكولوجياً، يرتبط بنماء الأعضاء الأخرى، وإعاقته، تلحق الأذى، بنماء الأعضاء الأخرى، هذا بالشكل العام، أما إذا تكلمنا عن الدماغ والقشرة الدماغية، فيصبح الأمر أكثر خطورة وحساسية، لسيطرة هذه المراكز، على مختلف أجهزتنا التي تكون شخصيتنا.

ب- المرحلة الوظيفية:

والتي تبلغ أوجها، بعدما تبلغ هذه المراكز غاية كفاياتها، التي تؤهلها لوصول الكفاءات الفكرية[1]، إلى سقوفها الحقيقية، أو التي تستطيع فيه، أن تصوغ، كامل المُدخلات الفكرية الخالصة، إلى مخرجات فكرية خالصة، وهذا الإتقان في الأداء، لا يمكن أن يتوافر للمراكز الدماغية وأدواتها وتوصيلاتها، إن لم تتوافر لها الشروط الصحية السليمة، التي تبقيها سليمة، وصالحة للقيام بملايين الملاءمات الفكرية، المتشابكة المتداخلة، التي ربما احتاجت إلى مراكز معلوماتية عملاقة، لتستطيع تأدية مثل وظائفها، بالغة المهارة والتعقيد.

هذا، وإذا علمنا -كما أشرنا في الفقرة السابقة- أن أي خلل في أي جزء من أجزاء هذه المنظومة الهائلة، يخل بعمل الأجزاء

الأخــرى من المنظومة، كما يخل بعمل أجهزة الجسم الأخرى، نركم يُطلــب منا أن نبالغ في الحرص على ســلامة هــذه المراكز، كيما تحافظ على جاهزيتها الراقية، لأداء وظائفها الخطيرة والمعقدة.

أمــا كيف نحافــظ على هذه الصــحة، فيكون بالمحافظة على سلامة الصحة العامة، بشكل عام، وعلى سلامة هذه المراكز بالشكل الخاص، والتي لو فصّلناها، نخرج عن حدود بحثنا ووظائفه.

٣- كيف تُربي هذه المورثات:

ثمــة أكثر مــن طريقة صــحيحة، لتربية المورثات، هــذه الطرق صــحيحة في ذاتها، ككيفيــة، وصــحيحة مــع غيرهــا، ككيفية وكإجراء.

بمعنــى أنها وهي صــحيحة في ذاتها، أو بمفردهــا، لا تكون صــحيحة في الأداء، إلا إذا كانت الطرق الأخرى، صــحيحة أيضــاً، في كيفياتهــا وفي أداءاتهــا، حتــى لا يختلط الصــحيح مع الخطأ، وتكون النواتج خاطئة، أو متدنية، وأهم هذه الطرق :

١- أن تُربــى المورثات كمــا هي، لا كما نريد لها أن تكون، ولأنها في مراحل الطفولة المبكرة، لا تكون بائنة، إلى الحد الذي يساعدنا على تصنيف كفاياتها، أو سياقاتها، فالتربية المناســبة لها، هي التربية العفوية الطبيعية، التي يكون مقياســها الرئيس، العمر الزمني، لهذه المورثات، والمنهج الاعتيادي الذي يناسب هذا العمــر.. أي إنه لا يجوز أن نفترض لها كفايــات، نحددها نحن، طبقــاً لما نرغب أن تكــون، أو ما نفترضــه أن تكون، ذلك حتى لا نربيها، بما هو فوق مقاسها، ولا بما هو تحت مقاسها، حيث تخرج في الحالتين، دون تربية مناسبة، في الوقت المناسب، إلى الحد الذي لا تعــود تنفع فيه، عمليات الترميم، أو الترقيع، التابعة أو اللاحقة.

٢- أن تُربــى كما يجــب، لا كما نعرف: وكمــا يجب هذه، تحتاج إلى قــدرات تربوية خاصــة، ما دمنا نربي قدرات فكرية خاصة، فــإذا كان كثرة الآبــاء، قادرين علــى تربية الخروف والحصــان والدجاجــة، فإن قلتهم القليلة، هــي التي يفترض أنهــا قادرة على تربية الأبناء، وســياقات إبداعاتهم الخاصة، على وجه الخصــوص، ولذا أوصينا، ونوصي دائماً، أن يتولى تربية هؤلاء الأطفال حصراً، المختصون في الحضــانات ورياض الأطفال،

ذلك لأن غالبية الآباء، يعتمدون أساليب تقليدية سائدة، تعتمد في غالبيتها، على ردود الأفعال الانفعالية، لذا تراهم يعالجون الموقف الواحد، بأساليب متنافرة، تخضع لظفراتهم المزاجية الآنية. وهم معذورون في ذلك، لأنه ليس من اليسير تهيئة البيئات الداخلية والخارجية، الملائمة والمتلائمة، والتي ينتج عنها الانسجام الداخلي والخارجي، أو الانسجام الداخلي مع الخارجي، الذي يوفر البيئة الطبيعية المناسبة، لنماء وترعرع، الثيمات الضرورية، لنماء وترعرع، قدرات الأطفال الفكرية والإبداعية، نماء فعّالاً ومتوازناً. خاصة إذا أخذنا بالاعتبار، المؤثرات، التي قد تكون سلبية، للبيئات المحيطة، الاجتماعية والطبيعية.

٢- أن نلائم بينها وبين الواقع المتوقع: ضمن حدود المستقبل، الذي نستطيع أن نتوقع ما هو، أو ماذا يمكن أن يكون، بحيث لا نربي لماض مضى، لا تنطبق مصطلحاته، على مفردات الحاضر أو المستقبل المنظور، أو المستقبل أجل لا نعرف ما هو. إذ في المرة الأولى، نربي قدرات، تكرّس وتكرّر، ما هو، على ما هو، أو، ما هو عليه، على ما كان عليه. مما يبقي سوى الدروب إلى المستقبل معمية.. وفي المرة الثانية، نربي قدرات نعلو فوق فضاءات الطموحات المتوقعة، وكأننا نعلّم الأبناء لغة، لا تخاطب الماضي، ولا تحدس المستقبل.

إن الذين نراهم من أبنائنا، يأنفون من الماضي، وينظرون إليه نظرة دونية، ويجمعون نحو زمان هلامي، متحلل من أبعاده الثلاثة، هم مثال بارز على تربيات مقطوعة الجذرية الزمكانية..

٤- تربية المكتسبات الفكرية: إن كانت تربية الموروثات، تتجه من الداخل إلى الداخل، ومن الداخل إلى الخارج، فإن تربية المكتسبات، تتجه من الخارج إلى الداخل، ومن الداخل إلى الخارج، بحيث ينتج عن هذا التأثير المتبادل، كفايات قادرة على الصيرورة، إلى كفاءات، قادرة على جعل المدخلات الخام، مُخرجات فكرية، متقنة الأداء.. وحتى لا يبهرنا، كيف الأداء وبهرج المخرجات، عن مضمون الأداء، وكم المخرجات، نقترح الأساليب التالية، لتربية المكتسبات الفكرية، التي تجذر في الفكر الصفات التالية:

١- المرونة:

بحيث يكون الفكر قادراً على الإقدام، مثلما هو قادر على الإحجام، وعلى المنح

كما المنع، والرفض كما القبول، ولا يتم ذلك إلا إذا تماهت كفايات عقلية، قابلياتها واستعداداتها الأولية، أبرز سماتها المرونة، مع مكتسبات أبرز سماتها المرونة، بحيث يصدر عن هذا التماهي، بنية عقلية، تأنف التأطير والهيكلة، لا تظل دون إطار، وإنما لتنتقل من إطار إلى إطار، ضمن البناء الكلي، انتقالاً وظيفياً، يتكئ فيه، ما نريد إنجازه، على ما أنجزنا، دون انقطاعات، تجعل من المرونة تفكيكاً للمناشط الفكرية، أو تصلبها في أنماط متجاورة، تجعل من البناء الفكري، بناء كمياً، نائياً في طبيعته الكيفية.

وهكذا تكون المرونة، رشاقة في البنية، تسهل الانتقال من هذا الموقف، إلى الموقف الموافق أو المنافي، بأقل قدر من التكيفات والتكييفات، العفوية الطبيعية التي تضفي على سلوكاتنا -حتى الإحجامية منها- انسجامات سلسة، تقل فيها، إلى أبعد حد، تصادمات الداخل مع الداخل، والداخل مع الخارج.

هكذا أهداف، لا تكفيها تربيات، تعتمد الاحتمالات والمصادفات، وإنما تحتاج إلى أنماط تربوية مبرمجة، تنظيراً وإجراء، ومحسوبة النواتج سلفاً.

٢- المنطقية:

المكتسبات تؤخذ مما هو سائد، وما هو سائد، سائد لأنه مقبول اجتماعياً، وحتى نقارب بين ما هو سائد، وما هو منطقي، يجب أن نقارب، عن طريق العمليات العقلية، أو المحاكمات العقلية، والتي هي المنطق برأسه، أو بحد ذاته، بين إطلاقين، إطلاق: إن ما هو سائد، سائد لأنه صحيح، وإطلاق: إن ما هو صحيح، صحيح لأنه سائد. إن هذا التقارب، أو قل الدمج، أو التماهي، يتم عن طريق عمليات فرز منطقي، يبقي على ما هو صحيح، مما هو سائد ويلغي ما لم يعد صحيحاً، مما هو سائد، وذلك بسبب من التطور المتواتر، الذي يلحق موروثات المجتمع. ولأن القبول والرفض، تم بعد عمليات عقلية، فهو منطقي، ولأن هذه الحرفية، حرفية إيديولوجية، فهي معرضة للانحراف، نحو كل الاتجاهات، إبان العمليات الإجرائية، بسبب من تداخل البراجماتية، مع الموضوعية، بتأثير العواطف والغرائز، وهذا ما نقصده حرفياً، بإكساب العقل، المكتسبات، التي تنمي فيه، ما هو منطقي، على ما هو براجماتي. ليس إلى درجة حلول، كل ما هو منطقي، محل كل

ما هو براجماتي أو انفعالي أو غريزي. بل للمحافظة على الوضع التراتبي، الذي يبقي المنطقي، في مجاله المنطقي، والبراجماتي في مجاله البراجماتي، وكذا بالنسبة إلى القياسات الأخرى.. هذا التآلف، الفكري - الإجرائي المقصود، بين معطيات الخارج، ومتطلبات الداخل، يجعل من معطيات الخارج، مدخلات داخلية، تؤثث الساحة الفكرية، بكل الكفايات الفكرية الراقية، المؤهلة إلى الانقلاب التلقائي، إلى كفاءات فكرية راقية، وهكذا..

٣- الخلقية:

التي تؤسس إلى أربعة اتجاهات فكرية :

أ- تنمية المكتسبات التي تتجه نحو الخير. كقيمة ايجابية، على الشر كقيمة سالبة: بيحث تربى الكفايات الفكرية، على قناعات، أثبتتها التجريات الإجرائية، أعلت الصدق على الكذب، والشجاعة على الجبن، والأمانة على الخيانة. بحيث يوثث الفكر كلياً، بما هو إيجابي، بحيث لا يبقي مكان لما هو سلبي. وحتى لا تكون التربية، تربية نظرية، أو شكلية، أو معرضة لإغراءات السلب، والانقلاب إلى الضد، يلزم أن تكون معطيات البيئتين الاجتماعية والطبيعية، معطيات ايجابية.

ب- تنمية ما هو نافع دون ما هو ضار: وليس ما هو نافع لنا، أو ما هو ضار لنا، وإنما ما هو نافع في ذاته، وفي غيره، على ما هو ضار، في ذاته، وفي غيره. فالعمل، الإيجابي في ذاته، وفي امتداده إلى الغير. لا يقارن، بالكسل، السلبي في ذاته، وفي امتداده إلى الغير، وبذا لا ندجّن أفكارنا، بما هو نافع لنا شخصياً، بغض النظر عن الأذى، الذي يلحقه بالآخرين، ولا بما هو ضار شخصياً، رغم نفعه العميم للآخرين.

ج- وهذا ما يقودنا مباشرة، إلى بناء افكار، تقدّم العام على الخاص: فالنفع الفردي، يصبح غاية مرفوضة، إذا ألحق الأذى بالآخرين، والضرر الشخصي، يصبح تضحية محمودة، وإنكاراً للذات إن صدف وكان فيه خير للآخرين.

نحن بذلك، لا نناقض مثالية «كانت»، الذي رفض سعادة البشرية قاطبة، إذا كانت على حساب مقتل طفل بريء. وإنما نفضل ما هو عام بعموميته، على ما هو خاص بخصوصيته.

د- وأخيراً تنمية الأفكار، على تفضيل القيم المعنوية، على القيم المادية: فمساعدة الفقير، أفضل من جمع المال، وإسعاف المريض، أفضل من التبهرج باللباس الفاخر. إلا أن ذلك لا يعني أننا نريد أن نبني أفكارنا، بناءات تعلو فوق الحياة، لنصير نرفانيين، أو طوباويين، نعيش أحلاماً، نبنيها فوق أحلام. وبناء عليه فإننا نغبط من يقيم ميتماً لإيواء الأطفال المشردين. أو من يبني مصنعاً، يشغّل مئات المحتاجين، نغبطه لأنه عاش القيم المعنوية، مع القيم المادية، وخرج بأسلوب نافع وأليف. لأننا بذلك نكون عمّرنا أفكارنا، بقيم المادة والروح على حد سواء.

٤- التربية الدائمة، من الكفايات الفكرية، إلى الكفاءات أو الجدارات الفكرية:

تبدأ هذه المرحلة تحديداً، بعد اكتمال النضج الفيزيولوجي للمراكز الدماغية، وقدرتها على تناول المكتسبات الخارجية تناولاً فكرياً، وتجاوز مرحلة الإدراك الحسي، ودخول مرحلة الإدراك المجرد، حيث تبلغ العمليات الفكرية شأوها، حينما تستطيع، مقابلة المجرد بالمجرد، بناتجهما، وإغلاق دارة الصيرورة، ثم فتح الدارة من جديد، بمجرد يقابل مجرداً. وهكذا - وهكذا كلما تتالت التحريضات، وتواترت، وتنوعت، وتعقدت، اكتسبت الكفايات الفكرية، المرونة والتقانة، في العمليات الفكرية والإجرائية الأدائية، التي تصبح، المرة بعد المرة، كفاءات، أو جدارات، تتقلها التحديات المتتابعة، من الكمال إلى الأكمل، إلى أن تصل إلى المرتبة، التي تتجاوز فيها كثافة المادة وعطالتها، لتتحرك بليونة، بين فكر وفكر، حركة صاعدة..

ثانياً: الفكر والمجتمع

التأثير المتبادل، بين الفكر الفردي، والفكر الجمعي، والفكر الثالث، أو الكلي، الناتج عنهما

إذا كان الفكر الفردي، هو مخرجات الفكر الجمعي، المتماهية مع معطياته الوراثية.

وإذا كان الفكر الجمعي، هو مُخرجات الأفكار الفردية، متماهية في الصيغ الفكرية السائدة، على شكل قيم اجتماعية إجرائية..

وإذا كانت المدخلات، تصير مخرجات، في الجدلية الفكرية الدائمة، والمخرجات تصير مدخلات، في الحركة اياها، فإن

التأثــر والتأثير بــين الفكرين، لا يكون حركة عارضــة أو طارئة، وإنما منهجــاً دائماً، مع الفكــر، وديالكتيكياً، ديالكتيكيــة الفكر مع الواقــع، والواقع مــع الفكر، وبالتــالي فإن التأثير المتبادل بين الفكرين، هو النسغ، الذي يمدهما بالحياة والديمومة.

على هذا الأســاس، أو على هذه الأسس، يمكننــا أن نتكلم، عن أثــر كل فكر في الفكر الآخــر، كما يندمج الأثريــن من ثم، في فكر واحد :

١- أثر الفكر الفردي في الفكر الجمعي:

يؤثر الفكر الفــردي، في الفكر الجمعي، سلباً وإيجاباً :

أ- ســلباً: حينما يرفض الفكر الفردي معطيات الفكر الجمعي:

ذلك حينما يرفض الفكر الفردي، بعض ما هو سائد، مما كرسه الفكر الجمعي، على صــورة عادة أو تقليد، ومازال يكرســه، لأن الأفكار التي ترفضــه، مازالت القلة القليلة، بالقياس إلى الكثرة الكاثــرة، التي مازالت تأخذ به.

هنــا نقف أمــام احتمالــين: احتمال أن تصــبح القلة، كثرة فاعلة، تزيل ما هو سائد، لتحل محله رؤيتها الجديدة.

واحتمــال أن تبقــى القلــة علــى قلتها، فيظل ما هو سائد سائداً، ويتلاشى أثر رفض القلة الرافضــة، ليظل ما هو عليه، على ما هــو عليه، ويظل تأثير هــذه الأفكار الفردية غير فاعل، لا على مســتوى الأفكار الفردية، لأنهــا محاصرة بمعطيات الفكر الجمعي، ولا على مســتو ى الأفكار الجمعية، لأنها لم تأت بالبديل المناسب.

وحتــى يظــل كلا الفكرين، في الوضــع المناســب، يجب عــدم إكــراه أحدهما، على الأخذ بمعطيات الفكر الآخر..

ب- إيجابــاً: حينمــا تضــيف الأفــكار الفردية، إلى ما هو ســائد، إبداعات جديدة، لما صــفات الابتكار والجدة من جهة، وتملأ فراغاً، يستدرك نقصــاً، استدعته ضرورات الحياة الجادة، من جهة لأخرى.

بحيث ينضــاف هذا المبتكــر، إلى ما هو سائد، ليصبح سائدا مثله، وأقنوماً من أقانيم الحياة المستجدة، أو المستقرة.

هــذه المبتكــرات، علــى ندرتهــا، وعلى بعد المســافات بــين المبتكر والمبتكــر، لأنها ناتج العبقريــات الاجتماعيــة، والعبقريات الاجتماعية، ليســت متاحــة في كل حقبة..

أقول إن هذه المبتكرات، هي التي تجدد الحياة، لأنها تؤثث الأفكار بكفايات، تؤول إلى كفاءات فكرية، تجتاز ما هو سائد وتقليدي، إلى ما هو إبداعي واستثنائي.

٢- تأثير الفكر الجمعي، في الفكر الفردي:

ويتم هذا التأثير في مراحل ثلاث:

١- مرحلة تكون الكفايات الفكرية، أو مرحلة ما قبل الفكر:

في هذه المرحلة، يمكن الحديث عن :

- وراثة القابليات والاستعدادات الأولية، وإمكانية إنمائها وفق سياقاتها، لتبلغ السقف الطبيعي لقدراتها، لا قبله، ولا بعده، ولا غيره.. لأن قبله، انتقاص له.. وبعده، مطه، لسقف ليس له.. ومنحرفاً عنه، وغيره، تربية له، على ما ليس هو.. ذلك لأن المحافظة على ماهية الوراثات كما هي، واستخدام الأساليب الإجرائية، التي تبقيها كما هي، تؤمن الحد الأعلى من الفاعلية، التي تبقي جيناتها الحيوية متحفزة، في بيئة محيطة ملائمة.

- وعن فيزيولوجيا الكفايات الفكرية، أو عضويتها، فهي تربى كأي فيزيولوجيا، تصلح لأن تصير، آنية للفكر، وأهم ما يجب أن يراعى هنا، هو تتبع مراحل النماء بدقة، وتوفير أفضل الشروط النمائية لها، وتجنيبها كل ما يعيق هذا النماء، من سوالب البيئتين الطبيعية والاجتماعية، ذلك أنه حينما تتوافق، كل شروط العضوية، تتلاءم، كبنية، مع كيفياتها المستقبلية، وعن الكم المناسب لكيفية، تنشأ التشكيلات المجردة، التي تتناغم، فكراً مع عضوية، ثم فكراً مع فكر..

٢- مرحلة تكوّن الكفايات الفكرية:

المجتمع الراكد، أو الساكن، أو المستقر، لا يحرض الفكر، لأنه يتعامل مع نسخ، طبق الأصل عن الأصل السائد، إن الفكر في هكذا مجتمع، يعيد ممارسات معادة ومستساغة، أما المجتمع الدينامي، فهو الذي ينتقل، من حال سائد، إلى حال مبتكر، ولهذا يظل الفكر دائماً، في حال نقلة وانتقال، في حالة تفاعل، مع ما تطرحه ضرورات المبتكرات المتلاحقة، وبمعنى آخر، يظل الفكر محرضاً بتحريضات، لها مثل هذه الصفات :

- تحريضات لها صفة الجدة: بحيث لا يهنأ، أو يهدأ الفكر، في دائرة ما هو مألوف، مثل ذلك الممارسات، التي أفقدها وهجها التكرار، وإنما يظل دائماً، مشغولاً

بعمليات عقلية جادة، تنقله من التحليل إلى التركيب، ومن التركيب إلى التحليل.. من الاستنتاج إلى الاستقراء، ومن الاستقراء إلى الاستنتاج، وهكذا.. إن انشغاله الدائم هذا، يكسبه المهارة المطلوبة، ليرقى إلى مراقي الكفاءات المتقنة.

- تحريضات ذات منحى إيجابي أو قيمي: ليس للاتجاه نحو القيم كقيم وحسب، وإنما للتعامل مع كيف الأفعال، والتعامل مع كيف الأفعال، ليس لتجاوز الكم المادي وحسب، وإنما للتعامل مع المجردات، التي هي والفكر، من طبيعة واحدة، ولذا فإن الانفلات من هيولى الإدراكات الحسية، إلى فضاء الإدراكات المجردة، هو، ليس نقلة إجرائية، ضمن إطار برجماتي، وإنما هو نقلة، من المحاكمات العقلية، التي كانت تعتمد المقابلات الحسية، إلى المحاكمات العقلية، التي تعتمد التصورات الذهنية، هذا الانتقال في حد ذاته، والذي هو حصيلة المحاكمات العقلية المتواترة، هو الذي يُكسب الفكر، الجدارة، أو الكفاءة، التي لا يملكها الفكر، بمجرد النمو الاعتيادي.. إنه في حال النمو الاعتيادي، أو العفوي، يمكنه أن يدخل عالم التجريد، في أبسط صورة، أما مراتب التجرد الراقية، أو المعقدة، فلا تأتي إلا نتيجة مخاض طويل ومرير..

- تحريضات معقدة أو ذات بنى تركيبية:

ذلك إن الاستجابات، تتناسب طرداً مع المنبهات، أو قل، إن كل منبه يحتاج إلى استجابة تعادله، من حيث الكم، كم الفعل، ومن حيث الكيف، كيف الأداء، وبناء عليه، نجد التناغم تاماً، بين الوسط الاجتماعي، وطبيعة العلاقات السيسيولوجية السائدة، ومعنى ذلك مباشرة، إن البنى الفكرية الراقية، تكونها معالجات متكررة، ما بين منبهات مركبة، تحتاج إلى تحليل مركبات، وتركيب تحليلات، تكسب الفكر المرانة، في المعالجة، والعمق الشاقولي والأفقي، في تناول المفاهيم، التي تحتاج، لتنقلب إلى قضايا، إلى تحليلات سابرة، لمركبات معقدة، للوصول، في نهاية الأمر، إلى استجابات، تتناسب، كماً وكيفاً، مع كم المنبهات وكيفها، وهذا هو الانتقال الصحيح والفعال، من كفايات البنية الفكرية، الحاضنة للمدخلات، إلى كفاءات البنية الفكرية، المهندسة للمخرجات.

٣- مرحلة النضج الفكري:

تبدأ هذه المرحلة، حينما يصبح الانتقال، من كم المنبه، إلى كيف الاستجابة، مظهراً وظيفياً، من مظاهر النشاط العقلي الكلاسيكي، أو بكلام آخر، حينما يندمج المستوى الواقعي، بالمستوى العقلي، للدماغ وأدواته وآلياته، وأساليب رده على المنبهات، باستجابات صحيحة، حيث ينحسر أثر الوسط المحيط، على التلاؤم والملائمة، بين الفعل- الحدث أو بين الواقع المستقر، أي إن أثر المجتمع في الفكر في هذه المرحلة، وأثر الفكر في المجتمع، يصبحان أثرين متعادلين من حيث المبدأ، أي أنه إذا حدث وتغلب أثر المجتمع على الفكر، فليس إلا لأن المجتمع، يشكل قوة ضاغطة، على هذا الفكر، والقول نفسه يقال، إذا حدث وتغلب أثر الفكر على المجتمع، حين يشكل الفكر قوة ضاغطة على المجتمع. وبكلمة، تكتمل في هذه المرحلة، كل عناصر النضج، لكفايات الفكر وكفاءاته، سواء في مجالاته الإجرائية، أم التجريدية.

٣- الفكر الثالث، أو الفكر الكلي:

هو الفكر الذي يحكم الفكر الفردي، والفكر الجمعي، متمثلاً بالعادات والتقاليد والمعتقدات والمذاهب، وكل ما هو من مفرزات تلاقح هذين الفكرين، التي تتجاوز حدود المجتمع الواحد إلى المجتمعات الأوسع، لتصبح أفكاراً إنسانية، مثل المعتقدات الدينية والسياسية- الاقتصادية، والفلسفية وغيرها.

هذه الشمولية، هي السمة الأولى لهذا الفكر، أما السمة الثانية، فهي التصلب والنمطية، بحيث يصبح عاصياً على التحريف، أو التغيير، أو التعديل، إلى الحد، الذي يصبح فيه تطويره، ضرباً من الخروج عليه، مثل ذلك كل المذاهب الدينية والاعتقادية، التي انطبعت أسماؤها على مسمياتها، وتأطرت في تشكيلات «برسونية» استاتيكية الشكل والمضمون.

إن هذا الوصف، ليس تقويماً للفكر الكلي، بقدر ما هو تحليل له، كونه يمثل العلاقات أو المعادلات المنتهية بين الفكر والفكر، والفكر والمجتمع.

ثالثاً: الفكر والعاطفة والغريزة

الفكر والعاطفة والغريزة، هي الأثافي التي تتحكم، بأنماط شخصياتنا أو أنماط سلوكاتنا، إن كان من حيث تكوناتها، أومن

حيث توافقاتها أو تنافراتها، مع ذاتها من جهة، ومع بعضها البعض، من جهة ثانية، ومع الآخر من جهة أخيرة، وحتى نتبين هذه الأدوار التحكمية، سنبدأ منذ البدايات الأولى، ونركب هذه المعادلات، ونجادلها :

١- نشأة الفكر والعاطفة والغريزة:

- توجد الغرائز مع الجسد، وجوداً واقعياً وفعلياً[٢]

التحليل: بمعنى إن الطفل يباشر، بعد الولادة، كما الراشدين، التعامل مع الدوافع الغريزية والفطرية.. إنه يلبي متطلبات جسده، قبل معرفة جسده، ويستمر عضوياً هكذا، ما دامت الفيزيولوجيا فيه، في مجالها الفعلي والسيسيولوجيا والسيكيولوجيا فيه، في مجالهما الواقعي.

- توجد مكونات الفكر (العقل) والعاطفة (الوجدان) مع الغريزة (الجسد) وجوداً واقعياً، لا فعلياً:

التحليل: العقل، أو الدماغ، وتوصيلاته، الأعصاب، كآنية، أو حوامل للأفكار، توجد مكوناتها العضوية، وجوداً واقعياً، منذ تكونت باقي مكونات الجسد، ولكنها (كفكر، وأدوات فكرية)، لا تنتقل إلى وجودها الفعلي، إلا بعد أن يتجاوز الإدراك، كل المراحل الحسية، ويبلغ مستوى الإدراكات المجردة، عندها يصبح في مجاله الفعلي، ويصبح الحديث ممكناً، عن فكر يفكر، وضمير أو وجدان، كحامل للعواطف. .

- الوجود الفعلي للفكر، يسبق الوجود الفعلي للعاطفة:

التحليل: وهكذا يسبق الوجود الفعلي للفكر، الوجود الفعلي للعاطفة، بدليل إن العواطف تتوضح أكثر، كلما توضح التصور الفكري لموضوعها، أي أنه، كل عاطفة يجب أن يسبقها تصور فكري لموضوعها، دون أن يمكن العكس، وبما أن التصور يحتاج إلى فكر يتصوره، فقد سبق الفكر التصور، وبالتالي سبق العاطفة، وأكثر من ذلك، فإن العواطف، تصير عواطف بالفكر، أما قبله، فهي متماهة مع الغرائز البحتة.

نتيجة: وهكذا نجد، أن الفكر، هو الذي يؤسس ويباشر الحياة، التي تنقلنا من مجال الحياة العضوية الغريزية، إلى مجال الحياة الإنسانية، وذلك وفق المنهج التسلسل التالي:

٢- العلاقة بين الفكر والعاطفة والغريزة:

سنجادل هذه العلاقة، أو العلاقات، وفق التسلسل النمائي لكل منها.. وإذا كان التدرج

النمائــي للفكر، وفق «الليبنتــزي» ينتقل من الاختلاط، إلى الوضــوح، إلى التميز، فسوف نتبــع نحن تدرجاً موازيــاً، في بداياته، حيث نبدأ بالفكــر المختلــط.. وفي نهاياته، حيث ننتهــي بالفكــر المتميــز.. أما في الوســط، فسنقول بفكر الكفاية، بدلاً من الوضوح، لأن الوضــوح، بنظرنا، أقــرب إلى التميّز، فنحن نميّز ما هو واضــح.. بحيث يصبح التسلسل: مــن الاختــلاط -إلى الكفايــة- إلى التميز، وبحيث تتبــع العواطف والغرائز، التسلســل الموازي، بالنسبة إلى الفكر والعاطفة، والمباين في البدايات والنهايات، بالنسبة إلى الغريزة.

- الفكر مختلط.. العواطف مختلطة.. الغرائز متسلطة:

عن الواضح يصدر ما هو واضح، والعكس صــحيح، هو وكل تدرجاته، أو لنقل، الصورة الصــادقة، هي الصــورة، طبق الأصل، عن الأصــل. فإذا كانت العلاقــات الفكرية، غير واضحة، بينها وبين ذاتها، فلا يمكن أن تكون واضــحة، بينها وبين كل مــا يتعلق بها أو ما ينتج عنها..

وإذا كانــت العاطفة، صــورة من تجليات الفكر الفاعل، تتجســد في سلوكات منفعلة، فيلزم أن يكون تمظهرها، موازياً لأصــولها. وهكذا نلاحظ، حين نراجع ســلوكاتنا، ذات الأصــول الفكرية، والمظاهر العاطفية، وجل ســلوكاتنا، التي هي من هــذا القبيل، والتي نتمنى، لــو أننا مــا فعلناها، لاضــطرابها، وأخطائهــا، وتشــوهها. هــي تلــك الأفعال الصــادرة عن تصميمات فكرية مضطربة أو مشوشة..

أمــا الأفعــال الغريزيــة الموازيــة لهــا، فتكون على العكس منهــا، في غاية الفاعلية والتســلطية. وهــذه هي العلاقــة المنطقية الصــحيحة. أن يســيطر العنصر الأضعف، إذا غابت العناصر الأقوى.. فبالنســبة إلينا -كبشــر- الفكر هو العنصــر الفاعل فينا.. وإن غــاب، فالعواطف الســامية وإن غابت، فمجرد العواطف، وإن غابت. لا يبقى ســوى الغريزة، التي تباعدنا عما نحن، وتقاربنا من مراتب المخلوقات غير العاقلة.

- فكــر الكفايــة.. عاطفــة الكفايــة.. غريزة الكفاية:

وضع الوسط هذا -أو الوسط الأرسطي- هو الذي تتجــه نحوه، كثرة الأفــكار، وكثرة العواطــف والغرائز المرافقة.. فالفكر حينما

ينضج أكثر.. أو تستقيم أدواته أكثر.. أو حين يتعامل مع أفكار أفضل.. أو أفعال أفضل أو تكون ثيمات مكوناتــه أكفأ.. تنتظم علاقات أكثر جدارة، بينه وبين ذاته، وبينه وبين باقي عناصــر الشخصــية، من عواطــف ودوافع وغرائز، ومن ثم بينه وبــين بيئتيه الطبيعية والاجتماعيــة. أي إن عمليــات التــلاؤم والملاءمــة، والتكيف والتكييف، بينه وبين كل هــذه الأطــراف، تتم في ظروفهــا الطبيعية وتــؤول إلى نتائجهــا الطبيعيــة. أي تحقق أهدافها المتوخاة، ويشمر كل منها، بالامتلاء والارتواء، مع العناصر الأخرى، وليس على حساب العناصر الأخرى..!!

ولكن هذه المســاواة، بين الفكر والعاطفة والغريزة، هل هي مســاواة مطلقــة ؟! أي، هل يتســاوى الفكر بكل ما لكلمة تساوي من معنى، مع تمظهراته العاطفية والغريزية، وفي هذه الحالة، يصــبح عنصراً من عناصر، أو واحداً بين الكل..!!

نعم يتســاوى، ولكن تساو إجرائي، وليس تســاوياً وظيفياً، حيث يجب أن تظل المسافة قائمــة، بين الفكر، والعاطفــة التي تليه.. في المكان والمكانة، وبين العاطفة.. والغريزة التي تليها، في المكان والمكانة.

- الفكــر المتميّــز.. العاطفــة الساميــة.. غريزة الضرورة:

الفكــر المتميز، هو الفكــر الذي تتجاوز علاقاته وامتداداتــه، علاقات الكفاية، وكل ما هو موضــوعي وندّي، بالاتجاه الصاعد، أو هــو بــكلام آخر، الفكر الــذي ترقى فيه علائق الوضوح، إلى مرتبة التبلور، والحدوس فــوق المباشرة، التــي تقارب رؤيتــه الذاتية فيهــا، المراتــب الإشراقيــة والنورانية، التي ترتفع بكل ما هو شــيئي ومــادي، إلى مرتبة ما هو قيمة وأخلاقي، خلل ســلوكات عالية وراقية، ولكنها لا تعلو فوق الحياة، وإنما تعلو بالحياة نفسها، فوق الاحتياجات، الاعتيادية، لا لتشــكل النخبة الطموحة، أو الاستثنائية، أو الجــزء الاجتماعي، الــذي يرخص الكل الاجتماعي، وإنما لتصطنع الأنماط القدى، التي تحدد صــوى الــدروب، التي يمكن لكل الأفــكار، التــي تخلصــت من أوشــابها، أن ترودها، بعد اعتبارها سلوكات متاحة، ضمن دوائر الأفكار المتميزة.

هذه الأفكار، التي وصــفناها بمثل هذه الأوصاف المغرية، حتى تكون أفكاراً في الحياة وللحياة، يجب أن تساوقها، عواطف موازية،

من حيث تخلصها من كثافاتها، التي يمكن، لو دامت، أن تفقدها رشاقتها، التي تتيح لها مواكبة الأفكار المستنيرة، التي وصلت أكثر من مرة، وفي أكثر من حالة، إلى درجة التماهي والتوحد، في سلوكات نيرفانية، تمظهرت في ممارسات منظورة.

وكذلك يمكن القول بالنسبة إلى الغرائز، التي لا ترتفع فوق ما هي، حتى لا تصبح اسماً بلا مسمى. فالغريزة إذا فارقت هيولاها، تبطل أن تظل غريزة. إن ما يرفعها إلى مستويات الأفكار والعواطف التي وصفناها، هو وقوفها عند الحدود الدنيا للضرورات، التي تعيد توازنات الشخصية كلما اختلت. لا لنقص في عضوية أو فيزيولوجيا، وإنما لأن الحياة الفكرية والعاطفية زاخرة إلى درجة الامتلاء، الذي يضيق ساحات ومساحات الغريزة، إلى ما قبل الحدود، التي ترهص الصحة النفسية، وإلى الحدود التي تحافظ على مستوى السلوكات السوية.

رابعاً: السلوك السوي:

لا يكون السلوك سوياً، إلا إذا توافرت له جملة توافقات، وليس عن طريق المصادفات العارضة، وإنما بشكل إرادي، ومقصود، ومخطط له، لأنه يعبر عن التلاؤمات الصحيحة للفكر، مع الأطراف الرئيسية، التي ينتج عن تفاعلها المتبادل، السلوكات المتوازنة، أو السلوكات السوية.

ومن هذه التوافقات :

١- التوافق أو التطابق -منذ الأسباب وحتى النتائج- بين تصميمات الأنماط السلوكية في الذهن، وتطبيقاتها الإجرائية. إذ غالباً ما يفسد التطبيق العملي. هذه التصميمات الذهنية، التي قد تكون صحيحة جداً، وهي تصميمات ذهنية. أو قد يحرفها عن أهدافها ومراميها. حيث ينقلها إلى مجالها الفعلي التطبيقي.

في حالة السلوك السوي. يتم هذا التطابق والتوافق، بشكل مدروس ومخطط له. ودون الحاجة إلى التكيفات أو التكييفات. من هذا الجانب، أم من ذاك. لأن التطابق، تم عن طريق انطباق كل ما في الذهن، على كل استراتيجيات التطبيق، أو العكس الصحيح.

٢- وتوافق آخر. له دوره الحاسم أيضاً، وهو التوافق بين التصميمات الذهنية إياها، وبين الأنماط الاجتماعية السائدة. أي إن المعادلات التي يركبها الذهن تعبّر عما هو

سائد اجتماعياً، فإذا حذفنا انحرافات التطبيق العملي، أي إذا نقلنا ما هو ذهني إلى صيغ سلوكية، تنطبق هذه الصيغ تماماً، على الصيغ الاجتماعية السائدة، وتشكل السلوكات الصحيحة والسوية.

٣- إذا كان كل من الفكر والعاطفة والغريزة في مكانه الصحيح. فلا الفكر ينزل إلى المستويات الأدنى، ولا العاطفة أو الغريزة، تتسلق إلى المستويات الأعلى. .لا الفكر يبالغ في عقلنة العواطف والغرائز. ولا العاطفة. تولي ظهرها لمعطيات العقل، لتصبح عاطفة مسلوخة عن جذريتها، ولا تمتنع عن مجاورة أو مرادفة العواطف الأخرى، بحيث لا تعود ساحة الشعور تتسع إلا لها، ولا تلتفت باتجاه الغرائز، لتصبح جزءاً منها، ولا تمد الجسور بينها وبينها، لتجذبها إليها..

وبالقياسات نفسها نقول: ولا تحاول الغرائز، أن تعلي متطلبات الجسد، فوق مقتضيات الروح، بل تبقى، هذه الحاجة، التي أن أشبعناها، أعدنا إلى الشخصية توزانها المفقود.

أقول :إذا أخذت هذه العناصر الرئيسة أماكنها الصحيحة، ومارست وظائفها، دون أن تتعرض إلى وظائف الغير، أو تتضخم على حساب الغير، أو تتراجع لصالح الغير. تصبح كل السلوكات الصادرة عنها، سلوكات صحيحة وسوية. .. بشكل تلقائي.

٤- أما التوافق الأخير فهو أن لا نتبنّ أفكاراً شاطحة، تعلو بنا فوق الحياة، ولا أفكاراً قاصرة، تسفل بنا إلى درك الحياة، لأن جموحنا غير الاعتيادي وسقوطنا غير الاعتيادي، يخرجاننا من الحياة بالكلية. ومواقف العكس، هي التي تبقينا في الحياة، وفي مجال السلوكات السوية حصراً، ذلك حينما نتبنى أفكاراً تماثل مستوياتنا الحياتية، وما يعادلها من الأنماط السلوكية، التي يشكل كلها، السلوكات السوية المنتظرة.

نتيجة:

إذا اختلط الفكر، اختلطت العواطف والغرائز..

وإذا كان الفكر فكر كفاية، كانت العواطف والغرائز، عواطف كفاية، وغرائز كفاية، وغرائز كفاية وإذا تميز الفكر، تميزت العواطف والغرائز!!

فهل تجوز العكوس؟!

تجوز إلى حد، هو. إن عناصر تكويننا،

الأهم والأقل أهمية، عناصر متفاعلة، لا متجاوزة، وكل عنصر يؤثر سلباً أو إيجاباً، بفاعيلة العنصر الآخر.. ولا تجوز، إذا اعتبرنا الفكر، الشرط الكافي[3] لإنسانية الإنسان، واعتبرنا العواطف والغرائز. شروطاً ضرورية لإنسانية الإنسان، هذا من جهات. ومن جهات أخرى، إن الفكر، فكراً مختلطاً، أم فكر كفاية، أم متميزاً، وإن كان شرطاً كافياً، أو شرطاً ضرورياً، يظل الجهة الأساس، التي توجه العناصر الأخرى من جهة، والتي تميزنا عن الباقي من مخلوقات الله من جهة أخرى.. ولولا شموليته هذه. لما قال «ديكارت» قولته المشهورة: أنا أفكر.. إذاً أنا موجود.

الهوامش

١- الكفايات: هي الوسائل أو العمليات الفكرية التي يحتاجها الفكر لإنتاج المُخرجات والكفاءات: هي القابليات أو الجدارات الفكرية لإنتاج المُخرجات. للاستزادة راجع رحمة -أنطون- التربية العامة- الجزء الثاني- مطبعة الرياض- دمشق- ص٣٥٥ وما يليها.

٢- بالمفهوم الأفلاطوني. أي الوجود الواقعي، هو الوجود في عالم المثل. والوجود الفعلي، هو الوجود في عالم الفعل.

٣- الشرط الكافي: يكفي لوحده.. الشرط الضروري، يحتاج إلى شروط أخرى تكمله.

☆ ☆ ☆

محمد عمران: حضور الشعر في حضور الغياب

محمود حامد *

.. عندما يصبح الشاعر ذاكرة الوطن، وذاكرة الأمة، وذاكرة الأجيال على امتداد حقب الحياة، وعندما تصبح قصيدته الشغل الشاغل لوجدان عامر بالحيوية، ومتفهم جيد لنسيج الشعر، ومدوماته العالية برموزها، ومدلولاتها الحية، والشفافة شفافية النسيم، والمتوهجة توهج البياض الساكن في تفاصيل النهار الفضية بخيوطها الماسية الدافئة المحبّبة: فهذا يعني بطاقة الكلمة، والجملة، والقصيدة، بأن الشاعر الذي ألقى إلينا بذاته . وشعره، ومفردات

---

* أديب وباحث سوري

- العمل الفني: الفنان مطيع علي.

وجدانـه الخـلَّاق اسـتطاع أن يمتلك بقدرته، وطاقـات شـعره، وابتكاراته الفذة فيما صـاغ وأبدع وجدان القارئ بقوة سلطة بارعة تفهمت في إطار راهنها الذي تعيشـه، واحتمالات العصـر الجارحة، والحادة، ماذا يجـب عليها أن تقدم القـارئ فذٌّ، وبارع من صـياغات خلَّاقة، وبارعة، وفاتنة بدفقاتها الموجعـة الآسرة من شـعر يضـع قارئه على حافة الغيبـيّ الخارق، والغيبيـات المؤرقة، والتي تضـع قارئها كذلك في رحيق تساؤلاته الحـادة، الجارحة: ما هـذا!!؟ ما طينة هذا الشـعر ومـا اللدائن المستتبت منها!!؟ وفي إطار الراهن الذي يضج بفوضى غير خلَّاقة، كيف استطاع شاعرٌ ما.. بتقنيات عالية النبرة والقيمة والنَّسـيج المتمكن من الممكنات كافة بـأن يعيد ترتيب مكننة الشـعر بما يتيح لها اسـتتبات القصائد الغائبة حضـوراً، ونقاءً، وجمـالاً في أيقونة المسـتحيل!!؟ وللرد على التسـاؤلات كافـة، فـإن إحالة القـارئ إلى جغرافيّة الشـعر الأصـيل والمعاصر بتقنياته الخاصـة بخصوصـياتها القائمة، والمتوارثة في خريطة الشـعر العربـي على مدار حقب الزمان المديـدة، والرحيبة رحابة تاريخ ذاك الشـعر، وامتداد جذوره وأقانيمه في التاريخ الوجداني والإنساني للمنظومة البشرية تثبت، بمـا لا يدع مجالاً للشـك مطلقـاً أن ديوان العرب يظل قائمـاً فيها ما دام نبض الحياة يغذي الوجود بديمومـة الحياة، والبقاء وأن روح حيـاة الأمـة تكمن في شـعرها.. ذاك الناي الحزيـن المرافق لخطواتهـا المتعاقبة في الدهر، بالرغم من الملابسـات التي مرت على الشـعر والأمة. وأن صـدى صوت قادم من أعالي الغناء، وفضـاء القصيدة يرجع آه الاسـتمتاع بما يجود به الصـوت، وما يتركه الصدى في ذاكرة الذواقة الجمعية بما يوحي أن الشعر العربي قائم بامتداد الأبد، وأن روح القصـيدة الحية سـتظل منبثة كنكهة الورد بعد اسـتحمامه بالندى في نهارات الوجد في وجدانات عشاق الكلمة السماوية الزرقاء ما دام هناك وجود ينبض بالشعر، ووجدان ينبض بالوجد، وكلاهما يشكل الشعر النسيج الحي لهمـا. والرابـط الأزلي لتلاحمهما في فلك الله الأوحـد المتنعم بالشـعر والغناء.. فلك الكـون المتفرد بهذه الميزة مـن بين الأفلاك والمجرات.

من هذا كله ندخل في ملف محمد عمران الشعري، هذا الملف الذي يشكل حاملاً لوجدان أمة تعتز بتاريخها وحضارتها ووجدانها الشعري، وهو وجدان يحمل صبغة انتماء وهوية لا تقاربها، ولا تماثلها صبغة أخرى في أمم الكون كافة.. حيث العلاقة المتبادلة بين الجذر والأرض، بين التراب والفرد، والمجموع، بين الشعر والمتوارث التاريخي للأجيال في هذا المسمى المتفرد، المتميز بخصوصية الأزلية القائمة على رباط العروبة، وأبدية المصير المشترك، وأيضاً بما يلعبه فقه الشعر من دور في تحريك الصوت الشعري إلى أعاليه القصية بتفرعاته واشتقاقاته المبثوثة فيه من بلاغة وشكل ومضمون وكناية ومجاز ومبنى ومعنى ما يجعله أيضاً متفرداً ومتحيزاً في تلك الدلالات والاشتقاقات عن باقي لسانيات الشعر الموجودة في تلك اللغات الموزعة على مساحة العالم.. فلو أخذنا موضوع «رمزية اللغة» في علاقة القصيدة العربية بتلك الرمزية كدلالة عند واحد من فقهاء اللغة هو عبد القاهر الجرجاني[1]: إنَّ فهم عبد القادر للغة القائم على الكشف عن معاني النحو، واللطائف



التي تكون فيها، يدفعنا إلى القول: « إن معاني النحو لا تكون عند الشاعر المبدع، إلا وسيلة لنقل الإحساس، واستغلال الإمكانات العظيمة للألفاظ، الأمر الذي يجعلنا نقرر أن اللغة هي مادة أدب ، وهي التي تمنحه شكله، وتفتح أمام الشاعر جوهرها، كي يدركه بعقله وذوقه، بغية استيعاب حقيقة التعبير الفني، والوقوف على الايحاءات القادرة على معانقة

المشاعر الإنسانية. وبذلك نرى بعض ملامح المنهج اللغوي، الذي كان عمدة عبد القاهر في دراسة الأدب ونقده»..

هذا المدخل في نظرية الشعر، ورمزية اللغة، يجعلنا نضع في اعتبارنا أن قراءاتنا لشاعر عربي ما تجعلنا نمنهج القراءة ضمن صياغة الأسس والدعائم المتعلقة بالشعر العربي عموماً، وشعر شاعر ما في إطار خصوصيته ومميزاته، وتفرده أمام عشرات الشعراء المماثلين والمعاصرين له زمناً ومنهجاً، أو من سبق الشاعر، أو تلاه في مجموعات الشعراء السابقة، واللاحقة.

يشكل محمد عمران أحد أعمدة الشعر العربي الراهن ضمن مجموعة من الأسماء تركت بصمتها الشعرية في حقبتها الزمنية العائدة لخمسينات وستينات القرن الماضي.. الحقبة الأهم في تاريخ الشعر العربي المعاصر والتي استمرت، وما زالت تسحب ظلالها على حقب لاحقة، حتى ليظن أن جميع الحقب اللاحقة ستظل تراوح تحت مظلة تلك المرحلة الحاسمة قومياً، وشعرياً، ونضالياً.. دون أن تخرج الحقب اللاحقة من مظلة الحقبة السالفة.

كان من شعراء تلك الفترة: محمد عمران، علي الجندي، أدونيس، نزار قباني، ممدوح عدوان، يوسف الخطيب، بدوي الجبل، عبد الباسط الصوفي وسواهم..

كانت تلك الحقبة حاسمة نضالياً وقومياً وشعرياً، وهي الفترة الواقعة بين نكبة فلسطين عام ١٩٤٨م، ونكبة حزيران عام ١٩٦٧م.. الفترة الأخطر في تاريخ العرب الراهن حيث أفرزت مناضليها وشعراءها ومثقفيها الثوريين.. تلك المسميات التي طبع عليها أصحابها حتى باتت دلالات لهم وترميزاً لشخوصهم لا أقول: الطارئة بل المقدرة أن تكون في مواقع مسؤوليتها آنذاك.. مما جعلها تحتل صدارة المواقع لجيلها، والأجيال اللاحقة بها، وليتسم الآتي بعدها بسمات عصرها، وتلحقه بإنجازاتها المنتجة في مجالات الحياة كافة وصولاً لشأن الثقافة والشعر، وهما الدلالتان الأهم عبرةً وقيمةً وخطورةً من المجالات الأخرى..

في هكذا أجواء استتبت الحقبة أحد شعرائها المهمين.. محمد عمران.. وهو واحد من الرعيل السالف للنخب القادمة من المستقبل، تتسلم الراية لتتابع مسيرة الشعر والحدث بما يتوافق ويتمازج مع المبادئ

والأفكار والقصائد التي وضعها المؤسسون الأوائل، ثم تمضي في الأجيال لتصبح عقائد وقيماً وسلوكيات دائمة محفورة في الذاكرة الوطنية، ذات شموليات وامتدادات رحبة على صعيد الوطن، والأمة متوارثة عبر الأجيال من جيل رعيل حمل أخطر مسؤوليات الحياة على عاتقه على الصعد كافة: من مسؤولية الكلمة حتى مسؤولية الطلقة..

محمد عمران كما ذكرنا، واحد من ذاك الرّعيل الأخطر في تاريخ الأمة النضالي، والوطني القومي، والسياسي المتقدم في خندق المواجهة، والثقافي المبشر بالغد، والمستقبل المجيد.. كان على محمد عمران وعلى جيله المتزامن مع وجوده وعمره أن يكونوا جنود خنادق عدة آنذاك.. موزعين بين خندق البناء القومي/النضالي، وخندق ترميم المسارات الخارجة من نكبتي ٤٨م، و٦٧م، وخندق بناء الفكر الثقافي المتوج بالشعر المناضل والمقاوم.. كان على الشاعر آنذاك أن يكون متعدد الاتجاهات الشعرية.. هكذا تطلبت تلك المرحلة:

أن يكون شاعر الجماهير الذي يطفئ عطشها للكفاح والنضال والمقاومة، وأن يكون شاعر الذات بمتطلباتها المتعددة الملحة، وأن يكون أيضاً الشاعر الإنساني في شعره وإنسانيته ليتمثله العالم الآخر إنساناً وشاعراً ومثقفاً عالمياً.. ثلاثة مسارات خطيرة كان على الشاعر العربي أن يعبر ثلاثتها في وقت واحد ليعبر عن مستحيل ما يفكر ويفعل.. والمسار الرابع الثورة التي حصلت في بنية القصيدة العربية بتحولها من قصيدة البيت إلى قصيدة التفعيلة، وكان أيضاً على شعراء تلك الحقبة أن ينجحوا بجدارة في امتصاص نقمة التحول بقصائد خارقة، تربط بين الماضي أصالة، والراهن معاصرة ليستطيعوا متابعة المسيرة الشعرية العربية إلى غاياتها، وأهدافها المتوخاة عبر تاريخ الشعر العربي.. كان العمل خارقاً، ومستحيلاً في البدايات، ثم رائعاً في امتداداته اللاحقة حيث حقق الشعراء آنذاك، وفيما بعد نجاحاً فذاً في شعر التفعيلة لا يقل أهمية عن شعرنا التاريخي الأصيل، وبذلك حققنا نجاحاً مزدوجاً في مجال شعرنا العربي المعاصر: الانتساب لأصالته، ومرجعياته التاريخية، ومزاحمة الشعر الإنساني والعالمي في ثورته المعاصرة.

محمد عمران خلال مسيرته الشعرية

النضالية أصدر ثلاث مجموعات نثرية، وثلاث عشرة مجموعة شعرية، وقد قامت وزارة الثقافة في دمشق بجهد لائق تجاه محمد عمران وغيره من شعراء الوطن والأمة فأصدرت كتابها- الجزء الأول: محمد عمران (الأعمال الشعرية الكاملة) من عام ١٩٦٣م، وحتى عام ١٩٩٦م.. والكتاب يقع في ٤٢١ص، وقد صدر عن وزارة الثقافة عام ٢٠٠٠م ووفاءً لشعرائنا فإننا سنقوم بين الآونة والآونة باسترجاع ملفاتهم الشعرية وفاءً لهم، وتذكيراً بإبداعاتهم عبر الأجيال.

الكتاب/الملف الذي أصدرته وزارة الثقافة في أعمال محمد عمران الشعرية يحتوي على:

- الكتاب الأول: أغان على جدار جليدي.
- الكتاب الثاني: الجوع والضيِّف.
- الكتاب الثالث: الدُّخول في شعب بوان.
- الكتاب الرابع: مرفأ الذاكرة الجديدة.
- الكتاب الخامس: أنا الذي رأيت.

☆ ☆ ☆

حتى هذه الجملة في محمد عمران نكون قد أتينا على مظاهر إنسانية كونت الشخصية/ الذاتية.. الإنسانية لمحمد عمران كبشر/ إنسان من لحم ودم.. ومشاعر مبثوثة في كائنات الله قاطبة.. ولكنها إنسانية متفاوتة بين ذات وذات، ومشاعر متباينة بين إنسان وإنسان.. وأما أن يكون الإنسان شاعراً!!؟ فتلك قضية أخرى تتداخل فيها مجموعة من الدلالات والرؤى والأخيلة، وذهنية خاصة الملَكات، وأقانيم ذات إحساسات مغايرة تماماً للكينونة البشرية العادية.. حتى ليمكن القول: إن ذات الشاعر تظل تصعد به حتى تبوئه مقعداً في الأقصى/ الأعلى في معراج الصعود ولا يرقى إليه إلا الشعراء الذين غابوا وذابوا في الشعر تماماً مثلما هي حال الصوفيين الغائبين، الذائبين بحضرة الجوهر الأزلي الأعلى.. وإن بيتاً من الشعر يوجد في ذاكرة الأيام أوجز حقيقة الشاعر بقوله:

الشُّعرُ مِنْ شَفَةِ الرَّحْمنِ مُقْتَبَسٌ
والشَّاعِرُ الفَذُّ بَيْنَ النَّاسِ رَحْمنُ

لذا، فعندما نقف وقفة تأمل ومراجعة لذات شاعر من شعراء الأمة، فإننا نضع في كامل اعتبارنا قيمة الاختيار التي نحن بصددها، والتي توجب علينا اختيار

الشخصية اللائقة شعرياً ومسمى وقيمةً، هي في وضع المؤثر في البنية الثقافية العربية، وفي البنيان الحضاري الفكري، والذي تأسس عبر الحقب المتعاقبة للأمة على دعائم وركائز وأسس غاية في الأهمية الإنسانية والتاريخية لم تتمثل في ثقافات أخرى لاعتبارات مفردة في فحواها، ومعيارها، ونسيجها، ومع ذلك، فهي مشاركة، من ناحية ثانية، في نسيجها الإنساني في إطار خصوصيتها وممكناتها الخلاقة، ودفق عطائها المتميز عبر الحقب، وأجيال الحياة المتعاقبة.

كلُّ شاعر يسعى -بطلاقة الكلمة- أن يؤسس لأعلاء الشعري بما هو مؤهل لذلك الأعلى أن يصعده -كما ذكرنا ونذكر دائماً وأبداً- بممكناته البارعة، والفذة، والخلاقة!! وأن يحضر مسماه الشعري والإبداعي، والإنساني في الذاكرة الوجدانية للخليقة وكائنات الحياة.. وحتى يصل الشاعر.. أي شاعر لمبتغاه القصي الأعلى، فإن الموهبة وحدها لا تكفي، وأيضاً -حيازة كمّ عشوائي من الثقافة- لا تكفي، والدوران في أفلاك الآخرين لا يخلق شاعراً فذاً وبارعاً على الإطلاق.. والمسمّى اللائق بشاعر حقيقي، ومبدع رائع يتكون من ذات أهلّت في كينونتها أن تنبثق من فيوض غيبها القصي – من جوهرها الخفي- شاعرة.. والمسمى اللائق يلبسها جملة وتفصيلاً، ومظهراً وجوهراً، حتى يذوب المسمى بالذات، والذات بالمسمى فيصبحا كلاً واحداً بصيغة شاعر.. شاعر شفاف مرهف يملك ذهنية مغايرة تماماً لذهنيات العاديين من البشر، وملكات تنأى، عن كل مألوف ومعتاد، ورؤى تذهب بصاحبها بعيداً جداً خارج فلك الكون، حتى تتدلى سماوات التجلي من ذاك الهائم المنخطوف نشوة وغياباً في سماوات تجليه.. فيهبط عليه، الشعر كما يهبط الندى على الأعشاب على ما ذهب إليه «بابلو نيرودا» في تأويل تجليات الشعر والتي لا توحى إلا للشعراء. محمد عمران واحد من الموجعين بنشوة الشعر حتى أقاصي أقاصيه، المدنفة مذ طرحته الملاجة فيضاً من رحمها، ومذ دفته جغرافية البيئة، والأهل الصوفية إلى معراج الكلمة والتي صعدت به نبضة.. نبضة، وخطوة.. خطوة، ورعشة.. رعشة، ليتفجر هناك ينبوعه الشعري الرَّقراق.. حتى إذا ما تكامل نمو، وانبثاق جمرة

الشعر في ذات مستتبتة عليه، تمخضت عنها مجموعات الشاعر الشعرية والنثرية.. صار الرماد المتبقي من محمد عمران رذاذاً من جمر قصائده المتوهج في أعاليه القصية يهطل على فلك الكون ليمنحه فيوض البهاء، والنشوة الموجعة.. الآن في تفاصيل محمد عمران أغوص في جوهرها وأستمتع برحيق تجليات الروح في غنائها، وأهتف: لي نايك ولك ناي فلسطين يغنيك حتى نتوحد سوياً في ناي السماوات التي تغني بدمعها أبدوك يا محمد عمران بالوجه الثالث[٢]:

باحثاً في مَمالِكِ الوَطَنِ الطّالِعِ كالضّوءِ،
عَنْ مَسافَةِ وجهي
أكْسرُ الظلَّ، والزُّجاجَ، وتَمْشي
حَبَّةُ الرَّمِلِ في دمي، وَيُغَنّي
نَهْرُ العُشْبِ في عُيوني، وَتَصْحو
وَرْدَةُ النّارِ، ثُمَّ يُفْتَحُ بابٌ
جاهليٌّ، وَتَخْرُجُ الأَرْماحُ
في غابَةِ الصَّهيل..

يوشك الوجود أن ينبثق من عناصره التي شكلت فيه هذه الهيكلية الكونية: الماء والتراب والنار إضافة لعنصر الهواء، ولكن محمد عمران في هذا الفيض الشعري حول العناصر الكونية الكيميائية المتآلفة في وجودها إلى عناصر تتمازج مع روح جوهر الوجود المتمثل بالشعر والشعر المتمثل بالوطن: حبة الرمل التي تمشي في الدم متداخلة بحيوية حركة النبض في ذاك الدم.. تراب ودم يتآلفان في جغرافية: وطن.. جغرافية اسمها وطن.. حركة الرمل هنا في خروجها عن جماديتها وعدميتها كناية عن تحولها من جماد إلى نبض حي تذكرنا بحركة الصخر المخاطب في قصيدة الشاعر عندما يقول:

وَأنزِلْ دِمَشْقَ، وَسائِلْ صَخْرَ مَسْجِدِها
عَمَّنْ بَناهُ.. لَعَلَّ الصَّخْرَ يَنْعَاهُ

وهكذا يصبح الكلام عند الشاعر حزمات من الصور والمجازات والموجات المتناغمة تأويلياً وتعليلياً بما يجعل كلامه خارج إطار المألوف والمعتاد، وهذا ما يمنح الشاعر حق التفرد في كينونته، وخصوصية ذات تصعد بعيداً في ممالك ملكوتها العالية، لكن هذا لا يمنع من أن يكون الشاعر أيضاً نبض الجماهير، وحسها الخلاق، وصوتها المدوي بآمالها وآلامها، وما يمور في أعماقها من رغبات تصبح إكسير حياة في قصائد الشعراء وتوهجات آمال كبرى منتظرة، أو

آتية من أحبة الرمل، ونهر العشب في العيون، ووردة النار.. وانفتاح الباب (ولو كان جاهلياً) لانبثاق الرماح في غابة الصهيل.. على رحابة المنتظر والآتي.. وليت كانت الرماح، ولم تكن الأرماح.

ولعلنا، في السياق التاريخي للشعر، نقف عند كلمتي: أسياف وأرماح لتطابق هاتين المفردتين في نسيجهما المغاير لأصولهما عند شاعرين عربيين تفصل بينهما حقب وأجيال.. فكلمة أسياف كانت مأخذاً على حسان بن ثابت عندما قال:

لَنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلمَعنَ في الضُحى
وأسيافُنا لَيلٌ تَهاوى كَواكِبُه

فقد أخذوا على حسان استبدال سيوف بأسياف، ويكررها شاعرنا محمد عمران «وتخرج الأرماح» علماً بأن الشاعرين يدركان جيداً موقع الكلمة والجملة الشعرية في وجدان القارئ.. بل وصدى موقع الكلمة الواحدة في النسق الشعري عندما يزان النسق بميزان المعيار والقيمة.. ومع ذلك فالشاعران كبيران، ومؤثران في حركة الشعر العربي عبر تاريخ ذاك الشعر. يقول أحمد يوسف داود في مقدمته عن محمد عمران في الأعمال الشعرية الصادر عن وزارة الثقافة، ص٦:[3] وقد عاش محمد عمران، بوعي حاد، وحساسية عالية الرهافة، سائر التحولات الكبرى، والإنجازات، والخيبات، والآمال، والنكسات المختلفة في الأوضاع العربية عموماً خلال النصف الثاني من القرن العشرين.. فكان شعره- شكلاً ومضموناً وبنية فنية- مرتبطاً بقوة بذلك كله.. ولكن، عبر تكوينه، الخاص الذي فرض صيغة أدائه المتميز والمتمايز وفقاً لما يظهره بنيان القصيدة عنده، ولما تظهره مراحل تجربته الشعرية... وكنا أكدنا على هذا ضمن سياق هذه الدراسة، عند القول: بأن الجيل التالي لجيل الرُّواد.. جيل محمد عمران ورفاق دربه الشعري والنضالي هو جيل المسؤوليات الضخمة التي حملها على عاتقه، فيما يختص بالنضال الوطني والقومي على أكثر من جبهة، والنضال بالكلمة والقصيدة على امتداد الساحة العربية والإنسانية.. تأكيداً على روح الهوية والانتماء، وترسيخاً للصوت العربي في الكينونة الإنسانية الشاملة:[4]،

بهذا العالَمِ المَحموم،
حَيثُ تَسَمَّمَ الأوراقُ، والأثمار، والأعشابْ

وحيثُ الخبزُ مَسمومٌ، وحيثُ الماءْ
وحيثُ النَّسْمَةُ البيضاءُ مَسمومه
يَظَلُّ الحُبُّ خُبْزَ حَياتنا، وَهَواءَها، والماءْ
بهذا العالَمِ المَغْزُوُّ،
حَيْثُ بَكارَةُ الكلماتِ فُضَّتْ، حَيْثُ لا عَذْراءْ
وَحَيْثُ الصَّوْتُ مَسْبِيٌّ،
وَحَيْثُ الوَجْهُ مَسْلوخٌ
يَظَلُّ الحُبُّ آخِرَ كلمةٍ عَذْراءَ،
آخِرَ نَبضةٍ خضراءْ

تلك المرحلة من أخطر وأهم مراحل التاريخ العربي المعاصر، على الصعد كافة لذا كان على الشاعر -آنذاك- أن يكون صوت أمة، وصوت وطن، وصوت جماهير متعطشة لخبز الحرية، والحياة المثلى، والتطلعات المحمومة للفجر وسط ركامات الظلام، والإحباطات الناشمة.. لذا نرى في قصائد تلك المرحلة التزامها بقضايا وهموم شعبها، واستنهاضاً لروح النضال والمقاومة، واستشرافاً لآفاق المستقبل المنسوج بالدَّم، والقصائد الجارحة.. وهذا الشعر الذي يتدفق من صدور ضاجة باللهب، وضلوع عاصفة بنار جراحها، وعيون متطلعة لغدها كان عليه، أي الشعر، أن يكون الملبي الأكبر للرغبات والتطلعات، لذا كان أقرب لهتاف الشعارات واللافتات، تستوعبه، وتغنيه شرائح المجتمع كافة على امتداد أرض العروبة قاطبة، ومع ذلك، فلكل شاعر سمته، وذاته، وصوته، واتجاهه الإنساني الذي يعلي شأنه بين أبناء جلدته، وشعراء العالم.. وها هو محمد عمران يشكل نسيجه الشعري- كباقي شعراء الأمة- ضمن سياق الأحداث التي عاشها، وغاب في خضمها، ورسمها لوحات مؤثرة في ذاكرة أعادت تشكيل الأحداث والتطلعات في بوتقات الشعر، وقصائده الخلاقة.. وبالرغم من ضراوة الحدث، وعمق الفاجعة، وجسامة النكبة، فإن توهجات الأمل ظلت، وتظل في الوجدان العربي هي الأقوى والأبقى، دليلاً على امتصاص الذات العربية لجراحها وآلامها لتعيد رسم شمس صباحها من جراحها وآمالها:

يَظَلُّ الحُبُّ آخِرَ كلمةٍ عَذْراءَ
آخِرَ نبضةٍ خضراءْ

لم يتوقف محمد عمران عن إضافة الجديد في قصائده كلما أنتج مجموعة، أو خاض تجربة جديدة في حقول الشعر، كانت فكرة الحداثة تتطور بسرعة يوماً عن يوم، ولم تقف حداثة التجربة عند محمد عمران فقط

بل شملت مجايليه من الشعراء الذين انتقلوا بالقصيدة من حقل البيت إلى حقل التفعيلة، لقد كان على شعراء التغيير أن يواجهوا في البدايات صعوبة المواجهة ضد تيار الشعر العربي الذي ظلَّ سائداً تقريباً حتى أواسط الأربعينيات وبداية الخمسينيات من المرحلة الثانية من القرن الماضي. كانت رياح التغيير قد بدأت، وشملت الأرض العربية بأكملها من المحيط للخليج، وكان نسيم الحرية والاستقلال والنضال قد بدأ يهب بقوة على الملايين المتعطشة لذاك النسيم الطارئ، والذي تحوَّل، فيما بعد، إلى نسيم دائم الهبوب على الشفاه الظمأى للحياة، وكان الشعراء تجاه هذا كله أن يكونوا الطليعة المواكبة للجماهير والتطلعات الحادة للملايين فيما تمضي إليه، وتندفع إلى تحقيقه بما تملك من إمكانات وطاقات، من هنا كان لا بد من شعر يواكب المرحلة، وقصائد، بإيقاعات مختلفة عن الماضي بانسيابيته وتدفقاته الهادئة الدافئة الرتيبة، لذا جاءت قصيدة التفعيلة محركة الشعر العربي باتجاه التغييرات الشاملة لمنطلقتنا والتي أتت بشموليتها على حقول الحياة كافة، فدفعتها باتجاه الحدة والتوهج، وجماهيرية التحركات، واستطاع الشاعر ليس فقط مواكبة ما يحدث، ورسم ملامحه بصور شعرية رائعة ومتدفقة بحرارة، بل دخل في خضم غليان ثقافي ترك أثره في الثقافات التالية، ليصبح ملهمها، ومتنفسها، ورمزها الدائم في حركة المتابعة المتعاقبة للأجيال، ويكون خطها الفاصل بين تراكمات الماضي، واندفاعات الحاضر الحيوية، وتطلعات المستقبل العامرة بالآمال الكبيرة والمشروعة.. كان الشعر أهمها وأعلاها وأخطرها.. كان محمد عمران واحداً من روادها.. يقول د. خليل الموسى[5]: عاش محمد عمران لشعبه وأمته أكثر مما عاش لنفسه، لم يغنِّ لأحلامه الشخصية.. كانت الأحداث الكبرى محطات في شعر عمران، وإن كان شعره بعيداً عن المناسبة، أخلص للشعر كما أخلص لشعبه وأمته، وتجلى صوته صافياً نقياً صادقاً، ومضى الرجل بعد أن خلف إرثاً من الكلمات.

(٦) «يحكي لَنا شاهينْ
نُبوءَةَ الآتي مِنَ الغاباتِ:
دالمُجُ يا مَاءُ
الرَّمْلُ يجري لَهَباً، والماءُ

يفيضُ عَبْرَ الصّخرِ والصّحراءْ
تغسلُ عينيها بوهجِ الماءْ
وطائرٌ يأتي منَ الأعماقْ
مُجَنّحاً بالفجرِ والأشواقْ..

حكاية شاهين حكاية الأرض والإنسان، والمسحوقين على الهوامش في عالم متخم بشراهية الفرادة والتملك، والسطو على ملكية الجماهير بقوة الاغتصاب واللاشرعية، ثم انتفاضة الملايين ضد مغتصبي حقوقها وجلاديها.. في إطار المد الثوري العارم الذي اكتسح التراب الوطني على امتداد الأرض العربية وكانت وقفة الشعر الوقفة الأروع في ساحات نضال الجماهير، والملايين، والمد العربي الكاسح، وأصبحت القصيدة الملهم المنتظر للعيون العطشى للحياة والحرية.. وصار شاهين محمد عمران رمزاً للنضال الجماهيري على امتداد العالم.. لقد استطاعت قصيدة التفعيلة أن تحرك فعل الكلمة ليوازي فعل المقاومة المتدفق كالنار واللهب، وأن تواكب تلك القصيدة حركة الحياة الجديدة، والتي تطلبت نوعاً من التمرد على الذات والمتوارثات والتراكمات الهشة بقوة وتغيير شاملين، ولكن، أيضاً، استطاعت القصيدة أن تثبت وجودها الإبداعي، وأن تعلن دفق دمها الجديد الأخضر رغم الملابسات كافة التي جابهتها في البدايات، وأن تنتصر لقيامتها ووجودها الذي نحرس دعائمه في أعالي أعاليه الرحبة.. وبعد أن ثبت الشعر المعاصر دعائم كيانه الجديد في دوحة وفلسفة فقه الشعر العربي، نستطيع القول: إن مرحلة من مراحل شعرنا العربي المعاصر انبثقت في نهاية أربعينيات القرن الماضي، وهذا الانبثاق الحي الخلاق حافظ على أصالة الماضي، ودخل في سياق ثورة الشعر المعاصرة فاكتسب قيمه الجديدة في المضمارين وأسس لخارطة راهنه بقوة وجمالية وأصالة معاصرة.

من خلال ثورة الشعر المعاصرة، فإن الشاعر في قصيدته الراهنة أحدث تقنية هائلة في جغرافية القصيدة، وبُنيانها، وحتى في الشكل والمضمون والموسيقى، كانت الموسيقى تتحرك في إطار تفعيلاتها ومفارق تلك التفعيلات.. كل تفعيلة بما تذهب إليه في رتمها ونغمها وموجات ترنيمتها، ثم تطورت الموسيقى ليصل في النصوص النثرية

إلى إيقاع الأفكار ذاك الإيقاع المتعارف عليه في تطور الشعر كما هو الحال في تطور الموسيقى.. ولم يعد الشاعر ناظماً ضمن حالة شعرية واحدة ومغلقة ضمن دائرة الصوت الواحد الأوحد.. بل ذهب حتى في القصيدة الواحدة ليشكل من صوته عدة أصوات متفاوتة النغم والإيقاع، ومن ذاته تتآلف بعدّة ذوات لتجعل من صوت الشاعر الواحد صوتاً كورالياً جمعياً لمجموعة أصوات معاصريه.[٧]: فالشاعر الذي -خلع عن نفسه صفة الناظم إلى الأبد- يحاول في أثناء هذا كله أن يكتشف مجاهل نفسه، وعالمه الباطن، كما يكتشف لغته، ويعيد بناءها لتكون قادرة على الإيحاء بعالمه الجديد.. لهذا نجد، كما ذكرنا، تعدد الأصوات في الشاعر الواحد، والقصيدة الراهنة، وفي مجموع أصوات شعراء وقصائد راهننا المعاصر.. ولو أخذنا قصائد محمد عمران في إطار هذه الشبكة من المعلومات والتقنيات المتعددة والمتجددة في آن واحد، للمسنا ليس على صعيد المجموعة والقصيدة فقط تفاوت نسب الرؤية والرؤيا، بل حتى في حركة الكلمة في سياق سطرها والسطر في سياق جملته، والجملة في سياقها العام والمجمل.. وذلك يعود أولاً: لحركة الشاعر النفسية قبل كتابة القصيدة، وعند كتابتها، وما يطرأ على الظرف النفسي من توترات داخلية وخارجية تصبح هي المحرض الأول لاندفاع الشعر عند مخاضه وفق ما أحاط به، وحركة الاندفاع من خزان المتخيل لحقول الحقيقة والولادة الحاسمة للقصيدة.. ثانياً: حال ذات الشاعر تأثراً بما حولها، وما يعنيها، وتأثرها بداخلها الجواني بما يعنيها هو بالذات.. ذاك الداخل المجمع لحزمات الإشعاع المكون النسيج القصيدة النهائي،.. والذي ينطلق بقوة وتأثير الصياغة المؤهلة لما ينطق به الوجدان، والذات.. من تأثيرات وتفاعلات وتقنيات الجوهر الخفي للشاعر.. أي شاعر كان.. ففي اللحظة التي انبثقت فيها قصيدة شاهين عند محمد عمران لتمثل حركة الجماهير وثورتها على واقعها وائتلاف صوت محمد عمران بصوت الجماهير، نجد محمد عمران في قصائد أخرى، وذات أخرى، ومفاصل أخرى يكتب بطرق مغايرة تماماً لقصيدة شاهين.. حيث الشاعر تتمثل فيه

عشرات الذوات المركبة لتحل تلك الذوات في قصائدها!

(٨)، يَضيقُ بنا الصَّمْتُ،
أفتحُ عَيْنَيْكِ نافِذَةً، وَأُطِلُّ،

هاتان الشطرتان.. جملتان.. سطران: يشكلان عالماً آخر من عوالم محمد عمران الشعرية.. سطران ينفتحان على نافذة الوجدان، ووجدان ينفتح على نافذة العينين، وعينان تشكلان نافذة الوجد لشاعر صبٌّ.. متعب.. كانت عيناها مأواه الأخير، ونافذة تطل على التفاصيل التي تشغل البال والروح، ومع هذا، فالنافذة لم تكن صافية تماماً كمرايا الضوء، بل كان عليها غبش غبار غربة الشاعر وذاته الغائمة في مسارات خيالاته الضبابية:

(٩)، أقول، غُبارٌ على النَّافِذَهْ
وَأَمْسَحُ مِرْآةَ عَيْنَيْكِ، أَغْسِلُها، وَأُطِلُّ،
السَّماءُ بنفسجةٌ،
والحُقولُ عصافيرُ مِنْ فِضَّةٍ،
وَخوابٍ مُعَتَّقَةٍ مِنْ تُرابٍ..

في اللحظة التي ينسحب الأمل الوجداني على الأشياء كافة ينقشع الغبار النفسي الذي يحجب الرؤية عن جماليات الأشياء، لتظهر السماء بنفسجة، والحقول عصافير من فضة كأن العصافير اغتسلت برذاذ نور الشمس، وتوهجات القمر الفضية فبدت هكذا.. بجمالها الفضي الآسر والساحر والأخاذ.. حتى التراب ظهر معتقاً في خوابيه كأنه شراب معتق من سنين.. والتراب هنا كدلالة يعني رائحة الأرض بعد المطر.. نكهة لا يمكن تفسيرها إلا للذين تذوقوا تلك النكهة الفاتنة.. ثم تصعد الصورة من يقظتها لحلمها:

(١٠)، أَحْلُمُ،
لا يَرِثُ الملكوتَ سوى الحالمينْ

ونحن نحب الحلم لدرجة المستحيل؛ هكذا خلقنا الله وسادتنا من حَرِّ الهجير إلى برودة سعف النخيل.. عندها تنفتح علينا ممالك من الوجد والهمس لا حدود لها.. ثم يأتي الحب خبز المساكين.. ولا لذة، ولا نشوة إلا بخبز المساكين:

(١١)، أعرفُ أنَّ المحبَّةَ خبزُ المساكينِ مثلي ومثلكِ،
أنَّ المحبَّةَ زُوّادةُ الفقراءِ..

بعض ملامح عالم محمد عمران الشعري..

لا يمكن للقارئ في سرحات عاجلة، ودافئة أن يفتح النوافذ جميعها في لحظات برقية خاطفة على ممالك الشعر عند هذا الشاعر الجميل.. ولو استطردنا في ذلك لوقفنا عند كل سرحة شعرية لعمران وقتاً مبهوراً بالغبطة والنشوة، يفلت فيها منّا الزمن، وتختلط المواقيت ببعضها.. لقد تداخل فينا النغم الشعري حتى ملك بنا حواسنا، ومشاعرنا بمطلق الكلام.. وصارت النغمة فينا- على مذهب ديدرو تشكل التالي:[12]: إن النغمة بالنسبة للبيت من الشعر كاللون بالنسبة للصورة، والعنصر المشترك بينهما «سحر الإيقاع» والذي يؤثر على العين والأذن، والخيال تأثيراً عميقاً.. والأدب عند ديدرو: ليس تعبيراً عن الأشياء والموضوعات، بل هو حركة وجدانية «تتوسل بالخلق الحر للاستعارات، لتقذف بنفسها إلى أقصى الحدود والأطراف، كما تستعين بالألحان والأنغام الغريبة المتطرفة».. لقد استطاع، محمد عمران، أن يحملنا بنشوة إلى ملكوت القصيد، وأن يجعلنا ننفذ بقوة الكلمة المعبرة والمؤثرة إلى ممالك الغناء الموجع الحزين.. عندما يتحول صوت الشاعر إلى ناي مثقل بالموجعات الحادة، والعذبة، والجارحة، فإن صدى الناي لا يؤثر في الأذن فقط بل يمتد تأثيره ليشمل الجبال والأنهار، والأشجار، والهواء، ومطلق المسميات كافة.. ستظل المتعة تلازمنا، والنشوة تأخذ بتلابيبنا من الصحو حتى تخوم النوم العميق، ومن اليقظة حتى غابات الحلم الذائبة بين الوسادة والقصيدة، ونحن نردّد الشعر حتى تكبر موجات الغناء فتعم ممالك الكائنات، على امتداد سماواتها الرحيبة القصية بامتداد أزليها الذي لا ينتهي:

[13]أحْلُمُ، لا ترثُ الملكوتَ سوى الحالمينْ

لماذا إذا انْفَلَقَ الحلْمُ تَسْقُطُ عيناكَ، تنكسرُ الأرْضُ، والقبَّراتُ؟!؟

وَيَنْجَرِحُ الحُبُّ!؟، هَلْ قُلْتُ، إني أُحِبُّكِ!؟،

كَيْفَ جَرُؤْتُ على الاعترافِ!؟،

لماذا أُحِبُّكِ!؟ أعْرِفُ أنّ المحبّة خُبْزُ المَساكينِ مثلي ومثلكِ،

أنّ المَحَبّةَ زُوّادةُ الفُقَراءِ..

المصادر والمراجع

١- الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، د.أحمد علي دهمان- وزارة الثقافة- دمشق ط٢/ عام ٢٠٠٠م- ص٥١-.

٢- من قصيدة الوجه الثالث- ص١١٢- من مجموعة: الكتاب الأول: «أغان على جدار جليدي»- من الأعمال الشعرية الكاملة- الجزء الأول الصادرة عن وزارة الثقافة عام ٢٠٠٠م- للفترة الواقعة ما بين عام ١٩٦٣م- ١٩٩٦م.

٣- المصدر السابق- ص٦- مقدمة أحمد يوسف داود في محمد عمران.

٤- المصدر السابق- ص٦- من قصيدة أشعار في عيد ميلادها.

٥- د. خليل الموسى- عالم محمد عمران الشعري- دراسة أدبية- صادر عن وزارة الثقافة عام ٢٠٠٣م- ص٣.

٦- المصدر السابق ص٣٤- والقصيدة من مجموعة الكتاب الأول- أغان على جدار جليدي.

٧- ثورة الشعر الحديث جزء أول- د. عبد الغفار مكاوي- الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٢م- ص٢٩.

٨- ٩-١٠-١١- محمد عمران- الأعمال الشعرية الكاملة- - جزء أول- وزارة الثقافة- عام ٢٠٠٠م من قصيدة قطار في رحلته اليائسة من الكتاب الرابع «مرفأ الذاكرة الجديدة ص٢٧٨و٢٧٩.

١٢-ثورة الشعر الحديث جزء أول/ مصدر سابق ص٤٤.

١٣-محمد عمران- الأعمال الشعرية/ مصدر سابق- ص٢٧٨و ٢٧٩- وزارة الثقافة بدمشق.

☆ ☆ ☆

الإبداع

شعر

قيصرة ومهرجان الشعر — سليمان العيسى

إمام العقل — د. نزار بريك هنيدي

نص

أقاويل عن الشرق — وليد إخلاصي

قصة

سندريل — نيروز مالك

قيصرة ومهرجان الشعر

شعر
سليمان العيسى *

حين دعتني ابنة حمص، جوليا دومنا، قيصرة روما، إلى أمسية شعر على ضفاف الميماس.

جاءتني.. قيصرةُ الدنيا على
شرفة القصر..
وينداح الصباح
عَنبر الشرق القديم
نكهة المجد العظيم

---

* شاعر العروبة الكبير.
العمل الفني: الفنان مطيع علي.

قُبَلاً.. للسحرِ في روما
جَناحْ
من أغانيها.. وللعاصي
جَناحْ

☆ ☆ ☆

جَدَّتي.. طفلةُ حمصَ
الساحِرَةْ
اللَّيالي الشاعرَةْ

كُلُّها مُلْكُ يدَيْها
صَهرتْها وردةً في
وجنتيها
بسمةً في شفتيها
يَوْمَ مرَّ العِطْرُ في بالِ
الأقاحْ
كانتِ الدنيا لها
بُستانَ وَرْدْ
كانَ كلُّ الشعرِ، كُلُّ الوَرْدِ
همسةً في ثغرِها.. عند الصَّباحْ

☆ ☆ ☆

وكَومْضِ البرقِ.. مَرَّتْ في الزمانْ
وعلى الميماسِ حَطَّتْ



إبْنةُ البرقِ الجميلَةْ
جوليا.. قيصرةُ الدنيا..
وفي حمصَ الجميلَةْ
وعلى سَقْسَقةِ النهرِ.. أقامَتْ مِهْرَجانْ

وَدَعَتني..
لأغنّي..

جَدَّتي.. من آلهاتِ الشعرِ كانت
في الزمانْ
فلماذا لا أُغَنّي
عندما تُومئُ لي من شُرفةِ الخُلْدِ بَنانْ؟

☆ ☆ ☆

وعلى خُضْرِ القوافي.. طِرْتُ،
لا أدْري إلى أينَ؟
وخَلَّفْتُ الزَّمانْ
والمكانْ..
من وَرَائي..
أورق الصَّخْرُ غِناءً في غنائي
هكذا الليلُ..
الصَّدى..
الرَّجْعُ.. بدا لي

كلُّ شيءٍ.. كانَ في ذاكَ المساءِ
سكرةً حولي..
تَلُفُّ المِهْرَجانْ
حينَ يَخْضَرُّ الصَّباحْ
فجأةً..
في قاعةِ الشعرِ..
فقل مَرَّتْ هُنا
اِبْنَةُ البَرْقِ.. وكُنَّا همسةً في بالِها
زَفَّةً.. في شالِها
قُبلةً..
لِلألَقِ الخالدِ.. في روما جَنَاحْ
من حُمَيَّاها..
وللميماسِ(*)، والعاصي جَنَاحْ

(*) الميماس: منتزه رائع في حمص.

إمام العقل .. «إلى أبي العلاء المعري»

شعر

نزار بريك هنيدي *

لا لزوم لما ليس يلزم حين أجيء
لأقرئ نفسي، بين يديك، السلام.
لا لزوم لأسرد ما حل بي
وأنا أتخطى إليك قفار السنين
وأجتاز مستنقعات الظلام.
لا لزوم..

---

* شاعر سوري.
العمل الفني: الفنان أحمد الياس.

فهاهيَ ذي الروحُ
قد سَكَنَتْ
في جوارك
من بَعـدِ أن عزَّ في
العالمين المقامْ.

☆ ☆ ☆

كمْ تحمّلتُ حتى
اهتديتُ إليكْ؟
كمْ تلوّتْ دروبي؟
وكمْ لبثتُ؟ كمْ لابتِ
الريحُ بي؟
كمْ سرى بخيالي
سرابٌ؟
وأدمى فؤادي
خرابٌ،
وأعيا اجتهادي
جوابٌ،
إلى أنْ رَمتْ بي حمامةُ وجدي
إلى راحتيك.
فاكتشفتُ
بأنَّ جميع الجمار التي أحرَقَتْ أضلعي،
لم تكنْ



غيرَ بعضِ الذي كنتَ تفرشُ
في محْبَسَيْكَ؟
وبأنَّ جميعَ المعاني التي
أرّقتني مدى العمرِ،
ليست سوى
بعضِ ما فاضَ منْ ضفّتيكْ.

☆ ☆ ☆

أنتَ يا سيّدي
من رأى كلَّ شيءٍ،
فراحَ الوجودُ يُدحرجُ أسرارَهُ
كاللآلئِ، بينَ يَدَيكَ.
أنتَ شيخُ البصيرةِ،
والدهرُ أعمى،
وليس لهُ أن يرى نفسَهُ
دونَ هذا الضياء الذي
يتفجّرُ منْ مقلتيكَ.

☆ ☆ ☆

أنتَ يا شيخَنا من رأى كلَّ شيءٍ.
أنتَ من قلتَ لي: لا تصدّقْ سوى العقل
فهو النبيّ،
لا تقدّسْ قديماً،
ولا تنتهجْ نهجَ من حملوا صحفَ الأوّلينَ،
فمنْ أين للميْتِ
أن يتحكّمَ في أيِّ حَيّ.؟

☆ ☆ ☆

أنتَ أوصَيْتَني:
لا تُعاشرْ مِنَ الرؤساءِ أحَدْ.
لا تمدَّ يدَيكَ لتطلبَ من كَهنوتٍ مَدَدْ.
وامشِ فوقَ الترابِ وئيداً،
فتحتَ الترابِ ينامُ الأبَدْ.!

☆ ☆ ☆

أنتَ علَّمتني:
لا تثقْ بحديثِ النجومِ
ولا ترجُ نيلَ الشفاعةِ من سَيِّدٍ
أو حَجَرْ.
واسعَ للخيرِ دونَ انتظارِ ثوابٍ
كوردٍ يذيعُ الشذى
وغصونٍ تجودُ بما أبدعَتْ من ثَمَرْ.
وترفّقْ بمن جَرَّهُ الشرُّ للشرِّ،
فالشرُّ، في الأصل، طبعُ البشَرْ.!

☆ ☆ ☆

أنتَ يا سيّدي
مَنْ رأى الكونَ مضطرباً
فاضطَرَبْ.!
وتَحَقّقَ أنْ لا حقيقةَ إلا
لظلِّ حَيرةٍ،
وصقيعِ شكوكٍ،
وأسئلةٍ لمْ تُجَبْ.!
فنضا عنهُ ثوبَ اليقينِ
وغاصَ ببحرِ الأسى،
ومحا ما كَتَبْ!

☆ ☆ ☆

يا إمامي، وشيخي
وقد عزَّ في عصرنا المدلهمّ الإمامْ.
كَمْ تَمنّيتُ لو تبعثُ الآنَ حيّاً،
وأنتَ الذي كنتَ تنكرُ بعثَ الأنامْ.
كي ترى، لو بعيني، فتَعْجَبُ
لا شيء، يا سيّدي، قد تغيّرَ
منْ ألفِ عامْ.!

☆ ☆ ☆

لا تزالُ البلادُ جِراراً مكسّرَةً،
تتهشَّمُ تحت حوافرِ أحصنةِ الأمراءْ.
وحساءُ الحصى لا يزالُ على النارِ يغلي،
وتغلي الدماءْ.
والجيوشُ الغريبةُ عادتْ
لتحذفَ أصواتنا من نشيدِ الوجودِ
وتلحقّنا بكتابِ ثمودِ
وترمي بنا في كهوفِ الفناءْ.!

☆ ☆ ☆

لا لــزومَ لأرويَ مـــا انتابَنا مـــن صروفِ
المِحَنْ.
لا لزومَ لأشرحَ
ما حلَّ بالفكرِ والدينِ والفنِ والشعرِ
من نائباتٍ
إذا ما تناهَتْ إليكَ، تُجَنّ.!
لا لزومَ.. ولكنني، سيّدي،
أستميحُكَ عذراً،
إذا ما بقيتُ أقاومُ يأسي
ففي ظُلْمَةِ اليأسِ لا شيءَ إلا
فناءُ الحياةِ،
وموتُ الزمنْ.!

☆ ☆ ☆

سيّدي.. لَمْ أجئْ شاكياً!
غيرَ أني، وقد صرتُ بين يديكَ،
تَفَجَّرَ ما كنتُ أحبِسُهُ داخلي
مِنْ كلامْ.
سيّدي.. بَلْ صديقي!
ترانا إذنْ سنقاومُ بالشعرِ والفكرِ
جيشَ الظلامْ؟
ونجاهدُ كي لا تسود سوى رايةِ العقلِ
بينَ الأنامْ.
وبرَغم جميع الذي كانَ
أو سيكونُ،
سنحفرُ في قبّةِ الكَوْنِ ما قلتَهُ:
لا إمامَ سوى العقلِ
لا
لا إمامْ.!

أقاويل عن الشرق

نص

وليد إخلاصي *

من ذا الذي يطلق التسميات على الأماكن والجنبات. ومن الذي ألحق بنا اسم «الشرق» فبتنا أسرى ذلك اللقب؟

نعلم أن الشمس تشرق صباحاً على مدن كباريس أو روما أو برلين قادمة من جنبتنا. فهل دفعت تلك الظاهرة بأحدهم أن يطلق علينا نحن العرب أو أهل الهند واليابان لقب الشرق؟ فكان لموقعنا النسبي في الجغرافية أثر في التصاق اللقب بنا لنصبح نحن الشرق وهم الغرب.

---

* أديب وقاص من سورية.

العمل الفني: الفنان شادي العيسمي.

هل نحمل الشمس مسؤولية تحديد تلك المصطلحات، أم أن تلك التسميات ارتبطت بأمور تجارية وبالتحديد اقتصادية ولمزيد من الدقة كانت الأمور استعمارية، فالشرق مستهلك والغرب منتج فباتت العلاقة بينهما واضحة ومحددة و خاصة عندما تفرعت التسمية إلى شرق أوسط وشرق أقصى، وكانت ذات يوم تسمية أخرى هي الشرق الأدنى، ومن يعلم عن تسميات قادمة!

الكتب والمحافل السياسية وأجهزة الإعلام كرست تقسيم العالم إلى مناطق تحمل تسميات محددة كانت السبب في أن يكون الشرقي مثلاً غير الغربي، فهو حالم كسول شبق ميتافيزيقي وهو خاضع دون إرادة للسحر والشعوذة وهو قدري مستهلك غير منتج بشكل جاد وهو متأثر لا يؤثر، وثبت بما لا يقطع الشك أنه عدو تقليدي للموضوعية والفكر العلمي.

وهكذا رسم صورة الشرقي بريشة الغرب الذي وقر في عقله صواب توصيفه لمن هم غيره.

ولنسلم بأن الجغرافية هي السبب في إطلاق الأسماء على الجهات، لكن تسليمنا لا يمنع من التساؤل عن موقع إيطاليا على سبيل المثال من إسبانيا أليس هو شرقها، وأن إسبانيا هي نفسها شرق أمريكا، واليابان ألا تقع شرق الصين؟ وهكذا بات الخطأ الشائع حقيقة لا يفكر أحد في مراجعتها أو محاسبة من أطلقها على أسس تاريخية واجتماعية واقتصادية ولربما أخلاقية، فلم يكن في حسبانه أن الأرض كروية وليست مسطحة أو مبسوطة لصالحه ومصالحه، أو أنها جعلت هبة له لتصبح ملكاً له تابعاً له.

وبالرغم من أهمية المركزية الأوروبية في القرون القليلة الفائتة وقد احتضنت الكشوف العلمية الرائعة وكانت مهداً لمغامرات عظيمة وثقافية شجاعة، وقد انسحبت على عالم ضم إليه أمريكا وهو يدور في فلكها لتصبح تلك المركزية كتلة بشرية مؤكدة، فنشأ علم الاستشراق منها ليقتصر على اكتشاف الشرق والفرجة عليه من دون تقدير للحقائق والتاريخ، ودون استبصار لما سيكون عليه الشرق في المستقبل.

ولا نتعدى الحقيقة إذا قلنا إننا نحن العرب المحصنين بشرقيتنا ما نزال تحت تأثير تلك النظرة المركزية الأوروبية في التعامل مع العالم. ألا ننظر إلى الشرق الأقصى مثلاً



كمستشرقين غربيين ولكن دون فهم كامل له أو تقدير لطاقاته وحركة التاريخ في بنياته؟

نتساءل: هل استطاعت المركزية الأوروبية الطاغية أن تحجب عن بصيرتنا واقع أجزاء من شرقنا المترامي الأطراف، المتعدد الثقافات، الطامح إلى اليقظة بعد نوم قرون طويلة؟

ونتساءل: وهل استطاعت تلك المركزية أن تمنعنا من تأمل حقيقة روحنا الممتدة في أرض التاريخ كجذور شجرة استوائية؟

يأتينا هاتف من الماضي:

هل تذكرون حكاية البحار الغربي الذي تعلقت به الصبية اليابانية (بترفلاي) وقد قالت الحكاية أن البحار هام بها حباً؟

ألم تكن واحدة من القصص التي ألهبت خيال شبابنا الأول؟ أولم تحولها أوبرا الموسيقي الإيطالي (بوتشيني) إلى مأثرة غنائية تنسجها المأساة التي لا تنسى؟ لقد غزلت الحكاية صورة شاعرية تبحث لها عن مكان دائم في الذاكرة وقامت بإخراج اليابان من

صــندوق التاريخ المقفل لتعيد إليها صورة الجــزر الجبليــة الغنية بالجمــال ولتدفع بفتيــات (الجيشــا) المثقفــات الرقيقــات كالفراشــة إلى التحويم في ســماء الخيال، ولتوقــظ أبطــال (الســاموراي) يلوحــون بالفروسـية الأسرة، ولتدعــوا (بوذا) على التنقل بحكمته بين المعابد وســائر الأرجاء. كانت الحكاية تغني الشــعر الذي لا يعادله شعر آخر في وصف الطبيعة وتمجيدها.

وتخلخل الحرب الكونية الثانية ســطور كتــاب التاريخ لتحتــل مكاناً بينهـا كأهم عناويــن في الفصــول المســجلة. تحولــت اليابان إلى أســاطيل تهدد البحار وطائرات تقتحم الأجواء وطموحات عسكرية تتوجها بطــولات انتحاريــة، إلا أن كل ذلك لم يُبعد الهزيمة عن شــعب اليابــان. وبالرغم من شــاعرية قتل النفس عقاباً على الخســارة على طريق (الهاراكيري) وتشــوش الصورة الشــعرية للثقافة اليابانية، وتجاوزاً لمفعول القنبلتــين الذريتــين اللتين قطفتــا حياة (ناغازاكي) و (هيروشيما)، فإن حلماً يابانياً بدأ يستيقظ، ليقود اليابان إلى مركز إشعاع صــارت عليه وهــي تدخل لعبة التســابق الاقتصادي المحموم في عالم باتت فيه الأمور تقاس بالتكنولوجيا الدقيقة.

هــل يمكن القــول إن شــاعرية اليابان القديمة في الفروســية وأســواق الســمك التــي كانــت التجــارة الأكثر شــهرة، وقد تحولــت إلى واقعية التقنيــة المعقدة وباتت الترانسستورات أهم الأعمال فيها. وأصبح انكســار اليابان وخضوعها في تبعية كاملة للولايات المتحــدة مدخلاً نفدت منه خلال عقود قليلة لتكون نداً وعملاقاً اقتصــادياً يثير الإعجاب من طرف ومن آخر يتســبب في الخوف من يقظة العملاق الذي طعن في القلب ولم يقضَ عليه.

كتب «ول ديورانت» في قصة الحضارة:

« لقد درس اليابانيون مدنيتنا دراســة فاحصة كي يتشربوا معاييرها ثم يفوقوها، وقد يكون من الحكمــة أن ندرس مدنيتهم في صبر يشــبه صــبرهم، حتى إذا ما تأزم الأمر على نحو يضطرنا إلى حرب أو تفاهم معهم، كان في مقدورنا أن نصــل معهم إلى تفاهم.»

في العــام ١٩٨٩كتب (ايشــيهارا) وهو روائــي ياباني وعضــو في البرلمــان، تحت عنوان (لنرفض الرضــوخ لتهديد أمريكا)، قائلاً:

«جــددت أمريــكا تهديدها في الســنة

الأخيرة، ولابد أن سياسييها يشعرون بأنهم سيحصلون على مزيد من الأصوات بالتعريض باليابان أكثر من التعريض بالاتحاد السوفيتي، وقد اتسمت الانتقادات الأمريكية الموجهة إلى اليابان بنبرة هستيرية هذه الأيام. وقد لمست شخصياً فيما كنت في الولايات المتحدة وتقابلت مع السياسيين الذين أخبروني بأن هناك تحولاً سياسياً بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، وكان ذلك يجب أن يثير فزع اليابان بصورة ما. وأشار هؤلاء السياسيون أنفسهم إلى أنه لما كان الأمريكيون والسوفييت على حد السواء من الجنس الأبيض، فإنهم في المواجهة النهائية سوف يتحالفون معاً ضد اليابان غير البيضاء.»

اليوم، وغداً وفي كل لحظة، أيمكن لنا نحن العرب أو الخارجين عن نظام تصنيف الأوائل أو المنتمين إلى خانة التخلف، أيمكن أن ننظر إلى اليابان أو إلى الكتلة البشرية الهائلة في الشرق الأقصى بعيداً عن قيود الارتباط بالولايات المتحدة وأوروبا، وقد تكون النظرة عملية وفاعلة وموضوعية، تكشف لنا حقيقة ذلك الشرق الذي لم يكن غريباً بأي حال من الأحوال.

كتب (اكيموريتا) يوم كان رئيس مجلس إدارة شركة سوني ومديرها العام، وهي أول مؤسسات الإلكترونيات ومشتقاتها الموسيقية والصوتية في العالم وذلك أثناء زيارته لصديق أمريكي:

«في الصيف الماضي دعاني صديق لي.... وبينما كنت أدخل البيت رأيت جهاز تلفزيوني ماركة سوني والعديد من المنتجات الأخرى اليابانية الصنع، فقلت له: الواضح أنك تفضل المنتجات اليابانية. فلم تطالبنا بشراء شيء لا تشتريه لنفسك؟ إن الأمريكيين اليوم يصنعون الثروة ب (تداول) النقود وتحويلها من مكان إلى مكان بدلاً من ابتكار وإنتاج سلع لها بعض القيمة الفعلية.»

أهي محاولة أم أنها اكتشاف متأخر:

وأنا أمضي في طريقي إلى الشرق الأقصى كانت الطائرة تطوي المسافات المتراكضة والزمن يطويني بينما يحاول تفكيري أن يحل لغز لقب (الأقصى) لذاك الشرق الذي أتجه إليه، لم كانت الصين أو اليابان أو غيرها من الأقطار تنضوي تحت لواء تلك التسمية؟ أهو البعد عن عالمنا، أو أنه الضعف في المعرفة، أكان السبب في أن يكون ذاك الشرق موسوماً بالأقصى؟

المشكلة في أن هذا الاحساس قد جاء أصلاً من تصانيف الغرب لأجزاء العالم التي لا تنتمي إليه، فقد قامت أوروبا ومن بعدها أمريكا الشمالية بوضع القواميس وتعميم مفرداتها على سائر أنحاء الكون.

أوروبا الإغريقية، ثم الرومانية، وبعد ذلك أوروبا الغربية باتت مثلاً أعلى وينبوع أفكار، بشكل إرادي أو عفوي، مثلاً أعلى للحياة في معظم أرجاء العالم. لو فكر العربي مثلاً بالوحدة السياسية بين أقطاره كانت له التجربة الألمانية قدوة أو أنها الإيطالية. إذا بحث العربي عن القوانين والدساتير برزت له التجربة الفرنسية. وفي المسرح، لا ننظر إلى كمال إلا من خلال المسرح اليوناني القديم والأوروبي المحدث. وفي الوقت الذي عانى فيه العرب من استعمار الغرب له، بدءاً من الحملات الصليبية وانتهاء بالاحتلال الأوروبي من فرنسي وإنكليزي وإيطالي، فإن الغرب مازال القطب نفسه في اجتذابه للاهتمام والتفكير بل والاحتذاء به.

لست شخصياً من أعداء المثاقفة مع أي طرف في هذا الكون، إلا أن العالم الفسيح الضيق ليس الغرب وحده، بل هو مجموع الأقطاب المتعددة المتنوعة، ولابد أن الشرق البعيد هو واحد منها دون ريب فلِمَ نُبعدهُ عنا روحياً وثقافياً ومادياً، فنضيف بذلك إلى البعد عنه غربة؟

إذن، فالشرق الأقصى بعيد عنا لأننا لم نتمازج معه كما أننا لم ندخل معه في صراع أو معارك ولم نعرف الكثير عن ثقافاته وعاداته وتقاليده وأساطيره، لذا فنحن نجهل حقاً موقعه من مستقبلنا. وهو، كما رأيته بعيني وسمعته بأذني في رحلة إلى مناطق منه، لا يعرف عنا إلا ما يصله من خلال وسائل الإعلام الغربية، فلا تكون لنا علاقة فعالة مع الشرق الأقصى إلا عبر استيراد منتجاته المتقدمة أو تصديرنا إليه من المواد الخام. ما هو بعيد جغرافياً، يمكن أن يصبح قريباً ليس بالمواصلات وحدها بل بوجود لغة مشتركة، وهذه اللغة التي أصبحت أكثر تأثيراً في عالمنا الحديث هي لغة التبادل الاقتصادي والتفاهم الثقافي. وقد تكون الإنكليزية بزحفها المستمر على شعوب العالم، ولكن لغات كاليابانية والصينية أو الكورية أو التايلاندية وغيرها هي من اللغات الصعبة، إلا أن امتدادها في أوصال ثقافات عريقة مازال يؤكد على حيوية أهلها ويؤهلها دوماً للمشاركة في الحضارة

الإنسانية ويحرضنا على التفكير في وضعها ضمن برنامج بناء مستقبلنا فلا نجعل من لغاتها سداً يقف أمام التواصل مع كياناتها السياسية والثقافية.

وتدل الأحوال على أن الكثير من دول الشرق العربية لا تتمثل بقوة وفعالية في دول الشرق الأقصى، فليس لبعثاتها الدبلوماسية ذلك النشاط الثقافي الذي لها في دول الغرب، فإلى متى يمكن تجاهل ذلك الشرق في السنوات المقبلة؟ وألا يمكن الإقرار بأن الجواد الرابح في سباق الزمن القادم هو الشرق الأقصى؟

وكنت قد أدركت منذ أيام الشباب مدى اهتمام الأسر الحلبية بالصناعات التقليدية، ومقدار تباهيها بامتلاك السجاد والأواني الخزفية الواردة من الشرق البعيد وبخاصة الصين. واليوم يحرصون على اقتناء الأجهزة الحديثة كالتلفزيون والفيديو وغيرها من الوسائل المتقدمة، وأغلبها قادم من ذلك الشرق، وبينما كانت السيارة الأميركية الفارهة مثار الفخار لصاحبها، فإن السيارة اليابانية صارت مطمحاً ليس في بلادنا فحسب بل في البلاد الأميركية أيضاً. وكانت الساعة السويسرية رمزاً للدقة فباتت اليابانية منافساً قوياً، فهل يسجل السباق نقاط نصر لامعة؟

أنت تحب البلد الجديد الذي تزوره، وربما منشأ هذا الحب يعود إلى أمرين، أولهما أنك تجد فيه شيئاً يختلف عن ذاك الذي في بلدك فتتعلم منه ويولّد فيك الطموح كي يكون لك مثله، وثانيهما أنك تشاهد فيه ما تتمنى لبلدك أن يكون مثله، وهكذا كان الشرق الأقصى بالنسبة لي، تحبه وتجد فيه ما تتعلمه.

وأنا أدخل ذلك الشرق من بوابة (هونغ كونغ) تمنيت أن أكون في تلك اللحظات مراسلاً جوالاً لصحيفة كبرى أكتب وأصور لها سيل الانطباعات التي بدأت تحفر في مخيلتي العطشى. عالم يخرج من نفسه ويعود إليها يكسب الجديد ولا يخسر ذاته، عالم ينلي ويفور، ليس كبركان (فوجي ياما) الياباني، بل كمصنع مزود بأحدث التقنيات وكيان محكوم بأمل الغزو لكل أرجاء الدنيا ابتداءً من اللباس وانتهاءً بالصواريخ الموجهة إلى صدر الفضاء المجهول. إنه الأرض التي تهيئ نفسها لتزويدك بأخبار المستقبل بالرغم من أنها مخزن يحتشد فيه الماضي بكثافة تظهر في التقاليد

الدينية والاجتماعية التي لم يخمد لها بريق مع طغيان التكنولوجيا في كل مكان. ثم إن المراقب إذا أمعن النظر في عمق تلك الشعوب سيجد أن (العمل) الذي تسير وفق منهجه لا يقل في الأهمية عن (الدين) نفسه.

تحس هناك أن (الزمن) أشبه بفريسة يحوم حولها صياد محترف كي يكتشف نقاط الضعف فيها فيهاجمها لا من أجل قتلها بل من أجل تطويعها لصالحه. إنه سباق فريد من نوعه في كسب قدرات متجددة للسيطرة على الزمن. والشيء العجيب في كل ذلك أن المشارك في ذلك الصيد كانت الشعوب التي خضعت لإرادة الزمن الصلبة قروناً طويلة.

وفي إحصائية قديمة كانت منظمة التجارة الدولية (الجات) قد نشرتها في العام ١٩٩١ للإشارة إلى الأوائل من دول العالم في تصدير منتجاتها، فكانت صادرات ثمان وعشرين دولة تقدر بـ (٣٥٣٠) بليون دولار، وشكلت ثلث تلك الدول نسبة الربع من ذلك الرقم، وتلك النسبة كانت من نصيب اليابان وهونغ كونغ وتايوان، الصين الشعبية وكوريا الجنوبية وسنغافورة، ماليزيا وإندونيسيا وتايلاند.

وتدل تلك الإحصائية على أن الولايات المتحدة الأميركية تمثل ١٢بالمئة من تلك الصادرات، وكانت آنذاك تضم مئتين وخمسين مليوناً من السكان ينتشرون في مساحات هائلة من الموارد الطبيعية الكبيرة، بينما اليابان بسكانها المئة والعشرين مليوناً المقيدين برقعة من جزر محدودة، فكانت صادراتها تشكل (٩،٨) بالمئة من جملة الصادرات العالمية. أفليس يدل هذا المؤشر على النشاط الاقتصادي الذي يخلقه الشعب الياباني، وكذلك شعوب الشرق الأقصى الأخرى؟

لقد عرفت أجزاء من ذلك الشرق سر التقدم والنمو، فكانت لليابان الريادة منذ نهاية القرن التاسع عشر يوم دخلت سباق الكشف عن ذلك السر، بينما تأخرت دول أخرى كانت تغرق في بحر التخلف كماليزيا وسنغافورة وغيرها، إلا أنها ما لبثت في منتصف القرن العشرين أن استيقظت لتستحق عضوية نادي التقدم الاقتصادي، فتحول معظم الشرق الأقصى إلى عملاق يجر خلفه عربة الزمن مستقبل يساهم هو في صنعه.

قال لي رجل أعمال ياباني في معرض

الحديث عن سر القوة التي باتت اليابان تتمتع بها في المجتمع الدولي، أنهم لا ينفقون على السلاح وإعداد جيش للقتال بل اتجهت طاقاتهم نحو النظام والإنتاج ويتجلى كثير من الحقيقة في قول الرجل عن مجتمع كان مغلقاً فتقدم، وكان مستسلماً للزمن فسيطر عليه وقام بربط المشاعر الإنسانية بالقيمة المقدسة للعمل وشدها إلى حب الوطن والتباهي به، إذ لا فائدة من التباهي بتاريخ عظيم والناس لا يعيرون المستقبل أهميته، وإن عبادة الأموات لا تجدي في تعزيز الحياة إذا لم يأخذ الأحياء نصيبهم منها!!

لقد تصدرت الصناعة الألمانية واجهة التقدم يوم كنا شباباً، فنالت الإعجاب في الوقت الذي كانت فيه الصناعات اليابانية ترتبط بالسذاجة. واليوم باتت اليابان بتقدم صناعاتها هي المثل الذي تتطلع إليه الشعوب، وتحول نظام العمل فيها إلى مدرسة يتمنى الآخرون انتساباً إليها. ويحق لنا نحن المنتسبين إلى شرقنا أن نعمل على اكتشاف شرقية تلك الرقعة النائية من عالم بعيد يصبح قريباً منا إذا ما قرنا ذلك.

بانكوك، عاصمة التايلاند أو سيام المملكة القديمة التي لم تعرف غزواً خارجياً من قبل، وهي التي تأخذ الحصة الكبرى من شبه الجزيرة الموسومة بالهند الصينية، ويعيش فيها أكثر من ثمانية ملايين من أصل حوالي الستين مليوناً. وبانكوك تعتبر من أكثر المدن تلوثاً وازدحاماً في العالم، ولا يمكن للمرء أن يتصور حجم أزمة المرور التي تحفل بها شوارعها، إلا أن الودَّ الذي يرتسم على وجوه الناس فيها يساعد على تخفيف الأزمة الخانقة.

وبانكوك مع سنغافورة من المدن المدارية التي استقطبت السياح، الغربيين منهم خصوصاً ينشدون الدفء والخدمات المتعددة الأغراض، إلا أن تايلاند تشهد تقدماً صناعياً بالرغم من غلبة الزراعة على الاقتصاد، وباتت بانكوك واحدة من المفاتيح الهامة أو من شواهد الزحف نحو التقدم في منطقة الشرق الأقصى. وقد تكون البوذية قد علَّمت الشعب الطاعة والتهذيب، إلا أن متغيرات العصر وتحولاته علمت الشعب لعبة الدخول في مسابقات التطور والإنتاج. ولم تدفع طبيعة المناخ إلى الكسل كما هو المألوف، بل إنها لم تكن سبباً في إعاقة التقدم.

وقد نجد الفقر شائعاً في البلاد التي

تسعى إلى التقدم كما هو الحال في تايلاند، إلا أننا نجد الجميع يعمل، وهذه الصورة الواقعية قد تنتسب إلى الفلسفة الاجتماعية السائدة هناك، والتي تتجلى في مواقف كتلك التي ظهرت في الخطة الحكومية في إعلان برنامج توعية العاملين في أجهزة الدولة وغيرها لتلافي مرض (الإيدز) الذي بات يشكل خطورة بالغة. ومثل هذا الاعتراف بالوباء كان يدل على أفق واسع في مواجهة المشكلات الحيوية، فتايلاند في انفتاحها السياحي أصبحت بؤرة تنشر هذا المرض. أفلا تكون هذه المواجهة الشجاعة من قبل الحكومة تأكيداً على واقعية تساهم في تقدم المجتمع؟

وهونغ كونغ، المدينة/ الدولة، نتوء صيني صغير في جسد الأم الكبرى، استأثر به الاحتلال البريطاني لعشرات السنين محدثاً أغرب منطقة جغرافية في العالم. وهونغ كونغ التي نالت استقلالها في العام ١٩٩٧ لتعود إلى الصين، خلقت في الأذهان صورة المدينة التي تحولت إلى مركز عالمي للتهريب والمخدرات والتجسس والعهر، إلا أنها تحولت أيضاً إلى مركز متقدم في إمبراطورية الشرق الأقصى الاقتصادية.

وتقع هونغ كونغ على شبه جزيرة (كوْلون) ونصفها الآخر على جزيرة تحمل اسمها، ولا يزيد سكانها عن الملايين الستة أغلبهم من الصينيين الذين يعملون في التجارة والصناعة والخدمات والتخطيط من أجل السيطرة على أجزاء كبرى من الشرق الأقصى. إنها المدينة/ الدولة والتي لا تعرف سوى المال وسيلة للتعامل وتقويم الناس في درجات ما بين واسع الثراء وثري وأقل ثروة وطامح إلى تكوين ثروة وراكض منذ الفجر كي يكوّن ثروة ما.

وإذا كانت الولايات المتحدة بلد ناطحات السحاب، فإن هونغ كونغ هو البلد الذي يتميز بأعلى نسبة من الناطحات في الكيلو متر مربع الواحد. أي أن الارتفاع السكاني في تلك البقعة العجائبية عمودي فإن التمدد الاقتصادي فيها بات كونياً.

إنه ازدحام في كل نقطة من مملكة المال تلك، لكن وسائط النقل السريعة فيها مريحة ومنتظمة، فالقطار الذي يمر تحت سطح البحر ليصل الجزيرة بشبه الجزيرة هو نموذج عبقري في حل مشكلة المواصلات، فإذا تأملنا مستقبل العديد من المدن العربية أدركنا حالها إذا ما توسعت

أكثر وتضخمت دون وضع حلول حاسمة. وقد لا أحلم أن أعيش في بلد كهونغ كونغ إلا أن أحفادي سيقولون يوماً عن مدينتهم التي ستصبح أكثر ازدحاماً «لمَ لمْ يفكر الآباء والأجداد بمستقبلنا»؟

شيء تشاهده في تلك المدينة فيثير في نفسك الحسد كما يحصل لك في أماكن أخرى كديزني لاند مثلاً. العمارات الشاهقة والسيارات الفارهة والمكاتب الأنيقة قد لا تكون مثيرة لحسدك قدر ما هو الأمر عندما تزور (حديقة المحيط) في هونغ كونغ التي افتتحت على الطرف البعيد من الجزيرة في العام ١٩٧٧، فتثير الشجون عندك إذا ما فكرت بالأطفال وبالأجيال القادمة التي هي بحاجة إلى مثل تلك الأماكن وهي تمنح المتعة والمعرفة. فعلى مساحة كبرى من الأرض الجبلية والغابات تحيط بها من طرف بينما أمواج المحيط الهادئ تغسل أقدامها من الطرف الآخر، نهضت تلك الحديقة لتستقبل الناس من كل الأعمار ولتقدم لهم التسالي المفيدة والمثيرة. مسارح وقطارات هوائية ودلافين تمرح وأسماك قرش استسلمت لأقفاصها الزجاجية، وبدت الحديقة وكأنها تسيطر على الطبيعة من أجل متعة البشر.

وفي تايوان أو فورموزا، الجزر الجميلة التي تبعد عن الشاطئ الأم الصين أقل من مئتي كيلو متر، تعيش هاجس إعادتها إلى الطاعة بعد تمردها التاريخي على النظام الاشتراكي، كما تعيش اللحظات المحمومة التي ولّدتها اليابان في تحديها الاقتصادي لتصبح مثلاً أعلى للدول الآسيوية المنتشرة كسلسلة من الكواكب وهي تدور حول قمر اليابان.

كانت منتجات فورموزا منذ سنين رخيصة الثمن والقيمة والآن باتت مرغوبة في أسواق العالم ومتوازنة. ومن المفارقات الطريفة أن ترتيب تايوان بين الدول الصناعية بات الثاني عشر وتتقدم على الصين الشعبية بالرغم من أن عدد سكانها لا يزيد عن حوالي الخمس والعشرين مليوناً. لذا فإن تجربة تايوان في الانتقال من عصر التخلف جديرة بالدراسة والاختبار. وعقدة الغرب قد تكون واضحة في محاولة تايوان للتحديث بداية من الخدمات الفندقية وانتهاءً بدعم الفرق الموسيقية الكلاسيكية التي لا تفوتها الاحتفالات بمئوية موزارت الثانية مثلاً، إلا أن تايوان لم تحاول الخروج

عن طاعة التراث الصيني العريق والاعتزاز به دون أية رغبة في استلاب الماضي لها، ذلك المرض الذي وقع في فخه الكثير من المنادين بعبادة الماضي في دول العالم الثالث. إن التوازن إيجاباً وسلباً بين قوى العالم في نهاية النصف الأول، من القرن العشرين، هو الذي أوجد كياناً كتايوان، إلا أن التوازن الدولي لم يقف عقبة أمام نهوض شعب تلك الدولة ليصبح رمزاً من رموز القدرة على تخطي العقبات والمشاكل الإقليمية والدولية.

في واحد من شوارع (تايبيه) عاصمة تايوان، انتصب إعلان هائل الحجم يغطي جانباً من عمارة هائلة فيه دعوة للاستماع إلى الأوركسترا السمفونية الوطنية تقدم أعمالاً لبرامز. واستدعى التفكير في العلاقة التي تربط جزيرة آسيوية بعيدة بالحضارة الغربية، بينما جذور الثقافة الغربية تضرب بالقدم سواءً بسواء كما تفعل ثقافتهم العريقة أيضاً، ومع ذلك فإن الحوار مع الغرب يخف بالرغم من ثمار تواصله لعشرة قرون بات الآن متباطئاً ومن يتصور ماذا سيكون عليه المستقبل؟

ويبدو أن الجغرافية أيضاً فرضت على كوريا الجنوبية تحديات شكلت جانباً من قدرها المعاصر، فموقع هذا البلد الذي يقع في أسفل شبه جزيرة نصفها الآخر دولة شقيقة لكنها معادية بفعل اختلاف النظام هي كوريا الشمالية، إلى جانب وجودها في البحر الأصفر الذي يحمل ذكريات من الأساطيل اليابانية التي غزتها ذات يوم. وهكذا كتب على كوريا الجنوبية أن تحقق وجوداً من الكفاح اليومي، لا من أجل العيش فحسب بل كذلك من أجل إثبات الذات تجاه التقدم السريع الذي تغلي به المنطقة.

لقد لاحقت عيوننا قبل سنوات على شاشة التلفزيون وقائع افتتاح الألعاب الأولمبية في العاصمة (سيوول)، وكان ثمة مشهد مثير في الجو يظهر مظليين يقفزون من طائرات محلقة، وإذا ما هبطوا أمسك بعضهم البعض بالأيدي لفترة من الزمن، ثم ما لبثت المظلات أن انفتحت لينزل أصحابها كل في النقطة المحددة له على الأرض دون خطأ. وكأن كوريا الجنوبية في ذلك المشهد أرادت أن تبرهن للعالم أنها تستطيع أيضاً أن تسيطر على أنظمة الدقة التي باتت عنواناً للتقدم المعاصر. وهذا ما يمكن أن تلاحظه في زيارتك لهذا البلد الذي يحسن التفاهم

مع الآخرين مع صعوبة لغته قراءة وكتابة، ويجيد اللحاق بقطار التقدم.

ولا ينكر أن الولايات المتحدة بعد الحرب الكورية في الخمسينيات التي كانت تصفية للحرب الكونية الثانية، قد وضعت ثقلاً مالياً لمساعدة كوريا الجنوبية كي تصبح حصناً أمام زحف الاشتراكية، إلا أن إنفاق الأموال لم يكن السبب في تفجر المزاج للشعب الكوري في وجه تحديات اليابان المتسارعة الخطوات نحو الأمام، فباتت كوريا الجنوبية عضواً في نادي المصدرين الكبار ويلفت الأنظار إنتاجها الصناعي المتزايد.

في غرفة الفندق في سيبوول فوجئت برسالة اعتذار المدير تعلن عن أسفها لقطع التيار الكهربائي لربع ساعة بعد يومين، محددة التوقيت. ووجدت نفسي أضحك بملء صوتي لمعرفتي أن أموراً كهذه لا تحدث عندنا، إلا أنني ما لبثت أفكر في هذا الشرق البعيد الذي يحاول جاهداً أن يلغي الفروق بين الشرق والغرب بما يتعلق بالإحساس بالزمن واحترام الملاقة به، فهل يتفوق ذلك الشرق من العالم على غريته ذات يوم؟

النمل والنحل، هما الأكثر تنظيماً في المملكة الأرضية، وهو تنظيم غريزي، أما اليابان فهي الرمز الآسيوي الشرقي الأكثر تنظيماً اليوم في ممالك الكون الاجتماعية. ويوم تدخل اليابان تحس أنك في خلية بشرية ليس لها مثيل في التنظيم إلا في مخيلة كتّاب الخيال العلمي.

وكانت أول مقالة أقرأها في جريدة إنكليزية عقب وصولي إلى (أوزاكا) ثاني المدن اليابانية، تدور حول مؤتمر صحفي عقدته امرأة يابانية تشكو أمرها للناس بعد أن فقدت زوجها الذي قضى في الأربعين من عمره بعد أن صرعته نوبة قلبية نتيجة الإجهاد في العمل. وذكرت المرأة أن نظام الحياة السائد يقتل البشر في دفعهم إلى العمل دون كلل أو ملل. وقالت المرأة أن زوجها الراحل كان يعمل فوق طاقته كي يواجه إغراءات الحياة وجنون الأسعار، لذا فهي تُحمِّل المجتمع بأسره، حكومة وشركات عملاقة، جريمة قتل زوجها بلا رحمة.

وكنت قد قرأت ذات مرة عن تمثال لطالب ياباني أقيم في ساحة إحدى الجامعات الفرنسية، وكان الطالب قد قضى نحبه لاجهاد عظيم في الدراسة كي

يعود بعدها إلى (يابانه) التي يحلم بالمشاركة في بنائها. ويبدو أن الموت في حالتي العامل والطالب كانت نتيجة لطموح في إثبات حب الوطن، وهذا هو السر على ما يبدو في اكتشاف نمط الحياة في يابان اليوم والغد.

وقد شنَّ، ذات يوم، وزير ياباني هجوماً على رئيسة الوزراء الفرنسية السابقة (أديث كريسون) لأنها وصفت الشعب الياباني بالنمل، وقد يكون في الوصف اختلاط بين المدح والذم، ومن منا لم يسمع بالإمبراطور الياباني الذي حكم منذ أكثر من قرن، وكان يبحث عن تحديث بلاده، فتوسع في إرسال البعثات إلى أوروبا لتلقي العلوم. وقد حدث أن أعدم الدفعة الأولى من العائدين لتلقيهم المعارف النظرية دون العملية، ولاعتقاده أن بناء الدولة لا يكون هكذا. وهكذا عادت البعثات التالية بالعلم التطبيقي الذي سيثمر عن تلك الصورة المدهشة لليابان الحديثة.

واليابان مجموعة من جزر كبيرة يلحق بها آلاف الجزر الصغيرة المنتشرة على أطراف المحيط الهادئ. وإذا كانت الطبيعة قد حكمت عليها بمثل هذا التمزق الجغرافي، إلا أن الإرادة جمعتها والتي باتت قدوة. واليابان بسكانها الذين يفوقون المئة والعشرين مليوناً، استطاعت خلال نصف قرن أو أقل، وقد كانت مهزومة في الحرب الثانية، أن تحتل الرتبة الثالثة بين أهم الدول المصدرة في العالم وبات الآن ما يسمى بالمعجزة اليابانية، إلا أن أهميتها لا تكمن في هذا بل في أنها باتت مصدر إشعاع لتلك المعجزة. وبالرغم من الديانات السائدة فإن ثمة ديانة جديدة أصبحت ذات سيادة ألا وهي تمجيد العمل والسيطرة على الزمن.

يقول المستعرب الياباني (نوبواكا نوتا هارا)، وهو من أهم المتطلعين إلى الأدب العربي المعاصر، عن سبب الانحسار في شعبية الرواية المترجمة إلى اليابانية، فيقول بالحرف الواحد «إنها ظاهرة أكثر من مخيفة بالنسبة إلينا في اليابان. وللأسف جميع دور النشر تؤكد وجود هذه الظاهرة. لعل التغيرات السريعة التي تطرأ على المجتمع الياباني، ولاسيما الاقتصادية منها، هي السبب الأساسي. عندما كنا نحتاج، سابقاً، إلى معرفة أوروبا أو أميركا والعالم الخارجي، كنا نقرأ روايات تلك البلدان، أما اليوم فالياباني يستطيع أن يسافر ويشاهد بنفسه. إن القدرة على السفر والمعاينة

الشخصية قلّت من الاهتمام بالرواية العالمية.

وهكذا بعد فترة تاريخية طويلة من الانغلاق، تفتّحت اليابان، وبدأت في استكشاف العالم وغزوه، فهل يمكن القول ذات يوم أن هناك ثورة ثقافية يابانية أو شرق أقصوية قد تؤثر على العالم بأسره؟

نحن العرب الشرقيون، مازلنا نستبعد مثلاً إيفاد طلابنا إلى الشرق الأقصى لاكتساب العلوم والمعرفة. وإذا كان الغرب قد أحدث علم الاستشراق لاكتشافنا، فأظننا بحاجة إلى استشراق يخصنا لاكتشاف عمق الشرق الأقصى. إلا أن استشراقنا سيكون دون ريب بعيداً عن أية مطامع استعمارية، ولن يكون إلا من أجل اكتشاف جانب من شرقنا البعيد، ومن أجل افتتاح أقنية لمثاقفة قد تعود علينا بأعظم الفوائد، وللمساهمة في تأسيس علم للمستقبل العربي.

☆ ☆ ☆

سندريل

قصة

نيروز مالك *

تقدم من باب الفندق. إذن هذه هي الفنادق ال: خمس نجوم؟

لم يكن الفندق شاهقاً. إنما كان ذا طراز غريب. يثير الانتباه والتساؤل؟

وما إن وصل الباب الزجاجي العريض الذي يغطي الواجهة حتى انفتح من تلقاء نفسه كأن يداً سحرية قد أمسكت به وجرته إلى الداخل.. وما إن خطا خطواته الأولى على مرمر عتبة الباب. حتى وقف أمامه شاب من أصحاب الثياب الموحدة.. جاكيت أحمر وبنطال كحلي مزين ببعض الشرائط الجانبية الحمراء والمذهبة اللون..

---

* قاص سوري

العمل الفني: الفنان رشيد شما.

انحنى الشاب قليلاً، ومد يده ليتناول الحقيبة منه. تردد قليلاً في إعطائها للشاب.. إلا أنه ما لبث أن دفع بها إليه وهو يبتسم بإحراج.. انحنى الشاب له مرة ثانية وقال: تفضل.. سيدي..

سار وراء الشاب حتى وصلا الواجهة الداخلية العريضة حيث يقبع طاقم «الريسيبشن» قدم لهم بطاقته الشخصية. قالوا له: أهلاً وسهلاً دكتور.. نتمنى لك طيب الإقامة..

ثم ناولوه مفتاح الجناح الذي سينزل فيه..

سار وراء الشاب من جديد وهو مذهول ومنبهر من الممرات والردهات والأبواب والنوافذ والواجهات التي يمر بها.. كلها تلمع وتضيء، حتى إنه خاف من الإسراع في خطوه لمجاراة خطوات الشاب.. خاف من التزحلق على الأرض المرمرية التي يسير عليها..

راح يتلفت فيما حوله، ويرفع وجهه ليعاين ما يعلو رأسه، ويحف به من القناديل والمصابيح الظاهرة وتلك المخفية في كل منحنى، وعلى كل جدار وعمود تتدلى من السقوف والحيطان كعناقيد من البللور والزجاج اليدوي المشغول والكريستال..

.وهو في تلفته ارتطم بالشاب الذي كان قد وقف أمام أحد المصاعد، وراح يعاين مفاتيحه المخفية في الجدار... ابتسم للشاب واعتذر بصوت خافت..

ابتسم الشاب وهو يقول: تفضل.. سيدي..

.وكان باب المصعد، الذي لم يكن ظاهراً، قد فتح على ضوء باهر ومرآة شديدة اللمعان والنظافة..

دخلا بالتتابع، هو أولاً، ثم الشاب.. انغلق عليهما الباب.. ولكن المصعد لم يتحرك، ظل في مكانه، رغم أن الشاب كان قد ضغط على زر مضيء في لوحة معدنية مذهبة عليها أرقام الطوابق..

ظن أن الشاب لم يضغط على الزر بما فيه الكفاية من القوة.. لذلك لم يتحرك المصعد.. ولكنه، وقبل أن يمد يده ليضغط على الزر نفسه الذي كان الشاب قد ضغط عليه، انفتح الباب، وسمع الشاب يقول له: تفضل.. سيدي..

استغرب. لقد وصلا.. هذا يعني أن المصعد كان يعلو ويعلو بهما من دون أن يشعر به أو بحركته.. تنهد وحمد ربه على أنه لم يضغط على الزر، لو فعل ذلك، حتماً لكان الشاب قد سخر منه..

خرجا من المصعد، أدار الطابق الذي حل به رأسه ودوخه. كان يعجز تماماً عن استيعاب ما يراه من الزجاج والمرايا والمرمر



والخشب والثريات والمصابيح.. وتلك المعادن المذهبة والمفضضة والنحاسية الحمراء..

شعر كأنه في قصر من قصور ملوك الجان..

وقف الشاب أمام أحد الأبواب وعالجه بالمفتاح.. انفتح الباب على ممر شديد الإنارة، يفضي إلى جناح واسع فيه سرير عريض وتلفاز كبير وطاولة بمفارش حولها كراسي معدنية، مطلية بماء الذهب.. وعلى الأرض سجاد أحمر وكحلي بعروق خضر وأخرى صفر، وعلى الأعمدة القائمة في أطراف القاعة مصابيح تتلألأ بالأضواء..

تقدم إلى الأمام، إلى الواجهة الزجاجية العريضة التي تشرف على البحر والحديقة المحيطة بالفندق..

تراجع إلى الوراء قليلاً.. فوجد نفسه أمام واجهة زجاجية أخرى تشرف على المدينة بأسواقها وشوارعها العريضة، ومحلاتها التي تظهر في الأسفل كأعشاش مليئة بعصافير تحاول الطيران، ولكن أجنحتها لا تسعفها..

كان الشاب قد وقف باحترام ينتظر الأوامر منه، ولكنه كان قد نسيه وهو في لحظات انبهاره بما يراه في داخل الجناح وخارج الفندق، وما يظهر له عبر ألواح الزجاج العريضة من بحر وحدائق وأسواق..

سمع صوتاً يقول له: هل تأمر بشيء يا سيدي؟

لم ينتبه للصوت أول الأمر، ظل يدور وفيما حوله، يتقدم إلى الأمام ويتراجع إلى الوراء..

سيدي.. هل تريد شيئاً؟

انتبه للشاب فارتبك وهو يقول: كلا.. أشكرك.. ولكن الشاب لم يتحرك، ظل في مكانه.. استغرب، عاد وكرر: أشكرك.. لست بحاجة إلي..

وتذكر. هز رأسه وهو يبتسم ويقول: آسف.. لقد نسيت..

ومد يده إلى جيبه وأخرج ورقة نقدية، قدمها للشاب قائلاً: تفضل..

هز الشاب رأسه وقال: شكراً سيدي.. وخرج.

بقي وحده. الآن يستطيع أن يتحرك بحرية..

تحرك إلى الأمام وإلى الخلف وراح يدور حول نفسه كأنه يريد أن يرقص..

من كان يصدق أنه سينزل ذات يوم بفندق من هذا الطراز..

ألقى بنفسه فوق السرير من دون أن يخلع ثيابه أو حذاءه.. تنهد وهو يبتسم مغمض العينين..

لم يعرف الزمن الذي مر عليه عندما رن الهاتف رنات ناعمة لم يسمعها من قبل لدى الهواتف الأخرى التي تعامل معها..

رنات خاصة جداً، رنات بموسيقى هادئة.. لم يصدق ما سمعه بأذنيه عندما أتاه صوت عبر الهاتف، أو ما يشبه الهاتف.. سيدي.. سيكون الغداء ما بين الساعة الثانية عشرة والثانية بعد الظهر.. أما العشاء ففي الساعة السادسة.. والفطور من العاشرة حتى الحادية عشرة صباحاً.. نرجو تشريفكم ضمن الأوقات الآنفة الذكر.. ولكم الشكر وطيب الإقامة..

وبعد صمت قليل تابع الهاتف: سيدي.. أي شيء تحتاجونه، اطلبوه عبر الأرقام الداخلية الخاصة الموجودة في الكتيب ذات الجلد الأحمر.. تجدونه فوق «الكومودينو» بقرب السرير.. وشكراً لكم..

انتظر برهة ظن أن الصوت سيعلو من جديد بتعليمات أخرى..

أغمض عينيه وهو يتساءل: كيف أضافوا اسمه إلى قائمة الوفد؟ هل هي مصادفة، أم أن هناك ترتيباً ما؟ لا يعرف. ثم أضاف: ليس الآن وقت التساؤل، إنما هو وقت العيش الهنيء خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة.. عليه أن ينال من ملذات هذا الفندق ما أمكنه من أكل وشرب والتمتع بتأمل وجوه الحسناوات ما أمكنه ذلك.. وقال إن وجدت نفسك بموقف

حرج حاول أن لا ترتبك.. حاول أن تضفي على الوضع شيئاً من الدعابة.. لأن الدعابة هي وحدها التي تنقذ صاحبها من الإحراج.. عليك أن تتصرف وكأنك قد قضيت حياتك في فنادق من هذا الطراز.. عليك.. كفاك.. يجب أن ترخي أعصابك.. فلا أحد هنا...

وابتسم وهو يتذكر حكاية «سندريلا».. لقد دخلت إلى القصر بأنفة.. لقد ظنوها أميرة حقيقية.. تقدمت إلى وسط الحفل.. والاحتفال على أشده.. أعطت يدها للأمير الذي فتن بها.. وراقصته حتى قبيل الساعة الثانية عشرة.. عليك أنت أيضاً أن تعيش هذه الساعات كما يجب أن تعاش..

عاد الهاتف إلى الرنين. استغرب. شعر كأن في أذنيه شيئاً ما، شيئاً يمنعه من سماع رنات الهاتف. رفع السماعة. أتاه صوت.. سيدي تفضل بالتكلم مع..

قال: نعم.. وأضاف: نعم.. ثم قال: نعم.. كل شيء على ما يرام..

وابتسم وهو يتابع: طبعاً سأحاول أن أتمتع بهذا اليوم.. وكف الصوت عن الوصول إليه بعد سماعه كلمة الشكر التي تركها له رئيس الوفد..

تنهد، ثم تلفت حوله كأنه يبحث عن شيء ما.. ما لبث أن قام ليخلع الثياب عن نفسه ويستعد لساعات يومه القادم..

عندما استيقظ شعر بشيء من القلق، لأنه هكذا شعر، قد تأخر عن موعد الندوة التي يشارك بها في المكتبة الوطنية المركزية..

وقعت عيناه على الساعة، ومن دون أن يشعر قفز عن السرير، حمد الله على أنه لم يخلع الثياب عن نفسه أثناء نومه.. أو بصورة أدق، عندما تمدد يحدق في السقف، لم يفكر بالنوم.. لم يتمدد من أجل النوم، إنما من أجل التفكير بهذا اليوم الذي ليس ككل الأيام الماضية من حياته.. يوم مميز في حياة عادية جداً.. أما كيف تسلل النوم إلى عينيه فلا يعرف؟ ما هي الأسباب التي أجبرته على النوم.. لا يعرف؟ ربما هو التعب؟ نعم.. إنه التعب الذي دفعه للنوم.. فهو لم ينم منذ الليلة الماضية.. سهر مع أصدقائه.. احتفى به الخلص عندما سمعوا أنه مدعو إلى المشاركة في الندوة المركزية.. ندوة حول دور «المثقف والعولمة» وفي السهرة تساءل الأصدقاء، إن كان حقاً قد أصبح من اللذين يدعون للندوات؟

ابتسم وقال: نعم..

ضحك بعض الخلص وقال مازحاً: ماذا، هل بدأت تدرب يديك على التصفيق وعلى الـ..

قاطعه بشيء من النرفزة: ها أنت بدأت بالتجريح حتى قبل ذهابي، فكيف عندما أعود؟

اعتذر منه الصـــاحب وقال: أنا لا أقصد تجريحك، ولكني مســتغرب! لماذا يدعونك؟ مـــاذا وراء دعوتك؟أنت، وكمـــا هو معروف، لست من أصحاب الأيدي التي تصفق نفاقاً؟

لم يجبه، لأن عينيه كانتا تدوران في عقارب الســاعة التي كانت بدورها تدور في الساعة السادسة إلا ربعاً..

تنــاول حقيبتــه بحركة سريعـــة، وبقفزة واحدة كان قد أصــبح خــارج الجناح الذي خصصوه له.. كاد أن يصطدم بأحد الزبائن في الممر.. وأمام باب المصعد تذكر أن جميع حاجياته التي جلبها معه ما تزال في الحقيبة.. لم يفــرغ حقيبته بعد.. وضـــعها جانباً عندما وصل الفندق، وراح يدور بأنظاره وقدميه في أرجــاء الجناح الذي نزل فيــه.. أي ما تزال محاضرته التي سيلقيها تحت ثيابه.. وتصور نفســه في الوضـع الحرج وهو يفتح الحقيبة أمام المشاركين في الندوة والمستمعين في صالة المكتبة الوطنية..

شــعر مسـبقاً بفداحة الإحـــراج، ولكن الوقت راح يفوته، لم يبق لديه وقت كاف حتى يرتب أموره، وهاهو قد أصبح خارج الفندق.. والســـاعة تدور في السادســـة.. شعر بخوف من أن يتأخر عـــن موعده.. لو تم هذا الأمر سيعطي صورة سلبية عن نفسه..

راح يلتفــت ذات اليمـــين وذات اليســـار، يبحــث عن ســيارة أجرة، تمنى مـــن الله أن تأتيه واحدة بسرعـــة كي لا يخسر مزيداً من الوقت..

اقتربت منه سيارة فأشــار إليها.. وقفت إلى جانبه والسائق يسأله: إلى أين يا سيدي؟

أجابه: إلى المكتبة الوطنية.. ظل الســـائق واقفــاً، لم ينطلق بســيارته، فعاد يســأل من جديد: إلى أين أستاذ؟

أجابه مكرراً: إلى المكتبة الوطنية..

ســـار الســـائق منطلقاً بتردد في سيارته، كأنه لا يعرف الطريق إلى المكتبة الوطنية.. سأله، إن كان يعرف الطريق إلى المكتبة.. أجابه الســـائق: بصراحة يا أستاذ، ليس بشــكل دقيــق.. ولكــن لا بأس لن نضــيع.. سنجدها.. ثم أضاف سائلاً: إلا إن كنت تعرف الطريق إليها سيدي؟

هز رأسه وقال: لا أعرف.. فأنا في زيارة أولى لهذه المدينة..

لا بأس. قال الســـائق، ســنعرفها.. لابد أن تقودنـــا هذه الســيارة إليها.. ثم أضـــاف موضحاً: أليس اسمها المكتبة الوطنية؟

أجابه بشــيء من القلق: نعم. ثم أضاف: ولكن أرجو أن تسرع لأنني حتى هذه اللحظة قد تأخرت خمس دقائق.. ولا أريد أن أتأخر عن الندوة أكثر من هذا..

سنصل يا سيدي.. سنصل..

كان ما يراه خارج السيارة، عبر زجاجها، يدل على أن الطريق الذي يسـلكه السـائق لا يمكـن أن ينتهي به إلى المـكان المطلوب.. لأن بيوتـاً فقيرة تحتل نافذة باب السـيارة.. ولا يمكن لهكـذا مكتبة أن تبنى في مثل هذه الأحياء التي تفوح منها روائح الفقر والجهل والتخلف.. فسأل السائق: أتعتقد بأننا نسلك الطريق الصحيح؟

ضحك السـائق وأجاب: أعرف ما يدور في ذهنـك يـا أسـتاذ.. ولكن أعتقـد بأننا على الطريق السـليم.. لأن بعد هذه البيوت الترابية الصـفيحية، تبدأ الأبنية والساحات والحدائق، وكثير مـن دور اللهو والفيلات.. إننا نسلك الطريق الصحيح يا سيدي..

بدأت المشـاهد بالتغير، أخـذت البيوت الطينية بالاختفاء لتظهـر البيوت الحديثة، التي تدل على أن قاطنيها من الأغنياء، ولكن شيئاً ما في صدره كان يوسوس له، على أنهما لا يسلكان الطريق الذي يؤدي بهما إلى المكتبة الوطنية..

أعتقد يا صـاحبي، قال للسـائق، إننا لا نسلك الطريق السـليم.. علينا أن نسأل قبل أن نضيـع مزيداً من الوقت.. لقد جئت من مدينة بعيدة لأشـارك في نـدوة تتحدث عن المثقف والعولمة، وليس من أجل أن أضيـع في شوارعها.. ثم أضاف: أليس ما أقوله صحيح يا صاحبي؟

ضحك السائق وأجاب: معك حق.. ولكننا سنصل.. قد يفوتنا قليل من الوقت، ولكن في النهاية لا بد أن نصـل.. ساد صمت عليهما، السـائق يسـير بسـيارته، أما هو فمخاوفه كانت تزداد، خشية الضـياع وعدم الوصول في الوقـت المناسـب، أو في وقت يمكن له أن يتدارك التأخير..

ابتسم السائق وقال: كان عليك يا سيدي أن تخرج من الفندق قبل وقت كاف..وخاصة أنك لا تعرف المكان الذي تقصده..

أجابه: معك حق.. ولكني شعرت، لا أدري لماذا كأن جميع سـكان هـذه المدينة يعرفون المكتبة الوطنية..

ضـحك السـائق ولم يعلق. أما هو فقال لنفسـه، لماذا لم تقل له بأنك نمت ولم تستيقظ في الوقت المحدد؟

تنهد وهو يرى مزيداً من الأبنية والأشجار والمحلات والوزارات والقنصليات والسفارات تمر عبر زجاج باب السيارة المنطلقة في اتجاه يتغير في كل لحظة، مرة تدور السـيارة حول حديقة وأخـرى تقطع شـوارعاً تتقاطع مع بعضها بعضاً، ومرة ثالثة، تمر بأزقة ضيقة، وهكذا..

قال للسائق: قف.. لنسأل هذا الشرطي.. لابد أن يكون لديه معلومات عن المكتبة الوطنية..

أجابه السائق: كما تريد..

ولكن الشرطي هز رأسه وقال: لا أعرف مكانها بالضبط، ولكنها قريبة من حي سيف الدين الحمداني. هناك كل المكتبات..

شعر بإحباط، وخاصة عندما قال السائق كأنه يخاطب نفسه: لقد أصبح الحي وراءنا.. إنه بعيد وعاد من حيث أتى..

كان الغيظ قد اشتعل في نفسه بالكامل، أي غباء منه هذا؟ كيف لم يطلب من «الريس بشن» في الفندق أن يشيروا له إلى مكان المكتبة الوطنية؟ لو فعل ذلك لكان في هذه اللحظة وراء الطاولة، إلى جانب بقية المحاضرين الذين يشاركونه أعمال الندوة.. لكان الآن يستمتع بالهواء المنعش وما تنفثه المكيفات، وتتقيه من حرارة الصيف القائظة هذه.. لقد نسيت نفسك وأنت تتأمل الفندق وما يحويه، وجوه الذي تعيش فيه.. لقد سحرك الفندق فنسيت نفسك والغاية التي جئت من أجلها، ظننت؟ لا.. لم تظن نفسك، إنما قمت بدور «سندريلا».. كلا.. حتى «سندريلا» لم تنس نفسها عندما قاربت الساعة الثانية عشرة. هرعت من القصر تشق طريقها بالعربة السحرية إلى بيت من تخدمهم.. أما أنت..

نظر بقلق إلى الساعة، كانت تشير إلى السابعة إلا ربعاً.. لقد تأخر عن موعد الندوة ثلاثة أرباع الساعة.. وحتى هذه اللحظة لا أحد يعرف أين تقع هذه المكتبة اللعينة.. والله العظيم أمرها غريب! أيعقل.. كل الذين سألهم لا يعرفون مكانها.. إنما يخمنون.. والسائق الغبي بدوره يسير على تخمينهم.. وهكذا يضيع مزيداً من الوقت.. ضحك ساخراً وقال لا على التعيين: أعتقد بات من الأفضل لنا أن نعود إلى الفندق..

احتج السائق: لا تكن متشائماً يا سيدي.. لابد أن نهتدي إلى هذه المكتبة اللعينة!

هز رأسه وقال: معك حق.. إنها مكتبة لعينة.. ثم أضاف: عد إلى الفندق يا بني.. هذه العودة تقتضينا!

تساءل السائق: ماذا قلت يا سيدي؟

أجابه: لا شيء عد بنا إلى الفندق..

تقدم من باب الفندق مذهولاً، لم يجد فيه شيئاً غير عادي، كأنه عاش فيه أبداً. مرت به مئات السنوات وهو يعيش في الفندق، حتى إنه حفظ تقاسيمه عن ظهر قلب كما يقولون..

وما إن وصل الباب الزجاجي الذي يغطي واجهته حتى انفتح من تلقاء نفسه.. أي غباء هذا، أي متعة يمكن للمرء أن يعيشها إن هو لم يمد يده إلى الباب ويفتحه بنفسه؟ ثم ما

هــذا الرجل الآلي الذي يقف لك بالمرصــاد خلف الباب، ما إن تفتحه، أو ما أن يفتح لك من تلقاء ذاتــه حتى يهجم عليك كلص يريد أن يسـلبك ما تملك.. يمد يده إلى ما تحمله بيدك، يريد انتزاعه.. ثم هذا اللباس الموحد الذي يرتديــه جميع العاملين في الفندق! إنه الغباء بعينه..

كيف؟

لأنــك لا تسـتطيع أن تفــرق أو تميز ما بينهم، ومرتبة كل واحد منهم..

انحنى الشاب، الأولى أن يسمى، الخادم، قليــلاً ومد يده ليتناول الحقيبــة منه، تردد مــرة أخرى في إعطائه إياها.. ولكنه لم يمانع في دفعهـا إليه والسـير وراءه حتى وصــلا الواجهة العريضــة حيث يقبع طاقم «الريسبشــن» ابتسموا له وقدموا له المفتاح مرحبين بعودته..

سار وراء الخادم وهو يحدق إلى الحقيبة في يــد الآخــير، يفكر أيّ خيبــة تحمل هذه الحقيبــة في داخلها؟ لم ينذهــل كما في المرة الأولى، عندما كان يمــر بالممرات والردهات والأبواب والنوافذ الواجهات..

شــعر كأن ما يمر به مرسوم على الورق، أو على «كرتون»كتلك القصــور القديمة التي عاش فيها الملوك والأمــراء والأميرات.. إنه أشــبه بعالم الحكايات الذي قرأ عنه، أو تلك التي سمعها من جدته وأحياناً من جده..

ابتســم ســاخراً، لقــد كــبر علــى عالم الحكايــات، أما الملوك والأمــراء والأميرات فلم يلقهم في أي ممر من هذه الممرات.. إنه، هو.. أشــبه بالأمير أو الملك.. لأنه يمشي في ردهات هذا الفندق الذي يشبه القصر والكل يرحب به ويعرض عليه خدماته..الكل ينظر إليــه بإعجاب، الكل يتبارى في ســؤاله: ماذا ستقرأ اليوم يا دكتور؟

كان يحــاول أن لا يجيــب على أســئلتهم بصراحة. كان يقــول لهم مازحاً ما تيسر من حكاية ســندريلا.. فيضــحكون له معجبين بروحــه المزوحــة أو الخفيفــة الظــل كما يقولون..

تلكأ في سيره وراء الخــادم الذي ما زال يحمل له حقيبته، لأنه شــعر في لحظة معينة كأن الخــادم قــد تباطأ في ســيره فــكاد أن يصطدم به، إنه غبي ككل الخدم..

وقفا أمام باب المصــعد. لعن في نفســه الحضــارة التي حرمت الإنسان من ترييض ســاقيه وهو يصــعد درجات السلم إلى حيث الطابق الذي ينزل في إحدى غرفه..

وانفتح باب المصــعد. دخلا إليه، هو أولاً ثم الخادم وراءه. صعد بهما المصعد.. صعد عالياً ولمدة طويلة من الزمن.. هكذا شــعر. ولكن الزمن انقطــع في النهاية عندما انفتح

باب المصعد وخرجا.. سارا معاً، كان الخادم يحاول أن يبطئ من سيره قليلاً، يريد أن يسير إلى جانبه، يحاول أن يسير بعده بخطوة. أما هو فاحتار في أمر الخادم! لماذا لا يسـير إلى جانبه بالضـبط؟ وأمام أحـد الأبواب وقف الخـادم ليفتح له البـاب وقال له: تفضـل سـيدي.. دخل إلى الغرفة وهو يشـعر بشيء من الضيق رغم اتساعها، وعلو جدرانها حيث يقبع فوقها السـقف.. أدار نظره في الغرفة بحركـة سريعة فوجد الخادم مـا زال واقفاً ينتظر أوامره. ابتسـم ساخراً، كم هم أغبياء هؤلاء الخدم! ثم دفع له «البقشـيش» ولم يكن مجزياً كما في المرة الأولى، شعر كأنه سرق في تلـك المرة، فهو ليس غنياً حتى يدفع له ثانية مـا دفعه في المرة الأولى إنمـا قلة خبرته في ارتياد هكذا فنادق هو الذي دفعه إلى ذلك..

شكراً سيدي قالها الخادم وخرج.

ألقى بنفسـه فـوق السريـر وهو يحدق بكره إلى حقيبته السـوداء القابعة أمامه فوق الطاولة..

لعله استيقظ منذ لحظات! ولكنه لم ينم.. كلا، لقد نام وشـبع نوماً.. لأنه، هاهو ممدد على السريـر بكامل ثيابه، فارداً ما بين يديه وسـاقيه، محدقاً إلى السـقف.. قال لنفسه: إياك أن تغفو كما غفوت ظهراً فضاع الزمن عليك وضاع الطريق منك إلى المكتبة الوطنية فعدت إلى الفندق خائباً..

وتابـع بمرارة: سـتكون الخيبـة أكبر لو سمعت الآن دقاتهم على الباب يسألونك: أين كنت يا رجل؟ التفت إلى السـاعة، كانت تشير إلى الثامنة والنصـف مساءً.. وتصور زملاءه وهم ينسحبون من قاعة المحاضرات في المكتبة الوطنية، بعد أن أنهوا ندوتهم.. دعاهم المدير إلى مكتبـه لشـرب القهوة والدردشـة حول الندوة.. حتماً سيسـألون عنه: ماذا حل به؟ لماذا لم يأت؟ ويسـألون رئيس الوفد: هل أنت متأكد من أنه جاء مشاركاً؟

يجيبهـم: نعم.. ثـم يضـيف: حتى إني اتصـلت به في السـاعة الواحـدة ظهراً في الفندق، فقال لي: كل شيء على ما يرام..

إذن..

يتساءلون: لماذا لم يأت للمشاركة في أعمال النـدوة؟ لابـد لأحدهم أن يضـحك ويقول مازحـاً كعادته: ربمـا اختطفته جهـة تؤيد العولمة.. وصـاحبنا كما تعرفون عنه، يشـك فيهـا، ويقول عنها، هذه ليسـت عولمة، إنما هي هيمنة..

ويضحكون..

بعد ذلك سيذهبون إلى مكان ما ليسهروا

معاً.. كيف لا، وهم ضيوف العاصمة وضيوف مدير المكتبة الوطنية..

ســـأل نفســـه: ماذا ســـتقول لهم عندما ينتهون من ســـهرتهم ويأتون إلى الفندق، عن أســـباب عدم ذهابك إلى الندوة؟ هل ستقول لهم: ضعت! لم أعرف الطريق!

لاشك لن يصدقوا قولك هذا.. سيقولون لك: ماذا؟ تعتبرنا أطفالاً صـــغاراً حتى نقتنع بحجتـــك هذه؟ ثم يضـــيفون، إن أي صـــبي صغير، لو ســـألته، أين المكتبة الوطنية، لسار أمامك حتى أوصلك بأمان إلى بابها.؟

ويضـــحك أحدهم ويتابـــع: أو ربما تابع الصـــبي الصـــغير به المســـير حتـــى المقاعد الأمامية في صالة المكتبة!

قال لنفسه: كلامهم سيكون منطقياً.. أما كلامه فلن يصدقه أحد.. إذن عليه أن يبحث لهم عن حجة أخرى..

شـــعر بغضـــب في نفســـه عندما لم يجد حجة ما مقنعة فقـــال: ليذهبوا إلى الجحيم إن صـــدقوا أو لم يصـــدقوا.. لمـــاذا أكـــذب عليهم. سأقول لهم بالضبط ما حدث معي.. هـــم أحرار بعد ذلـــك في أن يصـــدقوا أو لم يصدقوا..

ارتاح قليلاً.. ولكن الصـــمت الذي يخيم عليـــه كان يضـــغط على صـــدره، فقام يلف ويـــدور في الجناح.. يريـــد أن يقوم بعمل ما، ولكـــن لا يعرف ما هو.. إنـــه عاجز عن فعل شـــيء وداخله ممتلئ بالأســـى والقهر.. أراد أن يحطم شـــيئاً ما، ولكنه عاجز عن ذلك.. نعـــم عاجز حتى عن مســـك زجاجة وقذفها إلى الحائط.. لتتحطم بصـــوت قوي، لينفس بذلك عن غضبه..

وقـــف أمام الواجهة المطلـــة على حديقة الفندق، وبعد لحظات قال: لاشـــك ســـتكون مجال سخريتهم طوال هذه الليلة لو أخبرتهم بأنك أضعت الطريق إلى المكتبة.. لن يتركوك تنام، سيضحكون منك.. ولماذا لا يضحكون؟ هـــم الذين شـــاركوا في النـــدوة، وناقشـــوا الجمهور، ثم ذهبوا إلى ســـهرة كبيرة عامرة.. لـــماذا لا يجعلون منك مـــادة للتنكيت عندما تقول لهم لقد ضعت..

ويطرق بإحبـــاط ويتابع: ولكن قل بربك، إن سمعت أنت هذا الكلام من شخص غيرك، ألـــن تقوم بما ســـيقومون به تجاهك ســـاعة عودتهم؟

عاد وتمدد من جديد على السرير.. تمدد بطريقـــة دلت علـــى التعب واليأس والعجز والخيبة أيضاً حتى إن عقله تعطل عن العمل بدوره، تجمـــد عند نقطة واحـــدة، ألا وهي الفعـــل والتفاعل مع العـــالم الخارجي، وحتى عالمـــه الداخلي تجمد على وضـــع الإنســـان المقهـــور الـــذي كان عليه.. وعندمـــا التفت

من جديد ونظر إلى الســاعة كانت تشير إلى العاشرة..

ابتســم بسخرية، هذا يعني سيكونون هنا خلال ســاعة أو ســاعتين على الأكثر.. ماذا يفعل؟ هل يقفل باب الجناح على نفسه كي لا يسمح لأحد منهم بالدخول عليه؟

هذا ليس حلاً..

وما الحل برأيك؟

هز رأسه وقال: لا أعرف.. ما أعرفه، أن الأفضل لي أن أرحل..

عاد وكرر وهو يلمس ذقنه بأصــابع يده: نعم.. الأفضل لي أن أرحل..

ظل يضــغط بأصــابعه على الشــعيرات الكثيفة في ذقنه، شــعر بوخزها، لقد طالت ذقني.. علي أن أحلقها.. ابتســم وقال بتراخ: نعم علي أن أحلقها.

قــام وتوجه إلى الحمــام.. وهناك، تحت إضاءة قوية، ولكنها هادئة، راح يمارس طقس حلاقة ذقنه بكثــير من الهــدوء والانشراح، حتى إنه راح يصــفر لحنــاً لأغنية قديمة.. وعندمــا انتهــى، أدار وجهه أمــام المرآة إلى اليمين واليســار، ثم رفعه إلى الأعلى، يتطلع إلى عنقــه وبخاصــة تفاحــة آدم لــيرى إن كان قد بقي عليها شــيء من الشــعيرات، أم أنــه حلقها جميعاً؟ من عادته أن تبقى بعض الشــعيرات، فهو لا يســتطيع أن يزيل الشعر عنها بالكامل.

غســل وجهــه، وضــع قليــلاً مــن ماء الكولونيا.. وخرج.

توجــه إلى حقيبته، أعاد حاجياته إليها.. وكان قبل ذلك قــد ارتدى ثيابه.. أدار نظره في أرجــاء الجناح لعله يجد شــيئاً لم يره قبل الآن، لم ينس شــيئاً.. خطــا إلى الخارج وهو يحمل مفتاح الجناح.. وكان آخر شــيء نظر إليه، قبل أن يغلق الباب وراءه، الساعة كانت تشير إلى الحادية عشرة والربع..

ربما ســيأتون الآن أو بعــد قليل، وربما يتأخرون في العودة للفندق إلى ساعة متأخرة.. لم يعد الأمر يهمه.. ليأتون متى يريدون.. فهو على كل حال راحل..

فتح باب المصعد.. دخل إليه وضغط على رقم (٠) وانتظر، ومــا هي إلا لحظات حتى انفتــح الباب.. خرج منه وســلك الممر المليء بالأضواء.. وصل إلى المدخل، ومنه لف باتجاه «الريس بشــن».. نظر إليــه الجميع وهم لا يصدقون عندما رأوه أمامهم مغادراً. ابتسموا له وقالوا: ماذا دكتور؟ هل أنت مغادر؟

أجابهم وهو يرد على ابتساماتهم بضحكة ذات معنى: نعم..

ثم أضاف: لم يعجبني فندقكم هذا..

ازدادت الدهشة على وجوههم. أرادوا أن يقولون له: ولكنه أفضل وأجمل وأفخم فندق في العاصمة.. سمعوه يقول لهم: إني أمزح.. ولكنني مغادر.. وقبل أن يسألوه: لماذا؟ قال لهم: أعتقد بأن الساعة تقارب الثانية عشرة، أليس كذلك؟ والتفت الجميع إلى الساعة كانت تشير إلى الحادية عشرة والنصف.. أرادوا أن يقولوا له: لم تصبح الثانية عشرة بعد، ولكنهم سمعوا منه ضحكة وهو يقول: هل قرأتم وأنتم أطفال قصة «سندريلا»؟ ظل يبتسم وهو يتابع: كان عليها، في الحكاية، أن تغادر قصر الأمير قبل الساعة الثانية عشرة.. أليس كذلك؟

ازدادت الدهشة على وجوههم، وازدادت أفواههم انفغاراً وهو يقول: لذا علي المغادرة مثلها قبل أن تصبح الساعة الثانية عشرة..

وقبل أن يسألوه، لماذا؟ كان قد فتح الباب وخرج من الفندق..

آفاق المعرفة

جولة أثرية في إشبيلية عاصمة المعتمد

د. عفيف البهنسي *

مدينة إشبيلية التي يطلق عليها بالإسبانية سيفيليا **Sevillia**. عريقة بقدمها. وهي ترجع إلى عصر الرومان. ويذكر المؤرخون أن إشبيلية كانت تحمل اسم هيسباليس **Hispalis** أيام الرومان. ثم أصبح اسمها سباليس **Spalis** أيام الفينيقيين. ومن المؤكد أن هذه المدينة كانت موجودة أيام القرطاجيين قبل الرومان. ويذكر المؤرخ ايسيدور الإشبيلي في القرن السادس قبل الميلاد أن معنى هذه الكلمة ((المدينة فوق الأركان **Palis**)). وفي الواقع تم اكتشاف أركان راسخة في الأرض. ومن المحتمل أنها تعود الى ذلك العهد. إذ إنها كانت ضرورية لترسيخ أبنية المدينة لمجابهة فيضان مياه النهرين.

---

* باحث من سورية.

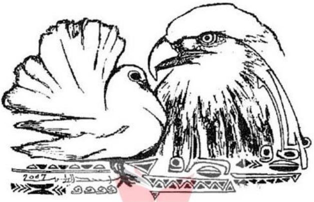
العمل الفني: الفنان أحمد الياس.

ثم توسعت المدينة ثمانية كيلومترات. وكانت مدينة مسورة تحوي ساحة (فوروم) وباقي معالم المدينة الرومانية، وكانت تصدّر الحبوب. ومنذ ذلك الوقت حملت اسم هيسباليس. ولقد أطلق عليها يوليوس قيصر اسم المستعمرة، أي أصبحت تحمل ميزات المدينة الرومانية.

إن إيتاليكا التي تقع في الشمال، أخذت بالتوسع السكاني والامتداد باتجاه النهر في المنطقة التي أطلق عليها العرب اسم تيريانا وكان اسمها تريان نسبة إلى الإمبراطور تراجان، وهي مقسومة بالنهر إلى قسمين، وتتمتع بالاستقلال الإداري عن باقي المدينة هيسباليس، وبقيت كذلك حتى يومنا هذا.

فتح الأندلس موسى بن نصير وكان الوليد بن عبد الملك قد كلفه بإمارة شمالي إفريقيا. وقام طريف بن مالك بالاستطلاع أولاً في الأندلس، من شبه جزيرة ما زالت تحمل اسم طريف، وكانت النتيجة أن عزم موسى على الفتح، فأرسل طارق بن زياد على رأس جيش، (٩٤هـ/٧١٢م) وقصة الفتح معروفة. وعندما كلف موسى ابنه عبد العزيز بالإمارة، جعل عاصمته إشبيلية، فكانت أول عاصمة عربية في الأندلس، وكانت تحمل الطابع الروماني، إذ إنّ الوندال (ومنهم كلمة الأندلس) أقاموا فيها ثلاث سنوات فقط. وكانت اللغة هي اللاتينية ثم أصبحت مزيجاً مع الإسبانية كما هي لغة الرومانش اليوم أو اللغة الأعجمية كما يقول المؤرخون العرب.

وتمثل بالطابع الروماني بالحمامات والفوروم والمسرح والمعابد، ومازال قائماً بعض من الآثار الرومانية، ولم يكن العرب القادمون من الشام ومن شمالي أفريقيا غرباء عن نظام العمران الروماني والعمارة، فاستخدموا بداية بعض هذه المنشآت، ولم يمض وقت طويل حتى ابتدأ العمران الإسلامي يحمل خصائص فرضتها الأصول الدينية، كما هي الأمثلة المعمارية التي تركها الفاتحون في بلاد الشام. ولكن الفن الإسلامي، عمارة ونقشاً ولحناً وشعراً، وجد في الأندلس مجالاً جديداً انتعشت فيه الأصالة الإبداعية بأساليب جديدة أكدت هوية الفن الإسلامي والعمارة بشكل خاص. وهكذا شكل العرب في الأندلس حضارة معمارية تحمل سماتهم وخصائصهم الجمالية وصلت أوجها في الجامع الكبير في قرطبة وفي مدينة الزهراء، ثم أصبحت في عهد ملوك الطوائف أكثر تنوعاً، ومثال ذلك فنون قصور الحمراء لبني نصر.



وفي عهد بني عباد ثم في عهد الموحدين، ازدهـرت إشبيلية وكـان شاهداً على ذلك المسجد ومئذنته الشهيرة والقصور التي زالت، واستعيض عنها بالقصر الكبير الذي أنشأه معماريون مسلمون دَجّنوا في الأندلس بعد زوال الحكم الإسلامي فيه.

لم تكن إشبيلية مهملة أيام حكم الأمويين، وإن كانت العناية بالعاصمة قرطبة أوسع بكثير من باقي المدن، ولكن ظهور ملوك الطوائف في المدن الأخرى، دفع إلى العناية بها كما تم في عهد بني عباد في إشبيلية، وكانت تمتد من شرقي الوادي الكبير حتى المحيط الأطلسي.

وقد عاشت ذروة ازدهارها في عهد المعتمدين عباد ثم في عهد الموحدين.

كان المعتمد ملكاً شاعراً تأثر بابن زيدون، وفي عهده سقطت إشبيلية بيد المرابطين سنة ٤٨٣هـ/١٠٩١م، وأسر بعدها المعتمد ونفي إلى اغمات في المغرب وفيها مات حزيناً كئيباً سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٥م.

وفـي عـام ١٢٤٩م اسـتولى فرديناند الثالث على إشبيلية وجعلها مركزاً لحكمه، وبعد اكتشاف أمريكا على يد كريستوف كولومبوس، أصبحت إشبيلية منطلق الإبحار إلى العالم الجديد، وبعد موته دفن كولومبوس

في كاتدرائية إشبيلية، التي أنشئت على أنقاض الجامع الكبير.

مازالت معالم إشبيلية العاصمة العربية مازالت قائمة حتى اليوم في حي يطلق عليه اسم ((سانتا كروث))، وهو حي نظيف يعبق بروائح الأزاهير المطلة من شبابيك البيوت في الحارات الضيقة التي تضم بيوتاً عربية، وقد فتحت أبوابها للزائرين يسمرون مع سكان تلك البيوت الجالسين في فناء البيت، حيث نافورة الماء التي تصدح بإيقاعات حيوية، هي الصوت الأكثر ارتفاعاً في حارات ذلك الحي الهادئ الآمن. وهذه الحارات مازالت تحمل أسماءها العربية، مثل طريق العربي وطريق المجد وطريق المورو.. وشارع الماء وميدان السيدة الكبيرة وشارع الفلفل...

ويذكر أحد الزائرين انطباعاته قائلاً: «التعمق في شوارع الحي القديم هو انتقال إلى عالم لاينتمي إلى الحقيقة، إنه خيال، عالم من الهدوء والرهبة، متعة للأذن والعين والإحساس، شوارع ضيقة ملتوية، نظافة فائقة، رائحة الزهور تخترق الحواس إلى الروح.. والشرفات الصغيرة بألوانها الخضراء، والزهور تتدلى منها بألوان وأشكال رائقة، إنها سمفونية بصرية يلعب فيها نغم الياسمين الدور الرئيسي، إنه ملك الزهور في إشبيلية».

وثمة كتابات عربية منقوشة على ألواح الخزف (ازليخو أو الزليج) أو مكتوبة على باب فنان مصور «هذا البيت أقيم قرباناً للجيرالدا العظيم». وأجمل هذه الكتابات ما نقش على عمود تذكاري بالإسبانية: «من مدينة إشبيلية إلى مليكها المعتمد بن عباد في ذكراه المئوية التاسعة».

إن أروع ما في هذه المدينة العربية مئذنة جامع إشبيلية التي يطلق عليها اسم الجيرالدا وهي رمز إشبيلية حتى اليوم، وإلى جانبها قصر إشبيلية (الكازار) حيث كانت قصور المعتمد بن عباد، ويطلق عليها بالإسبانية «رياليس الكاثاريس» أي القصور الملكية.

إن النهر الكبير الذي يشطر إشبيلية إلى شطرين مازال يحتفظ بالاسم العربي (غوالدا الكبير)، وإذا تغنى به المعتمد وابن زيدون، فقد شاركهم ذلك شعراء إسبانيا المعاصرين من أمثال غارسيا لوركا وخيراردو دييغو الذي يقول «من طين إشبيلية، برج الذهب ذي القيشاني المذهب، على شاطئ النهر العربي».

ومازال النهر العربي يحتفظ بتاريخه وذكرياته وبالمنشآت المقامة على شاطئيه وبالجنات الرائعة حواليه، حيث كانت مراتع المعتمد بن عباد وصديقه الشاعر ابن عمار. وكان لهما اللقاء الأول مع اعتماد الرميكية.

على هذا النهر العربي قام برج الذهب على الشاطئ الشرقي، وثمة برج آخر على الشاطئ الغربي، وكانت سلاسل تربط بينهما إذا ماشدت حالت دون عبور السفن ليلاً أو حالت دون تسلل المهاجمين.

حكم بنو عباد إشبيلية من عام ٤١٥-٤٨٣هـ/ ١٠٢٣-١٠٩١م، وكانوا من العرب ويعود نسبهم إلى ملوك الحيرة من اللخميين، وكان الجد الأول قد جاء إلى الأندلس بعد فتحها واستقر في مدينة إشبيلية التي سكنها أهل حمص، وكان من أعقاب هذا الجد أبو القاسم محمد بن إسماعيل قاضياً عند الخليفة الأندلسي الأموي هشام بن الحكم. ويذكر ابن الأثير (ج٩ ص٢٠١) أن هذا الخليفة كان مُزَوَّراً فهو شبيه للخليفة المفقود. واستمر القاضي يلعب دوراً أساسياً في سياسة البلاد من عام ٤٢٤- ٤٣٣هـ/١٠٣٢- ١٠٤١م تحت رئاسة الخليفة الذي لم يكن له نفوذ، شأنه في ذلك شأن الخلفاء العباسيين في بغداد.

ثم خلفه ابنه أبو عمرو عباد بن محمد الذي أصبح حاجباً للخليفة المزعوم، ثم لم يلبث أن أزاحه واحتل الحكم مكانه تحت اسم المعتضد، أسوة بالخليفة العباسي في بغداد. وحكم المعتضد بين عام ٤٣٣-٤٦١هـ/١٠٤١-١٠٦٨م، وكان شاعراً.

ويقول ابن خلكان (ج٢ ص٤١٢) إنه كان من نصراء الأدب، وقد جعل للشعراء يوماً يقدمون به عليه، فيطارحهم الشعر، ويستمع إليهم، ويسبق بينهم جوائز، ويجيز السابق، وقد أثر عنه مقطوعات من الشعر فيها طلاوة وجمال.

وخلفه ابنه أبو القاسم محمد الثاني بن عباد، الذي أطلق على نفسه اسم المعتمد بعد أن تعرف على زوجه اعتماد. ومازال يعرف باسم المعتمد بن عباد وقد حكم خلال ثلاث وعشرين سنة ٤٦١- ٤٨٣هـ/١٠٦٨-١٠٩١م وعاش ٥٥عاماً (١٠٤٠-١٠٩٥م).

لقد كان المعتمد شاعراً مجوداً جعل بلاطه ملقى الرحال وموسم الشعراء «ولم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره، من أعيان الشعراء والأدباء، مثل ماكان يجتمع ببابه». ومن شعرائه ابن عمار صديقه ووزيره. وابن اللبانة وابن زيدون.

وتاريخ هذا الملك الشاعر معروف وقصته المأساوية مازالت من عبر التاريخ، فقد حاول الاستنجاد بالمرابطين ضد الفونس السادس ثم السابع وتابعه «السيد» الذي أغار على أراضي بني عباد، وقام يوسف بن تاشفين بنصرته أولاً والقضاء على جيش الفونسو في معركة الزلاقة ٤٨٠هـ/١٠٨٦م، ثم عاد إلى بلاده. ثم لم يلبث أن أغار على المعتمد وجيشه في اشبيلية وقرطبة وغيرها، واعتقل المعتمد وأرسله مكبلاً بالحديد إلى أغمات في المغرب، فلم يرحل منها إلى أن مات سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م وعند رحيله من إشبيلية شيّعه شعبه الذي أحبه بحماسة وولَه، وقال ابن اللبانة شاعر المعتمد في ذلك:

تبكي السماء بمزن رائح غاد
على البهاليل من أبناء عباد
على الجبال التي هدت قواعدها
وكانت الأرض منهم ذات أوتاد
حان الوداع، فضجت كل صارخة
وصارخ من مفداة ومن فاد
سارت سفائنهم والنوح يصحبهم
كأنها إبل يحدو بها الحادي

وكان المعتمد في منفاه يندب مصيره قائلاً:

غريبٌ بأرض المَغْرِبَين أسيرُ
سيَبْكي عليه منبرٌ وسريرُ
وتندبه البيض الصوارم والقنا
وينهل دمعٌ بينهن غزيرُ

وصلت إشبيلية ذروة ازدهارها في عهد المعتمد بن عباد فلقد كان مولعاً بإنشاء القصور، نذكر منها، قصر المبارك وقصر الثريا وقصر الوحيد والقصر الزاهي وقصر المؤيد، ويبدو من الحديث عنها، أنها كانت مجتمعة في حي ملكي خارج أسوار إشبيلية، وعلى أنقاض بعضها أنشىء قصر إشبيلية الحالي الذي يحوي في أنحائه بقايا أحد قصور المعتمد، تتمثل بعقدين حدويين بينهما عمود يطلان على بهو الجص في القصر الإشبيلي الكبير الذي يطلق عليه قصر بني عباد.

وعندما أنشئت قصور الحمراء في غرناطة بين القرنين ١٣- ١٤، من بني نصر، كانت إشبيلية تحت حكم ملك كاستيل، فأراد أن ينشىء قصراً يضاهي قصور الحمراء، وطلب من ملك غرناطة محمد الخامس أن يرسل له العمال المسلمين الذين أنجزوا صالة السفراء في غرناطة، لكي ينشئوا ويزخرفوا صالة العدل في قصر إشبيلية ليكون صنوا لقصر غرناطة، فلبى ملك غرناطة طلبه وأرسل إليه خيرة العمال الذين انضموا إلى عمال إشبيلية من الصناع المسلمين المدجنين.

يتبع قصر إشبيلية الذي أنشأه المسلمون، أسلوب القصور الإسلامية المؤلفة من فناء سماوي ذي نافورة مياه، تحيطه الغرف والصالات، مزيناً بأنواع الزخارف الجصية والحجرية بتشكيلات عربية أندلسية. ولم ينس المصممون فن تنسيق الحدائق في الحمراء، فكانت في إشبيلية النموذج الأكثر أصالة حتى اليوم.

وفي موقع آخر خارج المدينة يطل على نهر الوادي الكبير، أنشأ المعتمد قصره المفضل على الضفة الأخرى من النهر، وأطلق عليه اسم قصر الزاهر أو حصن الزاهر تذكيراً بقصر الزاهرة الذي أنشأه محمد بن أبي عامر بالغرب من قرطبة العاصمة، ثم أصبح ضاحية كاملة (وهو غير مدينة الزهراء).

وكان قصر الزاهر من أجمل القصور وأبهاها، يزهو بحدائقه ذات الأشجار المثمرة والزهور، وتغنى به الشاعر الوزير ابن عمار قائلاً:

منظر رائق وماء نمير
وثرى عاطر وقصر أشم
بت فيه، والليل والفجر عندي
عنبر أشهب ومسك أجم

وعندما نفي المعتمد إلى أغمات كان يتذكر قصره هذا ويحنّ إليه ويقول واصفاً أيام سعده في هذا القصر:

فياليت شعري هل أبيتن ليلة
أمامي وخلفي روضه وغدير
بمنبتة الزيتون مورثة العلا
يغنى حمامُ أو تدنُّ طيور
بزاهرها السامي الذرى جاده الحيا
تشير الثريا نحونا ونشير
ويلحظنا الزاهي وسعد سعوده
غيورين، والصبُّ المحب غيورُ

ومازالت أطلال هذا القصر مغمورة بالقرب من بلدة إسلامية مازالت تحمل اسم حصن الفرج Aznal- Farache، وتحتاج إلى تنقيب ودراسة.

ومن قصور المعتمد قصر كان يقع خارج باب جهور من أبواب إشبيلية. وفي مكانه أقام الخليفة الموحدي قصره المعروف بالبحيرة.

كانت إشبيلية مدينة محصنة واستمرت أسوارها قائمة بعد الفتح الإسلامي، وقد استقر أهل حمص من جند الشام فيها حتى أصبحت تحمل اسم حمص عند ابن جبير وبعض المؤرخين، ومع زيادة عدد السكان أقيمت منشآت خارج الأسوار، مما دعا إلى هدم أقسام منها لتسهيل ارتباط الأرياف

بالمدينة وبالنهر من جهة الميناء، الذي ازدادت فعاليته في نقل الحاصلات عبر النهر والمحيط الأطلسي.

وكانت إشبيلية قد ازدهرت عمرانياً، وأصبحت بسبب موقعها وفعاليتها مطمع النورمان الذين اقتحموا أسوارها وبخاصة من جهة الميناء، ولم تلبث أن جاءت قوات من قرطبة فقضت على الغزاة وطردوا بقاياهم بعد سبعة أيام من الاحتلال، مما دفع إلى إعادة بناء الأسوار، وأشرف على ذلك عبد الله بن سنان من موالي بني أمية في الشام، ونقش اسمه على أبواب الأسوار التى أنشئت من حجارة، لعلها من بقايا السور القديم. ولم تلبث هذه الأسوار أن هدمت سنة (٣٠٠هـ/ ٩١٢م. فأعيد بناء السور من الطابية يحيط بجميع حومات المدينة، ولكن هذا السور لم يصمد طويلاً أمام غارات الفونسو المحارب سنة ١١٢٥م، فقام قاضي إشبيلية ببناء السور من الحجارة والآجر والكلس على نفقته الخاصة. ثم قام المرابطون ببناء السور وفق نظام جديد، إذ زادوا في تعرجات المداخل في زوايا منكسرة لتسهيل الإيقاع بالغزاة ومقاومتهم من أعلى السور.

وفي عام ٦١٩هـ/ ١٢٢١م أقيم برج الذهب المشهور الذي نراه قائماً اليوم، من قبل أبي العلاء إدريس الذي جدد الأسوار وشيد أمامها سوراً إضافياً يحيط بها، وحفر حولها خندقاً مبالغة بالدفاع والتحصين.

وكانت هذه الطريقة التي ابتكرها الموحدون سبباً في حماية إشبيلية من غزوات الملوك الإسبان وبقي من هذه الأسوار ومتمماتها قسم يبدأ من باب مقارنة وحتى باب قرطبة، ثم ينقطع مسافة صغيرة ويستمر حول المدينة مروراً بحديقة الوادي.

وتدعم هذه الأسوار أبراج مربعة. ويتألف البرج من قسمين، القسم الأول مصمت والقسم العلوي هو غرفة وفوقها أخرى، وهما للدفاع ورمي السهام من خلال المزاغل.

وفي داخل البرج درج للصعود إلى أعلى الأسوار والأبراج، التي تعلو حوالي شرفاتها متاريس دارئة مستطيلة الشكل.

ويبقى برج الذهب أضخم الأبراج، ولكنه منفصل عن جسم الأسوار مستقل عنها، ويبدو حصناً صغيراً تسكنه حامية أمامية للدفاع عن نهر الوادي الكبير، ويرتبط هذا البرج بالمدينة ضمن الأسوار بممر مسوّر لم يبق منه أثر. ولعل اسمه يرجع إلى الكسوة من الخزف الذهبي التي زالت مع الأيام.

ويخترق أسوار إشبيلية عدة أبواب، هي باب قرطبة، وباب قرمونة، وباب مقارنة، وباب شريش، وباب طريانة، ثم باب الكحل وباب دار الصناعة أو القطائع، وباب تاسع هو باب جهور. وزالت هذه الأبواب جميعها ولم يبق إلا باب قرطبة.

وعدا هذه الأسوار التي كانت تحيط إشبيلية، أنشىء في ضواحي المدينة حصون دفاعية أخرى، منها حصن الفرج في ضاحية طريانة ٥٨٦هـ/ ١١٨٩م، وضمن هذا الحصن أنشئت قصور وقباب، وأصبح هذا الحصن مقراً صيفياً للخلفاء الموحدين ومركزاً دفاعياً متقدماً لإشبيلية. وفي منطقة الشرف على بعد ٢٥كم جنوب غربي إشبيلية، مازالت أطلال حصن القصر تحمل اسم Alcazar. وكان المعتمد بن عباد قد أنشأ فيه قصره. ومازالت آثار من الحصن ممثلة بجزء من السور بطول ٢٠متراً وارتفاع أربعة أمتار وبرج ضخم.

أما قلعة جابر التي تقع على بعد ١٢كم غربي إشبيلية، فهي من أهم الحصون الأندلسية المتبقية حتى اليوم، وهي تشمل أسواراً وأبراجاً وقصوراً ودوراً ومسجداً جامعاً وحوانيت، أي أنها بمثابة مدينة صغيرة، وتسمى اليوم قلعة وادي إلديرة Guadaira وهي تسمية تعود إلى عصر الموحدين الذين جددوا بناءها وزودوا أسوارها بالخنادق والأسوار، وقد خرب الفرنسيون كثيراً من أبراجها.

ويبقى جامع إشبيلية من أبرز المنشآت الإسلامية في إشبيلية، ومع أن مئذنة الجامع أصبحت برج أجراس ثالث كاتدرائية في العالم، إلا أن هذه المئذنة تبقى الآبدة الأكثر تعبيراً عن ازدهار العمارة والحياة الإسلامية في إشبيلية عاصمة المعتمد بن عباد، ثم عاصمة الموحدين، ومازالت ترى من جميع الجهات وعلى بعد قصي رمزاً للمدينة.

ويعود جامع إشبيلية إلى عام ٥٤١هـ/ ١١٤٧م وأجريت عليه تعديلات حتى عام ٦٢٧هـ/١٢٢٩م ولقد كان المعمار الذي صمم المسجد وهو أحمد بن باسو، وساعده في ذلك معماريون من إشبيلية ومن مراكش ومن فاس، واستمر البناء أربع سنوات بإشراف الخليفة أبو يعقوب يوسف، الذي عاد بعد انقطاع إلى إشبيلية كي يأمر بإنشاء المئذنة، وتم إنشاؤها في عهد خلفه المنصور، بإشراف المعمار أحمد بن باسو نفسه أولاً، وبعد وفاته تابع المعمار علي الجميري العمل بإشراف

العالم ابن زهر مندوباً عن الخليفة وقد جاء من مراكش. ونهضت المئذنة شامخة كأروع منجزات العمارة الإسلامية، وهي مازالت على كمالها رغم الزلازل.

ويصعد إلى أعلى المئذنة من داخلها على منحدر لولبي عبر سبع غرف متوضعة فوق بعضها، وفي الأعلى غرفة المؤذن وحولها شرفة مفتوحة، ويعلو هذه الغرفة جامور نحاسي مذهب، كان المنصور قد أضافه تذكاراً لانتصاره على الفونسو، مؤلف من ثلاث كرات مذهبة يطلق عليها اسم «التفاحات»، وقطر الأكبر حجماً ثلاثة أمتار، ولقد سقط الجامور عام ٧٥٨هـ/١٣٥٦ بتأثير الزلازل فكان وزنه ٢٨٣٥كيلو غراماً منها أكثر من ٢٥كغ من الذهب، وكان إشعاع هذا الجامور الذهبي يصل إلى مسافة يوم من المئذنة كما يقول المؤرخون.

يبلغ ارتفاع المئذنة -عدا الجامور- ٥٦متراً، وعرضها من كل جانب ١٣.٥ متراً بينما يبلغ ارتفاع مئذنة الكتبية في مراكش ٦٨متراً وعرضها ١٣متراً، أما مئذنة حسّان في الرباط فيبلغ ارتفاعها ٥٠متراً وعرضها ١٦متراً. وتتشابه هذه الصوامع الثلاث في كسوتها الخارجية المؤلفة من زخارف هندسية آجرية، ونوافذ مزدوجة تدخل النور إلى المصاعد.

بعد احتلال الإسبان سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٨م هاجر أكثر المسلمين من إشبيلية كرهاً، وبعد عام ١٤٠٠م أضيف إلى أعلى المئذنة حواجز عالية حول غرفة المؤذن وأضيفت قمة معمارية فوقها يعلوها شاخص اسمه الجيرالدا، ومنه أصبح اسم المئذنة.

وعلى أنقاض الجامع أنشئت كاتدرائية أصبحت الجيرالدا «برج أجراسها».

كان المسجد واسعاً مؤلفاً من حرم يحيط الصحن وكان الحرم مؤلفاً من سبع عشرة بلاطة، الوسطى منها مغطاة بخمس عشرة قبة متعاقبة باتجاه المحراب. على غرار جامع الكتبية في مراكش. ويتفتح باب المسجد من الحرم في الجهة الجنوبية وهو مغطى برواق مقبب.

ويذكر ابن صاحب الصلاة في مدونته وصفاً دقيقاً للمنبر جامع إشبيلية فيقول: «صنع المنبر من أغرب ماقدر عليه الفعلة من غرابة الصنعة، واتخذ من أكرم الخشب مفصلاً منقوشاً مرقشاً، محكماً بأنواع الصنعة والحكمة في ذلك من غريب العمل وعجيب الشكل والمثل، مرصعاً بالصندل، مجزعاً

بالعاج والأبنوس.. يتلألأ كالجمر بالإشعال، وبصفائح من الذهب والفضة، وثمة أشكال في عمله من الذهب الإبريز يتألق نوراً، ويحسبها الناظر لها في الليل البهيم بدوراً، ثم أردفت له بالعمل، المقصورة من أحسن الخشب مختصرة من قضبه، وثيقة لحجبه».

وصحن المسجد محاط بأروقة، وينفتح في واجهة الحرم باب ضخم في الوسط، ويتوسط الصحن بركة ماء، وتقع المئذنة في الزاوية الشمالية الشرقية للحرم.

وكانت تكسو مصراعي باب جامع إشبيلية زخارف هندسية مسدسية من البرونز تتناوب في وضع أفقي ورأسي، تقوم بينها أشكال نجمية، وفي الأشكال المسدسة الرأسية توريقات نباتية، وتحوي الأفقية كتابات كوفية مزخرفة بتوريقات نباتية. وهذه الكتابة تحمل العبارات الدينية: «الملك لله البقاء لله». ويحيط بالمصراعين إفريز من الكتابة الكوفية.

وعلى المصراعين ضبتان برونزيتان (قارعتان) على شكل ورقة نباتية محوّرة مؤلفة من حنيات متصلة، ويداخلها أوراق مخرمة ذات أطراف مدببة، ويحيط بالضبتين كتابة نسخية من القرآن الكريم، على الضبة اليمنى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبّح له فيها بالغدو والآصال، رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله وإقام الصلاة﴾ وفي الضبة اليسرى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما في صدورهم من غل، إخواناً على سرر متقابلين لايمسهم نصب وماهم منها بمخرجين﴾.

لقد حمل المسلمون من المشرق عادة الاستحمام في حمامات عامة، حتى بلغ عدد الحمامات في قرطبة التي أصبحت تابعة لابن عباد، تسعمئة حمام، عدا حمامات النساء فكانت ثلاثمئة. وكان الحمام في إشبيلية مؤلفاً من مدخل يؤدي إلى ثلاث قاعات أو أربع مقباة، عدا ملحقات الحمام، الموقد والمرحاض. ويؤدي الحمام إلى ردهة تليها حجرة تعلوها قبوة وتعرف باسم البيت البارد وهي مخصصة لخلع الملابس. وقد يكون قبلها غرفة تسمى غرفة المستراح تعلوها قبة كبيرة وقبوات جانبية ذات فتحات تسمى المضاوي، وبعد البيت البارد ندخل إلى البيت الساخن وفي نهايته الموقد ويسمى (القدر) أو (البرمة) أو (الفرنش)، وتخرج من القدر أنابيب الماء الساخن والبارد، وتدخل في الجدران لتصب في أحواض الخلوات.

ويذكر المؤرخون أن المعتضد بالله احتال على أعدائه مرة وهم في الحمام فأقفله عليهم فهلكوا على آخرهم.

وكان في إشبيلية عدد من الفنادق لم يعد لها أثر، ولعل أكثرها كان في موقع أحد شوارع إشبيلية الذي يحتفظ باسم شارع الفندق Calla de la Fondiga.

ويتألف الفندق من بهو مستطيل أو مربع تتوسطه فوارة، تحيطه مجنبات أو دهاليز، وتتوزع الغرف وراءها، وكان الفندق من طابقين، الأدنى للمخازن والاصطبلات، والأعلى لغرف النزلاء، وتقوم عقود المجنبات على دعائم خشبية أو آجرية تربطها ببعضها أوتار خشبية. وثمة درجات للصعود إلى الطابق الأعلى، وكان المدخل ضخماً مؤلفاً من عقد محاط بإطار مستطيل مزيّن بتوريقات، ويلي المدخل ردهة ذات قبوة مقرنصة مهدّبة. وتؤدي الردهة إلى البهو من خلال باب تعلوه نافذة مزدوجة.

كذلك تحتفظ إشبيلية حتى اليوم بشارع يطلق عليه اسم شارع القيسارية، والقيسارية في الأندلس هي مجموعة أسواق تتوزع فيها الحوانيت على الصفين. وكانت قيسارية إشبيلية تحيط جامع ابن عدبس. ويحدثنا ابن عبدون في كتابه عن آداب الحسبة، عن هذه القيسارية وكانت تضم سوق الثياب وسوق الخياطين الذي يسمى اليوم Calla de los alfayates، وسوق الصباغين وسوق السقاطين، وسوق الصاغة وسوق العطارين. واستمرت هذه القيسارية قائمة حتى عام ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م إذ أمر أبو يوسف يعقوب المنصور بهدم الديار والحوانيت والفنادق التي كانت تحيط بساحة المسجد الجامع. وأقام مكانها قيسارية «تأنق في بنائها، وجعل لها أربعة أبواب ضخمة تحوطها من جوانبها الأربعة، أكبرها الباب القبلي والباب الشمالي، وكانا يقابلان بابي الجامع القبلي والشمالي».

وبعد اكتمال عمارتها نقلت إليها أسواق العطارين والبزازين والخياطين، وتزاحم الناس في المزايدة بكرائها، فنما الخراج في ذلك الوقت، وعمر الجامع بالصلوات فيه. ويغلب على الظن أن أسقف هذه القيسارية الإشبيلية كانت من ألواح الخشب المنقوشة بالزخارف النباتية والتوريقات، كما كان الحال في قيسارية مراكش.

وفي إشبيلية، مازالت آثار دار الصناعة (الترسانة) قائمة حتى اليوم، وهي تعود إلى

عهد الناصر الخليفة الموحدي، وكانت تتألف من عدة أروقة عمودية على نهر الوادي الكبير، تفصل فيما بينها دعائم آجرية، وتعلوها قبوات مرتفعة. وقبلها كان أبو يعقوب يوسف «قد أنشأ داراً لصناعة القطائع تتصل من سور القصبة الذي على الوادي، بباب القطائع إلى الزاوية السفلى المتصلة بباب الكحل، وكان ذلك سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م ويطلق عليها اسم altarazana وهي كلمة عربية «الترسانة».

وعلى نهر الوادي الكبير كان لابد من إقامة الجسور والقناطر التي تنقل المياه إلى القصور والحدائق وتغذي المدينة بالمياه العذبة. ومازالت بقايا جسر كبير قائمة بالقرب من باب قرمونة، وبعض عقود هذا الجسر من الآجر والبعض الآخر من الحجارة. وثمة قنطرة كانت قائمة في إشبيلية على النهر الكبير محمولة على سفن مربوطة بناها أبو يعقوب يوسف سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م.

وعلى الرغم من ازدهار إشبيلية عمرانياً في عهد الموحدين فإنها ما زالت تحمل اسم مليكها المعتمد بن عباد حتى اليوم، واستمرت أبنيتها قرنين كاملين محافظة على الطراز الإسلامي، الذي أصبح يحمل اسم الطراز المدجن Modejar في العهد الإسباني.

☆ ☆ ☆

دمشق التاريخية: قصيدةُ الماء

* د. بغداد عبد المنعم

لكل مدينة ماؤها السارب في كل أدائها المدني: اليومي التفصيلي والتراكمي التاريخي.. فذلك (الماء) هو قرار الخلق الأول للحياة على الأرض.. ومن هذا النسغ الأول وبه التفت المدن لفاتها ثم حضاراتها فتحولت بذلك من نقاط البدء إلى خيارات التحول والحركة.. إلى خيارات خلق إنساني مجتمعي.. وسياسي.

لكل مدينة ماؤها وخياراتها.. وحين تكون المدينة هي (دمشق) ببعدها البعيد.. حين تكون المدينة هي دمشق التاريخية يكون ماؤها هو القصيدة..

* باحثة في التراث العربي (فلسطين)

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

هو نهرُها الجذاب بحضوره البسيط الواثق.. الأنيق المحسوب بدقة حتى يلامسَ أناملَ كلِّ إنسانٍ في دمشقه.. حين يعبر ويعبر ويسير بفروعه وقنواته حتى يقَرَّ في البحراتِ البيتية.. وليحكي في تلك الفُسحات الحانية حكايتَهُ الأزليةَ منذُ خلقهُ اللهُ أولَ مرة.. ليقولَ لنا قصتَهُ الآرامية.. وقصتَهُ الرومانية ..ثم قصتَهُ العربية الباقية.

دمشقُ وبردى كائنٌ واحد متداخلُ الأبعاد والشروط ذلك أنَّ البعد المائي في هذا الكائن كان يشكل المصدر الرئيسي للتغذية بالمياه في موقع قليل الأمطار، تشكل بردى من الينابيع والثلوج الذائبة والأمطار على ارتفاعات تصل إلى / ١٥٠٠ م/ وفي نص ياقوت الحموي عن مدينة دمشق أنَّ: «جنان الدنيا ثلاث غوطة دمشق ونهر بَلْخ ونهر الأُبُلّة..»(١). فالماء الذي توفر لدمشق ونُظِم استهلاكه حقق لها خصائص متقدمة في الزراعة والاقتصاد والحياة العامة للمدينة، وهذا ما تذكره النصوص التراثية من كثرة الأنهار وإيصال مائها إلى فعاليات المدينة كافة «ومن خصائص دمشق التي لم أرَ في بلد آخر مثلها كثرة الأنهار، وجريان الماء في قنواتها، فقلَّ أن تمر بحائط إلا والماء يخرج منه في أنبوب إلى حوض يُشرب منه ويستقي الوارد والصادر، وما رأيت بها مسجداً ولا مدرسةً ولا خانقاها إلا والماء يجري في بركة في صحن هذا المكان ويسحُّ في ميضأة»(٢). يُعَرِّفُنا هذا النص على:

• خصوصية دمشق على جميع المدن التي عرَّفها ياقوت في معجمه بكثرة الأنهار والقنوات.

• توفير الماء لجميع سكان المدينة وجعله متاحاً وسهل التناول والاستخدام، وذلك في وضع يجعل الناس جميعاً متساوين ومتشاركين في استخدامه، وتجسيد ذلك هو إنشاء الأحواض العامة التي تغذيها أنابيب المياه بصورة مستمرة بحيث يتناولها «الصادر والوارد».

• إيصال الماء إلى الفعاليات التعليمية والدينية داخل المدينة: المدارس - المساجد - الخانقات.

• نشر البرك داخل الفعاليات السابقة وداخل فسحات المدينة وباحاتها وداخل البيوت، وهذا أفضل تكييف إنشائي مائي - بيئي في مدينة تقع على تخوم إقليم صحراوي جاف.

المنابع والمسار

ما بين منابع بردى على ارتفاع كبير في سلسلة جبال لبنان الشرقية وبين



مصبه في بحيرة العتيبة تنسابُ المياه وتنحدر بمنسوب لا يقل عن ستمئة مترٍ وتجري في مسافاتٍ من الفضاءات الريفية والتكوينات المدنية تبلغُ الستين كيلو متراً، وكانتْ لا تلبثُ أن تتداحُ فيه أمواه نبع الفيجة الغزيرة وفائقة العذوبة.

وصفت النصوص التراثية وحللت أحياناً المنابع وطبيعة المسار فهو« أعظم أنهر دمشق.. مخرجه من قرية يُقال لها فَنَوا من كورة الزبداني على خمسة فراسخ من دمشق مما يلي بَعْلَبك، يظهر الماء من عيون هناك ثم يصب إلى قرية تُعرف بالفيجة على فرسخين من دمشق، وتنضم إليه عين أخرى، ثم يخرج الجميع إلى قرية تعرف بجُمرايا، فيفترق حينئذٍ فيصير أكثره في بردى، ويحمل الباقي نهر يزيد، وهو نهر حفره يزيد بن معاوية في لحف جبل قاسيون، فإذا صار ماء بردى إلى قرية يقال لها دُمَّر افترق على ثلاثة أقسام لبردى منه نحو النصف، ويفترق الباقي في نهرين، يُقال لأحدهما ثوراً في شمالي بردى وللآخر بانياس في قبليه، وتمتزج هذه الأنهر الثلاث بالوادي ثم بالغوطة حتى يمر بردى بمدينة دمشق في ظاهرها فيشق ما بينها وبين العُقبة حتى يصب في بحيرة المرج في شرقي دمشق، وهو أعبط أنهار دمشق، وإليه تنصب فضلاتُ أنهرها، ويساوقه من الجهة الشمالية نهر ثُوْرَا، وفي شمال ثورا نهر يزيد، إلى أن ينفصل عن دمشق وبساتينها، ومهما فضل من ذلك كله صب في بحيرة المرج، وأما

باناس فإنه يدخل إلى وسط مدينة دمشق فيكون منه بعض مياه قنواتها وقساطلها وينفصل باقيه فيسقي زروعها من جهة الباب الصغير والشرقي[٣].

يوضح النص السابق مسار بردى من منبعه إلى مصبه في القرن السابع الهجري:

• المنبع من قرية قنوا «عيون» في الزبداني تبعد عن دمشق خمسة فراسخ[٤] أي حوالي ٢٥ كم، وقد دثرت القرية مع ما دثر من القرى التي كانت حول الزبداني.

• ثم تنضم إلى بردى مياه عين الفيجة التي تبعد /٢ فرسخ/ أي حوالي /١٠ كم/ عن دمشق، علماً أن هناك ينابيع صغيرة أخرى تنضم إلى النهر على طول مساره (الزبداني – بقين) وفيما بين الربوة والزبداني تغذي بردى أودية سيلية يصل عددها إلى العشرين «وادي القرن – وادي العدرا ..».

• ثم يمر النهر بقرية جمرايا وينفصل هناك إلى بردى وهو الأكبر وإلى نهر يزيد.

فروع بردى التاريخية

عُرف هذا النظام المائي الدمشقي منذ عهود بعيدة، ولكن من المؤكد أن بعض القنوات والمنشآت عُرفت منذ العهد الآرامي، وكانت الأنهار المعروفة آنذاك، بردى – البانا (بانياس أو باناس) – ثوراً (في سفح جبل قاسيون) وهي الفروع الآرامية لبردى.

وفي العهد الروماني أحدث نهر القنوات، أما قناتي المزاوي والديراني، فشقتا في القرن الثالث الميلادي، وفي العهد الأموي حفر نهر يزيد، وقد ذَكَرتْ النصوصُ التراثية «نص معجم البلدان» الفروع التالية:

عند دُمر يفترق بردى إلى ثلاثة فروع:

• بردى ويشكل النصف تقريباً.

• توّرا شمالي بردى ويوازيه.

• باناس جنوبي بردى.

• تمر الأنهار الثلاثة بالوادي ثم بالغوطة ثم:

• يمر بردى بمدينة دمشق ويصب في بحيرة المرج شرقي دمشق.

• يُعتبر بردى أخفض أنهار دمشق منسوباً.

• يمر شمال نهر ثورا نهر يزيد إلى أن يصب في بحيرة المرج.

• أما باناس فيخترق مدينة دمشق لتغذية الفعاليات المختلفة «قنوات – قساطل» وما تبقى يسقي الزروع في باب الصغير وباب شرقي.

ويمكن أن تُلاحظ الآلية المعتمدة في تفريع بردى ومد قنواته:

فقد أخذت الفروع الممتدة من بردى الوضع الطبوغرافي للأرض بدءاً من المنابع التي ترتفع سبعمئة متر عن سطح البحر:

• فقد أخذت الفروع شكل مروحة بدءاً من مضيق الربوة باتجاه دمشق والغوطة، فعند الهامة يبدأ النهر بالتفرع إلى خمس وأربعين قناةً في الغوطة.

• بُدِئ بتفريع النهر وتحويله إلى أنهار في أعلى نقطة من المضيق كي يُستفاد من ارتفاع منسوب المياه لإسالته بالراحة إلى المناطق السهلية.

• تقريب القنوات وموازاة بعضها لبعض.

وقد كانت تلك مهمة هندسية جسدت إلى حدٍ كبير الأبعاد المحلية في معرفة الوضع التضاريسي والاستفادة منه فحُفِرَت الخنادق اللازمة في الصخور وأحياناً لمئات الأمتار وبأعماقٍ وعروضٍ كبيرة. وعُمِلَ أيضاً على تكبير عدد التفرعات لتحقيق عدالة التوزيع.

أما فروع بردى حسب زمن حفرها:

١. نهر بانياس «البانا» وهو فرعٌ آرامي، يتفرع عن بردى عند مخرجه من خانق الربوة من الضفة اليمنى ويساير بردى من الجنوب.

٢. نهر ثورا: فرعٌ آرامي ثانٍ، يتفرع عن بردى جنوبي دُمر من الضفة اليسرى. جنوبي نهر يزيد. مقطع هذا النهر مرصوف بالحجارة .

٣. نهر القنوات: يُنسب إلى العهد الروماني ورُمم وجدد في العهود الإسلامية، ينقسم عن بردى ما بين القصر والربوة من الجهة اليمنى لبردى. يساير بانياس ثم يتجه جنوباً ليروي الأجزاء المرتفعة من المدينة القديمة .

٤. نهر يزيد: (٢٥١ - ٦٤ هـ/ ٦٤٥ - ٦٨٣ م)(٥) فرعٌ أموي يتفرع عن بردى عند جبل قاسيون من الضفة اليسرى لبردى، يغذي المناطق الشمالية من دمشق ثم إلى القابون وحرستا ودوما.

٥. نهر المزاوي: حُفر حوالي القرن الثالث الميلادي، يتفرع عن بردى قرب دُمر من الضفة اليمنى لبردى ثم يتجه جنوباً إلى كفرسوسة والمزة.

٦. نهر الديراني: حُفِر حوالي القرن الثالث الميلادي، مأخذه في موقع الشادروان بين دُمر والقصر، يتجه نحو مزة وكفر سوسة وداريا.

٧. نهر العقرباني: يتفرع عن بردى وسط دمشق عند المرجة موازياً نهرَ بردى داخل

دمشق ويتجه شرقاً عند تفرع النهر يوجد ثلاثة قناطر عند جسر الشهداء حيث اثنتان تزودان العقرباني من بردى.

٨. نهر الداعياني: ينقسم عن بردى داخل دمشق قرب باب السلام متجهاً شرقاً إلى عين ترماو كفر بطنا.

٩. نهر المليحي: ينقسم عن بردى داخل دمشق على بعد /٤٠٠ م/ من الباب الشرقي يتجه إلى الجنوب الشرقي والغوطة الشرقية[٦].

فتلك تسعةُ أنهار ظلَّتْ تخترقُ البيئةَ الدمشقية تتحدى الصحراءَ القريبةَ بحزم وإصرار لتكوِّنَ لهذه المدينة الشرقية المتاخمة للبادية والجبال مذاقها الذاتي الخاص ورذاذها المختلف اللازم كي تغدو ذات مناخ خاص وعطاء خاص.

الأساليب المعمارية في الأنهار الدمشقية

أ - في الأنهار والقنوات عرفت:

• القنوات المكشوفة المحفورة في الصخر، (نهر المزاوي).

• القنوات المكشوفة المكسوة بالحجارة، (نهر ثورا).

• القنوات المحمولة على قناطر (نهر القنوات).

• القنوات الجوفية «الرومانية».

• القساطل الفخارية في القنوات الفرعية والمواصي والتي تراوحت أقطارها بين /١٥ - ٣٠ سم/ وأطوال الواحدة /من ٢٠ - ٢٥ سم/ أحد طرفيها أوسع من الآخر لتسهيل التداخل، وتوضع في الوصلات مادة اللاؤونة[٧] (كلس+ زيت+ قطن)، يحفر لهذه القساطل خنادق لتستوعب الردمية تحتها وحولها وتتكون هذه الردمية من (غضار+ كلس+ رماد الحمامات).

ب - بالنسبة لمنشآت توزيع المياه:

استخدمت عدة إجراءات هندسية من أجل تحقيق إجراء نسبة ثابتة من المياه من الأنهار إلى القنوات أو الفروع ومن الفروع إلى القساطل والمواصي:

• البسط: وهو حجر مستمر على عرض المأخذ ويحدد مقطع المأخذ ببناء جانبية. فالبسط هو فتحة النهر في أصله[٨].

• المأخذ: فتحة دائرية ضمن حجر بازلتي، يثبت الحجر على أحد طرفي القناة على منسوب معين، يحدد كمية المياه التي تعبر من القناة إلى القساطل.

• الطوالع (المقاسم): حجر مربع غالباً ما يكون كتلة واحدة يتراوح بعده من /٥٠ إلى

٢٥٠ سم/ يكون على سطح الأرض أو مرتفعاً عنها إلى حوالي /٢/ م تزوده القساطل ليعيد توزيع مياهها على البيوت، يشكل هذا الحجر بحرة عمقها حوالي ١٠ سم، في وسطها فوهة وعلى أطراف الحجر توجد فتحات أخرى مستطيلة مختلفة الأقطار حسب كميات المياه المراد تصريفها ويصب الماء عبر هذه الفتحات في فوهات مستديرة متصلة بقساطل التصريف إلى طوالع أخرى أو إلى البيوت مباشرةً التي تتلقى الماء إلى بحرة في فناء الدار حيث يكون منسوبها أخفض من منسوب الطريق العام بحوالي المتر ليدخل الماء بضغط كافٍ إلى البحرات المنزلية.

إن فرق المنسوب بين الطالع والبحرة يصل إلى الثلاثة أمتار فإذا افترضنا أن المسافة بين الطالع والبحرة /مثلاً ٣٠ م/ يكون الميل كبيراً يعطي ضغطاً كافياً جداً لإيصال الماء وجعله يندفع في بحيرة البيت. وكان ذلك الهدف المائي النهائي هدفاً جمالياً وإنسانياً إذ أوصل الماءَ بموسيقاته ورذاذاته إلى خصوصية الإنسان الداخلية.. إلى مركز بيته..

الأسلوبان المائيان في دمشق وحلب

عرفت المدينتان أسلوبين في التغذية المائية استمرا زمناً طويلاً:

• فأقدم فرع من بردى يعود إلى العهد الآرامي، وأما قناة حيلان الشريان المائي التاريخي لمدينة حلب فيعود إلى ما قبل العهد الروماني. وهناك ما يشير إلى القدم الشديد لهذا النظام المائي الباطني والذي كان موجوداً في أنحاء مختلفة من المنطقة العربية.

• مصادر بردى ومن ثم شبكة الأنهار الفرعية والقنوات تنحدر من ارتفاع كبير باتجاه المدينة مستفيدة من الوضع الطبوغرافي في تفريع الشبكة المائية الدمشقية، بدءاً من أعلى نقطة في المضيق والاستفادة من ارتفاع منسوب الماء في هذه النقطة وإسالته بالراحة تجاه الغوطة ودمشق، وتم تجميع الفروع بشكل متواز ثم متباعد ليغطي أكبر مساحة ممكنة. أما مصادر قناة حيلان فهي مجموعة من الينابيع والبرك في قرية حيلان.. يأخذ مسقط القناة وضعاً مسايراً لمجرى نهر قويق، وقد أملى الوضع الطبوغرافي وطبيعة المصادر المائية أن تحفر قناة باطنية تتكشف أحياناً حسب مناسيب سطح الأرض.

• تتغذى دمشق وريفها من بردى وفروعه التي تشكل شبكة سطحية ما تلبث أن تتحول داخل المدينة ولأجل تغذية الفعاليات السكنية وسواها إلى شبكة من القساطل «الأنابيب» الفخارية – توصل الماء إلى بحرات المنازل مروراً بالطوالع التي تقسم الماء بالاتجاهات المطلوبة والتدفقات المطلوبة. أما في حلب فكانت قناة حيلان تسقي جزءاً من ريف المدينة الواقع في شمالها بين قرية حيلان وشمال المدينة.

و ليس كما في الشبكة الدمشقية التي غطت غوطة دمشق وريفها، وحصلت البساتين في ريف حلب على ماء القناة بواسطة مآخذ على القناة الرئيسية تؤدي إلى القنوات الفرعية «العدانات» أما داخل مدينة حلب فكانت القناة باطنية حجرية غذّت ما يقارب سبعاً وسبعين نقطة عامة مدنية وذلك حتى بداية القرن السابع الهجري، وبدءاً من القرن الثامن عشر الميلادي تم توسيع الشبكة بإضافة الأنابيب الفخارية التي توصل الماء إلى المنازل وفق استحقاقات اشتراك محددة في ماء القناة، كما استمرت القساطل العامة في عملها.

• عرفت شبكة دمشق أساليب إنشائية متنوعة، منها القنوات المكشوفة المحفورة بالصخر (نهر المزاوي) والقنوات المكشوفة المكسوة بالحجارة (ثورا) والقنوات المحمولة على قناطر «قنوات» والقساطل الفخارية في القنوات الفرعية. أما في قناة حيلان فالقنوات الرئيسية والثانوية قناة باطنية حجرية، أما الفروع الثالثة فأنابيب فخارية.

• في الشبكة الدمشقية في منشآت توزيع المياه هناك: المآخذ التي تُوزع من النهر الرئيسي إلى الفرعي، والطوالع التي توزع بين القساطل وقد عرفت الشبكة الحلبية منشآت مشابهة لتوزيع المياه وهي القلاب والفروض.

وتبقى لهذه الحكايات المائية تفاصيلٌ وتفاصيل لعلها لا تنتهي تدهشُنا بعبقريتها القديمة ومصطلحاتها الكثيرة، وطرائقها وتقاليدها التي تبدأ من الهندسة والعمارة والطبوغرافيا.. لكنها لم تمر في النهاية إلا عبر الإنسان لتصوغَ له حكمةَ الماء.. بل قصيدةَ الماء الدمشقية.

المصادر والمراجع والهوامش

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان. دار صادر – بيروت (بدون تاريخ) ج٢ ص ٥٦٤.
(٢) معجم البلدان، المصدر السابق ص ٥٦٤.
(٣) ياقوت، المصدر السابق ج١ ص٣٧٨.
(٤) الفرسخ حوالي ٥/ كم/..
(٥) المصدر السابق ج١ ص ١٩٥.
(٦) سبانو أحمد غسان، تحقيق ودراسة الشيخ محمد حسين العطار الدمشقي. علم المياه الجارية في دمشق. دار قتيبة – دمشق – ١٩٨٤. ص١١.
(٧) عبد المنعم بغداد (تحقيق ودراسة): إنباط المياه الخفية. الكرجي أبو بكر محمد بن الحسين. جامعة الدول العربية – القاهرة – ١٩٩٧ ص٦٠ : ذُكرت عدة مواد تُستخدم في المنشآت المائية ومنها النورة بأنواعها ويبدو أن اللاوْونة أحد أنواعها .
(٨) علم المياه الجارية، مرجع سابق ص ١٨٠.

☆ ☆ ☆

النزوع القومي والديني في شعر نازك الملائكة

د. أحمد فوزي الهيب *

نازك الملائكة شاعرة عربية عراقية تمثل أحد أبرز الوجوه المعاصرة المشرقة للشعر العربي الحديث. يكشف شعرها عن صدق عميق وثقافة عربية وعالمية وإيمان راسخ بالتراث والوطن والإنسان العربي الذي يعيش عصره من غير أن ينسى أصالته أو أن يكفر بها. ويكشف شعرها أيضاً عن إدراك واعٍ لقيمة الكلمة ومدى تأثيرها في الأمة، وأنها من الممكن أن تكون أداة بناء توصل الأمة إلى قمة القوة والتقدم والانتصار إذا أحسن استعمالها. أو تكون أداة هدم تودي بالأمة إلى هاوية الضعف

---

* أستاذ جامعي وباحث سوري.

العمل الفني: الفنان زهير حسيب.

والتأخر والهزيمة إذا أسيء استعمالها، فآمنت بها، وقالتها صادقة حرة، ولم تبعها في سوق النخاسة، بعدما رأتها أميرة نائمة بين دفتي القاموس، تنتظر الشاعر الحق ليعيد إليها الحياة والقوة، ويجعلها شمساً تضيء الدروب أمام الأمة، قالت[١]:

ماذا تقول الكلمة؟

في عتمة القاموس أبقى طفلة دميتُها مُحطَّمة
تاريخها مختبئ، أحرفها ميتّمة
أبقى أنا أميرة مسحورة منوّمة
حتى يجيء شاعر يوقظني من غفوتي
يعيد لي حرارتي وفتنتي
يكتشف التاريخ في حروفي الولهى وفي أشعتي
يبعثني أغنية مغمغمة
يمطرني رشةً خضبٍ وشذا،
وفقرةً من ملحمة.

وعندما رأت أن درب الصدق قد ضاق بكلمتها، لم تقل كثيرها ما لم تعتقد، بل لاذت بالصمت، وفضلته على الكذب، وهذا يسوّغ صمتها في الجزء قبل الأخير من عمرها الذي بدأ في نهايات سبعينيات القرن العشرين الماضي تقريباً قبل أن يسكتها المرض العضال في الفصل الأخير من عمرها، والذي لما تزل تعاني منه في القاهرة -عافاها الله- حتى كتابة هذا البحث، وقد وصف صمتها هذا لي زوجها الصديق العزيز الدكتور عبد الهادي محبوبة (رحمه الله) عندما سألته عنه، بأنه صمت أبي الهول الأبدي.

لذلك ولغيره كانت نازك الملائكة في مقدمة شعراء مدرسة الالتزام في الشعر العربي الحديث، إذ التزمت بعروبة أمتها ودينها وتراثها وحريتها وتاريخها ورموزها المضيئة التزاماً قوياً، وهذا الالتزام أفضى بها إلى التزام آخر، وهو الالتزام الثابت بقضايا أمتها العربية من المحيط إلى الخليج بعيداً عن الإقليميات والأفكار والآراء الضيقة، ونجد ذلك واضحاً في كثير من قصائدها التي ألحت فيها على ذكر كثير من البلاد والمدن العربية، لأنها كانت تراها جميعها من المحيط إلى الخليج بلادها القريبة منها، وترى سكانها أهلها الأعزة عليها، تفرح لفرحهم، وتحزن لحزنهم غير عابئة بالمسافات التي تفصلها عنهم. ولعلّ من البديهي أن تكون فلسطين والقدس وغزة والجولان وسيناء والطور في مقدمة البلاد العربية التي تحدثت عنها في شعرها، فقالت من قصيدة، عنوانها (سبت التحرير) وهو اليوم الذي بدأت به حرب تشرين التحريرية أو حرب العاشر من رمضان[٢]:

وتشفي دمَنا المسكوب

في الجولان، في غزة،

في القدسِ

وتسقي حزنَ قتلانا

على منحدر الطورْ

....

ويوم السبت سنبلةٌ،

وأغنيةٌ، ومرآةْ

وأجنحةٌ على سيناء

والقدسِ

وأما قصيدة (عناوين وإعلانات في جريدة عربية) التي نظمتها عام ١٩٧٣ فتحدثت فيها عن جنوب لبنان والعدوان الصهيوني عليه، وما لقيه من مقاومة باسلة من الفدائيين، فقالت(٢):

صيدا تقضي ليلة مروّعةْ

خريطةٌ جديدةٌ موسّعةْ

لدولة العدو، (غولدا) صرّحت بأن إسرائيل

لن تلينْ

بأنها ستقتفي خطى الفدائيينْ؟



وقد كان إلى جوار هذا النزوع القومي لدى الشاعرة نزوع آخر يلازمه ويعاضده، يولد منه تارة، ويلده تارة أخرى، فكأنهما فرسا رهان في حلبة سباق، هذا يسبق تارة

وذاك يسبق تارة، ولكنهما لا ينفصلان، هذا النزوع هو النزوع الديني، وتجلت هذه التوأمة في كثير من قصائدها عامة، وفي ديوانها المتميز (للصلاة والثورة)، وفي القصيدة التي سمته باسمها، وخاطبت بها الأمة العربية، قائلة(٤):

يا قبةَ الصخرةْ
يا حقُّ يا إيمان يا ثورةْ

....

متى نصلّي؟ إنما صلاتنا انفجارْ
صلاتنا ستُطلع النهارْ
تُسلح العُزّل، تعلي راية الثوارْ
صلاتنا ستُشعل الإعصارْ
ستزرع السلاح والزنبق في القفارْ
تحول اليأس إلى انتصارْ
صلاتنا ستنقل الجدب إلى اخضرارْ

فالصلاة هنا صلاة متميزة، مسحت الشاعرة عنها غبار الأيام الذي حولها إلى عادات و أقوال وأفعال يؤديها الإنسان فلا يشعر بشيء ولا تغير فيه شيئاً، وعادت بها إلى منبعها الأول، فرأت فيها -كما قالت في مقدمة ديوانها هذا- معادلاً حياً للقيم الثورية و الجمالية والإنسانية، كما رأت فيها أيضاً تربية للروح والجسم، وإكمالاً لإنسانية الإنسان بعدما قرنتها بالثورة، وجعلتها عنواناً لديوانها (للصلاة والثورة) داعية الإنسان العربي إلى أن يرتفع بالجناحين معاً: جناح الروح وجناح النضال، ليحقق ذاته وحريته وحرية أمته وتقدمها

وازدهارها، ويستعيد الأرض المغتصبة.

وكذلك تجلى البعد الديني في قصائدها القومية عندما جعلت انتصار العرب في حرب تشرين (رمضان) نصراً إلهياً ختمت به قصيدتها العظيمة (سبت التحرير) الآنفة الذكر، قالت(٥):

ويوم السبت أعياد، ونصر جارف، نصر من الله

ويمكننا نجد أن النزوع الديني لديها أصيل أساسي واضح، يتسم بالسماحة والشمول والعمق والسمو والبساطة معاً في جميع قصائد هذا الديوان، بما فيها شعرها الذاتي، مثل قولها تناجي السهر في الليل مناجاة تختلف عن مناجاة كثير من الشعراء الذين رأوه مجالاً خصباً للذات على اختلافها، وهذا قرّبها من عوالم شعراء التصوف، ولكنها لم تقف حيثما وقفوا، وإنما انطلقت بعدما حلقت في سماواتهم إلى عوالمها الخاصة بها، فقالت(٦):

حبُّكَ يا سهر
يسكن في الشغاف والبصرْ
حبك أم صلاةْ
والهَدْ الخشوع؟ أم رعشة شوق تشعل الشفاهْ؟
أم رقصة سحرية يرقصها الفجرْ؟
أم أنت سكّر الدموع عند صوفي يحب الله؟
نحن تصَوَّفْنا هنا، وأنت صوفيٌّ أغانينا السهارى، أنت يا سهرْ.

واتسم النزوع الديني لديها بالسماحة والبعد عن التعصب، فنجدها قد احترمت جميع الأنبياء والرسل، فذكرت محمداً وموسى وهارون عليهم السلام بما يليق بهم من إجلال وإكبار(٧).

أحاط بنا شذا همس
يقص حكاية من دفتر الأمسِ
عن المجد الذي غمّس بالضوء ربى بدرِ
وحيث (محمدٌ) معصوبة يمناه بالشمسِ

كما قالت أيضاً في القصيدة نفسها عندما ذكرت اليهود:

وفي سيناءَ ثانية -كما تاهوا- يتيهونْ
إلى أبد الزمان وليس من موسى -لينقذهم- وهارونْ
فموسى غاضب يلعنهم،
والسخط قد ألهب هارونْ
سلام الله والحب على موسى وهارونْ

وكذلك اتسم النزوع الديني عندها أيضاً باتساع الأفق والبعد عما يجعله ضيقاً من آراء أو وجهات نظر منحرفة أو شخصيات تاريخية جدلية، فنراها في قصيدة (الهجرة إلى الله) قد افتقدت الخليفة العباسي المعتصم وصلاح الدين الأيوبي، فقالت شاكية همها إلى الله تعالى في مناجاة واجدة صادقة(٨):

حملتُ معي هموم القدس يا ملكي وجرح جنينْ
وليلاً شاهق الأسوار لا ينجابْ
فأين الباب؟ أين البابْ؟
قرابيني مكدّسة على المحرابْ
وقرآني طواه ضبابْ
وذلة مسجدي الأقصى تقلّبني على سكّينْ
ولا معتصمٌ أدعوه، لا فينا صلاح الدينْ

ولم تقف في استلهامها عند الشخصيات التراثية الواقعية، وإنما تجاوزتها إلى شخصية شهرزاد الأسطورية في الجزء الأول من قصيدتها (ثلاثية في زمن الفراق)، وعنوانه: في دروب الرياح، حيث قالت(٩):

وهل ترى قد سكتت شهرزادْ

عن الكلام المباحْ

ولكنها في الحالتين ظلت مبتعدة عن الشخصيات التراثية القلقة المثيرة للجدل والمُضرمة للاختلافات كالحلاج ومهيار، والتي استلهمها غيرها من الشعراء وحمّلها ما لا تحتمل، وقوّلها ما لديه من آراء ومبادئ، يبغي من ورائها ما يبغي.

كما نجدها كذلك قد استنكرت بلادة رد فعل بعض العرب من أمور عظيمة تحرّك الجماد، ولكن لا حياة لمن تنادي، فقالت من قصيدة (عناوين وإعلانات في جريدة عربية)[10]:

سيدتي ماذا ستلبسين؟

في سهرة الليلة في أي وشاح سوف تظهرين؟

سيدتي كوني شباباً ساخناً وزويعةْ

استعملي عطور باريس، اكرعي من خمرنا المشعشعةْ

....

أمريكةٌ سيدة الفيتو ونحن لم تزل خيامنا مهددةْ

سلاحنا ألفاظنا الهادرة المعربدةْ

ذلتنا بين يَدَيْ عدوّنا تصيح في عيوننا، تضجُّ ملءَ الأوردةْ

ولم تزل أعناقنا تحت سكاكين اليهود، لم تزل ممددةْ

في مطعم الوادي خمور جيدةْ

يا سيدي وتنتقي من تشتهي: آنسة أو سيدةْ

صورت الشاعرة في هذه القصيدة بدقة صوراً متناقضة فاضحة للواقع العربي، ولمن يدعون الانتماء العربي في سبعينيات القرن الماضي زمن إبداعها لها، ورغم انقضاء ما يزيد على نيّف وثلاثين عاماً عليها، لما تزل هذه الصور موجودة، قرأناها بالأمس القريب في بعض الصحف عندما هاجم اليهود جنوب لبنان الصيف الماضي، كما رأيناها أيضاً في كثير من قنوات التلفزة التي تدّعي أنها عربية، وتعد بالعشرات، رأيناها رقصاً وعرياً وخلاعة ومجوناً، بينما كان العرب في لبنان يسطرون في سِفْر التاريخ العربي صفحات من أجمل الصفحات.

لقد أرادت بهذين النوعين من المشاهد المتناقضة المتتالية، التي ما كان لها أن تجتمع معاً لو كان لدى القوم أقل بقية من عروبة أو كرامة، والتي صبغتها باللون القاتم، وجعلت الألم يتدفق منها ليهصر قلب من له قلب، نقول: أرادت بها أن يصحو العرب من غفلتهم التي طال عليها الأمد، وأن تجعل هذه القصائد

-رغم ارتباطها بمناسباتها الخاصة- خالدة، وتجعل ما فيها من أسماء صديقة أو معادية رموزاً مطلقة تتجاوز زمانها ومكانها لتبقى خالدة أيضاً، وذلك لأنها أعطت اللحظة التاريخية المؤقتة المرتبطة بمناسبة محددة صفة الديمومة والخلود بكل صفاتها ومعانيها، الأمر الذي نقضت به اعتراضات أصحاب مذهب الفن للفن على هذا النوع من الشعر الملتزم لارتباطه بأزمنة وأمكنة وشخصيات معينة محددة، يدّعون جهلاً أو تجاهلاً أنها تجعله ذا عمر قصير يموت بانتهاء مناسبته التي قيل فيها.

وفي قصيدة أخرى لها، عنوانها (القنابل والياسمين)، تحدثت عن دخول الجيش الصهيوني لبيروت وقتله لثلاثة من قادة الفدائيين ومهاجمته مخيمات اللاجئين الفلسطينيين عام ١٩٧٣م من غير أن يعترضه معترض[١١]:

من البحر أقبلَ، هاجم بيروتَ تحت الظلامْ

وجاس الشوارع ينسف يذبحْ

ويصدَح في كفه طائرُ الموت يصدحْ

وبيروت وسنى تقاتله في المنامْ

وصيدا على البحر عشُّ حمامْ

أما في ديار العروبة كلب فينبحْ؟

أما من نعاج فتنطحْ؟

وهل نحن أعمدة من رخام؟

....

لماذا يضيع الدم العربي؟ وكيف يهونُ؟

....

ولا نتذكر أن الحضارة كانت لنا، والوجود جنينُ

....

ونحن امتثالٌ، ونحن سكونُ

وأيامنا سهر ومجونُ

تمر علينا الرياح الجديبة

بلا مطر أو خصوبة

ويحمل واحدنا نعشه وصليبهْ

ولكن كل هذه السخرية المرة مرار العلقم، والتي جلدت، بما فيها من أسئلة متكررة متلاحقة موجعة ملأى بالتوبيخ والاستنكار، الظهور المنحنية لكثير من العرب أمام الأعداء والمستقوية بهم، لم تمنع الشاعرة من أن تتذكر ماضي أمتها المجيدة وحضارتها الخالدة، فرفعت صوتها مجلجلاً بالقسم، القسم بالله ثم بالقدس وبالثأر ألاّ يعرف العرب طيباً ولا طرباً ولا هناءة إلا بعد تحرير الوطن المحتل كله، قالت[١٢]:

سنقسم بالله، بالقدس، بالثأر، لا نتطيبْ
ولا في خصور الأغاني نبيت الدجى نتقلب
ولا من عبير البيادر نشرب
إلى أن نعود إلى الوطن المستباح المعذَّبْ
ويصحب عودتَنا ألفُ كوكبْ

ولم يزلــزل واقــع العرب الأليم تصــميم الشاعرة وإصرارها على النصر ودحر العدو وتحرير الأرض وتفاؤلها، فأشــعلت شــموع الأمل واثقة مطمئنة، لتمحو اليأس من قلوب العــرب، ونجد ذلــك في حوارها مــع امرأة عربية يائسة من واقعها المرير[١٢]:

قالت: إذن من أين ينبعث الأملْ؟
واليأس عشش في أغانينا وفي دمنا اشتعلْ
والحزن نجم مطفأً في أفق أعيننا ارتحلْ
من أين يأتينا الضياء إذنْ؟ وكيف ترى سينثال العسلْ؟

فأجابتها الشاعرة بما يلي:

وأجبتها: لا تجزعي حتى إذا ضربت شواطئنا سياطُ الريح،
واغتالت قوافلَنا مفازاتُ الضياع بلا حدودْ
حتى إذا ما عششت في جلدنا مدُنُ اليهودْ
لا تحزني أختاه إن راحت تطاردنا الرياح الناقماتُ
ويقتفي خطواتِنا الغيمُ اللدودْ

فالأفق فيه لنا وعودْ
ومن الليالي الثعلبيات العدوّةِ، سوف ينبت حولنا الفجر الودودْ
....
وخيامنا الرثَّاتُ تخرج من متاهتها الرهيبةْ
وتزول إسرائيل من قلب العروبةْ

إن مــا تقدم، وهو غيض من فيض، جعل التزام نــازك الملائكة التزاماً واعياً، يتســم بأمور مهمة جداً، أهمها:

١- رأت نازك الملائكة أن الجانب القومي والجانــب الديني يمثــلان جانبي الإنســان العربــي الكامــل المتوازن، لأنهمــا مرتبطان معاً ارتباطاً وثيقاً. لذلك لم ينفصــل أحدهما عن الآخر في جل قصــائد الشاعرة، وإن كان القومي أكثر ظهوراً من الديني في القصــائد القوميــة، والديني أوضــح مــن القومي في غيرها، لأن هذا الظهور أو الوضوح يبقى من حيــث الظاهر الكمي فقــط، وأما من حيث المضــمون والدلالة والإشعاع، فهما كجناحي طائر، لا يبتعدان إلا ليلتقيا، وإلا ليساعد كل منهما إبداع الشاعرة على التحليق في الآفاق العليا للفن الملتزم الواعي النبيل الجميل.

٢- لم يقتصر وجود هــذا النزوع القومي

على القصائد القومية أو الوطنية، وإنما كان واضحاً جلياً أيضاً في أكثر قصائد الشاعرة خصوصية وبعداً عنه، مثل قصيدة (أقوى من القبر) التي تحدثت فيها عن والدتها المتوفاة في لندن قبل هذه القصيدة بعشرين عاماً، والتي قالت فيها[١٤]:

صوت أمي أتى دافئاً كأريج الترابْ
في مروج فلسطينَ، صوت انسيابْ
لجداولَ مُغمىً عليها من العطر. صوت انسكابْ

وكذلك أيضاً نرى النزوع القومي واضحاً في قصائدها الصوفية مثل قصيدة (الهجرة إلى الله)، حيث قالت مخاطبة الله تعالى[١٥]:

وجدتكَ في التراتيل المسائيةْ
وتبني تحت أستار الدجى عشاً لِقبّرةٍ مروّعة وقُمْريةْ
للاجئة مشردة وأضلعها على الأحزان مطويةْ
لقافلة مهاجرة عن الأوطان منفيةْ

٣- كما نجد أيضاً أن النزوع الروحي قد تجاوز القصائد الدينية والقومية إلى قصائد يتوقع الإنسان أن تكون بعيدة عنه، بيد أن شاعرتنا -بما أوتيت من روح صوفية عميقة- استطاعت الجمع بين الأمرين جمعاً لا افتعال فيه ولا تكلف، بل نرى فيه التآلف والانسجام التامين، مثل قولها في قصيدة (رحلة على أوتار العود)[١٦]:

العودُ يصلي يا ربي، وصلاة العود سماويةْ
ورؤى الأوتار معطّرةٌ قرآنيةْ
اللحن خشوع وتسابيحْ

٤- واتسم نزوعا الشاعرة القومي والديني بالفهم الواضح الشامل للمشكلات القومية كالقضية الفلسطينية وغيرها، وبالوسطية والاعتدال والبعد عن التعصب، وهذا واضح جلي في مواطن كثيرة من شعرها، ففي قصيدة (الهجرة إلى الله) نجدها قد عرفت الله تعالى في مجالي متنوعة، منها تهجد الصلوة وذكره، وقداس الراهب وأجراسه، فقالت[١٧]:

عرفتك عند صوفيٍّ ثريِّ القلب والإحساس
عرفتك في تعبد راهب في خَشْعةِ القُدّاسْ
عرفتك في صدى الأجراس

٥- وكذلك نجد لديها الوسطية أيضاً بين التراث والحداثة، فلم تتقوقع وتتحجر على الماضي وتراثه، وإنما انطلقت منه مستفيدة من إمكاناته الإيجابية الخيرة الكثيرة إلى الحاضر، لتناقش قضاياه وتضع لها الحلول الناجعة، وفي الوقت نفسه لم تفعل كما فعل

كثيرون غيرها من دعاة الحداثة الذين شككوا بالعروبة والعربية وتراثها وقيمها، وتجاوزوها إلى ما قبلها من حضارات لم يبق منها سوى بعض الرسوم والآثار.

٦- ومع ذلك فإن التزامها القومي العربي لم ينسها تلك الحضارات التي سبقت الحضارة العربية، وقامت في الوطن العربي كالحضارة الفرعونية التي ذكرت أهراماتها العظيمة، فقالت من قصيدة (شمس للقاهرة)[١٨]:

فجرَ غدٍ، تقاتل الأقصر والأهرامْ

٧- ألحت الشاعرة وركزت على النقاط البيضاء في تاريخنا العربي، وهي أكثر مما لدى الأمم الأخرى من مثيلاتها، ونأت بنفسها عن النقاط السوداء والأحداث الخلافية والفتن والحروب الداخلية بين آبائنا منذ مئات السنين، والتي يضر الجمود عندها الأمة كلها ولا يفيد حاضرها أبداً، علماً بأنها أقل من مثيلاتها لدى الأمم الأخرى بكثير، والأمم وكذلك الأعلام لا تقاس بالنقاط السوداء، وإنما تقاس بالنقاط البيضاء فقط.

٨- وأضفت على أشعارها أيضاً -على الرغم مما فيها من سخرية ومرارة- شيئاً من التفاؤل، إذ جعلت الشمس تشرق في النهايات، رغم طول الليل وكثرة الغيوم وشدة اسودادها مثل قولها في نهاية قصيدة (الخروج من المتاهة)[١٩]:

وسننجو من المتاهة مبهو
رينَ تقتادنا يدٌ مجهولةْ
وسنبني لنا غداً من ضياء الشم
س من كل مُنْيةٍ معسولةْ

كما قالت أيضاً في ختام قصيدة أخرى[٢٠]:

وتزول إسرائيل من قلب العروبة

٩- واتسم قولها في أشعارها، كما اتسم صمتها أيضاً بالصدق النابع من أعماق القلب، وقد بدا من آلامها التي كانت تفيض من كل كلمة من كلمات قصائدها التي سبق ذكرها آنفاً، كما بدا أيضاً في حديثها عن انتصارنا في حرب تشرين.

١٠- ولم تنس في خضم التزامها بقضايا الأمة العربية الكبرى التزامها بالجوانب الجمالية والإنسانية في شعرها، فلم تهمل - كما فعل الكثيرون من الملتزمين- جانب الشكل

لصالح المضمون، وإنما عنيت بالجانبين معاً عناية متوازنة دقيقة. وهكذا أخذت نازك الملائكة من مذهب الالتزام ومن مذهب الفن للفن أحسن ما فيهما، واستطاعت بما ملكته من وعي وإخلاص ومن قدرات شعرية متميزة نادرة أن تجعل أشعارها تحافظ على جدتها وديمومتها، وتُقرَأ قراءات عدة في أزمنة مختلفة من غير أن تفقد ألقها وتأثيرها في سامعيها، وذلك بعدما جعلت الشخوص والأحداث الماضية ذات بعدين:

– بعد أول خاص بها، صورها خير تصوير.

– وبعد ثان: حولهما إلى رموز عامة للخير وللشر، يراها القارئ حوله أنّى كان يعيش، كما يستطيع أن يراها أيضاً في كل زمان ومكان، وذلك لأن الشاعرة استطاعت أن تجعل ما تحمله أشعارها من قيم جمالية وإنسانية وغيرها قيماً خالدة صادقة تعبر الزمان والمكان[21].

١١– وهذان النزوعان القومي والديني لم يقفا في شعر نازك عند حدود المضمون، وإنما نجدهما واضحين بجلاء في الشكل أيضاً، إذ التزمت اللغة العربية وأساليبها التزاماً تاماً، كما التزمت أوزان شعرها على الرغم من تجديدها الذي دفعها إليه رغبتها بالعودة إلى الوحدة الأولى لأوزان الشعر العربي، وهي التفعيلة، وليس التخلص من تشكيلات البحور الشعرية وقوافيها، وذلك لأن الوزن والقافية سمتان من أهم سمات الشعر يتميز بهما عن النثر الفني، لذا وازنت بينهما موازنة دقيقة، فلم يطغَ لديها أحدهما على الآخر.

١٢– إن ما نراه في شعرها من التزام قومي ديني أخلاقي واعٍ منفتح بعيد عن التعصب في الظاهر والباطن لم يكن لفظياً أو نظرياً، بل كان منطلقاً من نفسها العربية المؤمنة الأخلاقية، كما كان أيضاً واقعاً معيشاً واضحاً في أسرتها التي كان لي شرف جوارها وصداقتها في الكويت عندما كنت أدرس في جامعتها في ثمانينيات القرن الماضي.

وبعد، فقد قامت الشاعرة نازك الملائكة بالدور المتميز الذي يجب أن يقوم به الشاعر العربي في العصر الحديث بصورة متميزة كاملة، فحُقَّ لها ذلك المكان السامي الذي سمت إليه بجدارة، وحُقَّ لها أيضاً دعاؤنا لها بالشفاء والعافية.

الهوامش

١- ديوان للصلاة والثورة، نازك الملائكة دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٨م، ص ١٠٣.
٢- المصدر نفسه ١٧٥، ١٧٤.
٣- المصدر نفسه ١٢٤.
٤- المصدر نفسه ١٥٩، ١٥٣.
٥- المصدر نفسه ١٧٦.
٦- المصدر نفسه ٤٥، ٥٧.
٧- المصدر نفسه ١٦٨، ١٧٤.
٨- المصدر نفسه ٧٤، ٧٥.
٩- المصدر نفسه ١١٢.
١٠-المصدر نفسه ١٢٥، ١٢٩.
١١-المصدر نفسه ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨.
وقادة الفدائيين الشهداء هم: محمد يوسف النجار- رئيس الدائرة السياسية في منظمة التحرير الفلسطينية، وكمال عدوان- مسؤول عمليات الأرض المحتلة- والشاعر كمال ناصر- الناطق الرسمي للمنظمة- وقاد هذه الجريمة إيهود باراك الذي صار رئيساً لوزراء العدو الصهيوني.
١٢-المصدر نفسه ١٣٩.
١٣-المصدر نفسه ٩٢، ٩٣، ٩٦.
١٤-المصدر نفسه ١٦٠.
١٥-المصدر نفسه ٧٠.
١٦-المصدر نفسه ٨٦.
١٧-المصدر نفسه ٦٩.
١٨-المصدر نفسه ١٨٩.
١٩-المصدر نفسه ١١١.
٢٠-المصدر نفسه ٦٨.
٢١-المصدر نفسه ١١ - ١٧، ١٢٤ - ١٣١.

☆ ☆ ☆

إعادة النظر في منظومة ثقافتنا الاستهلاكية

د. فايز حداد *

ساد ثقافتنا العربية المعاصرة منذ ستينيات القرن العشرين المنصرم مصطلح الثقافة الاستهلاكية، عند التعامل مع منتجات الثقافة الشعبية الحديثة المتمثلة في أفلام السينما، وبرامج التلفزيون، وروايات التسلية، والجريمة، والأغاني الشائعة، والإعلانات، والأزياء وسواها.. وقد أسس هذا المصطلح نفسه في حياتنا الثقافية حتى أصبح من المسلمات التي لا تقبل أية إعادة أو تمحيص، رغم أن طوفان الثقافة الشعبية الحديثة، إثر ثورة المعلومات وتقنية الاتصالات، وقد تصاعد وطغى عبر قنوات جديدة أهمها الفضائيات التلفزيونية وشبكة الانترنت.

---

* كاتب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان شادي العيسمي.

والواقع إن هذا التصاعد الطاغي الذي يدخل كل بيت ويسهم في تشكيل وعي الناس بما يتطلب منا التصدي بطريقة إيجابية تتجاوز مجرد النقد، والاحتماء خلف مصطلح «الثقافة الاستهلاكية» للتنصل من مهام المواجهة البناءة.

وقد لفت نظري مقال طريف للدكتور صلاح فضل بعنوان «كتابة الأثر وكتابة الحياة» (في كتابه أشكال النخيل) يميز فيه بين الثقافة العربية التراثية، التي اعتدنا على استلامها عبر المخطوطات المكتوبة من جهة، والكتابة الصوتية، والمصورة الحديثة المتمثلة في وسائل الإذاعة والسينما والتلفزيون من جهة أخرى. ويرى أن الأخيرة تمثل عنصراً حيوياً في ثقافتنا العربية الحديثة لابد أن نتعامل معه بإيجابية وموضحاً ذلك بقوله: يجب علينا أن «نعيد تصميم رفوفنا كي نضع شرائط التسجيل الصوتي والمرئي بجانب الكتب» (ص ١٤١). بل ذهب إلى أكثر من ذلك فدعا إلى الاهتمام برموز الثقافة الشعبية الحديثة وإدخالها في مناهج تدريس الأدب والفن، «كي يجد صلاح جاهين مكانه إلى جانب ابن قزمان، أو أسامة أنور عكاشة بجوار الجاحظ» (ص١٤٣).

والواقع إن الدكتور صلاح فضل يستمد نظرته الجديدة إلى الثقافة الشعبية من الميل الواسع الذي يتبلور في الثقافة الغربية المعاصرة إلى التعامل بإيجابية مع منتجات الثقافة الشعبية متخذاً اسم النزعة الثقافية الشعبية، وهو عنوان كتاب «ج. مكجوجن»، الصادر عن دار روتلج، وفيه يعرف المؤلف هذه النزعة بأنها: «الافتراض الفكري الذي وضعه بعض طلبة الثقافة الشعبية بأن تجارب الناس العاديين الرمزية، وممارساتهم أهم من الناحية التحليلية والسياسية مما يعتمد رسمياً على أنه الثقافة الراقية». وتنطلق هذه النزعة من فهمها للثقافة الشعبية على أنها تعبير صادق عن صوت الناس، وليست مفروضة على وعي الناس وفق مؤثرات خارجية. إن خير ممثل لتطبيقات هذه النزعة هو «مركز الدراسات الثقافية المعاصرة» التابع لجامعة برمنكهام والمتخصص في دراسة ثقافة الشباب الهامشية، وبرامج التلفزيون الشعبية.

ويحتوي كتاب «مكجوجن» على نقد وتحفظ تجاه هذه النزعة، لأنها تتحول عند التطبيق إلى رعاية تخلو من الحس النقدي للثقافة الشعبية بدلاً من أن تكون تشريحاً



نقدياً لها، بل إنه لا يعدها نظرية متماسكة، وغايتها تبرير ما يفعله منتجو الثقافة الشعبية باعتبارهم يقدمون ما يريده الجمهور، ورغم أهمية تحفظات مكجوجن فإن لهذه النزعة الثقافية القدرة على أن تلعب دوراً إيجابياً في الحد من تطرف الاتجاهات النخبوية في التعامل مع الثقافة الشعبية، والتي لا تقوم إلا بالشكوى منها ثم إهمالها، لقد آن لنا في هذا العصر الغارق في فيض الصورة والصوت أن نلتفت إلى ما يعنيه هذا الفيض مستخدمين أدوات الثقافة الرصينة الراسخة في فهمه وتطويره باتجاهات أكثر إيجابية.

نظرية الثقافة الاستهلاكية

دأبنا على ترجمة مصطلح Mass culture بالثقافة الاستهلاكية رغم أن الأدق ترجمته بالثقافة الجماعية أو الواسعة (نسبة

إلى الإنتاج الواسع Mass Production). لذا سأشير عبر مصطلح الثقافة الاستهلاكية هنا إلى نظرية الثقافة الواسعة التي بدأت تتبلور منذ عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، مع انتشار وسائل الإعلام الجماعية كالسينما والإذاعة، وهما أول أنماط (الثقافة الاستهلاكية)، بعد الصحافة الشعبية، وقد ارتبط تبلور هذه النظرية مع نمو اقتصاد السوق في العصر الحديث، واستخدام النازية في ألمانيا الثلاثينيات لوسائل الإعلام الناشئة في تأسيس أيديولوجيتها في كل مجالات الثقافة والفن، واستئصال الأيديولوجيات السياسية والجمالية البديلة مستفيدة من إمكانيات السيطرة المركزية على هذه الوسائل وبث ما تريده إلى السكان على نطاق واسع. هذه الحالة بلورت الأسئلة التي حاولت نظرية الثقافة الاستهلاكية الإجابة عنها وهي تتعلق أولاً بمصادر الثقافة الشعبية الاستهلاكية، وهل هي تعبير تلقائي عن اهتمامات الناس وتجاربهم، أم أنها مفروضة عليهم من فوق كأحد أشكال السيطرة الاجتماعية؟ وثانياً: ما مدى تأثير طرح الثقافة على شكل بضاعة يتحكم بها معيار الربحية والتسويق، على قيم النوعية الفنية العالية للمنتج الفكري وما يمثله ذلك من تجديد وتحد، وثالثاً: إثارة السؤال حول الدور الإيديولوجي لهذه الثقافة، وهل هي تعبير عن الرغبة في غرس قناعات معينة لدى الناس؟ وسرعان ما اتفقت الدراسات المكتوبة في هذا المجال على تقسيم أنماط الثقافة المعاصرة إلى ثلاثة هي: الثقافة الحقيقية الراقية، ثم الثقافة الفلكلورية النابعة على نحو تلقائي من الشعب، وأخيراً الثقافة الاستهلاكية التي تحتل موقعاً وسطاً بين النمطين الأولين. وقد استقر في هذه الدراسات أن ثقافة المجتمع السابق على عصر الثقافة الاستهلاكية كانت تمثل تماسكاً عضوياً يلتئم ضمنه الناس بمنظومة قيم تميز بين أدب وفن النخبة المتميز من جهة والثقافة الفلكلورية النابعة من جذور المجتمع من جهة أخرى. ولم يكن بإمكان الأخيرة أن تطمح إلى احتلال مكانة ثقافة النخبة دون أن تفقد احترامها، ولكن هذه الصورة المنظمة المتماسكة اهتزت في العصر الحديث عندما سادت الثقافة الاستهلاكية بديلاً عن النمطين السابقين.

إن الأصل في هذه الحالة على المسرح الثقافي يمتد إلى التغير الذي خضعت له أسس المجتمع الزراعي المتماسك ذو القيم الروحية

المترابطة، الذي وفرت فيه المؤسسات الوسيطة كالقرية والعائلة إحساساً بالهوية النفسية والاجتماعية والأخلاقية، لكن نشوء أنماط الإنتاج الواسع ومكننة الإنتاج الصناعي، وقيام المدن الكبيرة ذات الكثافة السكانية العالية أنتج ظاهرة الزحام المجهول، حيث العزلة الفردية التي تجعل كل فرد جزيرة متوحدة فاقداً العلاقات الدالة أو المتجانسة أخلاقياً، ولم تنجح المدينة أو العلم في وقف التدهور الأخلاقي الناجم عن انهيار المجتمع الزراعي. وفق هذا الفهم لمصدر الثقافة الاستهلاكية تصبح هذه الثقافة البديل الزائف عن الأخلاقيات الزائلة، فالأفراد في غياب المنظمات الوسيطة يصبحون ضحية سهلة، تستغلها أجهزة الإعلام الاستهلاكية، والثقافة الشعبية. إن أبرز ما نفر دعاة نظرية الثقافة الاستهلاكية منها، دخول عنصر الربح المادي في صلب المعادلة الثقافية، فإذا لم يحقق المنتج الثقافي ربحاً مادياً تعذر إنتاجه، وقد لاحظ بعض دعاة النظرية أنه لم يعد هناك فرق جوهري بين المنتجات المادية والثقافية.. بين إنتاج السيارات، وإنتاج الأفلام. المشكلة أن نمط الإنتاج التجميعي الواسع لا يمكن حسب هذه النظرية أن ينجح في حالة الفن، بسبب التعقيد الجمالي للفن والإبداع، ولوجود عناصر التجريب والتحدي الفكري والعبقرية الفردية في صلبه. وقد تمحور نقد هذه النظرية للثقافة الاستهلاكية على ثلاثة أسس هي:

- أنها تستهلك وقتاً وطاقة يفضل تكريسها لمشاغل أكثر فائدة في تشكيل وعي الفرد.
- إن لها تأثيراً ضاراً على جمهورها لأنها تجعله سلبياً ضعيفاً وعرضة للتحكم به واستغلاله.
- إن هذه الثقافة المشوهة تطرد الثقافة الجيدة المتمثلة في الثقافة الراقية والفلكلورية.

إعادة النظر

ربما لاحظ المتابع أن خطوط نظرية الثقافة الاستهلاكية مألوفة ومتداولة في أدبياتنا العربية، بل إنها أصبحت من الثوابت التي تجعل المرء يتردد في إعلان إعجابه بأحد منتجات الثقافة الشعبية المعاصرة، والواقع أن تحفظ النظرية على الفيض المبتذل، من الثقافة الاستهلاكية المعاصرة، مبرّر مفهوم، لكن دور هذه الثقافة المتزايد في حياتنا اليومية، وفي تشكيل وعي أجيالنا الجديدة

يجعل الاكتفاء بالإدانة نوعاً من تبرير الكسل في مواجهتها، وإنكاراً لما يمكن أن ينجم عنها من إيجابيات.

لقد تبلورت في العقدين الأخيرين إعادة نظر كبيرة في أسس الثقافة الاستهلاكية يمكن إجمالها هنا اعتماداً على كتاب دومينيك ستريناتي في «مقدمة نظريات الثقافة الشعبية» الذي صدر عام ٢٠٠١ بالآتي:

- النقد الأول مؤداه أن نظرية الثقافة الاستهلاكية نظرية نخبوية، وعادة ما تحصر النخبة المشروعية في وجهة نظرها معتبرة أن المفاهيم المستمدة من قيمها الجمالية والذوقية هي وحدها الصحيحة، كما أن النخبة تفتقر إلى المنظور الاجتماعي، وتميل إلى التعامل مع المشكلة من خلال التقليل من أهمية الجمهور الواسع الذي يستهلك الثقافة الشعبية لأنه لا يشاطرها افتراضاتها ومنطلقاتها الجمالية، وكل هذا يجعل النخبة ميالة إلى إهمال سمة الثقافة الشعبية، والتوترات، والتناقضات الكامنة داخلها، بل تنظر إليها على أنها كتلة متجانسة مرفوضة دون تمييز، لكن النظر النقدي المحايد يمكن أن يكشف داخل هذه الثقافة تنوعاً واختلافاً لا يتضحان إلا بإعادة تقويمها خارج سياقها الأصلي، وتبرز نتيجة لذلك نقطتان جوهريتان في هذا المجال هما:

• الثقافة الشعبية متنوعة لأنها مفتوحة أمام استخدامات وتأويلات مختلفة تقوم بها جماعات عديدة في المجتمع عدا النخبة.

• لابد من النظر إلى الثقافة الشعبية، باعتبارها تتضمن مجموعة متنوعة من الأجناس، والنصوص، والصور، والتمثيلات الخاصة بها والتي تستحق إرساء معايير جديدة للتعامل معها.

وأما اتهام الثقافة الشعبية بأنها نمطية تعتمد على أشكال معيارية معروفة سلفاً فهو ما يميز ثقافة النخبة، فلا تكاد توجد ثقافة دون شكل معياري مسبق تعمل تلك الثقافة من خلاله، كما أننا يمكننا أن نتذوق بعض أشكال الثقافة الشعبية دون أن نضطر إلى قبولها جملة وتفصيلاً، إذ يمكن تذوق أجزاء منتخبة منها وإهمال ما عداها، وهو ما تسد الطريق أمامه نظرية الثقافة الاستهلاكية، ويرى دعاة إعادة النظر في هذه النظرية أن ما استقر في منطلقات الثقافة المعاصرة، هو اعتبار أن الذوق والأسلوب أمران يتقرران اجتماعياً وثقافياً بطريقة نسبية، ويجب أن ينصب الاهتمام على دراسة سلطة وضع

أسس الذوق والأسلوب وفرضهما من قبل فئة اجتماعية معينة، بدلاً من البحث عن أسس موضوعية ساكنة تدعم الأحكام الجمالية.

– والنقطة الثانية التي تسجل على نظرية الثقافة الاستهلاكية وتفرع من اتهامها بأنها نظرية نخبوية، أنها نكوصية تحمل تصوراً مثالياً رومانتيكياً عن الماضي، وتسودها نبرة الحزن والابتئاس لما حدث من تهديم لثقافة الماضي على يد الثقافة الشعبية المعاصرة، والواقع إن احتفاء النظرية بالماضي نابع من نكوص عاطفي أكثر منه واقع عقلي، فهي تهمل مثلاً المستويات العالية للتعليم، وانتشار القراءة والكتابة التي تعطي قصب السبق للمجتمعات الحديثة، أما النظرة إلى الماضي باعتباره العصر الذهبي فإنها تبقى نسبية تتفاوت تاريخياً وجغرافياً، كما أن التدهور المزعوم في الثقافة غير محدد بوضوح، فهل بدأ مع نشوء السوق التجارية للثقافة الشعبية، أم مع نشوء وسائل الإعلام الجماعية؟ هل يعد ازدياد قدرة الناس على امتلاك المذياع أو التلفزيون أو مشاهدة أفلام السينما علامة على التدهور؟ إن مثل هذه الأسئلة تشير إلى غياب الحس التاريخي، والعجز عن فهم التغير الاجتماعي والثقافي، بل لاحظ بعض منتقدي النظرية أن رفضها للثقافة الشعبية نابع في كثير من الحالات من تهديد هذه الثقافة وما يترتب عليها من دور ريادي تنويري، فالثقافة الشعبية تهدد الهيكلية القديمة لأنها تصل الناس دون حاجة لمعونة من النقاد والمفكرين لفهمها، كما أن تعريفاتهم للمتعة الفنية لا تنطبق عليها. في هذا السياق تثار مسألة ضبابية الحد الفاصل بين الثقافة الشعبية، والثقافة الراقية، لأنه ليس حداً واضحاً ثابتاً، لقد رفض الناقد الإنكليزي «البارزليفز» السينما كشكل فني جاد، لكن الكثير من منتقدي الثقافة الشعبية، مثل «مادونالد»، قبلوا بعض نماذج السينما، كأفلام ايزنشتين، بوصفها فناً راقياً، أما الجاز الذي رفضته مدرسة فرانكفورت باعتباره أحد أشكال الثقافة الاستهلاكية، فقد تم قبوله فيما بعد كفن معتمد، وكذلك الحال بالنسبة لأفلام هتشكوك، إن هذه التطورات تشير إلى أن التمييز بين الثقافتين لابد وأن يأخذ بنظر الاعتبار العلاقات السلطوية المتغيرة بين الجماعات التي تضع قيود الذوق.

– الاعتراض الثالث على النظرية يأتي من عدم توفرها على فهم كاف لدور المتلقي في الثقافة الشعبية، وهنالك

دراسات كثيرة حاولت أن تحلل فهم نظرية الثقافة الاستهلاكية للمتلقي نذكر منها اثنين. الأولى: تعتمد مفاهيم النقد النسوي الحديث في أوروبا. وضعها مودلسكي عن المدخل النسوي إلى الثقافة الواسعة (نشرت عام ٢٠٠١ ضمن كتاب «رقي النظرية/ وصناعة الثقافة) ويرى مودلسكي أن دعاة نظرية الثقافة الاستهلاكية يميلون إلى تأنيث الثقافة الشعبية، وتذكير الثقافة الراقية فهم يعزون للثقافة الواسعة صفات مساوية للأنوثة من الناحية الثقافية مثل الاستهلاك، والسلبية، والعاطفية، ويقابلونها بخواص ترتبط بالذكورة يعزونها للثقافة الراقية مثل الإنتاج والنشاط والفكر، أي إنهم يرون أن سلطة الرجال تنعكس في التمييز بين الثقافة الشعبية والثقافة الراقية، ويرى مودلسكي أن أهم أخطار الثقافة الشعبية بالنسبة لهؤلاء أنها يمكن أن تؤنث جمهورها مستخدمين لغة في وصف علاقة المتلقي بتلك الثقافة، مشتقة من العلاقة بين الرجل والمرأة مثل «الإغراء» و «التغلب» على جمهور «سلبي» و «ضعيف» من خلال «الخيال الجامح» و «الرومانسية» و «الهروب».

الدراسة الثانية التي حاولت أن تحلل فهم نظرية الثقافة الاستهلاكية للمتلقي هي كتاب «انج» «مشاهدة دالاس»، الصادر عام ٢٠٠٢، حين بذلت محاولة لدراسة أيديولوجيات مشاهدي مسلسل «دالاس» الذائع الصيت لتفسير أسباب مشاهدتهم، وتقويمهم له، ولاحظ البحث أن أولئك الذين نفروا من المسلسل أو سخروا منه عبروا عن موقفهم بثقة تامة، بينما بدا أولئك الذين أعجبهم المسلسل أقل ثقة بالنفس عند تعليل موقفهم، وبعضهم أشار إلى القيم الإيجابية التي يكرسها المسلسل مثل رسالته في أن المال لا يصنع السعادة، بينما بدا آخرون معتذرين وخجلين من استمتاعهم بنتاج ضحل واستهلاكي، ولاحظ البحث أن الموقفين ينطلقان من نظرتين إلى الثقافة الشعبية، الأول يعكس رأي أصحاب نظرية الثقافة الاستهلاكية، وهي نظرة متجذرة اجتماعياً مما يوفر الثقة لدعاتها. أما الثاني فهو موقف دعاة النزعة الثقافية الشعبية التي تستند إلى مبدأ قبول مختلف أنواع الأذواق الثقافية واحترام ما يحبه الناس. وتشير الدراستان المذكورتان أعلاه إلى أن جمهور الثقافة الشعبية ليس متجانساً ولا سلبياً، بل هو متمايز اجتماعياً وثقافياً، وقد تشكل ذوقه وفق شرط اجتماعي محدد،

ويرى دعاة إعادة النظر أن علينا الإقرار بأن جمهور الثقافة الشعبية أكثر حيوية وقدرة على التمييز مما كنا نظن.

وقد تشير إعادة النظر في نظرية الثقافة الاستهلاكية ردوداً مضادة فتكون بذلك منطلقاً لجدل مطلوب في وقتنا الراهن حول ثقافة شملت كل مرافق حياتنا وتخللتها، لكن المهم هو الابتعاد عن الموقف السلبي المطمئن إلى قناعاته المغلقة في التعامل مع ثقافة نتنفسها كل يوم.

☆ ☆ ☆

الإبل

د. خليل المقداد *

أنواع الإبل:

الإبل أو الجمال وهي أنواع متعددة منها ابل الساحل -ابل الداخل- ابل المغاتير- ابل المرتفعات. ومنها: نوع العوادي على حدود اليمن - وابل الحضانة: في وادي العقيق منطقة الباحة. كما توجد شجرة ونسب للإبل عند البدو. ابل السباق (الهجن)- ابل إنتاج للحليب واللحم- وتعتبر الإبل العربية هي الأفضل.

---

* باحث أثري سوري.

العمل الفني: الفنان زهير حسيب.

أسماء الإبل:

سميت الإبل بأسماء عديدة منها سفينة البر - سفينة الصحراء - أبو أيوب - أبو صفوان - المجاهين أي ذات اللون الأسود وللجهنة أي الليل - المرية - المغاتير - البيضاء في الجزيرة العربية - الصفر - الشعث وذات الأقدام الحمراء - الحمر - الزرق وذات اللون الأشهب وتعرف الإبل بألوانها السبعة المذكورة[1].

وربما تأتي الأبحاث اللغوية المستقبلية وكذلك الحفريات الأثرية لتساعدنا على المعرفة الدقيقة والإجابة على هذه التساؤلات. ففي لغة أهل البيدجا (البليميين) نجد أن التعبير الرئيس للإشارة إلى الجمل أو تسميته فهي كلمة كام (Kam)، وفي بلاد النوبة الشمالية؛ فإن كلمة كام تلفظ كامتي (Kamti). أما قبائل التيبو فقد سمت الجمل باسم قوني (Goni)، ويبدو أن هذا التعبير كان قد انتشر من قبلهم في بعض مناطق السودان الشرقية حيث كانت تمر قبائل التيبو. من أجل إدخال الجمل[2].

وفي تلال مندرا (إلى الشمال من الكميرون) فقد كان الجمل يدعى أيضاً قوني، والذكر يدعى ايلد قومي (Elde (Gomi). وحتى جماعات الماسايس (Massais) فيدعون الجمل باسم توم (En- tomes nandi، tombes). وفي اللهجات البربرية بما فيها لهجة الطوارق نجد أن واحداً من التعابير الرئيسة التي تشير إلى الجمل هو الغام (Algham)؛ وقد تحول بالتأكيد من هذه الكلمة اسم هوسا راكومي (Haussa rakumi) والاسم نوب راكوم (Nupe rakum). ويبدو أن جميع هذه التعابير لم تكن قد تحولت من أسماء عربية، ولكن وجدت كلمات أخرى تظهر على وجود نوع من الاشتقاق.

تاريخها:

وبناءً على نتائج الحفريات والأبحاث الثرية فإن تربية الجمل ذو السنامين واستعماله كحيوان نقل فمن المرجح أن هذا الأمر انطلق من منطقة توران في النصف الثاني أو الربع الأخير من الألف الثالث ق.م. كما ويظهر حسب بعض الدلائل أن الجمل (الجمل ذو السنام الواحد) كان يعيش في حالة التوحش في إفريقيا الشمالية وفي الشرق الأوسط حتى الألف الثالث ق.م، ثم انقرض بعد ذلك باستثناء العربية؛ ونحن بدورنا نجهل الوقت الذي حدثت فيه هذه الإبادة التي أخذ نهايته في أفريقيا الشمالية[3].

وقد وجد في مصر حبل مصنوع من شعر الجمل تم تأريخه أو إعادة تأريخه إلى السلالة الثالثة، كما وجدت حاجات مصرية نشرت من قبل الباحث جاميس (James) عام ١٩٥٥م[٤] تظهر الجمل ذو السنام الواحد من بين الحيوانات المتوحشة الأخرى. وبناءً على ذلك فإن ذلك الأمر يعود إلى المملكة الحديثة. وتأهيل الجمل لم يكن مستبعداً فقط من منطقة حوض النيل حيث كان الطقس لا يتوافق مع صحته، ولا في أي منطقة صحراوية في الشمال الإفريقي أيضاً. وهذه المسألة كانت قد عولجت بعمق من قبل الباحث ويلز (Walz)[٥].



ونحن بدورنا لا نستطيع القول والتأكيد إلى أي منطقة من العربية يعود استئناس الجمل ذو السنام الواحد وللمرة الأولى. ولكن يفترض الباحث ألبريث (Albright) أن هذا الشيء كان موقعه في العربية الجنوبية في

منطقــة ما مجاورة للصــحراء الكبرى. ولكن لا نعــرف أي شــيء عن فكــرة الجمل كونه حيوان من القطيع الذي تم تأهيله قبل القرن الحادي عشر ق.م. ونجد أنَّ كلاً من ألبرخت (Albright)[٦]، ووالــز (Walz) يقفون في مواجهة رأي دوسو (Dussaud) الذي يقول إن الميدانيــين والعماليين وأبناء الشرق قاموا بغارات على فلســطين فــوق ظهور الجمال؛ وكان ذلــك نحو النصــف الأول مــن القرن الحادي عشر ق.م[٧].

وحسب رأي كل من ألبرخت ووالز فإن هذا التاريخ هو الأقدم الذي تعزى فيه الإشارة إلى الجمل الأهلي. وهذا العصر أيضــاً هو الذي تمّ فيه إنتاج الحديد في فلســطين، كما يفكر ألبرخت أن الجمل كان قد تأهل بشــكل فعلي في العربية بين القرون السادس عشر والخامس عشر –والثالث والثاني عشر ق.م.

وأنه لمن الفريد أن نجد أن وسائل الركوب كانت مقتصرة فقط على الجمل والحصــان، وأن بداية انتشــارها في النصــف الثاني من الألــف الثــاني ق.م، وهذا يعنــي أن الجمل انطلق أو جــاء من العربية بينما الحصــان فمــن المؤكد أنه جاء من المناطق الجبلية عبر مناطق القوقاز.

ويفترض الســيد هانكر أنــه كان هناك طلباً متصــاعداً على حيوانات الأصــنام من أجل نقل المعادن، وهــذا الأمر يدعو بالطبع إلى الإكثــار مــن تربية الخيــول في المناطق الجبلية. أما تربية الجمل ذو الســنام الواحد فقد كان من الواضح أيضاً أنها كانت متلائمة مع المنطقــة العربية وذلك مــن أجل الطلب المتزايد على الحيوانــات الضرورية من أجل النقل الذي كان يتم بين العربية الجنوبية من جهة وبلاد البحر المتوسط وبلاد النهرين من جهة أخرى.

بينما نجد أن الحفريات التي قام بها غلويك (Glueck) في إبزيــون –جيــبر (Ezion–Geber) تؤكد أن قصــص الملاحة لسليمان أو ســالومون وحيرم إلى بلاد الذهب والأوفر كانت قد توافقت مع الدلائل التاريخية، وأن تاريخ مملكة ســبأ الــذي تم شرحه في نفس الفصــول يظهر أن حمــلات الأوفر كان لها دلائــل تاريخية عميقة. وهذا الأمر يظهر في جميع الدلائل ويــدل على أن قوافل الجمال كانت تتنقل بين العربية الجنوبية وفلســطين في القرن العاشر ق.م.

أمــا الجيشــ الذي كان يركــب الحيوان فمــن الطبيعــي أن هذا الحيــوان كان يتفق

كلياً مع حيوان الصــحراء وبهذه الحال ليس هناك سوى الجمل الذي يتحمل جيداً العطش وسريع الجري جداً في المسير من أجل أن يجتاز المسافات الطويلة؛ فهو بذلك يمتلك تفوقاً كبيراً في المعركة ضد عربات الحرب التي تجرها الخيول. وقد كتب البرخت في ذلك يقول.

(إن البداوة العربية كانت مشروطة بتأهيل الجمل الذي يسمح للبدو في العيش كلياً مع قطعانهم من الجمال: فهم يشربون حليب النوق ويأكلون اللبن ولحم الجمل ويقطعون المناطق، ولذلك فالجمل هو الحيوان الوحيد الذي يستطيع أن يقاوم ويسير بسرعة لمسافات تستمر عدة أيام، وإذا احتاج الأمر فإنه يقطع الصحراء بدون ماء. ويأكل الأعشاب البرية والأشواك الصحراوية والتي ترفضها الأغنام والماعز)[8].

وفوق مسافات طويلة فإن السير على ظهر الجمل يعطي سرعة متضاعفة ثلاثة مرات عن الحصان. ويمكن للجمل أن يسير ٣٠٠كم خلال يوم واحد، كما أن الحمل الذي بإمكان جمل القافلة أن يحمله على ظهره يصل إلى ٢٠٠كغ، أي أكثر من الحصان بـ ١٥٠كغ[9].

وفي العربية فلا يقتصر الأمر على تربية أجناس جمال الترحال فقط أو جمال الركوب في المناطق السهلية، ولكن يربون أيضاً الجمال الجبلية التي تستطيع السير في الدروب الضيقة والوعرة جداً كما هو الحال في عسير أو في بلاد العوالق وحضرموت، وعند المجيء من السهل وقبل الوصول إلى العقبة (العنق الجبلي) فإن جمال السلالة السهلية تترك مهمتها وتحل محلها السلالة الجبلية. وفي العربية نجد فقط أن الجبال التي تحاذي الجنوب الغربي من سفوح اليمن هي الوحيدة التي تكون رطبة جداً والصالحة من أجل تربية الجمل[10].

ويجب التذكير أنه قبل تأهيل الجمل فكان الحمار فقط (ويمكن أن يكون الحمار الوحشي) هو الذي كان يستعمل من أجل النقل في العربية، وإنه لمن الغريب أن الجمل ذو السنامين هو الذي كان قد تم تأهيله في توران قبل حوالي ألف عام من العصر الذي أخذ فيه تأهيل الجمل في العربية؛ ولم يكن له أية أهمية لاستعماله كدابة ركوب، ولكن فقط كحيوان نقل. ونقول بذلك إن تأهيل الجمل كان متوازياً مع استعماله كدابة ركوب، وهذا الشيء لا يمكن أن ينطبق على حيوان آخر. ويؤكد ويلز (Walz) مرتكزاً على وايزنر

(Wiesner) أن تأهيل الجمل ذو السنام الواحد كان مستقلاً كلياً عن تأهيل الجمل ذو السنامين وكذلك عن تأهيل الحصان[11].

ورغم ذلك فيظهر أن هناك ابتكارات كانت قد عملت وبالتوازي وفي نفس التاريخ في منطقتين، وكان يندر حدوث مثل هذا الأمر في فترات ما قبل التاريخ وكذلك في التاريخ أيضاً. أما بالنسبة للحصان فقد استخدم في بلاد النهرين وعلى الأقل منذ ٢٠٠٠عام ق.م تقريباً، ولكن لا توجد أي إشارة إلى وجود جيش كان يرتكز أو يعتمد على حيوانات الخيل قبل عام ١١٢٠ق.م.

وكما أن الجمل ذو السنامين كان قد رُبي في توران الجنوبية وعلى الأقل منذ ٢١٠٠ق.م، وبذلك يكون الاحتمال ضعيفاً في الاعتقاد أن هناك قوافل تجارية كانت تصطحب معها الجمل من وقت لآخر في بلاد النهرين ومن ثم نحو الجنوب. وفي هذه الفترات المضطربة في بداية ووسط الألف الثاني ق.م، ومن الممكن أن هذا الأمر هو الذي أعطى الدافع إلى تأهيل الجمل ذو السنام الواحد.

وقد عثر على رأس جمل فوق جزء من إناء فخاري أثناء الحفريات الأثرية في موقع الحجر شمال غرب الجزيرة العربية والمحاذية للشاطئ الغربي للبحر الأحمر من قبل السيد حوميد، وكذلك في موقع بيضان (قطبان قديماً) في العربية الجنوبية من قبل البريخت (W.f.Albright) وتم تأريخها من قبله بتاريخ تقريبي يعود إلى القرن الثامن ق.م (أو التاسع). كما يوجد تاريخ يتعلق في طبقة سفلية ضمن الحفريات الأثرية في الحجر من قبل السيد حوميد يعتمد على تحليل الأشعة الكربونية يظهر أن التاريخ الذي يعتمد على قراءة النصوص التمهيدية من قبل البريخت (W.f.Albright) من خلال نص متشابك الحروف وجد في طبقة ذات عمق ٠,٥م وتحت الطبقة التي عثر فيها على الخشب المكربن الذي تم إجراء الفحوص عليه لم يعود إلى فترة سابقة كثيراً، ولكن على العكس يعود إلى فترة قرن لاحقة من الزمن[12].

ووجد تمثال نصبي في تل خلف يظهر رجل يركب على ظهر جمل ويعود إلى القرن التاسع. ويقول ويلز (Wals): إن أولى الكتابات المسمارية المتعلقة بالبدو الذين يركبون الجمل يبدو أنها تنتسب إلى (البدو الآراميين) الذين قاتلوا ضد خصمهم الآشوري ناصر بال في عام ٨٨٠ق.م، وكذلك بعد هذا التاريخ بقليل في عام ٨٥٤ق.م. ومع الأخذ

بعين الاعتبار لهـذا العرض الهام المتعلق في الموقع الذي شـغلته العربية الجنوبية في هذه الفــترة، وكذلك موقعها المركــزي في النطاق الأكثر قدماً للملاحة في المحيط الهندي. فلا يمكن أن يغيب عن بالنا بأن العربية الشمالية والعربيـــة المركزيـــة والتي تنتمـــي إلى بداوة الجمال؛ كانــت محاطة في مناطق حضـارة زراعية من كل الجهات وليســت في اتصــال مباشر مع البحر.

ولم يكن بالإمكان تصـعيد المشـكلات في اخـتراق الصـحراء التي تحوي المسـافات الطويلة بين نقــاط الماء إلا بعد عصر تأهيل الجمـال. كما أن طرقات الصــحراء تمتلك أهميـــة كبـيرة ومركزيــة من أجـل التجارة وخاصــة تلك الطرقات التي كانت تصل بين بلاد النهرين وســورية. وتفتح أيضاً وبسهولة المجال للجمال وقوافل الجمال بالتنقل بحرية وتذليل المشـكلات والصـعاب المستعصـية لاجتيـاز الجزيرة العربيـــة انطلاقاً من بلاد النهرين ومن جهات البحر الأبيض المتوسـط حتى السفوح الخضراء في العربية الجنوبية. وأخـذت الينابيع والآبار تـزداد أهميتها في القســم الشــمالي من العربية كونها أصبحت أماكن اســتراحة للقوافـل التجارية ومراكز تجارية وسياسية أيضاً.

وبما أن البدو هم أصحاب تربية الجمال الضرورية للقوافل، لذلك أخذت عشـائرهم تهتـم في توفير الجو الهـادئ للتجارة، لذلك فقد أخذت تسعى من أجـل ذلك الأمر إلى تشـكيل الوحدة والتعاون بينها وبين ممالك المـدن والواحـات الواقعة علـى الطرقات الرئيسة.

وقد ذكر كل من أفاتارشيد وأرتيميدوروس وأسترابون من خلال قصصهم ورواياتهم عن قبيلة ديبي في الأراضـــي المنخفضة (تهامة) في عســير فقد كتبـوا: (لقد كانوا يعيشـــون ببساطة مع جمالهم وبفضـلها، ومعها كانوا يقاتلون، وفوق ظهورها كانوا يسـافرون، كما أن غذائهم كان حليب النوق ولحم الجمال).

تربية الإبل:

الإبل هو الوحيدة التي رضيت في مرافقة الإنســان في الجزيرة، وقدت لــه لحمها إذا جاع والماء إذا عطش وحليبها كغذاء. وتحتاج تربية الإبل إلى عناية ودراية خاصــة، ويجب ترويضها منذ الصغر لمعرفة صاحبها وبيتها ومقرهــا، ويتم ذلك منذ بدايــة الأمر وعلى سبيل المثال تجويعها ثلاثة أيام بحجب الطعام والشراب عنها ثم تسريحها بمسافات قصيرة وهكذا وخاصــة فيما يتعلــق في تأقلم الإبل

مع الأجواء الحديثة. ويتم وسم الإبل بالكي لمعرفة هويتها، وهذه عادة قديمة عند البدو منذ القديم؛ فكل قبيلة لها وسمها المحدد (وعند كثير من القبائل الإفريقية يتم وسم الرجل أو المرأة كدليل على الانتماء إلى قبيلة أو عشيرة معينة، أو للتعبير عن الأصالة) وهذا الشاهد على معرفة الإبل[١٣].

أمراض الإبل:

كانت الأمراض عند الإبل سابقاً نادرة ثم أخذت تظهر عندها أمراض الجذام -السعر- الجرب وتتم معالجة الإبل من الأمراض بعدة وسائل أهمها الكي -السم البري- الأعشاب-

استخدامات الإبل:

استخدمت الإبل للرياضة والسباق. وتحدد المسافة حسب نوع الجمل وعمره ونوعه. كما يتم استخدامها من قبل الإنسان للطعام بلحمها - والشراب بحليبها - والماء إذا عطش. وكذلك استخدام الشعر والجلد.

غذاء الإبل:

ترعى الإبل كامل نباتات الصحراء التي لم تأكلها الحيوانات الأخرى، وتعرف الإبل النباتات السامة من غيرها بواسطة الشم. ويعتبر الجمل حيوان أنيس فلا يقتلع النباتات أو الأشجار من جذورها وإنما يقتصر الغذاء على الأغصان والفروع للمحافظة عليها وتاركاً المجال للنمو من جديد.

تأقلم الجمل مع الطبيعة:

ترتفع حرارة الجمل في الصيف لتخفيف الفارق بين الحرارة الداخلية والخارجية، وكذلك لعمل توازن بين الرطوبة والحرارة الخارجية وتنظيم حركة البول. والمحافظة على تخزين الطاقة لوقت الحاجة، ويعتبر الجمل أقل الحيوانات شرباً للمياه، وكذلك الطعام، وتعتبر الجزيرة العربية هي المنطقة الأفضل للجمل.

أما الجمال فيمكنها أن تمشي وتستمر في المسير حتى سبعة عشر يوماً دون ماء وتحت درجة حرارة تبلغ حتى ٥٧ درجة، ويمكنها أن تشرب أكثر من ١٣٠ لتر من الماء دفعة واحدة. وهذه الكمية تمكنها في تحمل السير لمسافات طويلة في الصحراء، وليس فقط من أجل عملية الامتصاص والابتلاع للمياه المخزنة وحسب حاجتها إليها، ولكن من أجل وضع هذه الكمية لخدمتها وحاجتها الاحتياطية أيضاً.

ويمكن للجمل أن يتحمل تصاعد الحرارة المعتادة بمعدل ٩درجات زيادة على المعدل المعتاد عليه جسمه ودون فقدان الكثير من الماء عن طريق التعرق، كما يمكنه أيضاً أن يكدس الطاقة تحت كومة الشحم الذي يوجد في الظهر المحدب[١٤].

الهوامش

١- عرضت قناة التلفاز الفضائية الإخبارية العربية وعلى عدة حلقات في صيف عام ٢٠٠٦م تحقيقات جيدة ومفصلة عن الإبل في الجزيرة العربية شارك فيها العديد من المختصين في هذا المجال من مربين وأخصائيين وأطباء. وقد كان لهذه الحلقات فائدة جميلة قدمت للمهتمين بهذا الموضوع معلومات دقيقة وجيدة وكان لها دور في الاهتمام في نشر هذه الدراسة وخاصة في الفقرات الأخيرة من هذه الدراسة المقتضبة.

2- H. von Wissmann. L'apparition du nomadisme chamelier dans le nord de l Afrique. Dans L. encyclopedie de l. islam. Tome l. Paris 1975. pp913916-.

3- H. von Wissmann. Et F. Kussmaul. Le nomadisme Bedouin en Arabie. Dans L. encyclopedie de l. islam. Tome l. Paris 1975. pp 906- 911.

4- A. Jammes. Dans Archabic South -Arabian Inscription in Vertical Columns. dans Bull. Amer. Schools Orient. Research. CXXXVII. 1955. 32-38.

5- R. Walz. Zum problem des Zeitpunktes der Domestikation der altweltichen cameliden. dans ZDMG. CI. 1951n. 29 - 51.

6- W. F. Albright. Dean. dans Albrecht Alt Festschrift. Geschichte und Altes Testament 16. 1953.

7- R. Dussaud. La penetration des Arabes en Syrie avant l.islam. Paris 1955.

8- W. F. Albright. Dean. dans Albrecht Alt Festschrift. Geschichte und Altes Testament 16. 1953.

٩- مقداد (خليل) بصرى عاصمة الأنباط - دمشق ٢٠٠٤. ص٧٠-٧٥.

10- N. George. The camel in Egypt. dans Brit. Veterin. Journ. CVI. 1950.p.76 - 81.

11- H. von Wissmann. et F. Kussmaul. Le nomade a cheval. Dans L.encyclopedie de l. islam. Tome l. Paris 1975. pp 903905-

12- C.S. Coon. Badw. Dans L.encyclopedie de l. islam. Tome l. Paris 1975. pp 896 - 920.

13- عبد الكريم عبد الحشاش - تطبيع الإبل - الأسبوع الأدبي - العدد 1042- تاريخ 2007/2/10م ص6

14- CS. Coon. Badw. Dans L. encyclopedie. de l. islam. Tome l. Paris 1975. pp896-920.

☆ ☆ ☆

من رواد النهضة العربية
المفكر التنويري سلامة موسى ١٨٨٧-١٩٥٨

*
خليل بيطار

لا تتحقق النهضة دون علم حديث، ودون تراكم خبرات المفكرين المستنيرين، وأعمالهم المثابرة، وممارستهم العملية الحقيقية وتضحياتهم الجمة. وقد وفرت صدمة الحداثة الأوروبية لمصر بعد حملة نابليون بونابرت عليها عام ١٧٩٨، وإصلاحات محمد علي وابنه اسماعيل نهضة علمية وثقافية بعيدة الأثر، ساهم في ترسيخها علماء ومفكرون ومثقفون وصحفيون ومهندسون وضباط، درس معظمهم في أوروبا، وجمعوا بين معرفة العلوم الحديثة وبين استيعاب تراثهم، وعادوا أكثر حماساً لنشر المعارف وبث نسمات الحرية والمساواة، وبناء مؤسسات مجتمع مدني.

* باحث من سورية.

- العمل الفني: الفنان رشيد شما.

وسلامة موسى أحد هؤلاء المفكرين الرواد- برغم صعوبة الريادة أوائل القرن العشرين- الذين لم يفقدوا بوصلتهم. ولم يستكينوا للتهميش، أو لردود الأفعال اللاعقلانية أو الغيبية لمواجهة أزمات واقعهم الغارق في الفوضى والعصبيات والبؤس والتخلف، فانتفضوا يحللون تجارب الآخرين الناجحة، ويدافعون عن الحرية الفكرية التي تبررها المنفعة العامة، مدركين مسؤوليتهم وخطورة أعمالهم.

الثقافة خبز الشعب

أدرك سلامة موسى مبكراً أهمية الثقافة ودور المثقف، لكنه اشترط أمرين في تعريفه للمثقف: «الأول: أن تتصل ثقافته بالمجتمع، بحيث يربط تفكيره كله واهتمامه كله بما ينفع المجتمع ويرقى بأفراده. والثاني: أن يطلب الشمول والعموم لا التخصص، وليس في هذا إنكار لقيمة التخصص الذي يحتاج إليه عصرنا» (محاولات ص٢٢٩). والتعريف قريب من المفهوم الفلسفي عن المثقف. ودعا إلى تعميم الثقافة. واطلع على الكنوز الثقافية لعصر النهضة الأوروبية وسير كتابها، وذكر أسماء عشرة كتب تركت تأثيرها عليه وهي «لعبة البيت لهنريك إبسن، وحياة المسيح لإرنست رينان، والإنسان والسوبر مان لبرنارد شو، والإخوة كارامازوف لدوستويفسكي، والاعترافات لجان جاك روسو والحرب والسلام لتولستوي. وجزيرة البنغوين لأناتول فرانس، وثلاثية مكسيم غوركي (طفولتي- في العالم- جامعاتي)، وحياة غاندي، وسيرة نهرو) (الأدب للشعب ١٦٣-١٧٠).

وتعميم الثقافة مرتبط بسويّة وعي الشعب، لذلك لم يجد سلامة موسى غضاضة في تبسيط أسلوبه وتقريبه من الخطاب اليومي برغم انتقاد العقاد له. ووصفه أسلوبه بالتبذل، وفكرة سلامة موسى في هذا الشأن أن الكتابة اقتراب من الواقع والناس، فهو يقول: «أنا حين أكتب لا أتعالى بل أتساوى» (الأدب للشعب ص١٥٩). وعلل ذلك في رده على العقاد، واعتباره تبسيط الأسلوب وسيلة تجعل الثقافة حقاً ممكناً لجميع المواطنين، فقد قال: «إننا نمدح الأسلوب الديموقراطي في نظام الحكم وفي نظام العائلة. وفي



نظام التعليم وفي نظام المجتمع ولكننا ما نزال نتعلق بالأسلوب الأرستقراطي في الكتابة، وليس لهذا من سبب سوى أن الكتاب لا يزالون بعيدين بنفوسهم عن الشعب» (الأدب للشعب ص١٨٧). وكان سلامة موسى أحد أعلام الطبقة الجديدة الناهضة من المفكرين والكتّاب التي حاولت ربط الأدب والثقافة بالمجتمع خدمة للأهداف الإنسانية.

حرية الفكر أساس التقدم

أرجع سلامة موسى النهضة الفكرية التي عرفتها مصر أواخر القرن التاسع عشر إلى عهد اسماعيل، ففي عهده ظهرت الصحف، واتسعت دعوة الأفغاني ومحمد عبده إلى إصلاح الأزهر، وشكلت مصر ساحة لنشاط المبدعين وازدهار الآداب والفنون وانتشار الكتب والصحف، ورأى أن مصر خدمت الحرية الفكرية في الشرق كله بمطبوعاتها وصحفها، ونبغ فيها كتاب يدعون إلى حرية البحث في الدين والعلم والأدب (حرية الفكر ص٢٢٠).

وركز موسى اهتمامه على الدعوة إلى

تطوير الصناعة والنهوض بالزراعة ونشر التمدن في المجتمع، وكان أحد المهتمين بنظرية التطور، لكن تعلقه بحرية الفكر دفعه إلى العمل الصحفي والفكري،[1] فقد كتب مقالة عن نيتشه في مجلة «المقتطف» عام ١٩٠٩، وألف كتيباً عن «الاشتراكية» عام ١٩١٢، وكتب في عدد من الصحف والمجلات منها مجلة «الشؤون الاجتماعية» وجريدة «أخبار اليوم»، وأنشأ مجلة «المستقبل» عام ١٩١٤، وعطلت له الرقابة خمس عشرة جريدة ومجلة بسبب دفاعه عن حقوق الشعب.

وجرى التحقيق معه بسبب مقالة تعرض فيها إلى بذخ القلة وعوز الأكثرية، جاء فيها: «هناك من ينفق ألف جنيه في اليوم، وهناك من يعيش بثلاثة قروش، وقد لا يجدها!». وعرف من قراءاته لسير المفكرين عبر التاريخ، ومن معاناة معاصريه ومعاناته الشخصية أن معظم الذين باحوا بما في صدورهم بما اعتقدوا أنه حقيقة علمية أو فلسفية أو دينية، نالوا من الاضطهاد بالتعذيب أو الحبس أو القتل الشيء الكثير الذي لم يخل منه قرن، وعلل ذلك بأنه نتاج الكسل والمصلحة والتعصب والخوف. واستشهد ساخراً بقصة لهندريك وليم فان لون، تدور حول سائح مر بقوم وحاول أن يدلهم على طريق المعرفة فرجموه، وحين عرفوا الطريق بعد زمن طويل تذكروا فضله لكنهم لم يعثروا على جثته، فبنوا له نصباً في المكان الذي رجم فيه!

مشروع ثقافي طموح

ألف سلامة موسى عدداً من الكتب، وكتب مقالات نقدية وتربوية وفكرية كثيرة. وطرق موضوعات الأدب والتربية والاجتماع والفلسفة، ودافع عن الأفكار التحررية والاشتراكية. وحث على الاستزادة من العلم، واعتماد المنهجية العلمية، وطالب بالحرية والمساواة، وبرز ذلك في أعماله كلها، ومن أبرز كتبه: محاولات - الأدب للشعب - تربية سلامة موسى - حرية الفكر وأبطالها في التاريخ - قصة «بين الكتمان والبوح».. الخ.

ولعل كتابه «حرية الفكر» يشكل مشروعاً فكرياً مختصراً وقراءة نقدية لتاريخ الفكر وأبرز أعلامه خلال ألفي سنة. والكتاب يضم ثلاثة أجزاء، عرض في الجزء الأول حركة الفكر في العصور القديمة عند الإغريق والمسيحيين والفرس والمسلمين، فقد دُرِّست فلسفة أرسطو وأفلاطون وعلوم الأثينيين في

جامعة الاسكندرية، وازدهرت العلوم وحركة الترجمة في القرنين الثاني والثالث الهجريين من حكم الدولة الإسلامية، وفوض الخلفاء النصارى واليهود كثيراً من الأعمال، فقد كلف الرشيد حنا بن ماسوية بالإشراف على جميع المدارس. وذكر الكاتب تأثير المانوية في المسيحية والإسلام (وهي حركة أسسها ماني الفارسي ٢١٥-٢٧٧) تدعو إلى التوفيق بين الأديان، والتحكم بالشهوات والزهد، ثم صُلب ونُكّل به قبل انتقال أفكاره إلى أوروبا)، ورأى سلامة موسى أن محاكم التفتيش والمذابح التي جرت في المسيحية والإسلام كانت بسبب المانوية، ومن أمثلة ذلك قتل الحلاج المتصوف في حكم المقتدر عام ٣٠٩هـ، وقتل السهروردي في حكم صلاح الدين بسبب تقاه، كما تعرض الكثير من العلماء والمثقفين للاضطهاد من قبل الفقهاء والرهبان، واضطر بعضهم إلى إحراق كتبه، (أحرق ابن حزم معظم كتبه التي بلغت ٤٠٠مجلد)، وأكد الكاتب من خلال عرضه أن حركة التاريخ وحركة الفكر تشكلان كلاً موحداً يتبادل التأثر والتأثير برغم الانفصال الظاهري للأحداث، وذكر شاهداً ورد في الفيدانتا يقول: «الانفصال بين الأشياء لا وجود له، ولا حقيقة له، وهو إنما يبدو على السطح فقط، أما في قرارة الأشياء فليس سوى الوحدة».

وفي الجزء الثاني عرض موسى لأبرز إرهاصات النهضة الأوروبية وأعلامها (بيكون- ويكلف- هس)، وبين أن مصادر روح التجديد فيها ثلاثة هي: أدب الإغريق، وعلوم عرب الأندلس التجريبية، والكتاب المقدس، وذكر تأثير التجارة على حركة الكشوف الجغرافية، وتأثير الطباعة على انتشار الكتاب برغم حظر الكنيسة لكثير من الكتب، وقد اعتبر ملتون الرقابة على الطباعة تقييداً لحرية الفكر، وجاءت البروتستانتية احتجاجاً على تسلط الكنيسة، ورغبة في الاستقلال القومي عنها (قبل أن تتحول فيما بعد إلى أصولية متشددة).

وعرض الكاتب بأسلوب موجز ومشوق حياة أبرز أعلام النهضة ومنهم أرازموس الهولندي ١٤٦٦- ١٥٣٦ صاحب كتاب «مدح الجنون» وهو كتاب ساخر على طريقة «دون كيشوت» يتهكم فيه على أنظمة عصره، ورابليه الفرنسي ١٤٩٠- ١٥٥٣ الراهب الذي تحول إلى دراسة الطب، وألف كتاباً

ساخراً من مفارقات عصره سماه «حياة غرغنتوا وابنه». وسوزيتي الايطالي الذي ينتمي إلى أسرة شجعت الطباعة برغم تحذيرات الكنيسة، وألف كتابين: «المسيح الخادم»، و«تعليم راكوف». واعتبر الأخوة والمساواة جوهر المسيحية. ومونتين الفرنسي ١٥٣٢- ١٥٩٢ الذي كتب مقالات كثيرة عن التسامح، ونوه في مقالته «حرية الضمير» بالملك المتسامح الذي يعيش الناس في كنفه على اختلاف عقائدهم.

وبرونو الإيطالي ١٥٤٨- ١٦٠٠ الراهب المتمرد، الذي قال: ليس للحكومة الحق في أن تعين للناس تفكيرهم، وليس للهيئة الاجتماعية أن تعاقب بالسيف الذين ينشقون عن عقائدها الشائعة (وقد أقيم له تمثال في المكان الذي أحرق فيه عام ١٩٠٠). وجاليليه الإيطالي ١٥٦٤- ١٦٤٢ مخترع التلسكوب والترمومتر الذي سجن وكاد يحرق لولا مساومته.

ووازن موسى بين موقف الأصولية المتحجرة، وموقف بناة النهضة متوقدي الذهن، فكالفن الفرنسي البروتستانتي ١٥٠٩- ١٥٦٤ أنشأ محكمة تفتيش وأعدم العالم الشهير سرفيتوس، وفيليب ملك إسبانيا نفذ مذبحة بحق البروتستانت في فرنسا، وقاد التعصب الديني أوروبا إلى الحروب والخراب، بينما ساهم أعلام النهضة في تبين فضائل العلم والتسامح والتجريب والشك، ومن هؤلاء: فرانسيس بيكون وسبينوزا وديكارت وهوبز ولوك، فقد كشف بيكون أن الطبيعة تحوي أسراراً لا يقدر خيالنا على الوصول إليها، ودعا لوك الحكومات إلى ترك التدخل في معتقدت الناس لأن تلك مجبلة للهلاك، وقال فولتير: وما علي إذا لم يكن لي صولجان؟ أليس لي قلم؟ وألف سبعين كتاباً في الدفاع عن المفكرين، ومنها كتاباه «قبر التعصب» و«التسامح» ومن أمثلة التعصب آنذاك حرمان البروتستانت في فرنسا من دراسة القانون، وحرمان الكاثوليك في انكلترا من أي منصب في الدولة.

وأدى المخاض الأوروبي إلى قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ التي أعلنت حقوق الإنسان، وأثرت في العالم كله، وإن صفي خلالها عدد كبير من المفكرين بتهم زائفة.

وساهم توم بين الإنكليزي صاحب كتابي «عصر العقل» و«حقوق الإنسان» بمحاربة

التعصب والظلم، وقال: «كل حكومة وراثية تكون بطبيعتها ظالمة».

وبيّن سلامة موسى فضل داروين واضع كتابي «أصل الأنواع» و«أصل الإنسان» ونظريته في النشوء والارتقاء وهربرت سبنسر الذي عمم هذه النظرية على العمران والأخلاق.

أما الجزء الثالث من الكتاب فقد تحدث فيه الكاتب عن النهضة في مصر التي بدأت في عهد اسماعيل عملياً، إذ ظهرت الصحف، وبرز مفكرون نهضويون كبار أمثال محمد عبده وقاسم أمين وشبلي الشميل وفرح أنطون وغيرهم وتعرض بعضهم للاضطهاد بسبب آرائه ومؤلفاته، فقد اضطهد الشيخ علي عبد الرازق بسبب كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، ورأى موسى أن العلوم والفنون التي تملصت من قيود العبودية قد تقدمت كالطب والكيمياء والميكانيك والرياضيات، ونبه إلى المفارقة بين القول والعمل. وسخر قائلاً: من الغريب أننا سبقنا الأتراك إلى القول بحرية المرأة، لكنهم سبقونا إلى العمل بها»، واعتبر أن النهضة عملية طويلة تتحقق بالعمل المثابر.

مقتطفات من كتاباته

إن الأدب الملتزم يحتم علينا أن نتناول المشكلات الاجتماعية، لأن الأديب مسؤول أمام المجتمع والإنسانية. فيجب أن يقف على الدوام ضد الحرب، والاستعمار والاستغلال، وضد احتقار المرأة، وضد التفاوت بين الجنسين في الحقوق المدنية والدستورية والاقتصادية، وعليه أن يدعو إلى إنصاف العمال، وإلى دعوة الحب بين الجنسين.

– ليست العبرة في أن يكون الأدب سهلاً أو صعباً، لأن الكاتب الفذ هو الذي يجمع بين اليسر والعمق!

الأدب الملوكي والأدب الشعبي

– لقد وصل صوت كفاحنا وأنين عذابنا إلى باريس. وصار الطلبة والشباب يرددون صداه. وينبهون الضمير الفرنسي عنه، أما نحن في القاهرة فنلتزم الصمت، ثم يتغنى شعراؤنا بالجمل الذي فر من المجزر ولجأ إلى عدل الفاجر فاروق حتى لا يذبح!

رد على طه حسين

– إننا في حاجة إلى من يربون العامة والغوغاء، ويحملونهم على أن يدخلوا في العصر الجديد، عصر العلم بدلاً من

الخرافات، وعصر المساواة بين الجنسين بدلاً من الحجاب المنـزلي أو الاجتماعي، وعصر الاستبشار بالمستقبل بدلاً من الاعتماد على التقاليد والتقيد بالماضي، وعصر الزواج على أساس الحب، وعصر الصناعة والآلات، وعصر الاشتراكية بدلاً من الانفرادية. وعصر الأدب المرتبط بالمجتمع. الهادف إلى الإنسانية، بدلاً من الأدب الذي يحيا في الهواء والخواء، أو يأسن في البرج العاجي، أو ينشد اللذات للملوك والأمراء وللعامة والغوغاء!

مقال: نحتاج إلى كتاب شهداء

أبرز كتبه:

معظم كتب سلامة موسى هي جمع لمقالاته التي كتبها في الموضوعات التي شغلته، وقد نشر له أكثر من أربعين كتاباً منها: مقدمة السوبرمان عام ١٩١٠- نشوء فكرة الله عام ١٩١٢- الاشتراكية عام ١٩١٢- اليوم والغد عام ١٩٢٧- البلاغة العصرية واللغة العربية عام ١٩٥٢- الشخصية الناجحة- فن الحب والحياة- انتصارات إنسان- برنارد شو- الحب في التاريخ- غاندي والحركة الهندية- تربية سلامة موسى- أحلام الفلاسفة ١٩٢٦- طريق المجد للشباب- محاولات سيكولوجية ١٩٢٣- نظرية التطور وأصل الإنسان ١٩٢٧- هؤلاء علموني- كتاب الثورات ١٩٥٤- المرأة ليست لعبة الرجل ١٩٥٦- الإنسان قمة التطور- افتحوا لها الباب.

أبرز الكتب التي ألفت عنه:

أثر سلامة موسى في جيل بأكمله، وتأثر به مثقفون كثيرون مصريون وعرب وكتبت حوله دراسات عديدة، وألفت كتب قيمة حول أعماله ومشروعه الثقافي الكبير ومن أهم هذه الكتب كتاب «سلامة موسى وعصر القلق» لفتحي خليل، وكتاب «سلامة موسى المفكر والإنسان» لمحمود الشرقاوي. وكتاب «سلامة موسى وأزمة الضمير العربي» لغالي شكري- أبرز المتأثرين به.

أسئلة النهضة

شغل سلامة موسى- كغيره من رواد النهضة العربية - بالإجابة على أسئلة كبرى طرحها رواد النهضة الأوروبية ومنها كيف نبني مجتمعاً مدنياً حديثاً؟ وكيف نبني صناعة حقيقية؟، وكيف نبني مؤسسات دولة القانون؟ وكيف نعمم الثقافة؟ وكيف تكون الثروة الوطنية ملكاً للجميع؟ وكيف نقلص الأمية والتفاوت الاجتماعي/ وأثلة

كثيرة يجمعها سؤال واحد: كيف نتقدم؟

فهل أجاب موسى وزملاؤه النهضويون عن هذه الأسئلة الصعبة؟ يصح أن نقول إنهم حاولوا بالكلمة والفعل، وبالنصح الهادئ والسخرية المريرة أو بالاحتجاج الرصين أن يكشفوا مكامن الخلل، وأن يلحوا على الإصلاح في المؤسسات المختلفة التعليمية والاقتصادية والشرعية وفي نظام الحكم، كما حاولوا فضح مساوئ الوصائية المعيقة لكل تطور وصائية الاحتلال أو الحاشية أو الأزهر، ودافعوا عن حرية التعبير والبوح، ودعوا إلى ربط العمل الفكري والثقافي بالواقع، ومزجوا حياتهم وثقافتهم مزجاً قوياً.

وقد اتهم سلامة موسى الكتّاب الذين لا يعبرون عن قناعاتهم في كتاباتهم بالغيّة الذهنية (محاولات ص٢٣٣)، وإن أخذ على أعلام النهضة بعامة التأرجح بين الدعوات الإصلاحية الخافتة وبين الأعمال المبدعة الفردية المتناثرة.

وبعد أكثر من قرن على انطلاقة مشروع النهضة العربية، تظل الأسئلة التي طرحها الرواد تنتظر الإجابة، والباحثين عنها، لا لصعوبة الأسئلة فحسب، بل لأنها أسئلة الحياة الضرورية لكل تقدم من جهة، ولأننا عانينا من وقفات وانقطاعات هذا التقدم من جهة ثانية. وما أحوجنا ونحن نستذكر تراث الأوائل، إلى الاسترشاد بخبراتهم، وخبرات مبدعي عصرنا كي نتمكن من دخول قرن جديد لا مكان فيه للكسالى، ولا قيمة فيه للخطابة الجوفاء.

الهوامش

(*) أسس سلامة موسى الحزب الاشتراكي في مصر عام ١٩٢٠ مع عبد الله عنان وحسني عرابي، لكن الحزب تم حله في السنة نفسها.

مصادر الدراسة

١- موسى سلامة: محاولات- القاهرة ط١- ١٩٥٣، ط٢- ١٩٦٣- دار الجيل.

٢- موسى سلامة: الأدب للشعب- دار الجيل- القاهرة- ١٩٥٥.

٣- موسى سلامة: حرية الفكر وأبطالها في التاريخ- دار العلم للملايين- بيروت- ط٤- عام١٩٦٧.
٤- موسى سلامة: نيتشه. مجلة المقتطف- القاهرة- عام ١٩٠٩.
٥- موسى سلامة: تربية سلامة موسى، القاهرة- بلا تاريخ.
٦- موسى سلامة: الاشتراكية- القاهرة- عام ١٩١٢.
٧- موسى سلامة: الأدب الإنجليزي الحديث- المطبعة العصرية- القاهرة- ١٩٣٤.
٨- موسى سلامة: نظرية التطور وأصل الإنسان- المطبعة العصرية- القاهرة- ١٩٢٥.
٩- موسى سلامة: مختارات سلامة موسى- المطبعة العصرية- القاهرة- ١٩٢٦.
١٠-شكري غالي: سلامة موسى وأزمة الضمير العربي- دار الآفاق- بيروت- ط٤- ١٩٨٣.
١١-مقتطفات من مجلة «الهلال» المصرية.

عبد الله يوركي حلاق
(شاعر الحب وشاهد العصر)

محمود أسد *

من الصعوبة بمكان أن تلم بجوانب الشاعر المبدع عبد الله يوركي حلاق بصفحات قليلة وأسطر معدودة. فحياته مليئة بالعطاء، وحافلة بالإنجازات. فبين عام الولادة وعام الوفاة عطاء متنام شعرياً وصحفياً وسياسياً.. فرحلتنا طويلة. فنحن أمام عطاء ثرّ لا يموت. وهو عطاء يمنح الأديب مكانة بارزة. عطاء يبوئه سلم التقدير والاستحقاق. ويبرز ماله من فضل عظيم في مجال الصحافة والأدب.

---

* ناقد سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

إن الأديب عبد الله يوركي حلاق أمضى عمره المديد في رحلة شاقة يحتمل الفشل والخيبات حتى وصل إلى سلم الشهرة. فلا تذكر مجلة «الضاد» إلا وتقترن باسمه. وهو الذي أسسها واصطحبها يافعاً قبل السن القانوني.. وحضنها شاباً يافعاً وشيخاً جليلاً. واكبها بكل جوارحه. ثمَّ أوكل لابنه الأديب رياض مهمة التحرير والإشراف. فأحسن إليها، وأضاف إليها ألقاً على ألق.. ولا تذكر الضاد إلا وتخطر على بالنا تلك الجسور التي مدها بين الأدباء العرب والأدباء في المهجر، على صفحاتها كان التواصل، وكان البوح الجميل الدافئ.. وكانت صلة الرحم بين أبناء الضاد..

أجد نفسي أمام طريق طويل وحافل بالإنجازات. فلا أعرف بدايته لأصل إلى نهايته. فالشاعر عبد الله يوركي حلاق خصَّ حلب بكثير من شعره، وأوحى لكثير من الأدباء أن يتحدثوا ويتغنوا بحلب.. أعطى حلب مثلما أعطته، وارتبط بالوطن لدرجة العشق والعبادة. وأحب العروبة واعتز بالانتماء. عشق الضاد والتاريخ والآثار.. ودعم حبه بحب سام شفاف، تمثل بالحب الإنساني الذي لا ينضب.. فالحب سمة أساسية من سمات شعره.

إن المضامين تنطق بالحب، وتؤكد عليه في كل مناسبة، سواء أكانت عامة أم خاصة.. تلاحقه بالحزن والفرح. وشعره يقول ذلك.. للشاعر أربعة دواوين شعرية مطبوعة ١- خيوط الغمام ٢- حصاد الذكريات ٣- عصير الحرمان ٤- أسدّيات. وهناك دواوين مخطوطة وأعمال نثرية مطبوعة من قصة ومسرحية ومقالات وقواعد إملاء...

القارئ لدواوينه يجد صدى حبِّه، وصدى تعلّقه بالقيم الرفيعة والمواقف النبيلة. ولا غرابة في ذلك.. فهو الذي قرأ الشعر العربيَّ والقرآنَ والإنجيلَ. وتمثَّل التاريخ، واعتزَّ بأمته.. فشعره ترجمان الحالة التي يعيشها. يعيش الحالة بصدق، ويعبر عنها بصدق وعفوية..

إننا بصحبة شاعر يعكس شعره صدى الحياة بكل ما فيها من واقع ثقافي واجتماعي وسياسي. ومن يتأمل قصائده بتمعن وروية يكتشف سحر الجاذبية، لمضامينه تأثير وسحر، ولأسلوبه وقع وبيان جلي. وهو رجل المحافل والمنابر. فما أكثر المناسبات والمحافل التي شارك فيها!. وهو القائل في مقدمة ديوانه حصاد الذكريات «...إن للحب أثراً بارزاً ودوراً مهماً في إيقاظ الشعور وشحذ العزيمة وصقل المواهب وتفتيح الصور على آفاق الخلق والابتكار . فالحب للشاعر كالندى للأزهار يغذيها و ينعشها و يزيدها



شـذاً وجمالاً ...» هذا الحب العميـق انعكس على حياته، وبدا بارزاً في شـعره وكان الملهـم الأول لـه. فقـد أحب مجلة «الضـاد» لدرجة أنسـته أسرته، وجعلته يضـحي مـن أجلهـا قائلاً في ديوان عصـير الحرمان: ص١٦٢.

الضـاد إن ضنت
علـيّ بـودهـا
فلتـطـمئـنَّ فما
حجبت تـوددي
أو شكت أعبدها،
وكـنـت كـراهـب
صلى وصـام على
بـلاط المعبد
أطعمتها من ذنوب قلبي ما اكتفت
تبغي المزيد وكل ما ملكت يدي
وحرمت أطفالي لأشبع جوعها،
نهم المطابع قد أطاح بموردي
لم أبق وحدي في الصراع فخضته
حتى العباب، وكان ربي منجدي

لـولا هذا الحب لما اسـتمر في إصـدار المجلـة التي مازالت تجـد الرعاية من نجله البار الشاعر رياض عبد الله يوركي حلاق.

كذلـك يرى القارئ ظـلال حبه الوارفة، يراها تمت بفيئها إلى عالم واسـع، فهو محب لمدينـة حلب، وحبه له نكهة خاصـة، ومذاق طيب لأنه لا يشـبع منها، ولا يكتفي بقصيدة واحدة أو موقف واحد. فتلحقه في كل مناسبة

بالقـرب والبعد.. وقد عـبر عن هذه الحب في حفل تكريم الضـــاد: «منذ صغري أحببت ثلاثــة، الله وأسرتي ووطنـــي العربي الكبير. فـــالله واحد ووطنـــي واحد وبيتي الصـــغير واحـد. لا أطيق البعاد عنـــه، ولا أرى أجمل منه. حسـبي من عطائه لقمة الخبز وجرعة الماء وحرية الفكر والعمل..».

ويعبر عن حبه وشـــوقه إلى حلب وهو في كندا فيقول في عصير الحرمان: ص١١٨.

إن حننت إلى الشهباء يا كندا

متى أراها؟ فمني الصبر قد نفدا

ماكنت أحسب أن البعد عن وطني

وعن صحابي يذيب الروح والجسدا

أرى بناء ولكن لا أرى ورعا

في عالم عن هدى الإيمان قد بعدا

عروبتي لم تزل تزهو بنضرتها

وحُزْنا ينجز الميعاد إن وعدا

إنه حب مغزول بعشــق العروبة، ومجبول بدم العروبة وروحها. وهذا ما يميز صياغته الشـعرية المبنيـة على جملة متينـة وعبارة واضحة ومضمون سام، يلامس المشاعر دون جواز سـفر. فقد واكب كل همـــوم أمته وكل منجزاتهـــا فيقول معتـــزاً بانتمائه: ص ١٦٤ عصير الحرمان.

مِنْ يعربٍ أهلي ومن حلب معاً

بلد الأشاوس والحسان الخرد

وبمناسـبة الاحتفـال بذكـرى الجـلاء وبتاريخ /١٧/ نيســان / ١٩٦٣ أباح عن حبه وانتمائه للعروبة، وتجسـيده للوحدة مجسدة بشخص الرئيس الراحل جمال عبد الناصر: ص ٢٢عصير الحرمان.

قل: كلنا إخوة. قل كلنا عرب

نِعمَ الإخاء، ونعم الأصل والنسب

قل: إنها وحدة بالحب ننشئها

وينشئ الحب ما لا تنشئ القضب

وهذا ترسيخ لمقولة الحب الشفاف البعيد الصدى، العميق الأثر. ثم يقول:

جمال ناصرنا في كل معترك

يا اسمر النيل أنت القصد والأرب

قالوا: انفصال. فقلنا القدر صانعه

ومن دعائمه التلفيق والكذب

الوحدوي على ميثاق وحدته

باق ولو قاومته الجن والنوب

فوحدة الدم والتاريخ وحدتنا

وكلنا كلنا في حبها عرب

القارئ لهذه الأبيـات وغيرها. والمتعمق فيما وراء الأبيات لا تغيب عنه بصمة الشاعر الوجدانية، وقدرته الأسـلوبية. فهو صاحب

ملكة شـعرية تبوئه مكانة رفيعــة. وقد كان الشاعر شاهد عصر حافل وصاخب. واكب كل ما اعترضت له أمته. ولم يبق حيادياً، بل صال وجال. وكان لصوته أثر، ولكلمته فعل وتأثير، لما له مــن مكانة على المستوى الاجتماعي والثقــافي والوظيفي. وهو الــذي تقلد عدة مناصب سياسـية وعلى فترات مختلفة فكان عضــواً قيادياً في المكتـب التنفيذي للحزب الوطني، وأشــاد بالوحدة بين سورية ومصر. واختيرَ عضواً في مجلس الأمة الاتحادي.

واختيرَ عضــواً في لجنة الدســتور. وكان عضــواً في لجنة التعبئة الشعبية.. ويضاف على هــذا لقــاؤه بالكثير من الشخصيات السياسية والرؤســاء وقد تقلد عدة أوسمة، وأهمها وسام رئيس الجمهورية حافظ الأسد. وقد قلدته الســيدة الدكتــورة نجاح العطار وزيرة الثقافة عام ألف وتســعمئة وخمســة وثمانين في حفل كبير وقال في هذا التكريم: ص ٩١ «الأسديات»

لا تـقـل جـلـق نـظـير الــدراري

هـي أعـلـى مـن الــدراري مقاما

حــافـظ زادهــا إبــاء وعــزمـاً

لـم يـطـأطـئ لـغير بـاريـه هـامـا

كـرّمـوا الشعـر حينمـا كـرمـوني

إنـنـي زدت بـالـقـريـض هـيـامـا

في حياة الشـاعر محطـات كثيرة وغنية. وهي جديــرة بالتوقــف عندهــا. فقد كان شــاعرنا لســان حــال أمتــه، ولســان حال معتقداته. يعبر بعفوية وصدق عما يجول في نفســه. تراه كالبركان ثائراً، وكالنهر متدفقاً جاريــاً، وكالنبع عذوبة.. فقد حرص أشــد الحرصــ على لغتــه العربية التي تعرضــت لسهام الأعداء والمغرضين. وغار على الشعر العربي الأصيل، وبيّن موقفه من التجديد في أكثر من مناسبة وأكثر من قصيدة. إنه يقتدي بالشــعر العمودي الأصيل، ويرى التجديد في الأصــالة فقال ساخراً مســتنكراً. ص ١٢٣ «عصير الحرمان».

أردت الـيــوم أن أهــذي

بــألــفــاظ بــلا معنـى

وأن أخـتــار أسـلـوبـاً

يـتـنـافى الــذوق والـفـنّـا

فَــدَلّــوني عـلـى نمـط

بــلا مـعـنـى ولا مـبـنـى

وقــالـوا دونــك الـتـجـديـ

ــد لا تـخـتـر لــه وزنــا

وســمّ الـفــأر طــاووســا

وقــل طــاووســنــا غـنـى

وقــل مـا شـئـت مــن لـفـظ

فــربُ الـشـعـر قـد جـنـا

فحبــه للعربية وللعروبــة دفعه للاعتزاز بالقــرآن الكريم وماله من فضــل على اللغة العربيــة.. وذكــر ذلــك في أكثر مــن مكان.

فيقول: ص ١٤٦ «عصير الحرمان»

أسـتـاذي الـقـرآن أعـرف فضله

وأقــر أني لـلـحـديـث مـديـن

رتـلـت آي المجـد بـاسـم محمد

فـالمجـد بـاسـم مـحـمـد مـقـرون

هذه الأصالة وهذا الحب للعربية يوطدان علاقته بوطنــه وبأمته فتراه يتغلــا قلقاً لما يحيــحل بأمتــه من هـمــوم ومتاعــب، وهذه الأصالة التي يجذرها انتماؤه تدفعه للتشبث بالعروبة. فيعتز بالآثــار التي تحكي وراءها أمجــاد أمة عريقة وغنية: ص ١٧٧ «عصــير الحرمان».

آثـارنــا لـلـبـاحـثـين مـنـار

زرهـا فـآثـار الجـدود تـزار

تــروي لنا سر الـفـتـوح، وانـها

سـيـرٌ يـفـوح أريـجـهـا المعـطـار

في قلعة الشهباء منحة يعرب

وأمـام تـدمـر تخشع الأبـصـار

لا تـعـجـبنَّ إذا رأيــت مـعـالمـاً

كـبـرت، فـآثـار الـكـبـار كـبـار

شاعرنا واضح، يصحبنا ببساطة، ويقدم بقناعة، ويعبر عما يؤمن به. لا يعرف سـوى ما يراه وما يسـمعه. فهو لسان حال الحالة، وهو صوتها المدوي. يرق ويعذب حيث الرقة. ويصخب حيث الصخب. فقد عبر عن موقفه من الشـعر الجديد بكل صراحة وكان بعيداً عن المجاملة والازدواجية التي يمارسها بعض الأدباء: ص ٢٤٦ «عصير الحرمان».

الشعر وحـي وإيـقـاع وعـاطـفـة

لا وصف لفظ، سليم الذوق يأباه

تلك الأحاجي التي يدعونها أدباً

ضروب قول من التضليل فحواه

الفن يوضح ما يخفى، ومن عجب

أن الغموض تفشى في حناياه

جديده نمط، يـزري البيان به

ويعجز الفهم عن إدراك معناه

هذه الـرؤى لوظيفــة الشــعر ومكانته، تدفعنا للإيمان والإقرار بغيرته وحبه لأقطار العروبة التي واكب نهضتها وكبوتها. فأحداث لبنان أدمــت قلبه ونظر إليها بشــكل هادئ وبعيد عن التشنج.. وهذا ما يميز طبعه. فهو يحسن استخدام المناسبة وتوظيفها، ويستند عليهــا للتعبير عن آرائــه وعواطفه فقال في محنة لبنان ص٤٤ «عصير الحرمان».

لبنان تأكله نيران محنته
يا ويل موقدها. ما كان أقساه
أنات جرحاه تعلو في مرابعه
وكان في السلم مغنى الحسن مغناه
لبنان مهلاً فإن الكل إخوتنا
هذا القتال وحوش الغاب تأباه
داء التعصب كالطاعون ذو خطر
على الجميع.. فكيف العقل يرضاه؟!
الدين لله والأوطان تجمعنا
على صعيد إخاء قد ألفناه

وهذا النوع من الشعر جماله يكمن ببساطته وعفويته وسمو مضامينه بعيداً عن التنظير والتشكيك في قيمته الفنية. فهناك مواقف يتجاوز فيها الشاعر الذات المبدعة، وذلك عندما يجد أمراً يستدعي الوقوف عنده وماذا يبقى من الشعر بعد موت صاحبه؟ وماذا يدور على ألسنة الناس بعد فراقه الحياة جسداً؟.. لا تبقى إلا مواقفه وآراؤه وحلمه وغيرته. فهو القائل معتزاً بالعروبة: ص ٢٨ «عصير الحرمان»

تأبى العروبة أن تلين لغاصب
أو أن يلوث طهرنا استعمار
الحرب ضد المعتدين فريضة
والسعي فوز والجهاد فخار

وفي حنايا هذه القصيدة يبدي اعتزازه بشعب الجزائر الثائر والواقف في وجه فرنسا: ص ٢٧ «عصير الحرمان»

شعب أبي كله ثوار
الحق خط دفاعه والنار
هو للعروبة والكرامة قلعة
قهر العدو عنادها الجبار
أبناؤها رمز الشجاعة. فاسألوا
عنهم ففي شفة العلى أخبار

وكثيراً ما ربط القضايا العربية المصيرية ببعضها. وهذا إيحاء آخر يكشف إيمانه بوحدة الغرب فيسعى دائماً إلى توطيد عرى القومية فيقول في قصيدة «يا فلسطين» ص ٥٢ «عصير الحرمان»

ستعودين حرة كالجزائر
يا فلسطين إن لليل آخر
لم يزل صوتك الجريح يدوي
في كياني يهز مني المشاعر
في سجون الطغاة كم مات حر
وعلى ثغره ابتسامة ساخر
بحّ صوتي وفي الحدود عداة
آن للصبح أن يشق الدياجر
إنما الأرض للقوي ستبقى
ازرعوها قنابلاً وخناجر

شاعرنا واكب حركة الشعر التي مالَت إلى المباشرة والخطابية والوضوح فالتوصيل غاية أساسية. والخطابية من اهتماماته. وهو الذي قرأ وأنشد قصائده أغلبها في المهرجانات والإذاعات والمؤتمرات.. ويبدو أنَّ القضايا المصيرية تتناسب مع هذا الغرض إضافة إلى تكوين الشاعر الثقافي وموروثه الشعريّ الثرّ وقد قال: ص ١٦ «عصير الحرمان»:

عروبتي ترفض الإبهام في أدب

فالواجديدُ. أهذي بدعةُ الجدد؟!

ونقرأ النصَّ، لا ندري له هدفاً

شتَّان شتَّان بين الدُّرِّ والزَّبَد

عادات يعرب لم تجحد أصالتها

إن تقو تعصف. وإن جاد الحيا تجد

مائدٌ منَّا عن الفصحى أخو رشدٍ

وكيف ينأى عن القرآن ذو رشد؟

عراقة الضاد في روحي وملء دمي

وحبها بعد حب الله معتقدي

إنجيلنا صوت فادينا، يُعَلِّمنا

أن ننشر الرفق لا نعدو على أحد

ومصحف هذَّب الدنيا ونوَّرها

أليس فيه ضياء الواحد الصمد؟

في مثل هذه الأبيات تبدو الجزالة وتسطع الرؤية. فالشاعر ينتج من معين لا ينضب وتسعفه مقدرة على النسج بقوة وبراعة. وقال الباحث الأستاذ محمود الفاخوري في مقدمة ديوانه «عصير الحرمان»: «ومن يتحدث عن المحاور الأساسية في شعر «عبد الله يوركي حلاق» لا يمكنه أن يغفل مرتكزاً مهماً فيها، ذلك هو هاجس الأصالة الشعرية. وموقف الشاعر تجاه رياح التجديد التي هبت على شعرنا العربي المعاصر. فالأستاذ «عبد الله» مؤمن بأصالة شعرنا الموروث وعموده الفني، وأوزانه الموسيقية، ولا يقف في وجه التجديد المتَّزن، والحداثة الرصينة التي تنأى عن الغموض والمعاني الملتوية ولا تقطع جذورها بالتراث الأصيل» ص٩.

وقالت الدكتورة نجاح العطار في مقدمة ديوان «الأشواك»:

«ونص ديوان الشاعر عبد الله يوركي حلاق يتبدى مفعماً بالشعور الصادق، وبالعاطفة الجياشة، وبالقدرة على ترجمة الذات إلى الذات الأخرى، بعفوية هي من مطبوعية الشاعر، حين يمتلك الشحنة الشاعرية التي تنأى به عن النظم، وتضعه في مصاف الشعراء الأبرز منهم ولا غرابة في ذلك» ص ١١.

والشهادات عن شعره وتجربته كثيرة، وسوف أعرض ما قاله الشعراء فيه، وهو الذي واكب الكثير من الشخصيات اللامعة،

ومـد جسـوراً من الحـب والصـداقة على صـفحات الضاد وفي المحافل. فلا غرابة أن نرى في قصـائده الكثير من قصـائد الرثاء، رثى نظير زيتـون وأورخان ميسـر والدكتور عبد الرحمـن الكيالي والمحامي الوطني فتح الله الصقال، والأديب سامي الكيالي، وخليل الهنداوي وسـامي الدهان والشـاعر محمد الفراتي وغيرهم.. وهـذا الرثاء إن دل على شيء فإنه يدل على الحب والتقدير والإكبار لمن قدّموا هذا الوطن. فقال في ذكرى الراحل سامي الدهان: ص ٢٣٩ عصير الحرمان:

مازال صوتك سارياً في مسمعي
مهما بعدت فأنت في الذكرى معي
رافقت ركبك في طريق صعوده
وحضنت حبك في حنايا أضلعي
وعلى ضريحك رف شوقي مثلما
رف الفراش على الشذا المتضوع
وصرخت يا رب السماء ألا ترى
حزني على «سامي» وفرط تفجعي

وعلـى ضريح الأديب خليل هنداوي وقف حزيناً:

أطأطئ الرأس فوق القبر إجلالا
وأمسح الدمع من عيني إن سالا
وأكتـم الجـرح لا أشكو لـه ألما
كي لا أشمت حساداً وعـذالا

مضى الخليل إلى أحضان مبدعه
وفك عن جسمه في الخلد أغلالا
يجري البيان على قرطاسه دررا
كالماء يجري على الحصباء سلسالا

فشـاعرنا الراحل لا يكتـم جراحه، ولا يخفي آلامـه، ولا يتجاهل مناسـبة فرح إلا ويعبر عنها. وقد لعـب دوراً كبيراً في تقريب المسـافات بين أدباء العربية، يزورهم وينشر لهم، ويدعوهم محتفياً بهم بإقامة المهرجانات. فمد جسـور الود بين أبنـاء العربية، فكانت علاقاتـه وطيدة مع شـعراء لبنـان ومصر والمهجـر وغيرهم. كميسـى المعلوف وفوزي المعلوف وشـفيق المعلوف والقروي وشكر الله الجر، وجورج صـيدح وميخائيل نعيمة وإيليا أبو ماضي وأحمد رامي وأحمد حسن الزيّات وخليـل مطران والأخطل الصـغير وشـبلي الملاط وفوزي عطوي.. وكان لهذا التواصـل دورٌ في إزكاء الحركة الأدبية وترسـيخ مقولة وحدة الضاد ووحدة الأمة. فقال في قصيدة «سفر الخلود» والتي مثّل فيها حلبَ في تكريم شاعر عبقر «شفيق معلوف»ص٣٩:

يا أهلَ زحلةَ يا مفاخرَ يعربِ
أنـتمْ بـيوم الـروعِ أُسْـدُ كفاحِ
وَتَمَسُّ روحَ النبل في أخلاقكمْ
وَحَـلَـلْـتُ بـينـكمْ بـأكـرمِ ساحِ

أحبَبْتُ لبنانَ الأشمَّ وأهْلَهُ
أكْـرِمْ بـعـربٍ خُلَّصٍ أقـحـاحِ
إنّي بكيْتُكَ يا شقيقُ، وأدمعي
مُنْهلَّةٌ فوقَ الـثّرى الـفـوّاحِ

وقال في استقبال الشاعر المهجري الأستاذ زكي قنصل: ص ١٤٠ «عصير الحرمان»

ألا تـدري البلابل مَـنْ أتـانـا
وملء صداحه النغم الشجي
ألم تسمع زكيّاً وهْـوَ يشدو
وفي شفتيه همسُ شاعريُّ
وفي عينيه نور الحب يبدو
وفي جنبيه قلب يعربيُّ
وآمن بالعروبة فهي ديني
ودينك أيها الرجل الأبيُّ
وأنَّ محمّداً خدْنُ لعيسى
يوحِّد بيننا النهج السويّ
سألت الشعر من أرض القوافي
زكـيٌّ أم أخـوه الـبحتريُّ
فماست ربة الشعر اختيالاً
وقالت: شاعر الفصحى زكي

وإذا شئنا الاستزادة فالمجال واسع. إننا بصحبة شاعر تناول كل الأغراض الشعرية من غزل وفخر ورثاء ومناسبات. وكان على قدر كاف من الموهبة التي تجعل قصيدته روضة، تحوي الكثير من الأزاهير والموضوعات. والتقصير وارد، لأنني أمام شاعر، قال الكثير. وسطر الكثير. ونريد أن نعبر عنه بالقليل..

حظي الشاعر بالتكريم في حياته وبعد مماته. وتسابق المبدعون والأصدقاء والأحبة للتعبير عن مكانته، وعن موهبته. وقد أصدر ابنه البار «رياض عبد الله يوركي حلاق» عدداً خاصاً بمناسبة رحيله الذي صادف في الثامن عشر من تشرين الأول عام ألف وتسعمئة وستة وتسعين. وقد ألقيت فيه ثلاث عشرة كلمة ما بين نثر وشعر. وتحدث عنه الكثيرون منهم رئيس التحرير نجله رياض. والأستاذ محمود فاخوري والشاعر جورج شدياق والشاعر حسين حموي ونقيب الصحفيين الشاعر صابر فلحوط والدكتور محمد مصطفى ميرو محافظ حلب في حينه.

وضم العدد الكثير من القصائد والأقوال. وقدمه على مدرج كلية الطب في جامعة حلب الأستاذ محمد قجة. وقال فيه ابنه: «وإذا غاب عنه جسده وشخصه، فقد بقيت ذكراه العطرة، وخلدته شمائله وآثاره الكثيرة التي تنطق بأصالته وفضله. كما عبر عن ذلك بيتان من الشعر قالهما والدي، وهو

في الثامنة عشرة من عمره، وأثبتهما تحت صورته التي تتصدر روايته المسرحية «المنذر ملك الحيرة أو وفاء العرب»:

الأرض تطوي الناس تحت أديمها

والطرس ينشر ما رووه وما أتوا

تمضي الحقائق، غير أن رسومها

تبقى مخلدة لما هم قد بنوا

وقد استشهد المطران يوحنا جنبرت مطران طائفة الروم الكاثوليك بأبيات للراحل. تكشف الآفاق الإنسانية لديه: مجلة الضاد /ك٢ وشباط/ ١٩٩٨/ ص ٤٦:

أعرَضْتَ عن هذه الدنيا زخرفها

ولم يغرُك منها المال والعظم

المال قيمة إحسان لباذله

وكم تدنت على أعتابه القيم

والحب فيك معين لا نفاذ له

والساميان بك الإيمان والشمم

ما أجمل الحبَّ لو عمَّتْ شريعَته

كلَّ الشعوب، وصانت عهده الأمم

بهذه الأبيات اختصر الشاعر رؤيته ومذهبه الإنساني. وقد أحسن المطران الاستشهاد بها. وقال فيها: «يا عبد الله هذه أبيات لك، وقد نظمت قلباً وقالباً لتخلد ذكراك. فأنت في معانيها تظهر، وفي سبك قوافيها مبدع. إنها منك وإليك نعيدها...».

وقال فيه أيضاً الشاعر جورج شدياق الذي شارك في تأبينه: ص ٥٧

نبأ من الشهباء مزّق مهجتي

حمل النعي إلى الجهات الأربع

مهلاً أخي مهلاً ظلمت حشاشتي

قد كنت أوثر أن تكون مشيعي

شهباء تحت ثراك يرقد شاعر

أين الفرزدق منه؟ أين الأصمعي

قم، تلق كيف تفي الشآم رجالها

كرمى العلى حق اليراع المبدع

ما مات من أحيا العقول بعلمه

ومضى بها رغم الزمان الأرفع

وهناك جوانب كثيرة تلح علينا وتدعو المتابعين لدراستها، فشاعرنا كان غنياً بإبداعه، وكان عظيماً بحبه.

☆ ☆ ☆

رسائل عباس محمود العقاد إلى ميّ زيادة

عبد اللطيف الأرناؤوط *

هي مجموعة من الرسائل احتفظ بها الكاتب عباس محمود العقاد في حياته ولم يعلن عنها. ولم يذعها للناس ضنا بها أن تعلن. وإن كان يرى أنه لا مانع من أن تعلن هي ومثيلاتها. فمنها كما يقول (ما يهم أن يطلع إلى عالم النور.. لكن لا ندري أين موضعها الآن.. والذي بقي منها في موضعه أو عند أصحابه يساوي الجهد الجميل الذي يبذل في جمعه وانقاذه. وتسليمه لأصحاب الحق الأخير فيه. وهم قراء الأدب ومحبو الفنون..).

---

* باحث وأديب من سورية.

- العمل الفني: الفنان زهير حسيب.

ولا يخفى أن «العقاد» لا يشير إلى الرسائل المتبادلة بينه وبين الكاتبة «مي زيادة» فحسب، وإنما إلى جملة الرسائل التي كانت تتبادلها مع عدد من الأدباء وأعلام عصرها ومنهم «العقاد». وقد نشرت بعض رسائل العقاد إلى «مي» بعد وفاته.

يعود أقدم هذه الرسائل إلى عامي ١٩١٥-١٩١٦ يوم كان العقاد في السابعة والعشرين، ومي في الحادية والعشرين، وأحدثها في عام ١٩٢٥أي في مدة زمنية تمتد إلى عشر سنوات.

وتجدر الإشارة إلى أن رسائل العقاد إليها هي التي حُفظت لأنه كان على ما يبدو يحتفظ بنسخ مما يكتبه إليها، في حين أن عدد الرسائل الموجهة إليه من «مي» أقل عدداً، وهي أميل إلى الايجاز، ولهذا دلالته، ولا سيما إذا قارنّا ذلك بالرسائل المتبادلة بين «مي زيادة» و«جبران خليل جبران»، فهي أكثر اتساقاً واكتمالاً، إذ نجد لكل رسالة جوابها من المرسل والمتلقي، وقد نفسر ذلك بعلاقة جبران بمي المتأخرة نسبياً، إذ ألفت «مي» عالم التراسل ولم تلق فيه حرجاً، خاصة أن جبران كان يعيش في مجتمع منفتح وناء، فلا تسبب مثل هذه المراسلات لها أي حرج بالقياس إلى مجتمع مصر المحافظ، والذي تحرص فيه المرأة على سمعتها.

لم يكن الكاتب عباس محمود العقاد الأديب الوحيد الذي أظهر مشاعر الحب والحنان والعطف تجاه الأديبة مي زيادة، فقد أعجب أدباء مصر الذين كانوا يترددون إلى «صالونها الأدبي بشخصيتها وأدبها وتحررها، وقد عبّر كثيرون منهم عن ذلك الإعجاب نثراً وشعراً، ويجمع عارفوها على أنها كانت- على انفتاحها ومخالطتها الأدباء واستقبالهم في صالونها الأدبي- آنسة راقية التهذيب مصونة في تربيتها، تخرجت في مدارس الراهبات في الناصرة، وهي مدارس تعنى كثيراً بإعداد الفتاة على العفة، وتُبصِّرها بعواقب الإثم والخطيئة، وفي نهاية حياة «مي» المأساوية دليل واضح على أنها كانت تغالب مشاعرها، وقد دفعها الكبت إلى مرض نفسي هزّ كيانها، إلا أن رقيّها وتسامحها وغريزة الأنوثة فيها كانت تدفعها إلى تقبل الإطراء من الذين أعجبوا بها، وحاولوا التقرب منها بدافع الحب، كالأديب جبران خليل جبران، لكنها كانت تضع حداً لجماحهم إن اشتطوا،

وتُشعرهم أنها لا تقبل التمادي إلى أبعد من حدود الإعجاب والتقدير.

* * *

من خلال الرسائل العشر التي احتفظ «العقاد» بنسخ منها، وبعض الردود عليها من «مي»، يمكننا أن نكوّن فكرة عن طبيعة تلك العلاقة التي أوضحها العقاد بكل صراحة في روايته «سارة» فكتب ما يلي: (كان همّام.. «بطل الرواية الذي هو العقاد نفسه» يحب امرأة أخرى، حين التقى «سارة» في بيت «ماريانا».. يحبها الحب الذي جعله ينتظر الرسالة أو حديث التلفون، كما ينتظر العاشق موعد اللقاء، وكانا كثيراً ما يتراسلان أو يتحدثان، وكثيراً ما يتباعدان ويلتزمان الصمت الطويل إيثاراً للتقية، واجتناباً للقال والقيل، وتهدئة من جماح العاطفة.. لكنهما كانا أشبه بالشجرتين منهما بالإنسانين، يتلاقيان وكلاهما على



جذوره، ويتلامسان بأهداب الأغصان، أو بنفحات النسيم العابر من هذه الأوراق إلى تلك الأوراق).

ولو سلّمنا بأن المرأة المقصودة هي «مي»، فإن صدق العقاد في تحليل تلك العلاقة، يثبت أنها علاقة حب عفيف متبادل يمازجها الإعجاب والتقدير، فهو يقول: (ينتظر منها

الرسالة أو الحديث كما ينتظر العاشق موعد اللقاء).

ويعني ذلك أن العلاقة كانت أشبه بالعشق لا عشقاً متبادلاً، ويضيف العقاد: (كانا أشبه بالشجرتين يتلاقيان وكلاهما على جذوره)، ويعني أن التواصل ظل في دائرة المشاعر، ولا يتحول إلى اندماج عميق. ويتابع العقاد: (كان يغازلها، فتومئ إليه بإصبعها كالمنذرة والمتوعدة، فإذا نظر إلى عينيها، لم يدر أتستزيده أم تنهاه).

ويُفهم من ذلك أن «ميا» كانت تصدّه دون أن تجرح شعوره مع تأكده أن الاستزادة تدفع بها إلى نغمة ناشزة، أي تضع حدّاً لجماحه العاطفي كما كانت تصدّ «جبران» حين يتمادى برسائله.

إلا أن «العقاد» خُيّل إليه أنها في أعماقها تكنّ له ما كان يكنّ لها من حب، وقد فاجأته بزيارتها بعد أن شاعت صلته بسارة، فرحب بها وأبدى استغرابه لزيارتها وابتهاجه بسؤالها عنه، بعد ما تحدرت دمعتان من عينيها حين سألها عن سبب الزيارة، وفهم من ذلك أنها لم تكنّ له من المشاعر ما لا تقدر أن تبوح به، فما تمالك أن قبّل يدها، فمانعته ولم تكف عن النظر إليه، ونهضت منصرفة.. ثم يضيف العقاد: (وفسح لها الطريق أن «هماماً» لم يكن يوغل في العلاقة مثقلاً بتبكيت ضميره، لأنه لم يخن «هنداً» ولم يقصر في حقها عليه، ولا وَهَمَ أنها تغضب من أمر لا عهد بينه وبينها فيه).

ونلاحظ اعتراف العقاد بأن العلاقة لم تكن تتجاوز المشاعر المتبادلة. ويتحدث عن ندوة مي. فيقول: (كم كان زوار تلك الندوة العالية، وكم كان كتّاب الرسائل منها وإليها..!! إنني أعدّ منهم غير مرة نحو الثلاثين..

ويتساءل: أكلُّ هؤلاء عشاق؟؟

مَنْ من هؤلاء تصطفيه مي إذا أجابت جواب المحبوبة التي تتقبل العشق ممن يدعيه؟؟

هذا هو الخاطر العاجل الذي يسبق الوهم، كلما ذكرت تحيات الرسائل أو القصائد أحياناً من هذه الزمرة المختارة..

ويضيف أيضاً: (إن فات أحداً من هؤلاء واجب التحية المناسبة للمقام فما هو بزائر صالح لمثل هذه الزيارة، ولو لم تكن زيارة عشق ومناجاة. وإن فات «ميا» أن تتقبل هذه التحيات أو وجب عليها كما قد يخطر على

بال الأقدمين أن تصدها بالعبوس والغضب، فليست هي زيارة ندوة إذاً.. ولكنها زيارة واحدة قد تنتهي كما تبتدئ عند الباب..!! وكنت أشعر بحنان هؤلاء الأفاضل، فإنهم ولا ريب كانوا يقصدون التسرية عنها، ويدركون من بواكير صباها أن فرط التزمت في طويتها يجاوز حده المأمون، وأنها توشك أن تعاني كثيراً من العزلة النفسية التي جَنَتْ عليها في أخريات حياتها).

* * *

إن رسائل العقاد إلى مي على ما فيها من حب أو مصارحة بالحب، لم تكن تتعدى ذلك الحنان، والنبل الذي تفرضه الرجولة تجاه فتاة وحيدة لا سند لها، تحاول تثبيت لها وللمرأة مكاناً تحت الشمس، ولو كان في هذه الرسائل ما يتعدى اللمح إلى البوح، فقد ألفَتْ «مي» أن تتقبل تلك المشاعر وهي كما يقول العقاد: «تنالب شجناً كميناً لانطوائها الشديد على ذاتها، يُخيّل إليّ أنه مزيج من الصدمة العاطفية وشعور التبتل العميق في سليقتها الدينية» ويمكن أن يضاف إلى ذلك معاناتها الاجتماعية، وردود الفعل لاقتحامها عالم الرجال في مجتمع لم يتهيأ بعد لهذه الخطوة.

* * *

في رسالة العقاد الأولى.. يُخبرها أنه يقدم إليها نسخة من كتابه «الفصول»، وسيُتبعه بنسخة من «الديوان» في جزأيه، ويختم رسالته قائلاً: «وسأبحث عنهما، وأحضرهما إلى الآنسة إذا سمحت بزيارة تكون وصلة للتعارف وإعراباً عن احترام وإعجاب».

* * *

وفي الرسالة الثانية لها المؤرخة في آذار عام ١٩٢٣م، يكتب إليها أنه تلقى رسالة منها سرت كما تسري نسمات الشمال في بلدته المشهورة بحرّها، ويشكر لها ثناءها على كتابه «الفصول»، وضرورة التواصل بين الأدباء، وهذا مما يوسع نطاق التعاطف الأدبي، ويُشير إلى بعض نقاط الاختلاف في الرأي بينه وبينها في مضمون الكتاب، ويعترف بأن الاختلاف مزيّة، ويذكر أن الخلاف في المعاني الرمزية، ويبرز لها شوقه إلى محاورتها.

والعقاد في كل رسائله يخاطب «مي» بالسيدة أو السيدة الآنسة احتراماً، ولا يخرج عن هذه الصيغة حتى في رسائله الأخيرة.

* * *

وفي الرسالة الثالثة.. يتابع العقاد الجدل في مفهوم المعاني الرمزية، فهو يرفض الغموض

في الأدب الذي لا داعي له، فالرموز في الأدب أشبه بما يتعاطاه الكهان من رموز حول أمور لا يفهمونها، ثم ينتقد رموز «جبران خليل جبران» في كتابه «المواكب». ويختم رسالته بتحيتها من أسوان (التي مرت بها الدهور وهي باقية) وسينوب عنها في إبلاغها تحية عاطرة من كل هيكل فيها يزيده النسيان جلالاً وطهراً. ولا ينسى في كل رسائله أن تبلغ تحيته إلى والديها.

وتليها رسالة رابعة من «أسوان» لا تخلو من طول، يخبر فيها العقاد «ميّا» أنه تلقى رسالتها التي تسأله فيها: هل كان قومه يقدرونه كما ينبغي، فيفلسف جوابه عن عادته.. ويقول: «فإذا كان في أثر من آثاري ما تجود عليه الآنسة بساعات من وقتها، ونفحات من عطفها، فهل آسى على العطف من جمهور يُحرمون فلا يُرثى لمحرومهم، ويُمنحون فلا يغبط صاحب الحظوة بينهم؟»

* * *

وفي الرسالة الخامسة لها.. يرد على رسالة تلقاها منها تُندد فيها ببيت شعر لحافظ إبراهيم ترى فيه أن لفظاً حكيماً في مجرى المفاوضات يَعْدِل ألف فدان من الأرض، فيكتب لها العقاد أنه لم يعتد بفدادينه، وهو يرشح نفسه للنيابة عن أسوان بأدبه، ويعدّها بحضور ندوتها في اليوم التالي.

* * *

وفي الرسالة السادسة.. يعلّق العقاد على كتابين لها تلقاهما هدية منها.. ويصف مي قائلاً: (ربما تكون ابتسامتها هذه مما يجنّب الخطأ إلى أهله، فيتعمدونه ليفوزوا بالسخط.. ولا أخشى أن أقول إنها تشف عن قلة مبالاة في غير قليل من المواضع.. لا أخشى أن أقول ذلك لأنني أقرأ ما وراء المعاني، فأعلم أنها قلة مبالاة لم تأتِ إلا من المبالاة، بما هو أجلّ في النفس وأولى باشتغال الخاطر) وفي هذا التلميح يضرب «العقاد» على وتر مشاعر الحب التي يعتقد أنها تكنّه في أعماقها ولا تظهره نحوه، ثم يشبه فكرها بفواكه الجنة لا يشبع منها المتناول.

* * *

وفي الرسالة السابعة المؤرخة في عام ١٩٢٤م يهدي إليها كتابه «مطالعات في الكتب والحياة» فيقول: «ولا تحسب سيدتي أني خال من الغرض، بتقديم هذا القربان، فإنما أردت أن أريها كيف ينهزم الرجال، ولا يثبتون أمام الأنوثة المقدسة التي يحترمونها ويحبونها في المرأة بغير التجاء إلى سلطان الشريعة! وبذلك أحمي فكرة من الأفكار التي تعوّدنا أن نسميها بنات القرائح، إن كنت

تعلمت أخيراً أن هناك شيئاً أحلى من بنات القرائح».

* * *

وفي الرسالة الثامنة، يشكرها لتهنئتها بالعيد، ويرسل إليها أبياتاً من نظمه منها:

هنئت بالعام الجديد وعيده

يا خير من زان الجديد وزيّنا

لك في سمائك كل يوم رحلة

تطوينها علواً وتبتدئينا

وخذي التحية من أخ لك لم يكن

في طي نفسك حافلاً ميمونا

يرجو لقلبك كل موقع نبضة

عيداً جديداً بالسرور قمينا

* * *

وتسافر «مي» إلى روما فيكتب لها رسالة مطوّلة، يتخيلها بين آثار روما ومعابدها، وأنه سبق له أن تخيّلها في آثار أسوان.. ويضيف: (وأعبد «مي» في تلك الهياكل، وأحب إيزيس أو أعبد إيزيس وأحب مي وأقول لها: نعم أنا مستعد لعقوبتها الرحيمة، ولن أندم عليها).

ويلمّح في الرسالة إلى عينيها الجميلتين، ويلتمس منها أن تريه بهما (شيئاً مما توهج به تلك العينان الجميلتان، وتتأرج به تلك النفس الطهور).

ويبدو العقاد من خلال تلك الرسالة عاشقاً مفتوناً، يتمنى (لو أن طيفه يقف إلى جانبها هنيهة في مسارح روما تحت ضوء القمر الحالم الفريد).

وتلي هذه الرسالة قصيدة عنوانها «حورية البحر» تثبت مشاعر حبه لمي.. وبوحه بمشاعره، وكأن سفرها أجّج ما في أعماقه، في مرحلة كان فيها على مفترق طريقين بين الحب لمي.. والحب لسارة. وهو حب ربما كان من طرف واحد، ومما يثبت ذلك أبيات يقول فيها في «مي»:

علمتني الصبر الجميل ولذّ لي

صبري وطالت في هواك أناتي

لا أشتكي أبداً وها أنا قائل

ما فات مات وكل آتٍ آتِ

إن كان أفضل من أحبّ وأرتجي

يقسو عليّ ولا يجيب شكاتي

فبأي حق أشتكي من محنة

يجري بها قدري وظلم عداتي

* * *

ولعلّ صدّها وتمنعها كانا من أهم العوامل التي أدت إلى تحوله عنها وتعلقه بسارة التي استبدت بقلبه وسيطرت عليه، فأسرعت مي إلى زيارة العقاد، وفي قلبها صراع بين البوح والتمنع.

لكن العقاد بعد يأسه، لم ينقطع عن مراسلة مي، وظل يكنّ لها أسمى مشاعر الودّ الدفين، فيراسلها في عام ١٩٢٥م.. ويكتب

لها أنه تذكّرها في صحراء «الماظة» المجاورة، وناجاها بقصيدة منها:

حيّاك يا مي ما غنّى وما عبقا
وفاض حولك بشراً كل ما شرقا
أتعلمين بـه؟ بـل أنـت عالمة
بالودّ في هذه الدنيا إذا صدقا
طوبى له ألف طوبى إن وثقت به
فإنه بك دون الناس قد وثقا

وتجيبه مي برسالة موجزة تقول فيها:

(سيدي الأستاذ العزيز:

أبكيتني بهذه القصيدة، أبكاني صوتك الحنون، فشكراً..

حبّذا كلمة تطمئنني عن صحتك، كيف أنت..!!)

ونلاحظ من صيغة الرسالة أن «ميا» تخاطبه بالسيد الأستاذ، وتشير إلى صوته الحنون محوّلة عاطفة الحب البارزة في الأبيات إلى أنها لون من العطف.

* * *

وتتعرض «مي» لعملية ابتزاز، إذ يدعي عليها مدع ديوناً باهظة وبموجب سند وقّعته وهي في مرحلة البواكير من مرضها النفسي، فيقف العقاد إلى جانبها، ويوكل لها أحد المحامين، ويكتب لها آخر رسالة قبل موتها.

ويشير العقاد إلى بوادر مرضها النفسي الذي بدأ بشكوك وأوهام فيذكر أنه زارها، فرآها مضطربة تشكو جيرانها في البيت المقابل، وأن بيتهم ظل مغلقاً زمناً، ولكنهم الآن ينيرون أضواءه لمراقبتها. وتنفيذ أمر يؤذيها، فذهب إلى حارس البناء وسأله عن الحقيقة، فأعلمه أن أصحابه يعدونه للكراء «أي للإيجار».

عندئذ أدرك العقاد الواقع.. وقلبه يعتصره الحزن وعرف أن «مي» تعاني اضطراباً نفسياً، وعقدة اضطهاد توشك أن تعصف بحياتها.

وتموت «مي» فيرثيها العقاد رثاء الوامق المفجوع:

أين مي؟ هل علمتم أين مي؟
الحديث الحلو واللحن الشجي
والجبين الحرّ والوجه السّني
أين ولّى كوكباه؟ أين غاب
كل هذا التراب
آه من هذا التراب

* * *

وهكذا انطوت صفحة تلك العلاقة الرائعة التي جمعت بين عبقرية عباس محمود العقاد وتألق مي زيادة.. وانطوى معهما سرّ الحب العذري إلى الأبد.

☆ ☆ ☆

آفاق المعرفة

٢٨١

دور الإعلام في ترسيخ القيم الاجتماعية

مأمون الجنان *

تعد وسائل الإعلام في الظروف الراهنة من أهم المؤثرات بعدما أصبح النشاط الإعلامي هو النشاط الثالث الذي يمارسه المواطن ولأنها باتت تساهم بقوة في تشكيل المواقف وآراء المجتمع تجاه القضايا المختلفة التي تواجه الأمة وفي ترسيخ قيم النظام الاجتماعي إضافة للدور الحيوي الذي تلعبه في حياة الناس نظرا للتطور الواسع في الحقل الإعلامي فالمسؤولية الملقاة على عاتق وسائل الإعلام كبيرة إذ تساعد على تناسق السلوك الاجتماعي وتحدد العادات للأفراد والجماعات وعلى هذا الأساس فإن عناصر السياسة الإعلامية العربية وأحد جوانبها الرئيسة والأساسية ما يعرف بالتنمية الفكرية للمجتمع.

---

* ناقد سوري

- العمل الفني: الفنان مطيع علي

تعريف النظام الاجتماعي: لم يتخذ علماء الاجتماع المتخصصين تعريفا واحدا لهذا النظام يتفقون عليه ويسلمون به إلى حد أن عالم الاجتماع هوباهاوس ذهب إلى القول: إنه من المشكوك فيه أن يتفق هؤلاء العلماء على تعريف محدد للنظام الاجتماعي فكل عالم من هؤلاء العلماء يضع تعريفاً من وجهة نظره الخاصة ويركز على عنصر من الوظائف التي يؤديها هذا النظام بل إن البعض يأتون في مؤلفاتهم العلمية بأكثر من تعريف الأمر الذي يجد الباحث نفسه أمام عدد كبير من التعريفات الخاصة بالنظام الاجتماعي.[1] لكن قاموس علم الاجتماع الذي يمثل خلاصة فكر العديد من العلماء الأكاديميين من ذوي الخبرة والتخصص في هذا العلم قدم لنا تعريفا للنظام الاجتماعي على أنه: أنماط بنائية منتظمة أو عملية أو تغير يظهر خلال التفاعل الاجتماعي أو ينتج عنه وينطوي هذا المفهوم على الأمراض التي تحدث بشكل منتظم أو ما يسمى بالتفكك الاجتماعي ذلك أن انهيار التفاعل المستقر قد يحدث بشكل منتظم وقد يأخذ صوراً متميزة في بعض الظروف.[2]

انطلاقاً من هذا التعريف للنظام الاجتماعي في معناه العام يقول الدكتور أحمد سويلم العمري في كتابه المجتمع العربي وتطوراته الاجتماعية والسياسية: يمكن لنا أن نعرف النظام الاجتماعي العربي بأنه أنماط بنائية منتظمة وقواعد محددة للتفاعل الاجتماعي النابعة من الثقافة العربية ومكوناتها التي تمثل إرثاً ثقافياً حظي بالقبول والموافقة من جانب الأفراد والجماعات في هذا المجتمع. فالنظام الاجتماعي العربي معرّض لأن تنتابه حالات من القوة وحالات أخرى من الضعف ويتوقف ذلك على مدى تمكن عناصر هذا النظام ومكوناته من نفوس الشعب والمقصود بالنظام الاجتماعي هو النظام العام في الوطن العربي وليس النظم الاجتماعية الفرعية وإن كان يوجد بين هذه النظم درجة من الاختلاف إلا أنها تتفق في مكوناتها وعناصرها الأساسية في إطار نظام اجتماعي عربي واحد والذي أفرزته في حقيقة الأمر الثقافة العربية الواحدة التي تتميز بالوحدة والتنوع في وقت واحد.[3]

بمعنى أن التنوع في هذه الثقافة لا يتناقض مطلقاً مع وحدتها والانتقال ليس انتقالاً من ثقافة إلى ثقافة أخرى وإنما هو انتقال في إطار ثقافة واحدة في وحدة اللغة والهوية

القومية من مشـــاعر وعادات وتقاليد وتاريخ ومصير من هنا تتضح العلاقة الحميمة بين الثقافة العربية والنظام الاجتماعــي العربي وكيــف أن وحدة الثقافة العربية وتنوعها وثراءها أنتج وحدة وتنوعاً في النظــام الاجتماعي العربي.(٤)

تعــد القيم من العناصر الفعالة في مجالات الالتقاء بــين الثقافة العربية والنظام الاجتماعي العربي فهي أحد القواسم المشــتركة بينهما وتقوم بدور حيــوي مؤثر فيه وتعطي لهذا المجتمع ذاتيتــه الثقافية المتميــزة التي تجعله قادراً علــى التفاعل والازدهار والنمو الاجتماعــي مــع النظــم الاجتماعية والثقافات الأخرى على النحو السليم.

ولكي تكتمل الصورة نوضح ما هو المقصود أولا بالقيم؟ هناك اختلافات بين علماء الاجتماع في تعريفهم للقيم لدرجة أن وصــل الأمر إلى وجــود اتجاهات مختلفة حولها فهنــاك من يعرف القيــم بأنها تعني أي موضــوع أو حاجة أو رغبة ويستخدم هذا المصطلح في معظم الحالات حين تظهر علاقة تفاعلية بين الحاجات والاتجاهات والرغبات



من جهة والموضوعات من جهة أخرى، كما أن مصطلح القيمة يعني دائماً في علم الاجتماع والانثروبولوجيا المستويات الثقافية المشتركة التــي يحتكم إليهــا في تقدير الموضــوعات والاتجاهات الأخلاقية أو المعرفية.(٥)

لكن هذا التعريف رغم أنه شــامل ودقيق إلا أنه يبدو معقداً إلى حد ما ويفحص الإنتاج

العلمسي في مجال القيم يمكن أن نورد تعريفاً آخر للقيم يتسم بالشمول والبساطة والوضوح ويشير إلى أن القيم عبارة عن: تصورات ومفاهيم ديناميكية صريحة أو ضمنية تميز الفرد أو الجماعة وتحدد ما هو مرغوب فيه اجتماعياً وتؤثر في اختيار الأهداف والطرق والوسائل والأساليب الخاصة بالفعل وتتجسد مظاهرها في اتجاهات الأفراد والجماعات وأنماطهم السلوكية ومثلهم ومعتقداتهم ومعاييرهم ورموزهم الاجتماعية وهذا لا يعني أن التنوع في الثقافات يتناقض مع وحدة القيم بمعناها المادي والمعنوي لأن القيم ترتبط ببقية مكونات البناء الاجتماعي التي تؤثر فيها وتتأثر بها.[6]

ويتضح من هذا التعريف الدور الأساسي الذي تقوم به القيم في النظام الاجتماعي أياً كان هذا النظام كما يتضح منه أن القيم تتبوأ مكاناً علياً في ثقافة المجتمع ونظامه الاجتماعي على السواء فهي بمثابة الجهاز العصبي في كل منهما من خلال انتظامها فيما يعرف بالنسق القيمي والذي ترتبط فيه تلك القيم بشكل متبادل وتدعم بعضها بعضاً بحيث تكون كلاً متكاملاً.[7]

وتعد وسائل الإعلام في الظروف المتسارعة للتطور التكنولوجي من أهم هذه المؤثرات لأنها تساهم في تشكيل مواقف واتجاهات وآراء وقيم الجماهير تجاه القضايا والموضوعات المختلفة وعندما نقول: إن هذه الوسائل تساهم فهذا يعني أنها ليست هي المؤثر الوحيد وإنما هناك مؤثرات متعددة وما وسائل الإعلام والاتصال بالجماهير إلا مؤثر واحد ضمن هذه المؤثرات ونظراً لما للإعلام من دور ثقافي رائد يجعلنا نبحث في مسؤولية الإعلام تجاه القيم في النظام الاجتماعي العربي والتي تتحدد جوانبه في موضوعين أساسين:

الموضوع الأول: الإعلام كأداة تساعد القيم في أداء وظائفها في النظام الاجتماعي.

الموضوع الثاني: الإعلام في مواجهة تهديدات الغزو الثقافي الأجنبي للقيم في النظام الاجتماعي.

الموضوع الأول: إن مدخل الموضوع الأول يقتضي التحديد الدقيق لجوانب وظائف القيم في النظم الاجتماعية حتى يبرز ويتضح دور الإعلام العربي في ترسيخ كل جانب من هذه الجوانب فيكون أداة فعالة في مساعدة القيم على أن تؤدي وظائفها على النحو التالي:[8]

– تساعد القيم على تناسق السلوك الاجتماعي للأفراد والجماعات وبالتالي فالقيم تحدد السلوك المقبول اجتماعياً والمرفوض فالتفكك الأخلاقي وفقدان المعايير من خلال مجموعة من السلوكيات والعادات السيئة تنذر بخطر داهم يهدد النظام الاجتماعي ومن هنا تأتي ضرورة أن تقوم الوسائل الإعلامية العربية بالوقوف للانحراف بالمرصاد وتقديم المضمون الإعلامي الهادف وتأصيل السلوك القويم في نفوس الجماهير مع الحاجة الملحة لأن تقوم وسائل الإعلام بمقاومة ذوي السلوك المنحرف وعدم التستر على الفساد والمفسدين، مع العلم بأن الإعلام العربي خاضع لتقويم دائم لمستوياته التقنية والإنتاجية والمهنية والكفاءات الإعلامية المؤهلة، ثم حجم الحرية المتاح لهذا الإعلام ومدى تعامله مع قضايا الأمة لذا فقد جاء تقرير التنمية الإنسانية العربية الذي حدد فيه سمات الإعلام العربي الرسمي على الشكل التالي:

إعلام سلطوي: حيث تقتحم السلطة الخطاب الإعلامي وتفرض عليه موضوعاته وتوجهاته وقيمه وحتى تفاصيله واختياراته وتوقيته بل إن جل هذا الإعلام مكرس لنشاط المسؤول ولقاءاته وتصريحاته التقليدية الخالية حتى من أي محتوى.

إعلام أحادي: إذ يقوم الخطاب الإعلامي العربي الرسمي في الغالب بتغييب الآخر واستبعاده من المثول في المشهد العام «الرأي العام».

إعلام رسمي: إذ تقف النسبة الأكبر من المؤسسات الإعلامية العربية في حيرة من أمرها أمام بعض أو معظم الأحداث والمواقف السياسية الطارئة بانتظار التعليمات ويمكن أن يتجاهل أحداثاً ذات أهمية كبيرة إعلامياً مما يؤدي إلى فقدان الثقة واللجوء إلى وسائل الإعلام الأخرى.

– تساعد القيم في وصف وتحديد نوع الثواب والعقاب للأفراد والجماعات في إطار علاقاتهم الاجتماعية وسلوكهم ولكي تقوم وسائل الإعلام بدور مساعد للقيم فإن عليها توضيح الحقوق والواجبات والالتزامات والمسؤوليات التي يتعين على الأفراد والجماعات في المجتمع أن يعوها ويدركوها جيداً.

– تساعد القيم في وصف وتحديد أفضل الطرق النموذجية في التفكير العلمي للأفراد والجماعات في مجالات الحياة المتعددة

وعلى وسائل الإعلام أن تعمل على إثراء الفكر وتشجيع المفكرين ومحاربة الخرافات والخزعبلات التي طالما أضرت بالمجتمع وأن تكون نافذة يطل منها المجتمع العربي على تلك النهضة العلمية والحضارية والتكنولوجية التي يعيشها العالم المتقدم اليوم.

- تساعد القيم في تأسيس توجهات الأفراد والجماعات في المجتمع نحو الأنماط العامة من الثقافة وهذه قضية بالغة الأهمية بالنسبة للنظام الاجتماعي العربي لأن عناصر هذا النظام تسهل مهام وعمليات الانسياب الإعلامي والثقافي داخله مهما تعددت اللهجات التي تنطق بها اللغة العربية الواحدة ومهما تنوعت بعض ملامح الثقافة العربية الواحدة التي تسود مجمل الوطن العربي، إن التحديات والظروف الدولية التي تحيط بالوطن العربي والمؤامرات التي تحاك ضده تلقي مسؤولية جسيمة على عاتق وسائل الإعلام العربية من عدة نواح :

أ - أن تقدم المضمون الثقافي الفكري الهادف.

ب- نشر وتدعيم الثقافة العربية المشتركة.

ج- التقليل من عناصر الاختلاف في هذه الثقافة التي أذكتها عوامل متعددة داخلية وخارجية تنذر بوجود خلل في التركيب الثقافي في الوطن العربي.

د- التقليل من وجود ونمو الثقافات الفرعية لأننا سنجد الثقافة العربية وقد تم تفتيتها إلى عدد لا حصر له من الثقافات وهذا ما يعرف بالتفكك الثقافي الأمر الذي يفقد النظام الاجتماعي أصالته ووحدته.

إن المؤسسات الإعلامية العربية وغيرها من المؤسسات في المجتمع العربي ينبغي أن تضع في سياستها الإعلامية خطوطا عريضة تعمل وفقها على ألا يكون التنوع الثقافي في المجتمع مجرد بؤرة اختراق له سواء كانت مصادر هذا الاختراق نتيجة تآمر داخلي أم خارجي وإنما يكون ثراء ثقافيا في إطار ثقافة عربية واحدة من خلال تأصيل وتمكين هذه الثقافة في نفوس الأجيال، ومما يساعد على ذلك خصائص الثقافة ذاتها والتي تكون مكتسبة (أي يتم تعلمها تنقلها الجماعة للأبناء والأحفاد كما يتناقلها الآباء عن الأجداد لأنها من صنع الثقافة نفسها فهي الميراث الثقافي والاجتماعي الذي يولد الطفل وينشأ فيه ويتعلمه)(*).

تساهم القيم في توجيه وترشيد الأدوار

الاجتماعية وتحدد مهام ومسؤوليات النظام الاجتماعي ممـا يؤدي إلى تناسـق وعندما يوجـد التناسـق يكون ذلك مـن عوامل قوة النظام الاجتماعي وصلابته وإثرائه وتطوره نحو الأفضـل. هناك قضية أساسية مطلوب مـن المؤسسـات الإعلاميـة أن تتبناهـا في المجتمع العربي ألا وهي قضية تناسق الأدوار بين المؤسسـات المتعددة في هذا المجتمع بعد التطورات السريعة التي طرأت من نمو الجهاز الإداري والخدمـي والإنتاجـي بمؤسسـاته الكثيرة وأجهزتـه العملاقـة. إذ تلعب القيم الدور الأساسي في التغيير الاجتماعي فهناك عملية تأثـير وتأثر متبادل بـين القيم وبين التغيير[1]. إن الإعلام العربي بدوره التنموي وبأبعـاده المختلفة من اجتماعية وسياسـية وثقافية واقتصادية يكون من العوامل الفعالة التي تسـاعد القيم في التغيـير الاجتماعي بحيث يقوم على أسـس ثقافية عربية مترفعا عـن التقليد والمحاكاة وعن التطرف والمغالاة بعيـداً عـن الأشـكال والمظاهـر والمفاهيم السـطحية متمسكا بالحقائق وبأسباب القوة وبالجوهر دون القشور.

يحدد نسـق القيم: الأهداف التي ينبغي على الأفراد والجماعات الوصـول إليها وفق منظور معين سواء تمثل ذلك في مجرد إشباع الرغبات والغرائز أم في الوصـول إلى غايات سـامية فوسـائل الإعلام العربية لكي تكون أداة فعالة في مساعدة النسق القيمي بالنظام الاجتماعـي العربـي في سـياق تأديته لتلك الوظيفـة عليها أن تعمل بـكل جهدها على إذكاء وتقوية عناصر القيم في المجتمع العربي وتتخذ من هذه القضية هدفاً سامياً لها، فمن المعروف في علم الاجتماع عدم وجود مسيرة يسعى إليها المجتمع يكون أحد الأسباب التي تقوض أركان هذا المجتمع الأمر الذي يجعل المؤسسـات الإعلاميـة في مقدمـة من تقع عليهم المحافظة على أصالة المجتمع وتفاعله مع المجتمعات الأخرى على النحو السـليم الذي ينقذه من براثن ومؤامرات التبعية.

تقوم القيم بدور فعال في تحديد المشكلات الاجتماعية وقد حدد لوري نلسن: أربعة نماذج أساسية من المشكلات الاجتماعية التي تلعب القيم دوراً هاماً في معرفتها وتحديدها:

المشـكلات الناتجـة عن عـدم ملاءمة الوسـائل الاجتماعيـة لتحقيـق الأهـداف الاجتماعية.

المشـكلات الناتجـة عـن عدم وضـوح الجزاءات الاجتماعية في المجتمع.

المشــكلات الناتجة عن عدم وضوح أبعاد تدرج القيم في المجتمع.

المشكلات الناتجة عن الصراع بين القيم في المجتمع.[10]

وهذه المشكلات تتضح في مواقف الحياة اليوميــة للأفــراد والجماعــات أيــا كانت أبعاد وقيمة هذه المواقف فإن بوســع وسائل الإعلام عموماً والإعلام الصحفي خصوصا أن يســاهم في عــلاج المشــاكل المرتبطة بها وخصوصاً الفضائيات العربية عندما تتطرق إلى تلك المشكلات سوف تجد في المارد الثقافي العربي بل وفي الأبعاد الإنســانية لهذا المارد ما هو كفيل بتســليط الأضــواء على أسبابها وكيفية تلافيها ومن هنا تكون وسائل الإعلام العربية بالفعل أداة ذات فعالية في مســاعدة القيم على تحديد المشكلات الاجتماعية ولا ينحصر دورها فقط في المشكلات الاجتماعية وإنما يتســع ليشمل جميع المشكلات الأخرى من اقتصادية وسياسية وثقافية.[11]

الموضوع الثاني: إن النظام الإعلامي الدولي يتســم بكونه ظالماً للدول النامية ومن ضمنها الدول العربية لعــدم التوازن والاختلال وقد كان هذا الاختلال محوراً للعديد من المناقشات في المؤتمرات الدولية والإقليمية.[12] وإذا كان المســتوى الإعلامي من جوانبه المختلفة يمثل فرقــاً كبيراً بين الدول الغربيــة والعربية إلا أن وسائل الإعلام أصبحت جزءاً أساسياً من حيــاة المجتمع وبالتالي تقع عليها مســؤولية المساهمة في حماية القيم بالنظام الاجتماعي لكن من المؤســف حقا أن نجد بعض وسائل الإعــلام في الــدول العربية قــد جعلت من نفســها أداة لتدمير نســق القيــم في النظام الاجتماعي العربي الأمر الذي يشكل قضية بالغة الخطــورة ويتعين علينا التصــدي لها بجدية حازمة ولتوضيح هذه القضية تناولنا في إحدى الدراســات العلمية تحليل مضمون المادة الدرامية التي عرضــها أحد تلفزيونات الدول العربية فقد تبين أن هذه المادة تتضمن الترويج للعديد من السلوكيات التي تؤثر على قيمنا بشــكل خطير وســيئ كما نوضحه في الجدول التالي :

الحلقات	السلوك	التكرارات
١	الفردية	٩٤ مرة
٢	القسوة والعنف	٧٩ مرة
٣	التعصب	٦٤ مرة
٤	العدوانية	٥٧ مرة
٥	الخيانة	٥٤ مرة
٦	السرقة والاختطاف	٤٦ مرة
٧	الخداع	٤١ مرة

٨	الخوف من المستقبل	٢٥ مرة
٩	عدم تحمل المسؤولية	٢٠ مرة
١٠	سوء الظن	٢٧ مرة
١١	الغش	٢٥ مرة
١٢	الجبن	٢٢ مرة
١٣	الانتهازية والتسلط	٢١ مرة
١٤	الغاية تبرر الوسيلة	٢٠ مرة
١٥	عدم احترام النظام	١٩ مرة
١٦	البخل	١٨ مرة
١٧	الهمجية	١٧ مرة
١٨	البيروقراطية	١٧ مرة
١٩	الكسل	١٦ مرة
٢٠	ازدواجية السلوك	١٦ مرة
٢١	الكذب	١٥ مرة
٢٢	التواكل	٩ مرات
٢٣	الميل الى الحرب	٨ مرات
٢٤	عدم الاهتمام بالوقت	٥ مرات

المجموع: ٧٥٥ سلوكاً سيئاً

ويتضح من هذا الجدول ولأول وهلة أن السلوكيات التي تعمل على ترويجها المادة الدرامية هي في أبسط مظاهرها تناقض أهم وأعظم القيم وليس خافيا أنها عندما تعرض على الفضائيات العربية سيراها الملايين الذين سوف يتأثرون بها على نحو معين يختلف بطبيعته من فرد إلى آخر وفقا للعديد من المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تمثل النشأة البيئية لهذا الفرد أو ذاك.

إلا أنه من خلال تكرار عرض مثل هذه المادة سوف يتأثرون تبقى احتمالات تأثر الجماهير بها قائماً على غير وعي منهم، مما يمكن حدوث تأثير تراكمي على المدى البعيد وبالتالي تترسخ السلوكيات السلبية في الشخصية العربية وتنحل تلك الشخصية من الالتزام القيمي في النظام الاجتماعي العربي.

لقد كان لتوظيف الصورة في الرسالة الإعلامية الأثر الكبير في تسهيل عملية تصدير أنماط من السلوك المنحرف ودفع الكثير من الشباب على نطاق واسع إلى التأثر في شخصيات الأفلام أو البرامج التي تعرض على شاشاتنا من خلال حملة إعلامية مخططة ومدروسة لتشويه صورة الشخصية العربية ولخفض قيمتها الحقيقية. من هنا تصوغ وسائل الاتصال الغربية الحاجات والسلوك وحتى الأحلام بشكل تبعد جيل الشباب عن الأجيال السابقة فلا يسمعهم نشيد آبائهم الوطني بل يشربون منتجات السوق العالمية وتسوق رغبة الغرب بما يريد أن يرى في الشرق فيتقصصون: مشاكل الأسرة الإسلامية ووضع المرأة في المجتمع العربي ومشاكل الحرية والجنسية وكأنهم يخيل

إليهم أنهم سيكونون الناجين من عالم يغرق وأول الرابحين في عالم يولد.[13]

وفي دراسة تحليل مضمون لعينة من المسلسلات التلفزيونية المعروضة في بعض المحطات العربية وللأسف التي أجراها الدكتور سعد لبيب نشرت في تونس ضمن سلسلة دراسات وبحوث اتحاد إذاعات الدول العربية[×] فقد توصل إلى نتائج مذهلة وعديدة من أبرزها: تحاول هذه المسلسلات تشكيل أذواق الجماهير العربية والتي (بفضل عامل الانبهار) تعدها أعلى درجات الإبداع وتؤخذ نموذج يحتذى وقدوة في مجال التصرف والتفكير. تغيير القيم والاتجاهات والمبادئ وهدم القيم وإحلال الجديد باستخدام أساليب التكرار والمحاصرة والتهويل والمبالغة والتخويف بهدف جعل سمات الثقافة السائدة في تفكيك الروابط الأسرية وزيادة حدة التناقضات الاجتماعية مع احتكار وقت الفراغ للفرد وإشغاله عن كل النشاطات المفيدة الأخرى. هيمنة نظام القيم الثقافية - الاجتماعية الغربية فاستمرار وسائل الاتصال في حقن الجماهير بالقيم الأجنبية في منطقة من المناطق يترتب عليه أخطر محو أو تشويه للقيم المحلية على المدى الطويل[14] تحقيق تبعية العقل ودفع الثقافة المحلية إلى مرتبة متأخرة وجعل لغة المستعمر تحتل المرتبة الأولى باعتبارها لغة الحداثة والعصرنة.

أن يأخذ المجتمع العربي آراء وأشكالاً تنظيمية على المستوى الاجتماعي ذات طابع غريب باعتبار ذلك أكثر ملاءمة له[15] وتفرض ثقافة تحاكي الغرائز دون أن تثير أي من العمليات العقلية الذهنية. إن المسؤولية العربية تلزم الإعلام العربي بعدة أمور:

الحرص على ألا تتضمن وسائل الإعلام أو الفضائيات ما من شأنه الترويج لسلوكيات غريبة تناقض القيم في النظام الاجتماعي العربي.

أن يكون النظام الإعلامي العربي حريصاً على نشر وتدعيم نسق القيم في هذا النظام وتفاعله على النحو السليم مع النظم الاجتماعية الأخرى لإثرائه وتقويته.

الالتزام بمحاربة السلوكيات الخاطئة التي بدأت تستشري في المجتمع بدرجة تهدد بفقدانه هويته.

الالتزام بإدخال سلوكيات جديدة ومتحضرة من شأنها تطوير المجتمع العربي وإثراء نظامه القيمي.

العمل على إحياء القيم العربية الأصيلة التي كانت قائمة في المجتمع والتي اختفت بفعل عوامل داخلية وخارجية أهمها الجهل والاستعمار وما طرأ على هذا المجتمع من تغييرات اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية.

من هنا ينبغي القول إن وفرة المعلومات لا تعني أن المواطن أضحى أكثر دقة في خياراته السياسية بل إنه في كثير من الأحيان أصبح مجرد متلق دون رد فعل ولم تفلح وفرة المعلومات في إطلاق ملكاته بل بقي أسير نظام سياسي واجتماعي يقتل معنوياته ويجهض حركته.

إن الإعلام العربي المعاصر يفتقد إلى العديد من الكوادر الإعلامية المؤهلة والمدربة من ذوي المرجعية الأكاديمية للموازنة ما بين استخدام التقانات الحديثة والارتقاء بالمضمون الهادف ومن الضروري في هذا المقام الوقوف بموضوعية أمام أداء الإعلام العربي ومدى التزامه بقضايا الأمة في الحيز المتاح بعدما غلبت البرامج الفنية والترفيهية والتسطيحية على البرامج السياسية والثقافية طبعا لا أتكلم عن المحطات المتخصصة في مجال الأخبار فقط.

لقد أدت التطورات في مجال الإعلام إلى سرعة تداول المعلومات والآراء الأمر الذي أحدث هزة كبيرة في الوطن العربي وصار الإعلام مصدراً للخوف والقلق لدى النظم السلطوية الحاكمة وربما تعود المشكلة إلى خروج بعض أجهزة الإعلام والصحافة العربية عن دوائر التأثير الحكومي والسيطرة الرسمية، فوسائل الإعلام العربية المملوكة للحكومات ظهرت عاجزة أمام أجهزة إعلام ذات تأثير خرج عن نطاق المعتاد التي أصبحت متنفسا للمواطن المغيب وأصبح حضور القارئ والمشاهد العادي ملحوظا على صفحاتها وبرامجها. لقد أتاح هذا التطور الحاصل في وسائل الإعلام الفرصة أمام المفكرين والكتاب وأصحاب الرأي ممن ضاقت بهم أجهزة الإعلام الرسمية لطرح آرائهم وأفكارهم دون وصاية أو ضغط وقد تمكنوا من الإفلات من براثن الرقابة بالإعلام وبات التحدث بلغة كانت غائبة مما أدى إلى تراجع تأثير خطاب المديح التقليدي المنفر.

أما على مستوى الوعي العربي فيمكن القول إن هناك تطوراً في الوعي السياسي لدى شرائح واسعة من الناس وبدأ يظهر بشكل واضح مدى التأثر من حيث مستوى السلوك

وتم اكتساب قدرة على إصدار أحكام واتخاذ مواقف سياسية لم تكن موجودة في السابق مع أن الإعلام العربي ما زال بعضه حتى الآن يسعى إلى حالة المحافظة على الأمر الواقع بغض النظر عن صلاحية هذا الواقع مما حال دون تطور الإعلام أو قدرته في التأثير على المواطن كيف يمكن لنا أن نطور إعلامنا ينطلق ذلك من عدة خطوات

١- تدعيم العلاقات ما بين الإعلام والحرية باعتبار أن لهما دوراً اجتماعياً واحداً في سبيل تنمية المجتمعات.

٢- أن يصبح الإعلام أداة للحفاظ على التماسك الاجتماعي الداخلي الذي يعكس وحدة الأمة ويدافع عن خصوصية الجماعة في مواجهة الآخر ويتحقق ذلك بتبني المنظومة الأخلاقية للمجتمع وعدم تجاهل التطور المتلاحق في الثقافة العالمية، فالسياسة الإعلامية المرغوبة تستهدف تكوين العقل الحديث وتحصين المجتمع في الوقت ذاته.

٣- رفع كفاءة العاملين في الإعلام وتدريبهم على أحدث الطرق في كيفية متابعة وتغطية الأخبار وبثها من موقع الأحداث مباشرة، إضافة إلى إمداد الأجهزة الإعلامية والصحفية بالمعدات التكنولوجية الحديثة للتغطية السريعة مع الاهتمام بالمادة المصورة المصاحبة للحدث بحيث تكون واقعية ومعبرة عن وقائع الأحداث.

٤- تحديث وسائل العرض والنقل والإنتاج الإعلامي وتوظيف هذه الإمكانات في جذب الجمهور إلى مؤسساته الإعلامية الوطنية في ظل التنافس الشديد في عصر المعلومات والتكنولوجية.

٥- مراعاة عدم الانفعال والتعامل بموضوعية في تحرير الأخبار والتحليلات وعدم حجب المعلومات أو التعتيم على التفاصيل المهمة إضافة إلى أهمية الاعتراف بالأخطاء التي قد تحدث في سبيل كسب ثقة واحترام المتلقي.

إن من أبرز أسس المواجهة مع الثقافة الواحدة ضرورة مراعاة ما يلي: الواقع الثقافي الراهن في الوطن العربي والذي يتزامن فيه القديم مع الجديد والوافد مع الموروث دون تفاعل حقيقي وتهيمن فيه السياسة على الثقافة مما يؤسس لحالة من الثنائية المتناقضة أحياناً إذ تسعى المجتمعات العربية نحو تحقيق هدفين يبدو أن كل منهما يتناقض مع الآخر فهي تسعى إلى مسايرة العصر كي تحتل مكانة لائقة على خريطة العالم المعاصر وتحرص في الوقت نفسه على التمسك بالهوية والجذور التاريخية.

وأخيرا أقول: على الإعلام المحلي فتح

باب الحـوار مع الثقافـات الوطنية الأخرى من منطلق النديـة والشراكة لا التبعية، على أساس أن الإسهام الثقافي الوطني هو إحدى الركائز الأساسية للثقافة الإنسانية ولا يمنع هذا التوجه الاستمرار في القيام بدور نقدي مزدوج يتمثل:

أولاً: في الاستيعاب النقدي لفكر الآخر.

ثانيـاً: في النقـد الذاتي للأنـا فالحوار الحضـاري يقتضي أن يقدم كل طرف نفسه للآخر بسلبياته وإيجابياته.

مـا أريد التأكيـد عليه هـو أن الإعلام المرئي والمسـموع والمقروء الموصوف بالسلطة الرابعـة في بلـدان العـالم المتقـدم لا يحتل في بلادنـا مرتبة قـادرة علـى الموازنة مع السـلطات الأخرى بل هو استمرار للسلطات القائمـة ومرآة عاكسـة لأدائهـا وطبيعتها. ولعل موقعه هذا يحرمه من الادعاءات التي تحملها بعض المؤسسـات الصحفية الغربية وما من شـك أن موقع وسائل التعبير العربية الموصوف بتقرير التنمية الإنسانية بالأحادي والرسـمي والسـلطوي يفرض شروط عمل تسـتند إلى مواصفات معينة، يتم من خلالها إنتاج الخطـاب الإعلامي العربي الذي يقوم كلـه على تكبيل النص وتقييده لذا يأتي هذا الخطـاب باهتا وثقيل الوطأة وخال حتى من التوهج اللغوي، وفي ظل هذه الشروط تنتشر مواهب المديح والهجاء والسـجال ويضـمر الخيال وتفتقد العقلانية ويسود منطق التستر والاحتجـاب على حسـاب الكشـف والقول الصريـح، وبعد ذلك كله ليـس من المدهش أن تغيـب عن الصـحافة العربيـة التقنيات الأساسـية التي صنعت مجد الصحافة، ومن بينها التحقيق الذي أدى ذات يوم إلى إسقاط الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون، والالتزام بالإجابة عن الأسـئلة الخمسـة التي ينعدم بدونها كل عمل صـحفي جديـر بكل عناية ورعاية وهي:

من؟ ومتى؟ وأين؟ وكيف؟ ولماذا؟.

هذه التقنيات يراد منها أصـلاً الكشـف عن الحقيقة ولكن عندما تغيب فإن المتضرر الأكـبر من غيابها هو الحقيقة نفسـها وهي الضـحية الأولى لشـروط العمل الصـحفي العربي، فما الذي يبقى من هذه المهنة إذا ما غابت علة وجودها الأصلية؟ هذا هو السؤال الذي يعيدنا إلى بداية فرضـية تصّـنع نصاً صـحفياً مقيداً والنص المقيد لا يصنع رأياً عاماً حراً وعندما يتعـذر وجود الرأي العام الحر تتحطم أحلام الأوطان وتصبح عرضة للخطر والانتهاك ويصبح مصير أمة عظيمة كالأمة العربية الخروج من التاريخ.

المصادر والمراجع

١- علم الاجتماع / عبد الباسط محمد حسن.
٢- قاموس علم الاجتماع / محمد عاطف غيث.
٣- المجتمع العربي وتطوراته الاجتماعية السياسية / أحمد سويلم العمري.
٤- النظام الاجتماعي العربي الجديد / سعد الدين إبراهيم.
٥- التنسيق والتكامل في مجال التخطيط الإعلامي على المستوى القومي / يحيى أبو بكر.
٦- مجلة الفكر العربي دراسة في مسؤولية الصحافة تجاه القيم / للدكتور بركات عبد العزيز محمد.
٧- الاتجاهات المعاصرة في دراسة القيم والتنمية / كمال التابعي.
٨- دراسات في علم الاجتماع الثقافي / عبد الحميد محمود سعد.
٩- التخطيط الإذاعي على المدى البعيد / لسعد لبيب.
١٠-أصوات متعددة وعالم واحد قضايا التبعية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث / عواطف عبد الرحمن.
١١-النظام الإعلامي الجديد / مصطفى المصمودي.
١٢-دراسات في العمل التلفزيوني العربي / سعد لبيب.
١٣-وسائل الاتصال الحديثة بوصفه سلاحاً لنشر التطبيع ومقاومته / د. ناديا خوست.

الهوامش

١- انظر كتاب علم الاجتماع عبد الباسط محمد حسن.
٢- انظر قاموس علم الاجتماع محمد عاطف غيث.
٣- التنسيق والتكامل في مجال التخطيط الإعلامي على المستوى القومي / يحي أبو بكر.
٤- مجلة الفكر العربي / دراسة في مسؤولية الصحافة تجاه القيم / د بركات عبد العزيز محمد.
٥- قاموس علم الاجتماع / محمد عاطف غيث.
٦- الاتجاهات المعاصرة في دراسة القيم والتنمية / كمال التابعي.
٧- قاموس علم الاجتماع / محمد عاطف غيث.
٨- دراسات في علم الاجتماع الثقافي /عبد الحميد محمود سعد.
(×) انظر المرجع في علم النفس للأستاذ سعد جلال .

٩- الاتجاهات المعاصرة في دراسة القيم والتنمية/كمال التابعي.
١٠-أصوات متعددة وعالم واحد قضايا التبعية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث اليونسكو عواطف عبد الرحمن.
١١-النظام الإعلامي الجديد / مصطفى المصمودي.
١٢-دراسات في العمل التلفزيوني العربي / سعد لبيب
١٣-بحث وسائل الاتصال الحديثة بوصفها سلاحا للنشر التطبيع ومقاومته / د. ناديا خوست.
(×) برقم ٣٦ ص٧٥.
١٤- انظر في هذا العدد كتاب مفهوم التحول العصري لجيمس أوكونيل ص ٦٨.
١٥- انظر مجلة الفكر العربي المعاصر عدد ٢٩عام ١٩٨٣ ص ٩١ دراسة حول «تلاقي الثقافات والعلاقات الدولية، لجان فريمون.

☆ ☆ ☆

القدس في كتابات الرحّالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر

مفيد نجم *

على الرغم مما شكلته أرض فلسطين بصورة عامة، والقدس بصورة خاصة في المخيال الغربي من صورة للجغرافية الروحية المسكونة بالقداسة والسحر والمعجزات والأسرار، فإن تلك الصورة ظلت تمثل جزءاً من صورة أوسع، هي صورة الشرق الذي اتخذ في المخيلة الغربية صورة غريبة غامضة، بوصفه أرض السحر والأساطير والبدائية والشهوات المتفجرة. وقد لعبت كتابات الرحّالة الأوائل والحكايات التي كانت تروى دوراً كبيراً في رسم هذه الصورة الخيالية وتعزيزها.

* كاتب سوري مقيم في دولة الإمارات العربية المتحدة
- العمل الفني: الفنان شادي العيسمي.

فكان الرحالة الذين زاروا الشرق فيما بعد يأتون وفي أذهانهم تلك الصورة المثيرة التي كان الغرب يحتاج لوجودها حتى ذهب فولتير إلى القول (إنه لو لم تكن هناك مجتمعات الحريم وتعدد الزوجات في بقاع آسيا وإفريقيا لكان على الأوربيين أن يخترعوها) [1] ص٥٧. لكنه مع توافد الرحالة الغربيين على الشرق في مطلع القرن التاسع عشر بصورة أكبر لأغراض متعددة، منها ما يتعلق بغايات علمية تتمثل في القيام بدراسات علمية اجتماعية وإثنية وآثارية وطبيعية، ومنها ما كان بهدف الحج أو بحثاً عن استيهامات تمتزج بسحر الشرق الغامض والغريب وأساطيره، أو لأغراض سياسية ودبلوماسية، الأمر الذي جعل الكتب التي وضعها هؤلاء الرحالة عن عالم الشرق تختلف باختلاف أهداف الرحلة وغاياتها، سواء من حيث موضوعاتها وأسلوبها، أو من حيث لغتها والرؤية التي قدمتها لهذا العالم. ولعل اللافت للنظر في تلك الرحلات أنها لم تقتصر على مدينة القدس وفلسطين وحدها من أجل الحج، بل كان هدفها في الغالب الصحراء والمدن العربية والإسلامية الواقعة على تخوم الصحراء والتي استطاعت أن تجتذب إليها الرحالة الأوربيين والأمريكيين كالقاهرة ودمشق وبيروت وبغداد والقدس واسطنبول، حيث انطوى كثير من كتابات هؤلاء الرحالة على لغة مفعمة بالشاعرية والدهشة والسحر، لاسيما في كتابات الشعراء الرومانسيين الباحثين عن العودة إلى الماضي الأصيل الذي وجدوه ممثلاً بعالم الشرق وفطرته وبدائيته بحثاً عن استعادة تجربة الإنسان البدائية.

لقد قدم هؤلاء الرحالة إلى الشرق بهدف اكتشاف سحره وغموضه الغريب، بعد أن عملت حكايات ألف ليلة وليلة التي ترجمت في عام ١٧٢١ من قبل المترجم الفرنسي أنطوان غالاند، وكتب الرحالة الأوائل الذين زاروا الشرق على أسطرة وتغريب و(تجنيس) صورته. وتؤكد الباحثة الفرنسية ماري لويز دفرنوا أنه (منذ الأصول الأولى لأدبنا مارس الشرق المكتنف بالغموض، والمحاط بالجمال المصمي على الوصف سحره على مخيلة الفرنسيين، وبقي مفهوم الشرق المجمَّل بالأحلام المتبلورة حول الفردوس الأرضي، غامضاً لأمد طويل فشجع على الإبداع الحر للصور الغرائبية والخلابة في نفوس الفنانين والروائيين.. وبدلاً من أن تعمل المراجع التوثيقية التي ظهرت فيما بعد على تصحيح وتوضيح هذه المفاهيم، قامت بتنذيتها وأجازت لها التطور) [2] ص٦. وكان لافتاً في الكتابات الأوروبية أن مفهوم الشرق لم يظهر إلا في منتصف القرن التاسع عشر، حوالي عام ١٨٣٥ ميلادية، بعد أن أخذ الرحالة الغربيون يتوافدون عليه مع توسع الصلات



بين الشرق والغرب، وتطور وسائل الانتقال التي سهلت تلك المهمة. وقد لعبت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت على مصر واكتشاف كنوزها الأثرية، والاحتلال الفرنسي للجزائر في تعزيز تلك الصلات، ومحاولات الرحّالة اكتشاف حقيقة هذا الشرق من الداخل، بعد أن ظلت صورته المجازية التي قدّمتها كتابات الرحّالة من الشعراء والكتاب تنطوي على صورة الشرق المشبعة بالظلال الشعرية والغنائية والخيال.

لقد شكل الرحالة الفرنسيون في القرن التاسع عشر طليعة الرحّالة الأوربيين، وأكثرهم اهتماماً باكتشاف عالم الشرق والتعرف إليه.

ويأتي الشعراء الرومانسيين في مقدمة هؤلاء الرحّالة، حتى أن مفهوم الشرق ظهر لأول مرة على يد الشاعر الرومنسي لامارتين في كتابه (ذكريات وانطباعات وأفكار ومشاهد مقدمة من خلال رحلة إلى الشرق)، إلا أن هذا المفهوم لم يكن يحمل دلالات أنثربولوجية، بقدر ما كان يشير إلى معان جغرافية تكتسي طابعاً أسطورياً. ويعتبر شاتوبريان أول من حج إلى الأراضي المقدسة في فلسطين عام ١٨٠١ ميلادي، وكتب عن تلك الرحلة المثيرة واصفاً مشاهداته والأحداث التي جرت معه منذ بدء انطلاقتها من باريس وحتى الوصول إلى القدس. وقد حمل عنوان الكتاب

(الطريق من باريس إلى القدس) تلك الدلالة التي تشير إلى سير الرحلة، وانتقالها في المكان وفق المسار الذي اتخذته تلك الرحلة، الأمر الذي يجعل العنوان يحمل في الآن نفسه دلالة زمنية، ترتبط بزمن الرحلة الخطي التعاقبي من جهة، ومن جهة أخرى يشير إلى أسلوب التدوين القائم، على تسجيل المشاهدات ووصف ما يراه الرحّالة في تلك الجغرافيات المتباينة، والتي تعكس في وصفها ثنائية الأنا والآخر، باعتبار وجود الآخر ضرورة لإدراك الأنا من خلال الاختلاف الذي يمثله الآخر، ما يجعل الفضاء المكاني يشكل تمثيلاً لتلك العلاقة، وما تحيل عليه من إسقاطات، تجعل المكان ملتبساً بالمفاهيم الاستشراقية والمجازية والخيالية.

تنوعت أشكال الكتابات التي دونها الرحّالة الفرنسيون، فإلى جانب كتب المذكرات كانت هناك الكتب التي تروي الحكايات والقصص عن تلك المغامرات التي قام بها هؤلاء الرحالة، والمصاعب والأخطار التي واجهوها، والأماكن التي اكتشفوها، إضافة إلى الرسائل. وكان لكتاب شاتوبريان عن رحلة الحج التي قام بها إلى الأراضي المقدسة في فلسطين دوره المؤثر والكبير، الذي امتد إلى حوالي قرن من الزمن في تحفيز الرحالة الفرنسيين على الحج وزيارة الأماكن المقدسة، وتعزيز الصورة النمطية المتخيلة مسبقاً عن عالم الشرق البربري، الغارق في ملذاته الشهوانية، والتي نمت عن تحيز واضح ضد الإسلام.

إن هذا الاهتمام الكبير من قبل الرحالة الفرنسيين بزيارة الشرق، جعل أدب الرحلة الذي خلفه هؤلاء الرحالة يتسم بالغنى والتنوع، سواء من حيث موضوعيته وقدرته على فهم ثقافة الشرق وعاداته وقيمه، أو من حيث جنسه الأدبي وموضوعه، إذ امتد تاريخ الرحلة من القرن السابع عشر وحتى القرن العشرين، وكان اهتمام الرحالة وأهدافهم التي يسعون إلى تحقيقها من خلال هذه الرحلة متبايناً. ومن أهم الرحالة الفرنسيين الذين زاروا الشرق وكتبوا عنه إلى جانب شاتوبريان فلوبير وفوربان وبيير لوتي وفوغويه، والشاعر لامارتين والكونت دوفوربان والكونتيسة دوغاسبران وأوجين دوفوغويه وأرنست رينان.

رحلات الحج والتحول في العلاقة مع الشرق

حملت صورة الشرق التي رسمها الرحالة الفرنسيون في القرن التاسع عشر مزيجاً من تأثيرات سابقة من كتب الرحالة السابقين وحكاياتهم ولوحاتهم التي رسموها، وعكست في مضمونها غرائبية الشرق، ومن مصادر حديثة ظلت تدين للتقاليد السابقة في منهجها ورؤيتها إلى الآخر، وإلى جغرافية الأرض التي

ارتبطت عندهم بجغرافية التوراة والأماكن المقدسة، كما تجلى ذلك في الانتقال من صورة الشرق الذي يرمز للتعصب الديني، إلى صورة الشرق المستبد المحكوم بالعبودية والعنف، ما جعل الكثير من هؤلاء الرحالة يرى مدى الحاجة إلى استعماره من قبل الغرب، كي يوفر له التطور والحرية والقانون والأمن. لقد لعبت كتابات شاتوبريان عن رحلة الحج التي قام بها إلى الأماكن المقدسة في فلسطين، والتي اعتبر فيها أن هذه الأماكن تعتبر مكاناً مثالياً للإعجاب المسيحي دوراً كبيراً، في زيادة عدد الحجاج الذين اقتفوا أثره في رحلاتهم. لكن عدداً كبيراً من الأدباء الذين زاروا تلك الأماكن لم يكتفوا بزيارتها، بل اتجهوا نحو أطراف الصحراء التي كتبوا في وصفها، ووصف ساكنيها من البدو الكثير، كما هو حال الشاعر لامارتين والكونتيسة فاليري بواسيه وأوجين دوفوغويه، الذي اعتبر أن التوراة هي بنت الصحراء العربية، وسمى رحلته (الرحلة إلى بلاد الماضي)، وبيير لوتي الذي يعتبر من أهم من وصفوا الصحراء في كتابه (صحراء سيناء)، وغوستاف فلوبير.

القدس في كتب الرحالة الفرنسيين

كان الرحالة الأوربيون يدونون المشاهدات وأحداث الرحلة أثناء تجوالهم في الأراضي المقدسة، وقد تميزت تلك الكتابات بمجموعة من السمات، التي تعكس الرؤية الاستشراقية للرحالة الغربيين، والأهداف المتباينة التي كانت تدفع بهؤلاء الرحالة للقيام بالحج إلى الأماكن المقدسة، وزيارة المدن الرئيسة المحيطة بتك الأراضي مثل بيروت ودمشق والقاهرة واسطنبول. إن القراءة الأولية لتلك الكتابات تكشف عن الصدمة التي كان يواجهها الرحالة عند زيارتهم لتلك البلاد بسبب التباين الذي يجدوه بين الصورة المثيرة، التي كونوها عن عالم الشرق من خلال قراءتهم لكتب الرحالة السابقين، والأحاديث التي سمعوها عنه، وبين الواقع الذي كانوا يجدونه أمامهم، الأمر الذي كان يولد عندهم الشعور بالصدمة والمرارة والسخرية، كما هو الحال عند عدد من الشعراء الرومنسيين. وفي حين اعتبر شاتوبريان الأراضي المقدسة، كما سبقت الإشارة بأنها مثار للإعجاب المسيحي، لكون الرحالة يعثر فيها على العون والأصدقاء، رغم الطابع البربري لتلك البلاد، فإن الجانب الأهم في تلك العلاقة، التي تنشأ بين الرحّالة والأرض المقدسة هو تلك المشاعر الإيمانية العميقة التي يوقظها المكان في النفوس، والتي تجعل الرحالة يستعيدون سيرة المسيح وتلامذته على هذه الأرض، التي تحولت إلى جغرافية روحية توقظ في النفوس (ألف ذكرى من الإنجيل والتاريخ، وألف فكرة مبهمة وأحلام للمستقبل، وتأملات حميمة وجسيمة لا أعلم كم من الوقت دام

هذا الوجد)[٣]، ص ٩٤. كما يصف الكونت دومار سيليوس مشاعره في اللحظة، التي رأى فيها جبل الزيتون في الأفق كأنه ظل. أما الشاعر لامارتين فيتحدث عن تلك التجربة الخاصة بالقول (يا لها من أشياء تلك التي سمح لي الرب برؤيتها على أرضه. إنها بوابة سامية أدخل منها في اليوم التالي إلى أرض المعجزات، على أرض الشهادات التي ما زالت مطبوعة بالقديم وبالجديد من الصلات بين الرب والإنسان)[٤] ص١٠٦. ويضف لامارتين واصفاً مشهد جبل الزيتون بلغة مجازية بالغة الدلالة (كان ذلك هو جبل الزيتون وكانت تلك هي أشجار الزيتون. إنها الشهود القديمة على أيام خالدة انحفرت في الأرض والسماء، وارتوت من الدموع الربانية بالعرق والدم وبالكثير من العرق والدموع الأخرى)[٥] ص١٤٤.

مقابل تلك الرؤية التي يمتزج فيها الموقف الإيماني مع المكان، مسقطاً عليه تلك المشاعر، يقدّم غوستاف فلوبير في كتابه (رحلة إلى المشرق) رؤية استشراقية مناقضة للصورة السابقة، تنطوي على كثير من السخط والاستياء والهجاء، إذ لا يرى في المدينة المقدسة (سوى ركام جثث محاط بالأسوار)[٦] ص ٢٠١، ثم يضيف في مكان آخر من الرحلة واصفاً مشهد المدينة المقدسة بالقول (كانت الخرائب في كل مكان، وتفوح رائحة الرمس والقنوط فيبدو وكأن لعنة الله تحوم على المدينة المقدسة للأديان الثلاثة، والتي تموزت من الضجر والركود والهجران)[٧] ص ٢٠٢. وتتجلى المفارقة الغريبة بالنسبة للرحّالة إدوار شوره في كتابه (الأماكن المقدسة في الشرق- ١٨٩٨) في مشهد المدينة المكفهر الخالي من مظاهر الحياة الجديدة في أوروبا، والموحي بالوحشة والقسوة والاختناق، على العكس من الصورة التي جاء يحملها معه لمدينة تزهو بمعابد من المرمر الأبيض وبتماثيل أبطال الرياضة العراة والفرسان الأحرار في سهول السبسب، ولذلك (لم يكن هناك في المدينة المكفهرة أية عربة تسير أو عابر سبيل، بل نواقيس تدوي أصواتها في الهواء، كانت الأزقة ضيقة مثل خنادق صغيرة لا ترى أعماقها، فلا ورود ولا حدائق سوى شجرة سرو هنا وهناك في المرج العاري)[٨] ص٢١٧.

لقد جاء الشعراء الرومانسيون إلى بلاد الشرق بحثاً عن ماضي أوروبا القديم، وعن استعادة ذلك الشعور الأول بالطبيعة البكر والحياة البدائية، كما هو الحال بالنسبة لأوجين ميلشيو دوفوغويه في كتابه (رحلة إلى بلاد الماضي- ١٨٦٧)، إذ يكشف عن تلك الأهداف من خلال حديثه عن طرق التعليم التي شاهدها في أحد المساجد التي زارها (وهكذا تمكنت وأنا أتجول بين

التلاميذ المجتمعين في فناء المسجد، وهم يدونون ملاحظاتهم فوق ركبهم أن أتخيل نفسي وسط كهنة شارع فوار، وهم يفسرون أرسطو لشدة ما بدا لي هذا الشرق الساكن، وأنا أتأمل- ولا أمل من تكرار الأمر- إزاء الذي يريد استنطاقه كنسخة حية، وتجل صادق لتاريخنا الماضي، نحن الذين نواصل سيرنا)[٩] ص ١٨٥.

ويقدّم لامارتين وصفاً مناقضاً للصورة المفزعة والمنفرة التي رسمها الرحالة السابقون في كتاباتهم عن المدينة المقدسة، إذ يعبر بصورة مباشرة عن تلك المفارقة، التي تنم عن التحيز والرؤية الاستشراقية التي لا ترى في الشرق سوى صورة للبربرية والموت والوحشية، ولذلك يكتب في مذكراته (لم تكن هذه المدينة كما صوروها لنا كومة بلا شكل وأطلالاً مهدمة، ورماداً ألقيت عليه بعض أكواخ العرب، أو نصبت عليه بعض خيام البدو.. بل كانت مدينة تشع بالضياء والأنوار، تعرض على نحو مهيب أسوارها السليمة المبنية ومسجدها الأزرق بأعمدته البيض، وهناك آلاف من قبابها الرائعة، التي يسقط عليها ضياء الشمس الخريفية، وتنبثق في حنان يبهر العيون)[١٠] ص ١٥١. ويعبر بيير لوتي الذي أحب البلاد الإسلامية، ودون مشاهداته وملاحظته أثناء رحلته المخيبة لآماله عن التباين الكبير بين الطبيعة وطرز العمران الشرقية والطبيعة وأشكال العمران في الغرب، لكنه رغم ذلك ظل يستحضر حكايات الشرق العظيمة خلال طوافه في الأماكن، التي كانت تحرض مخيلته على استعادة تلك الصورة القديمة لشرق الحكايات الغريبة (كانت عظمة الحكايات الشرقية برمتها تتلألأ، وتلتمع في ظل صمت ذلك المكان الخالي على الدوام، والمحاط بالساحات الخالية، حيث كنا نتجول وحيدين)[١١] ص ٢٣٨.

عرب ويهود وجمالية العمارة الدينية الإسلامية

يكاد أغلب الرحّالة الفرنسيين يتفقون في كتاباتهم عن مشاهداتهم، في مدينة القدس على ما تتمتع به العمارة الدينية الإسلامية، في تلك المدينة من جمالية وروعة ودقة، ويعد جامع عمر مثالاً حيّاً لتلك العمارة التي تتسم بالجمال والسحر والدهشة، فالرحالة بيير لوتي يصف هذا الجامع بأنه صرح وحيد مدهش يتميز بزرقته المثيرة النادرة، ثم يقدم وصفاً تفصيلياً لأعمدة الجامع وجدرانه وأقواسه المنحنية وسقوفه باعتبارها تشكل صورة بديعة للعمران المتقدم. ويلتقي لامارتين مع لوتي في الإعجاب الكبير الذي يبديه حيال هذا الصرح العمراني المدهش، الذي يتوسع في وصف أجزائه التي يتكون منها (إن مسجد عمر أو الصخرة هو عبارة

عن صرح رائع بعمارته العربية، فهو كتلة من الحجر والرخام لها أبعاد شاسعة من ثمانية جدران. حيث كل جدران مزين بسبعة أقواس، ينتهي كل منها بقوس قوطي وفوق هذا الشكل المعماري هناك سطح على شكل شرفة ينطلق منها صف من الأقواس أقل عرضاً)[١٣] ص١٥٠.

إن هذا الإعجاب الذي يبديه عدد من الرحالة بعمارة المسجد، لم يحل دون ظهور الرؤية الاستشراقية التي تكشف عن التعصب والنظرة السلبية إلى المسلمين سواء من خلال وصف شخصياتهم الغريبة، أو الحديث عن سلوكهم وأخلاقياتهم السيئة، وهم غالباً ما كانوا يطلقون كلمة العربي على البدوي ما يدل على الخلط في التسمية عندهم. ومع أن بعض الرحالة عبروا عن إعجابهم بالعرب، وصداقتهم لهم إلا أن البعض الآخر ظل ينظر إلى المسلمين نظرة مشوهة عبرت عن موقف ازدراء وكراهية، جعلتهم يكتفون بملاحظتهم وتسجيل انطباعاتهم عنهم، وعن أماكن عملهم، ويمثل هذا الموقف الرحالة إدوارد شوره الذي يصفهم في رحلته بالقول (ما إن نعبر حي اليهود إلى حي المسلمين حتى نلحظ سريعاً تغير الجنس والدين والمناخ الأخلاقي، فهذا الحي يشبه جميع بازارات الشرق هناك الشوارع البيتورسكية الطويلة القذرة المظللة بالحصر والبدو الطوال القامة، وهم يسيرون بفخر ولا مبالاة، لهم هيئة جانبية تشبه هيئة العقاب وبشرة محترقة يسحبون خلفهم معاطفهم الطويلة البنية في الغبار)[١٣] ص ٢٢١.

من جهة أخرى عبر رحالة آخرون عن الإعجاب والود تجاه الشخصية العربية، ومما يلاحظ هنا أن الرحالة الذين كانوا يعبرون عن رؤية استشراقية فيها الكثير من التعامل والنظرة الدونية، اكتفوا بالرؤية الخارجية والعابرة، في حين أن الرحالة الآخرين أقاموا طويلاً في الشرق وتعمقوا بمعرفته وبنوا علاقات ودية مع السكان، ومن هؤلاء الرحالة بيير لوتي الذي يعبر عن إعجاب واضح بالشخصية العربية على خلاف الموقف الذي يقدمه حيال الشخصية اليهودية (عند خروجنا من إسطبل الشؤون اليهودية، هذا الذي نحس فيه رغماً عنا بهواجس سرقة وعيون شريرة وملعونة، أحسست بالراحة. لقد رأينا بدلاً من هذه الرؤوس المطأطئة القامات العربية الجميلة. وبدلاً من الأثواب الضيقة الأرواب الفضفاضة النبيلة للعربي)[١٤] ص ٢٥١.

وتعكس الرؤية الاستشراقية إلى الشخصية اليهودية الموقف الذي كان سائداً في أوروبا أثناء القرن التاسع عشر والمحكوم بالموقف الديني المسيحي من اليهود باعتبارهم المسؤولين عن صلب المسيح وعذابه، حيث

كان الموقف العدائي من اليهود هو السائد، لاسيما مع انغلاق اليهود على أنفسهم في جيتوات خاصة، خوفاً من الذوبان في المجتمعات الأوروبية. والقارئ لوصف الرحالة الفرنسيين لليهود في كتب رحلاتهم يدرك مدى الكره الذي كان يكنه هؤلاء الرحالة للشعب اليهودي ولتقاليده الدينية المتوارثة، كما هو الحال في كتابات إدوارد شوره التي تعكس كرهاً عميقاً لا يتوانى عن التعبير عنه وعن أسبابه الدينية بشكل صريح ومباشر فيقول: (الحي اليهودي المحشور بين حي الأرمن وحي المسلمين وحرم جامع عمر هو الأكثر غرابة في شكله، إذ يسكنه شعب حقير يتكاثر في دهليز الأزقة ويراكم في منازل أبوابها واطئة ونوافذها مشبكة بالقضبان، لا تسمح بنفاذ شاع النور.. إنك لتخال رؤية الغطرسة من تحت العبودية والغنج مع القبح المخيف، ولكن يا لها من تجاعيد أسطورية وأنوف معقوفة تتبينها تحت هذه القبعات المصنوعة من الفراء الطويل الوبر، فتحتها رؤوس مرابين مرائين عظيمة وقد جردوا من قوتهم) [١٥] ص٢١٩. ويعبّر هذا الموقف عن نفسه بقوة أكبر في كتابات بيير لوتي التي يصف فيها الشخصية اليهودية من خلال رؤية تحمل معنى العداء والاحتقار، النابعين من الأثر العميق الذي خلفته علاقة اليهود بالمسيح في الوعي المسيحي، بوصفهم مثالاً للقتلة الذين يجب أن يحملوا لعنة ما فعله آباءهم على مدى الأجيال (في كل مرة كانت تصدمني المفاجأة والتقزز حين تستدير إحدى هذه الظهور الشائخة المحدبة تحت المخمل والفراء نصف استدارة، فأرى زوجاً جديداً من العيون يصوب جانباً نحوي بشكل خاطف بين الخصلات المجعدة المتدلية، ومن تحت زجاج النظارات. حقاً إن صلبهم للمسيح قد ترك أثراً لا يمحى، ولعله ينبغي أن تأتي هنا لترى بعينيك.. بيد أن الشيء الذي لا جدال فيه هو أن هناك علاقة خاصة مكتوبة على هذه الجباه، ووصمة عار دمغت هذا العرق كله) [١٦] ص ٢٤٩.

والحقيقة إن هذه الرؤية التي تقدمها كتابات هؤلاء الرحالة لا تختلف عن الصورة التي قدمتها رواية القرن التاسع عشر لشخصية اليهودي بمعطفها الأسود الطويل، وملامح وجهها الغريبة التي تتميز بالأنف المعقوف، والعيون المواربة التي تدل على المكر والخبث تحت قبعات الفراء السوداء، ما يدل على طبيعة الصورة النمطية التي. كانت تكرسها الثقافة الأوروبية بجذورها الدينية المسيحية للشخصية اليهودية.

المراجع

١- الاستشراق جنسياً- تأليف: إرفن جميل شك- ترجمة عدنان حسن- دار قدمس للنشر- دمشق٢٠٠٣- ص ٥٧.
٢- تائهون في صحراء الإسلام- تأليف د. مي عبد الكريم محمود- دار الأهالي دمشق ٢٠٠٣- ص ٦.
٣- رحالة رومانطيقيون: يوميات ومشاهدات- تأليف عدد من الكتاب - ترجمة مي عبد الكريم- دار ورد للطباعة دمشق ٢٠٠٥- ص٩٤.
٤- رحالة رومانطيقيون :يوميات ومشاهدات - تأليف عدد من الكتاب - ترجمة مي عبد الكريم.. المرجع السابق- ص١٠٦.
٥- رحالة رومانطيقيون- تأليف عدد من الكتاب - ترجمة مي عبد الكريم.. المرجع السابق- ص١٤٤.
٦- رحالة رومانطيقيون- تأليف عدد من الكتاب - ترجمة مي عبد الكريم.. المرجع السابق- ص٢٠١.
٧- رحالة رومانطيقيون- تأليف عدد من الكتاب - ترجمة مي عبد الكريم.. المرجع السابق- ص٢٠١-٢٠٢.
٨- رحالة رومانطيقيون- تأليف عدد من الكتاب - ترجمة مي عبد الكريم.. المرجع السابق- ص٢١٧.
٩- رحالة رومانطيقيون- تأليف عدد من الكتّاب - ترجمة مي عبد الكريم.. المرجع السابق- ص١٨٤.
١٠-رحالة رومانطيقيون- تأليف عدد من الكتاب - ترجمة مي عبد الكريم.. المرجع السابق- ص١٥٠.
١١-رحالة رومانطيقيون- تأليف عدد من الكتاب - ترجمة مي عبد الكريم.. المرجع السابق- ص٢٣٨.
١٢-رحالة رومانطيقيون- تأليف عدد من الكتاب - ترجمة مي عبد الكريم.. المرجع السابق- ص١٥٠.
١٣-رحالة رومانطيقيون- تأليف عدد من الكتاب - ترجمة مي عبد الكريم.. المرجع السابق- ص٢٥٠.
١٤-رحالة رومانطيقيون- تأليف عدد من الكتاب - ترجمة مي عبد الكريم.. المرجع السابق- ص٢٥١.
١٥-رحالة رومانطيقيون- تأليف عدد من الكتاب - ترجمة مي عبد الكريم.. المرجع السابق- ص٢١٩.
١٦-رحالة رومانطيقيون- تأليف عدد من الكتاب - ترجمة مي عبد الكريم.. المرجع السابق- ص ٩٤.

☆ ☆ ☆

الداروينية تواجه الدين

محمد وائل بشير الأتاسي *

منذ عام ١٩٢٠ والدعاوى تتالى في أمريكا وتضع الموالين للتطور في مواجهة القائلين بالخلق. فهؤلاء يحاولون من حين لآخر إيجاد منفذ لهم في أحكام القضاء، وخاصة في الدستور، ليكون سنداً لهم في مطالبتهم بتدريس مقولة الخلق، وخاصة أن الدستور يكفل الحرية الدينية.

---

* باحث من سورية

- العمل الفني: الفنان رشيد شمه

وفي عــام ١٩٨٠ نشر ستيفن غولد كتاباً بعنوان، إبهـام الباندا، طرح فيه تصـورات جديـدة تدعم نظرية التطور. فرد عليه آخر بكتاب سـماه رجال وباندا تحـدث فيه عن فرضـية جديدة سـماها «التصميم الذكي»، التي تقول إن الخلق قد تم بتصميم ذكي وليس بالتطور. وتتفـق هذه النظرية مع الداروينيـة في المراحـل التي مـر بها تطور الكائنـات الحيـة، ولكنها تخالفهـا في دور المصادفة. فلو أخذنا داروينياً مثل جاك مونو مثلاً لوجدنا أن الطبيعة عنده سارت في تطور لا هدف لــه، وأنه كان مـن الممكن أن تخلق كائنــات أخرى، حتى إنه لم يكن من الضروري أن يخلق إنسان. أما نظرية التصميم الذكي، فهي ترى، على العكس، أن التطور سـار منذ البـدء بخطا هادفة غايتهـا في النهاية خلق الإنســان، وهذه الغائية لا تتفــق مع النظرة الموضـوعية للعلم. لأنها في نظره تقطع عليه فجـأة طريـق البحث ما دام التطور سـائراً بخطــوات ثابتة نحو هــذه الغاية، ولا مجال للبحث في إمكانية التطور في اتجاه آخر. وقد سبق أن أقر قضائياً بأن فكرة «الخلق» وفكرة «التصـميم الذكي» هما تفسـيران دينيان لا مجال لهما في المقـررات العلمية. وفيما يلي سرد لهذه الدعاوى،[1] ثـم يليه تعليقنا على هذه الخصومة التي لا نرى لها مبرراً.

قضية دوفر Dover،

هي قضية رفعت أمام محكمة مدينة دوفر الصـغيرة الواقعة في ولاية بنسـيلفانيا. وقد احتلت هذه المدينة عناوين الصـحف العالمية في خريف عام ٢٠٠٥. وكان الخصـمان فيما هم الموالون للتطور والمعارضون له.

سنسـتعرض فيمـا يلـي مراحـل هذه الخصـومة ثم نحاول التأكيد على أنها ترجع إلى الاعتقاد بحقيقة يسـتحيل على الإنسان أن يبت فيها، وهي قضية الزمان.

وقائع سابقة

في عام ١٩٢٥ حكم على مدرس البيولوجية جون سـكوبس J. Scopes في ولاية تنسـي Tennessee بتهمـة خرقـه لقانـون بتلر Butler الذي يمنع تدريس نظرية التطور في المرحلة الثانوية. ولكن محامي الادعاء أصبح عرضـة للاسـتهزاء أثناء الدعوى، ولم يطبق القانون بعد ذلك.

في عـام ١٩٢٦ منعت ولاية ميسيسـيبي تدريس نظرية التطور.

وفي عـام ١٩٢٨ منعت تدريسـها أيضـاً ولاية أركنساس.

في عام ١٩٦٨ أبطلت المحكمة العليا قرار المنع في أركنساس.

في عام ١٩٨١ حاولت أركنساس مرة أخرى إدخال «علم الخلق» كمادة لها شرعية نظرية التطور نفسها في التعليم العام.



في عام ١٩٨٢ صرح قاض فيدرالي بأن تعليم «علم الخلق» يخالف الدستور.

في عام ١٩٨٧ منعت المحكمة العليا الطروحات الخلقية بدعوى أنها تتعلق بالدين وليس بالعلم.

في ٨ تشرين الثاني ٢٠٠٥ صوتت هيئة التعليم في ولاية كانساس لصالح تعليم نظريات بديلة للداروينية في دروس البيولوجية.

دوافع تحريك القضية

في ١٨ تشرين الأول سنة ٢٠٠٤ تبنت هيئة مدينة دوفر المدرسية في ولاية بنسيلفينيا قراراً يهدف إلى تشجيع المدرسين على تعلم نظريه «التصميم الذكي» ضمن دروس البيولوجية. وحجتهم في ذلك أن هذه النظرية، التي تنسب أصل الحياة إلى الخالق، يجب اعتبارها حلاً لمسألة إيجاد بديل لمبدأ دارون في التطور. وهكذا تليت أمام الطلاب فقرات من كتاب رجال وباندا الذي أصبح مرجعاً لنظرية «التصميم الذكي». وقد شجب أحد عشر ولياً من أولياء الطلاب الدوافع الدينية عند الهيئة المدرسية، وقرروا اللجوء إلى القضاء. لأن قرار تعليم نظرية التصميم الذكي يخالف أول تعديل للدستور الأمريكي الذي يكفل حقاً حرية العبادة، ولكنه يمنع توريط الدولة في مسائل دينية.

شهود الاتهام

– قال جون هفت Haught (أستاذ اللاهوت في جامعة هارفارد) (إن «التصميم الذكي» ليس نظرية جديدة، إنه بالأحرى حجة تتخذ للبرهان على وجود الإله).

– وقال كيفن باديان (عالم مستحاثات في جامعة كليفورنية) «نحن أول من اعترف بأن العلم(٢) لا يعرف كل شيء، بل ولا يمكنه ذلك. ولكن ما نريده من جهة أخرى هو تصوير صحيح ومحكم لما نعرفه».

– أما باربارا فورست (الفيلسوفة في جامعة جنوب شرق لويزيانا)، فقد قالت (إن كل ما فعله مؤلف كتاب رجال ودببة باندا هو أنه استبدل بعبارة «نظرية الخلق» عبارة «التصميم الذكي»).

– وأما كنيث مولر (البيولوجي في جامعة براون، ويرأس «المركز الوطني لتعليم العلم ») فقد عبر على طريقته بالقول إن («التصميم الذكي» نظرية لا يمكن تحققها تجريبياً فهي من ثم لا يمكن إدخالها في مجال العلم).

شهود الدفاع

– قال سكوت منيش المختص بالبيولوجية الميكروية في جامعة إيداهو «توجد ثغرات في نظرية التطور، فهي لا تفسر بدايات الحياة ولا تاريخ تطور بنى الكيمياء الحيوية وما دون الخلوية».

– أما البيوكيمائي في جامعة لوهاي والمدعو بيهي M.J. Behe فقد قال: «لا يوجد أدنى دليل يثبت أن الاصطفاء الطبيعي والطفرات العشوائية كان يمكن أن تكون السبب في نشوء بنى كيماوية معقدة». ثم إن «التصميم الذكي لا يحتاج من صاحبه التزاماً دينياً، وإن كنت أنا شخصياً أعتقد أن الله هو الخالق»

ويرى ستيف فولر أستاذ علم الاجتماع في جامعة وارويك أن (ليس في «التصميم الذكي» شيء مما هو غير علمي ليعدل من أسس العلم. فقد مر زمن كان ينظر فيه إلى النقالة و إلى الثنوية موجة- جسيم بأنهما خارقان للطبيعة) (بقصد أنه لم يجر أي تعديل في أسس العلم على الرغم من هذه النظرة.)

الحكم

أصدر القاضي جون جونز حكمه: «إن ما خلصنا إليه هو أن تعليم نظرية «التصميم الذكي» في المدارس العامة على أنها سبيل آخر غير سبيل التطور هو أمر يخالف الدستور. لأن نظرية التصميم الذكي ليست مدعومة بأي ورقة بحث أو أي معطيات أقرب من مراجع عليا، فالعلم يرفضها ليثبت الأدلة الملموسة، ونرى أن نظرية التصميم الذكي أخفقت على ثلاث مستويات، فهي تخرق قواعد العلم الأساسية بسبب استعانتها بفعل خارق للطبيعة. وحجتها القائمة على التعقيد

الذي لا يمكن اختزاله، هي في صميم الحجج ذاتها التي قدمها «علم الخلق» في ثمانينيات القرن الماضي، وأخيراً إن الانتقادات التي وجهتها للتطور سبق أن دحضتها الجماعة العلمية».

تعليق

كان الغرض من هذا العرض المختصر وضع القارئ في صورة الجدل حول قضية هي مثار جدل لا في أمريكا وحدها، بل في كثير من بقاع العالم، لأن نظرية دارون حسب زعم المعترضين عليها لم تتقيد بما ورد في الكتب السماوية عن خلق الله جل جلاله للكون ولسائر الكائنات الحية. وما أود بيانه في هذه المقالة هو أن نظرية التطور لم تخالف التعاليم الدينية، لأن كل ما أتت به هو أنها قدمت محاولة لوصف الطريقة التي تمت بها عملية الخلق على النحو الذي دلتنا عليه مداركنا نحن بني البشر. وهذا ما لم تتطرق إليه الكتب السماوية، إذ لا ضرورة لهذه التفاصيل ما دامت غاية الكتب المقدسة هي تذكيرنا بما يتوجب علينا تجاه خالقنا. لذلك أرى أن هذا الخلاف بين بعض رجال الدين من جهة ورجال العلم من جهة أخرى لا مبرر له.

لابد في البدء من ذكر قضية قد يجهلها كثيرون وهي أن من بين الذين يتابعون دراسة نظرية التطور ثمة من يؤمنون بالله. وأبرز مثال على ذلك هو الأميركي فرنسيس كولنز Francis Collins الذي يشرف على البرنامج العام المسمى «مجين الإنسان» وهو البرنامج الذي يحاول وضع خريطة مفصلة لمورثاتنا نحن بني البشر. فقد ألف هذا الباحث (الذي يُعد من بين من يشاركون في تيار فكري، يأخذ بالتطور وبالإيمان معاً دون أن يجدوا تعارضاً بينهما)، كتاباً بعنوان لغة الله، وقد ورد فيه أن التطور بالمعنى الدارويني مبرمج من قبل الإله، وأن القانون الأخلاقي يدلنا على أن الله يهتم بنا كأفراد. وثمة راهب يسوعي أيضاً اكتسب شهرة عالمية بآرائه في كيفية الخلق والتطور وساهم باكتشافات إحاثية عديدة أهمها إنسان الصين الذي أدرج بعد كثير من الجدل حول مسألة كونه إنساناً أم لا في صنف الإنسان الماهر.

وهناك بالمقابل البريطاني ريتشارد داوكنز Richard Dawkins الذي ألف كتاباً نال شهرة عالمية بعنوان الموروث الأناني، فهذا المؤلف يفتح صمامات إلحاده حتى نهايتها في كتابه الثاني «وهم الإله». فكان حماسه لإلحاده يفوق حماس أشد المؤمنين تعصباً، كما يقول أوليفييه بوستل -فيني[٢].

ضرورة العلم

وسواء أكنا مع هذا الطرف أم مع ذاك، فإن من الضروري أن يتابع الإنسان مسيرة العلم وهذه المسيرة لا تكتمل إلا بعمل يستفيد من

جميع طاقات العقل، وأخص منها النظريات التي تحاول إعطاء تفسير للظاهرات، لأن الإنسان وجد على هذه الأرض أعزل ليس له مخالب ولا أنياب يدافع بها عن نفسه ولا وبر يحميه من البرد، ولكنه يتمتع بعقل جعله يتدارك كل هذا. فلو تساءل أحدنا كيف أمكن للإنسان أن يتدارك بعقله ما فاته من وسائل حمايته، لتبين له أنه حقق ذلك بمعارف كانت هي بداية العلم، فالعلم حاجة ملحة. وما دام العقل موجوداً فلا بد له من أن يعمل.

قد لا تكون هنالك حاجة للتذكير بما حققه العلم من تقدم في مجالي المعرفة والصناعة أو ما يسمى بالتقانة، ولكن لا بد من ذكر بعض الأمور التي تتبين منها ضرورة النظريات العلمية بما فيها نظرية التطور. فهذا هو طريق العلم المثمر. أجل، قد تبطل نظرية وتظهر أخرى، ولكن الأولى لا تتوقف إلا حين تعجز عن العطاء، و بعد أن تكون قد أعطت أقصى ما عندها.

قديماً نظر الإنسان إلى الشمس وإلى القمر وظنهما إلهين، وتخيل أساطير حولهما، وربما كان لهذه الفرضية التي تخيلها الإنسان فائدة في تقديم الموعظة وتحديد سلوك جماعي يشعر الأمة بوحدتها سلوكاً وفكراً. وحين تقدمت معرفة الإنسان وفكره، تبينت حقيقة هذين الجرمين، وانتهى به المطاف إلى أن الخالق أبعد ما يكون عن هذه الأحجار المترامية في أطراف الكون، ولم يعد بالإمكان التشبث بفرضيات لا تتفق مع الواقع.

إن العبرة من هذه الحقيقة التاريخية واضحة. لم ينقض العلم الاعتقاد بإله وإنما نقض طريقة تصور هذا الإله. وهكذا ارتقى بالدين، وأصبح الإله منزهاً عن كل هذه الترهات والهرطقات. وأخص بالذكر أن الإله في الديانات السماوية بعيد عن كل ما يحده زمان ومكان. ونظرية التطور لا تنقض فرضية الخلق، بل ربما تنتهي أخيراً إلى تأكيدها.

وقد سمعت رجل دين يحاول أن يشرح لجمهور من الحاضرين مدى الإتقان في خلق الكائن الحي، ثم تساءل قائلاً: هذا ما خلقه الإله، فأروني ماذا خلق هؤلاء المدّعون ؟ لا أدري من هم المدعون. ولكن أعجبني قول عالم المستحاثات كيفن باديان الوارد سابقاً «نحن أول من أقر بأن العلم لا يعرف كل شيء».

ضرورة النظرية

إذا تتبعنا تاريخ العلم، نجد أنه لم يتقدم إلا حين اجتمعت للإنسان خبرة ولدتها ممارسة أجيال متراكمة من التعامل مع الطبيعة، فبلغ بعدئذ وعيه وفكره درجة من النضج تكفي لوضع نظريات يمكن إخضاعها للاختبار الحسي. لقد مر حين من الدهر جرب فيه الإنسان وضع فرضيات تسمى اليوم أساطير يفسر بها ظواهر العالم التي يشاهدها.

ولكن هذه الأساطير لم تؤد إلى نتائج عملية يجني منها الإنسان فائدة تسهل عيشه. وإن ما ارتبطت هذه الأساطير بسلوك أخلاقي معين، كان من غير الضروري أن يكون سلوكاً يليق بالإنسان ومكانته، فكانت تدعو أحياناً إلى المبالغة في اللذات الحسية كما كان الحال عند الرومان. وعلى الرغم من أن هذه الديانات أو الفرضيات قد أدت إلى اهتمام أكبر بفن النحت والعمارة وشرائع الحكم، إلا أن سعيها الأول والأخير هو إمتاع الحواس حتى وإن كان التلذذ بقتل الآخرين.

ولم يستطع الفكر اليوناني ـــ مع تقديرنا الكبير لعطائه الفكري الراقي ـــ التوصل إلى فكرة فرضية يمكن إخضاعها للتجربة الحسية (أو ربما لم يحاولوا هذه التجربة). أما المسلمون فقد لامس بعضهم هذه الفكرة من بعيد كما عند ابن الهيثم وقبله عند جابر بن حيان. ثم ظهر في الغرب مجتمع من الصناعيين والباحثين الذين ساقهم تعاملهم مع الآلة ومردودها النفعي إلى تكوين مفاهيم تبلورت ونضجت عندهم، ولم تتبلور عند سواهم.. وأخص بالذكر منها مفهوم السرعة. فهذه المفاهيم، ساقت بعض الباحثين ـــ وهم موجودون دائماً أينما كان ـــ إلى السعي وراء فكرة قانون لظاهرة ما دون البحث عن أسبابها الخفية كما كان المفكرون والفلاسفة الأوائل يطمحون. وقد يسرت لهم المفاهيم التي مر ذكرها هذا الأمر. فاستطاع كبلر أن يستقرئ قوانين تصف حركة الكواكب وصفاً كمياً انطلاقاً من فرضية أن في هذه الحركة موسيقى تمجد الإله، ولكنه لم يسع إلى البحث عن سبب حركتها. وكذلك فعل غاليليه بدراسته لحركة سقوط جسم على الأرض، ووجد قانوناً كمياً يكتفي بوصف هذه الحركة انطلاقاً من فرضية أن الجسم يسقط بتسارع ثابت ولكنه لا يفسر سقوطه.

وكان مفهوم التسارع هذا قد ظهر تلقائياً بعدما تبلور مفهوم السرعة. ولم تكتمل صورة هذا التطور في طريقة التفكير إلا حين ظهر نيوتن وأعلن مبادئه ونظريته في الثقالة، وكان يسانده بعض الباحثين في أنحاء متفرقة من أوروبا.

استطاع نيوتن بمبادئه وفرضياته إعطاء وصف كمي لكثير من الظواهر. وتتالت الاكتشافات. وباتباع هذا المنهج في البحث، الذي كان يكتفي أحياناً بالوصف دون التعليل، تطورت الكيمياء ثم البيولوجية.

وشيئاً فشيئاً بدأت تظهر نظريات تتجاوز الوصف الظاهري إلى التعليل. منها النظرية الذرية التي ألقت الضوء على قوانين الكيمياء أولاً ثم الفيزياء، فأصبح لمفاهيم الفيزياء والكيمياء مدلولات أكثر وضوحاً ففي الفيزياء على سبيل المثال أصبح للحرارة مدلول واضح. إذ كان يظن أن

الحرارة سـائل يدخل الأجسام و أنه بحسب كمية هذا السـائل تزداد الحرارة أو تنقص، ولكن لم يستطع إنسان أن يظهر هذا السائل. ثم فطن بعضـهم كدانييل برنولي إلى فرضية قديمة قال بها لوسيبوس وديموقريطس وهي النظرية التي تقول إن المادة مؤلفة من ذرات (جواهر) لا تتجزأ، فانطلق من هذه الفرضية واستطاع بالرياضيـات إعادة اكتشاف قانون بويل ماريوط في الغازات. وسرعان ما تبينوا أن مفهـوم كمية الحرارة ليس سـوى الطاقة الحركيـة لهذه الذرات. بل لقـد أمكن فيما بعد إعطاء مدلول واضح لما سمي أنطروبية. وهكـذا أمكـن بالنظرية الذريـة وبما تفرع عنها حـول بنية الذرة تفسـير ظواهر كثيرة أو التنبؤ بها، منها التيار الكهربائي والأشـعة الكهرطيسة وكيفية انبعاثها..

لم تكن هنالك في البدء نظرية للبيولوجية. والسـبب واضـح وهو تعقيـد ظواهر هذا الميدان. وفي القرن التاسـع عشر بدأت تظهر بعضـ النظريات في التطـور، ولكنها لم تكن نظريات مقنعة. ثم أتى دارون وزميله والاس بنظرية في التطور بدت للكثيرين أنها مقنعة. ولكنهـا باعتراف الجميع غـير كافية. لذلك جرت عليها تعديلات كثيرة حين اكتشـف سر نواة الخلية. ثم أتى اكتشاف المورثات وكيفية عملها وتكاثرها، فأصبح هذا الاكتشاف دعماً قوياً لنظرية التطور. فقد أصبح بالإمكان، إلى حد ما، توقع تحـولات بيولوجية. كما أمكن وضع خريطة لتطور جينات مختلف الكائنات التي مرت علـى الأرض وقورنت مع خريطة تطور الكائنات عبر العصور التي دلت عليها التنقيبات الإحاثية فتبـين وجود تطابق إلى حد بعيد بين الخريطتين.

و إذا كان من الصـعب إخضـاع نظرية التطور لمحك التجربة عند الإنسـان أو عند الحيوانات التي تعمر عشرات السـنين، فهذا ليس صعباً في حالة المجتمعات الحشرية وما يطرأ على بعضـ أفرادها من تبدل. وهكذا اتجهت دراسـة التطور إلى دراسـة التغيرات التشريحيـة والفيزيولوجيـة التي تطرأ على مجتمعات حشرية.

و لقد أمكن بنظرية التطور فهم المراحل التـي مرت بها الكائنات الحية وكيف تنوعت وانتقلت من البنية البسيطة إلى البنية المعقدة. كما أمكن تفسـير بعض الظواهر التشريحية عنـد الحيوانات، كالزائـدة الدودية، وبقايا أقـدام اختفـت تحت الجلد عنـد الحيتان، وعنـد غيرها مـن اللبونـات البحرية، كما أمكن متابعة تطور فصيلة الخيليات (الخيل والحمـير، ولمـاذا يمكـن تزاوجهمـا) ولماذا تنوعت أصنافهما حسب البيئة، وهذا التنوع حسب البيئة فهم سببه أيضاً عند فصيلة من الجواثـم هي العصـافير الدورية. كما ألقت

نظرية التطور الضوء على المراحل التي يمر بها تكوين الجنين.

وقد بينت الدراسات التي أجرتها بربارة ماك كلينتوك[4] أن ضغط البيئة يؤدي إلى ظهور طفرات متعددة، فلا بد أن تكون إحداها مفيدة. وهذا دليل على التطور. وقد بينت كيف حول ضغط البيئة نوعية من الزهور إلى نوعية أخرى. فاستحقت بربارة، على أبحاثها هذه، جائزة نوبل في الطب والبيولوجية للعام ١٩٨٣. أما أن نظرية التطور ما زالت في بدايتها وأن فيها الكثير من الثغرات، فهذا صحيح. ولكن لا شيء في عالمنا، وبحسب إدراكنا الدنيوي الساذج، يأتي مكتملاً دفعة واحدة. وهنا تكمن مشكلة الزمن التي سنعالجها بعد قليل. فإلى أن يأتي بديل مقنع عنها أو تسد ثغراتها تظل هي المأخوذ بها من الوجهة العلمية.

وأكرر، إن البحث عن نظرية عامة هي طريقة البحث العلمي عند الإنسان. فمن دون النظريات الشمولية يصبح العلم مجرد تراكم معارف لا رابط بينها. ويتبين لنا مما سبق كيف يصبح العلم مترابطاً ومتكاملاً في إطار نظرية عامة مثل النظرية الذرية ونظرية التطور. وكيف يصبح قادراً على اكتشاف ظواهر جديدة لم يلحظها من قبل.

وهم الزمن هو الأصل في الخلاف

والحقيقة إن الفارق الزمني بين الخلق والتطور هو مجرد وهم. هذا ما سنحاول بيانه في ما يلي.

فقد ورد في الكتب السماوية أن الله خلق الكائنات وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، وهذا فعلاً ما حصل، وتم خلق الكون. ولذلك، ربما دار في خلد كل منا أن المخلوق يظهر إلى الوجود لحظة يريد الله. في حين أن التطور يحتاج إلى زمن، بل زمن طويل. وهكذا بدت نظرية التطور مناقضة للاعتقاد الديني. ترى هل يظل هذا التناقض قائماً حين نتذكر أن طول الزمن وقصره أمر متعارف عليه عند الناس، أما عند الإله فالأمر مختلف أو على الأقل لا نستطيع معرفته. وحاشا للإله أن يقارن بالإنسان الذي معرفته نسبية، أما الإله فمعرفته مطلقة ولا يمكن أن يصل علم الإنسان إلى مرتبة علم الإله و إذا تذكرنا أن العلم قد أثبت نظرياً وتجريبياً أن طول الزمن وقصره أمر مرتبط بالحركة، ومن ثم مرتبط بحواس الإنسان الذي يشاهد حركة ومن ثم تطوراً، تبين لنا أن طول الزمن وقصره أمر ناتج عن أن معرفتنا تأتينا عن طريق حواسنا التي لا يمكن أن ندرك العالم من دونها، فهي قاصرة عن إدراك المطلق. ثم إن الحركة نسبية ما عدا حركة الضوء الذي سرعته ثابتة. وهكذا يتبين لنا أن الحديث عن زمن، أمر منوط بالإنسان وحده. كما يجب أن نتذكر أيضاً أن من يسير بالنسبة لنا

بسرعة الضوء لا وجود للزمن عنده، ثم إن ثبات سرعة الضوء يجعل مدركاتنا: الزمان والمكان والمادة كلها نسبية تتغير بتغير حركتنا. وما دمنا نعتمد في إدراكنا على الضوء فلا بد أن تبدو الأمور كلها بالنسبة لنا على هذه الصورة النسبية. أما كيف تبدو بالنسبة لكائن عاقل لا يحتاج إلى الحواس لكي يدرك العالم، فهذا مالا يمكن للإنسان أن يعرفه.

نخلص من ذلك إلى أن العلم هو علم الإنسان وليس علم الإله. وهكذا لن ينتقص العلم من عقيدة الدين في الخلق شيئاً أبداً. فليترك المتزمتون العلم يسير في طريقه، فهو لن يستطيع التقدم إن هو تخلى عن طرح الفرضيات والنظريات، لأن علمه يقوم على تضافر عمل العقل والممارسة، هكذا خلق، وهكذا دلت تجربة الإنسان الطويلة. كما دلت على أنه لا جدوى للعلم إن هو أخذ الآن بالنظرية الغائية بعد أن ثبت عقمها كما كان الحال عند أرسطو وغيره من علماء اليونان أو علماء القرون الوسطى، كقولهم إن لدى الأشياء ميلاً يشدها إلى مثيلاتها، أو قولهم إن لدى الأجسام ميلاً للسقوط نحو مركز الأرض. فمثل هذه الصفات كان من الممكن أن تكون تفسيراً لو كانت تؤدي إلى نتائج ملموسة، لكن كل ما في الأمر أنها صفات نجدها عند الكائنات التي تملك عقلاً فسحبت قسراً لتعمم على سائر الأشياء، في حين أن دراسة عملية التلقيح وتكاثر الخلايا وغير ذلك، لم تثبت وجود مثل هذا الميل، وكذلك صراع الكائنات بعضها مع بعض لأجل البقاء، فهي كلها تدل دلالة واضحة على أن هناك مجالاً لا بأس به للمصادفة، أو هذا ما يبدو لنا. أما أن مشيئة الله هي العليا فهذا مؤكد، ولكننا لا نستطيع معرفتها إلا بعد أن تصبح نافذة. فلنترك العلم والدين يسير كل منهما في طريقه، فلا بد من يوم يلتقيان فيه، وعندها يكتمل فعلاً وعي الإنسان.

ونضيف إلى ذلك مسألة أخرى تتعلق بالزمان، وهي أن عملية الخلق توحي مباشرة للإنسان -الذي هداه عقله وحواسه إلى فهم أمور هذا العالم ضمن إطار زماني ومكاني- بأن عملية الخلق بدأت، كما تبدأ كل أعمال الإنسان: في زمن معين وربما في مكان معين. وهكذا نغفل عن حقيقة، أو ربما كان الإنسان يجهل هذه الحقيقة، وهي أن الزمان والمكان يرتبط وجودهما بوجود عالم دنيانا وحواسنا، أما الإله، فمن تحصيل الحاصل لا يحده مكان ولا زمان. وتصور ذلك مستحيل على الإنسان، لأنه لا يستطيع تصور أمر خارج عن هذا الإطار (الزمان والمكان).

يتبين لنا مما سبق مدى أهمية النظرية في البحث العلمي. لذلك كان من الخطأ حذف نظرية التطور من منهاج البيولوجية في المدارس الثانوية. ولوزارة التربية تجربة

في هذا الشأن حبذا لو عادت إليها. فمنذ أربعين سنة أو يزيد كان القائمون على تدريس الفيزياء والكيمياء يتجنبون تدريس النظرية الذرية بدعوى أنها مجردة فوق مستوى فهم طلاب المرحلة الثانوية. ولكن تجارب أمم أخرى بينت أن وجود فكرة عامة عن هذه النظرية تلقي ضوءاً على كثير من مفاهيم الفيزياء والكيمياء، لأنها تكوّن عند الطالب تصوراً تركيبياً يربط كل المفاهيم التي سبق أن تعلمها بنظرة شمولية موحدة تفسر هذه المفاهيم أو تعطيها صورة أكثر ترابطاً. ولست مغالياً إذا قلت إن هذه النظرة تساعد على الإبداع وإلى استنتاج روابط لم تكن واضحة من قبل. وأخص بالذكر أن مفهوم التطوير والتحديث المتواصل هي مفاهيم غريبة إلى حد ما عن مجتمعنا. ولست مغالياً في ذلك، لأن الإنسان العربي ظل طيلة الخمسمئة عام الأخيرة وربما أكثر، على ما هو عليه لم يتبدل، لا في أنظمة حكمه ولا في معارفه ولا حتى في ملابسه وسلوكياته. بل لقد أغفل كل ما أنتجه المفكرون في هذه الأمة فيما سلف من سنوات. وكل تحديث تلا ذلك كان مستورداً من الغرب. وحين أتى ما يسمى ظلماً عصر النهضة في مطلع القرن العشرين، بدت طلائع بعض التغيير في عقلية شعبنا. وقد عُدَّ ذلك تقدماً ما زلنا نتحدث عنه. ولكن لو قارنا هذا التغيير بما حدث لشعوب شرقي آسيا لوجدنا أن ما حققناه ليس سوى جزء ضئيل جداً بالنسبة لما حققه هؤلاء. فما الخطأ في أن ندخل مفهوم التطوير والتحديث في أذهان طلابنا باعتباره سنة الكون، فنشحذ هممهم عساهم يستدركون ما فات أمتهم من تقدم يجعلها في مصاف الأمم المتقدمة.

الهوامش

١- أخذ هذا السرد المختزل للمراحل التي مر بها الجدل الدائر في الولايات المتحدة حول تعليم نظرية التطور منذ عام ١٩٢٠ وحتى الآن عن مجلة La Recherche العدد ٣٩٦ نيسان ٢٠٠٦.

٢- يجب ألا نفهم من كلمة علم أنه مجرد معرفة، بل العلم البحت: فيزياء، كيمياء، علوم بيولوجية.

٣- مجلة La Reccherche العدد ٤٠٤ كانون الثاني من عام ٢٠٠٧ ص١٠٨.

٤- Mc Clintok المرجع السابق.

حوار العدد

حوار العدد مع

قاسم طوير: هذا الجيل يتجه إلى المستقبل

إعداد: عادل أبو شنب

قاسم طوير: هذا الجيل يتجه إلى المستقبل

حاوره: عادل أبو شنب *

تربطني بالأستاذ قاسم طوير صلة قديمة، وكان بيننا زيارات عائلية، وقد أنست فيه وداعة ورقة ودبلوماسية، حتى إنني رشحته إلى منصب دبلوماسي دون أن أعرف أن هذا من بعض طموحه، لكنه، قال خضع لمشيئة القدر، ودرس الآثار في فرنسا، وعاد ليخدم في هذا المرفق طوال حياته باحثاً ومنقباً عن الآثار، وظللنا على صحبتنا، لكنني وقد بعد بي العهد عنه فوجئت به أباً لثلاث فتيات ولابن واحد، وفوجئت أكثر بأفكار قل أن نجدها في مثقف مثله.

* باحث سوري

هذا حوار مع صديق، بدأته بسؤال عن دراسته، وقبل ذلك مولده.

صدفة مع الآثار

- حدثني أولاً عن دراستك بمختلف أقسامها؟

• ولدت في دير الزور عام ١٩٣٦، ودرست فيها المرحلتين الابتدائية والثانوية، وانضممت إلى جامعة دمشق (كلية الحقوق)، وكان طموحي أن أكون في السلك الدبلوماسي أو المحاماة، وقبل البدء بالدراسة علمت أن ثمة مسابقة في وزارة التربية لإيفاد طلاب إلى أوروبا للدراسة على نفقة الدولة، وباعتبار أن شهادة البكالوريا، خاصتي، أدبية، لم يكن أمامي من خيار إلا دراسة تاريخ الفن والآثار الإسلامية.

- الآثار الإسلامية في أوروبا؟

• لأن مناهج التعليم في أوروبا حافلة بما يخصنا أكثر من مناهجنا، وتحديداً أن مناهجنا في مادتي التاريخ والآثار.. منقولة عن كتابات المستشرقين الذين أعادوا كتابة تاريخنا وفق أهوائهم، وما أدراك ما أهواؤهم!

وقد وصف علماء آثار غربيون في أحدث كتاب لهم صدر عام ٢٠٠٤ بأن أهواء المستشرقين من مؤرخين وآثاريين تتفق والأهداف الإمبريالية والاستعمارية لدولهم اتفاقاً كاملاً.

- ما اسم هذا الكتاب؟

علم الآثار في بلدان الشرق الأدنى، صدر بالإنكليزية في لندن ونيويورك.

أعماله

بعد فنجان قهوة شربه في مقهى الروضة حيث التقينا، وسؤاله عن أسرته، وكم صار عنده من الأولاد سألته، فأجاب:

- ما هي الأعمال التي زاولتها ضمن نطاق المديرية العامة للآثار؟

• زاولت أول الأمر عملاً ميدانياً فأحببته، فاستمررت فيه، وهو التنقيب في المواقع الأثرية، لأن في ذلك كشفاً عن المستور.

- ما هي هذه المواقع؟

• أخص بالذكر مدينة الرقة التي اتخذها الخليفة العباسي الرشيد مقراً ثابتاً له لمدة ثلاثة عشر عاماً كبديل عن العاصمة بغداد.

ثمة مواقع أخرى اكتشفت بالمصادفة كموقع «رأس ابن هاني» حيث ظهر مدفناً ملكياً من عصر أوغاريت، وهو مجاور لأوغاريت، وكموقع في مدينة دمشق وقد ظهر فيه مدافن عديدة، منقورة في الصخر في حديقة بيت الشمعة في القنوات، وقد تم ذلك أثناء حفر الأساسات لملجأ في تلك الحارة.

فضلاً عن مشاركتي كممثل لمديرية الآثار لدى بعثات التنقيب الأوروبية المختلفة.

- مثل ماذا؟

• قصر الحير الشرقي الذي كانت تعمل فيه بعثة أثرية من جامعة ميشيغان أو موقع إيبلا الذي كانت تعمل فيه وما تزال بعثة أثرية من جامعة روما.

عمليات التنقيب

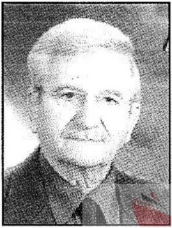
- هل رافقت بعثات أجنبية تنقب عن الآثار، وما هي؟ وما ملاحظاتك عن عمليات التنقيب التي غالباً ما يقوم بها أجانب مختصون؟

• أجبت على جزء من هذا السؤال في الإجابة السابقة. أما ملاحظاتي فهي أنني تعلمت أكثر من لغة أوروبية كاللغة الألمانية، والإنكليزية، ثم الفرنسية والإيطالية، لأن المراجع العلمية في مرفق الآثار والعاملين فيه.. هم من أبناء هذه اللغات.

فوائد من المرافقة

- ما هي الفوائد الأخرى التي جنيتها من مرافقتك للبعثات الأجنبية؟

• استفدت من دراسة مختلف العصور التاريخية والحضارية، حسب تنوع البعثات الأجنبية العاملة لدينا في تكوين أفق شمولي موسوعي، يتميز عن الأفق الاختصاصي



الضيق الذي ينهجه الفكر الأوروبي الحديث، وهو الفكر الأوروبي المختص في عصر معين وقطاع معين، مثلاً التخصص في الآثار الرومانية، وفي الفخار الروماني.. لا يفقه شيئاً عن آثار وفخار العصور الأخرى لذلك يفتقد الأوروبي السياق الفكري والترابط بين الأحداث بحيث تدور استنتاجات المستشرقين في حلقة مفرغة.

تهريب الآثار

- هل استطعت أن تضبط عملية أو عمليات لتهريب الآثار؟ وإذا حدث.. فقص علينا مجريات هذه العملية؟

• يمكن القول إنني لم أشهد عملية لتهريب

الآثـار ولم أرها رأي العين، لكن من الملفت أن الأسـواق العالمية للمتاجـرة بالآثار في لندن وجنيف ونيويورك وباريس وطوكيو تعج بالآثار التي هي مصـدرها من سورية، في العقدين الأخيريـن، وعلـى الرغم من ذلك أستطيع القول إن سورية بآثارها ما تزال بأمان، إذا ما قورنت بمصـير الآثار في أفغانستان والعراق وغيرهما من الدول.

آثارنا.. أين؟

كان هذا الجواب صـادقاً، في رأيي، فهو لم يشـهد عمليات تهريب، لكـن الآثار تسرق، ولا بد أن لها سارقين مختصين، بدليل وجود الآثار المأخوذة من المنطقة العربية.. موجودة في مدن العالم.

تقاريـر..

- هل كتبت مطبوعة في مجال عملك أم أن لك مذكرات كتبتها أثناء العمل وتنوي إصدارها فيما بعد؟

• إن مـن ينقب عن الآثـار يتوجب عليه نشر نتائج اكتشافاته أو أن يلقيها كمحاضرات في المؤتمرات الدولية، وبفضل معرفتي لعدد من اللغـات الأوروبية نشـرت نتائج أبحاثي واكتشـافاتي في الدوريات الأثرية في كل من أوروبا وأمريكا وباللغات التي أعرفها.

- مثل ماذا؟

• نتائج التنقيب في الرقة

• أكتشاف المدفن الأوغاريتي في راس ابن هاني.

• مدافن حديقة بيت الشمعة في دمشق.

ويـتراوح البحـث بـين عشر صـفحات وعشرين صـفحة فولسـكاب ! وهذا البحث خال من اللغو، ومكثف ومركز جداً.

تقييمه لعلم الآثار

- ما هو تقييمك لعلم الآثار؟

• علم الآثار يحاول استنطاق الأموات، على الرغم من أن الأموات لا ينطقون، ويحاول أن يكشف المستور، وهو ينبش القبور على الرغم من أن أهل القبور في جميع الأزمنة والعصور تمشـوا على قبورهم بأن اللعنة سـتحل على من يمس قبورهم بسـوء، أو يبعثر عظامهم، ولقد لمسـت هذه اللعنـة وعواقبها الوخيمة على جميع من أعرفهم من العاملين في مجال الآثار مـن عرب وأجانب ومن مرتبة سـائق وعامـل إلى مرتبة مديـر ومدير عام، خلال ٢٠ سنة من عملي في الآثار.

- مع ذلك للآثار شواهد ضخمة كالأهرام في مصر؟

• الأهرامات وغيرها من الشواهد الماثلة عبرة لمن يعتبر. من يراها يطرح السؤال: أين أنتم يا أصحابها؟

- ما هي العبر التي تعلمتها من الآثار؟

• قبل كل شيء أدركت أن الآثار للاعتبار وليس للافتخار. وتأكدت من بطلان نظرية داروين الارتقائية، فبموجب نظرية الارتقاء يجب أن تكون الشعوب التي أدركت قمم التمدن والحضارة، قبل آلاف السنين أن تكون الآن في السماء السابعة من سلم الارتقاء الدارويني، وهذا لم يحدث. أين هم اليونان والطليان الآن؟

قال لي زميل مصري ذات يوم: إن المصريين **القدماء أول من اكتشف** الملعقة **واستخدمها في تناول الطعام، وذلك** قبل آلاف السنين. **ترى بماذا يأكل المصري** العادي؟ إنه يأكل بيديه. لقد عاد إلى نقطة الصفر. وهذا ما دعا عالم الآثار الفرنسي الدكتور جاك كوفان الذي ينقب منذ سنوات طويلة في مواقع الإنسان الأول في سورية إلى نقض نظرية داروين والعودة إلى النظرية التراثية الدولابية الدوارة، وأسماها نظرية العودة إلى الصفر (RETOUR AU ZERO) في كتابه المترجم إلى العربية بعنوان (القرى الأولى في سورية وفلسطين. أو. الوحدة الحضارية في بلاد الشام. الألف التاسع قبل الميلاد)

الحرب والآثار

- قرأت منذ مدة عن اكتشاف أثري هام في مدينة قديمة في الشمال الشرقي لسورية، وهذا الاكتشاف ينبئ عن أول حرب بشرية قامت قبل ستة آلاف سنة. فماذا تقول في مثل هذا الكشف؟

• أول حرب بشرية وقعت هي التي حدثت بين الأخوين هابيل وقابيل، لذلك فإن الحروب بين البشر أزلية لا زمان ولا مكان لها.

ولد مع الإنسانية

كان يتحدث عن حقيقة غابت عمن قال إن الحرب منذ ستة آلاف سنة هي أول حرب. فالحرب نزاع بشري، ولد مع ولادة الإنسانية ولن يزول إلا بزوال الإنسانية.

أيها الأغنى..

- لا شك أن عصوراً متلاحقة قسمت الآثار إلى أقسام متعددة في سورية، فأيها أغنى في نظرك؟ ولماذا؟ القديمة قبل المسيح؟أم الإسلامية أم الحديثة؟

• تتساوى هذه الأقسام من حيث الكم والنوع، لأن الموقع الجغرافي المتميز لسورية كمفتاح لبوابة ربط بين القارات القديمة، جعلها ساحة ذاخرة بالتفاعل المادي والفكري بين مختلف شعوب العالم، وهذا الدور ما زالت

سـورية محتفظة به كمفتاح للشرق الأوسط، وإذا كان المثل القديم يقول إن جميع الطرق يقـود إلى روما، فأنا أقـول إن جميع الطرق من آسـيا وأفريقيا وأوروبا يجب أن تستأذن سورية للمرور.

الأهـم..

- أيها أغنى من حيث الأهمية؟

• تكمـن أهميـة العصـور الإسـلامية وتميزهـا عن غيرها أن العاصـمة دمشـق أصبحت أول عاصـمة لدولة كانت تمتد من شواطئ الأطلسـي إلى حدود الصين، أما في العصرين اليوناني والروماني فكانت أنطاكية هي العاصمة.

الشباب والمستقبل..

- هـل تدعـو الشبـان إلى الالتحـاق بمعاهد الآثار؟

• نشـأ علـم الآثار لأسـباب رومانسـية وأرسـتقراطية، وباعتقادي كلاهما أصـبح من الماضـي، فنحن اليوم نسـتمتع بمنتجات مذهلـة للثورتين التكنولوجيـة والمعلوماتية، إلى جانـب الثورة الجينية (علم الجينات) إن شئنا أم أبينا، جيل الأبناء يتوجه إلى المستقبل وليس إلى الماضي، لأنه لا يملك الوقت الكافي للتأمل بالماضي.

ماذا نقرأ..

- أنـت كمثقـف، مـاذا تقرأ؟هـل تقتصر قراءاتـك على اختصاصـك أم أنك تتعداها إلى ميادين أخرى، كالقصة والرواية والشعر والمقال؟

• إن الجيـل الجديـد من علمـاء الآثار الغربيين، أدركوا عقم الاستنتاجات التي وصل إليها الجيل الأقدم لعلماء الآثار، فأصـبحوا يطالبـون في أبحاثهـم الأخيرة المنشـورة في السـنوات الأخـيرة بإعـادة النظـر (RE-THINKING) بـكل المقـولات السـابقة والتي ترسخت في مناهج التعليم المدرسي وفي الصحافة وفي منشورات الدعاية السياحية، ما أريده منذ عشر سنوات تلبية هذا النداء، لقـد نشرت عدة أبحاث في الدوريات العالمية بهذا الاتجاه.

الأوسمة والجوائز..

- هل حصلت علـى أوسمة تقدير.. على أي شـيء مـن مديريتك أو من بـلادك أو من بلاد أجنبية؟

• حصـلت على وسام استحقاق ألماني من الدرجة الأولى ووسام استحقاق برتبة فارس من إيطاليا، وجائزة أفضـل ترجمة لقصص أطفال باللغة الأجنبية إلى العربية من منظمة

التربيــة والثقافــة والعلوم (جامعــة الدول العربيــة) وبراءة تقدير من جمعية أصــدقاء دمشق.

☆ ☆ ☆

كان لقــاء حــاراً لســببين، لأننــي، أولاً اكتشفت قاســم طوبر المثقف الواقعي الذي يقول ما يؤمن به، ولأنني أستطيع القول إنني لقيت صــديقاً بعد انقطــاع، لا أتردد في أن أقول.. عن ثلاثين سنة.

ما أحلى الصداقات التي تبقى.. وتتحدى الزمن.

☆ ☆ ☆

متابعات

صفحات من النشاط الثقافي   إعداد: أحمد الحسين

كتاب الشهر

جذورنا.. الكون والفساد   إعداد: محمد سليمان حسن

آخر الكلام

ويستمر البحث عن الأغاني   رئيس التحرير

متابعات

٢٢٦

صفحات من النشاط الثقافي

إعداد: أحمد الحسين *

ترجمات أدبية من العربية وإليها:

أعلن رئيس اتحاد الكتاب والأدباء العرب محمد سلماوي موافقة الاتحاد الأوروبي على تمويل مشروع لترجمة ٢٠٠ كتاب أدبي من العربية إلى اللغات الأوروبية، و٢٠٠ كتاب أوروبي إلى العربية. وقال: إن لجنة تشكلت لهذا الغرض من مجموعة من الأدباء العرب لاختيار الأعمال الأدبية التي سيتضمنها هذا المشروع الذي سيكلف أكثر من مليون دولار بعد تلقي ترشيحات الاتحادات في الدول العربية.

* أديب وباحث في التراث العربي (سورية)

وأضاف أنه سيتم كذلك اختيار المترجمين الذين يضطلعون بمهمة ترجمة الأعمال التي سيتم اختيارها في إطار هذا المشروع الذي يندرج ضمن مشاريع حوار الحضارات الذي تهتم به أوروبا، وذلك إلى جانب بعض المشاريع الثقافية المستقبلية ومنها ترجمة بعض الروايات العربية إلى اللغة الصينية بدعم وتمويل من حاكم الشارقة مقداره مئة ألف دولار.(1)

تكريم الفلاح الفصيح:

أقامت اللجنة الثقافية في اتحاد كتاب مصر بحضور رئيس الاتحاد، وأمين عام اتحاد الأدباء والكتاب العرب احتفالية ثقافية تكريماً للشاعر الكبير محمد عفيفي مطر، وذلك بمناسبة عيد ميلاده وتقديراً لجهوده الإبداعية التي امتدت على مدى أربعة عقود زمنية، تبلورت خلالها تجربته الشعرية الأصيلة، التي استندت إلى التراث الشعري العربي، القديم والحديث، والشعر العالمي، والموروث الشعبي والمعرفة الفلسفية، وتأمل الواقع الراهن والالتزام بقضاياه التي امتزجت بالحس الصوفي، وخاصة كما تجلى ذلك في ديوانه النهر يلبس الأقنعة، الذي ظهر قبل ربع قرن.

وتضمنت الاحتفالية عرضاً لفيلم تسجيلي عن حياة الشاعر عفيفي مطر، وجلسة بحثية تناولت سيرته وإبداعه في عيون الدارسين والنقاد، شارك فيها نخبة من النقاد والشعراء المصريين والعرب.

وتحدث في هذه الجلسة أمجد محمد سعيد حول التجربة الشعرية وآفاق التجديد، وعرض هيثم الحاج علي مشاهد من سيرة الفلاح الفصيح، وقدم شوكت المصري دراسة عنوانها: محمد عفيفي مطر بين مغامرة التجريب ومئذنة الدموع، وتناولت نادية لطفي ناصر في دراستها موضوع قراءة النص وعناصر الإبداع الفني، إضافة إلى جلسة شهادات حول تجربة الشاعر مطر شارك فيها د. مدحت الجيار، د. يسري العزب، الشاعر المتوكل طه رئيس بيت الشعر الفلسطيني، والشاعر مراد السوداني، بعد ذلك استمع جمهور الشاعر محمد عفيفي مطر إلى فقرة شعرية، ألقى فيها نماذج من قصائده المختارة، مثلت تطور ومراحل سيرته الشعرية، ثم تسلم درع الاتحاد وشهادة تقدير من الكاتب محمد سلماوي رئيس اتحاد كتاب مصر وأمين عام اتحاد الأدباء والكتاب العرب.

. ولد محمد عفيفي مطر عام ١٩٣٥ برملة الأنجب بمركز أشمون محافظة المنوفية، و حصل على ليسانس الآداب قسم الفلسفة

مـن جامعة عـين شـمس، وقد صـدرت له خـلال سـنوات ١٩٧٢ . ٢٠٠٧ المجموعـات الشـعرية التالية: دفتر الصـمت، ملامح من الوجه الأنبيذ وقليسـي، الجوع والقمر، رسوم على قشرة الليل، كتاب الأرض والدم، شـهادة البكاء في زمن الضحك، والنهر يلبس الأقنعة، يتحدث الطمي، أنت واحدها وهي أعضـاؤك انتثرت، رباعية الفرح، فاصلة إيقاعات النمل، احتفاليـات المومياء المتوحشـة، معلقة دخان القصـيدة، المنمنمات، كما نشر عدة دراسات أدبية وبعض الكتب الموجهة للناشئة والأطفال، من بينها: شروخ في مرآة الأسلاف، محمود سامي البارودي، أقاصيص وحكايات، حكايات الشعر والشـاعر، صـيد اليمام، حكايات ومشاهد، كتاب النـداءات، وترجم إلى العربية قصـائد ودراسـات من الآداب الإسـبانية والروسـية والصـينية والأميركيـة، والأعمـال الكاملـة للشاعرة السـويدية أديث سودر جران، إضافة إلى ديوان من مختارات الشاعر اليوناني.

وحصل عفيفي مطر على عدة جوائز أدبية وشعرية منها: جائزة الدولة في الشعر، وجائزة طه حسـين من جامعة المنيا، وجائزة الشـعر من المؤسسة العالمية للشعر، روتردام - هولندا، وجائـزة كفافيس من اللجنـة الدولية لجائزة كفافي القاهرة - أثينا، وجائزة سـلطان العويس الثقافية، وصدرت حول شعره وقضاياه الفنية والفكرية عدة دراسات أدبية ونقدية.(٢)

خط وخطاطون:

اغتال مجهولون في بغداد الفنان والخطاط العراقي المشهور خليل إبراهيم الزهاوي الذي يعد أحد كبـار الخطاطين الفنانين العراقيين في مجال فنـون الخط والزخرفـة، حيث نال لقب شـيخ الخطاطين العراقيـين، وكانت له مشاركات واسعة في العديد من المعارض داخل وخارج العراق، كما كان عضـواً فعالاً في نقابة الخطاطين العرب.

يعتبر الزهاوي مـن الفنانين المبدعين في الخط العربي بكل أشـكاله وأنواعه، وقد أعد أكثر من مئة لوحة في الخط العربي والزخرفة الإسلامية ليضـمها معرض شخصي كان من المقرر له أن يقام قريبـاً، ويعود إبداعه الفني في الخط لعـام ١٩٦٦ عندما اتخذ من حرف التعليق أساسـاً لأسلوبه الذي نفذه في لوحات تضـمنها كتابه الأول / قواعد خط التعليق/ الذي صـدر في بغداد عام ١٩٧٧، وكان رائداً في مجال الخط، وصـاحب مدرسـة في الخط العربيـ أطلق عليها مدرسـة الزهاوي، وذلك بتأسيسه أسـلوباً خاصاً في فن الخط العربي، اعتمد فيه على إضافة الكثير من المكونات على تشـكيلاته حيث حررها مـن الجمود وجعلها

تنطلق نحو الدمج بين الحرف والشكل، وصار أكثر حرصاً على إدخال الحرف في أعمال الجرافيك والجداريات.

والزهاوي من مواليد مدينة خانقين عام ١٩٤٦، وقد قدم خلال حياته الإبداعية ما يقرب من ٢٤ معرضاً فنياً، كان أولها عام ١٩٦٥، إضافة إلى ما يزيد على ٢٠٠ مشاركة في معارض أخرى داخل وخارج العراق وقد حصل على شهادة الخط العربي من الشيخ الخطاط زرين خط في طهران.

يذكر أن بداية تعرف الزهاوي على عالم الخط ترجع إلى عام ١٩٥٩ حيث كان يحب الرسم ويرسم بعض اللوحات المائية، حيث التقى بعد ذلك في مدينته خانقين بالخطاط نجم الدين الخطاط فأرشده ووجهه لمبادئ الفن الأصيل، ثم التقى بعدها الخطاط الكبير في بغداد هاشم البغدادي، وما بين عام ١٩٥٩، وعام ١٩٦٢، بقي في مدينته خانقين حيث تدرب على قواعد الخط العربي بأنواعه وأصوله، ثم انتقل إلى بغداد واطلع على أعماله الفنان هاشم الخطاط، وقد صدرت له عدة مؤلفات في فنون الخط منها: قواعد خط التعليق، وجماليات الخط العربي، وميزان الخط العربي، وموسوعة الزهاوي لفنون الخط العربي، ومصور الخط العربي، وسواها من الكتب والمؤلفات الأخرى.

وتتميز مدرسة الزهاوي في الخط بأنها حافظت على قواعد الخط غير أنها خرجت من القالب التقليدي حيث حاولت أن تلبس الخط العربي لباساً جميلاً ابتعدت فيه عن الجمود الذي يخيم على الحرف، إضافة إلى أن جميع تشكيلات الزهاوي الفنية هي عبارة عن لونين فقط هما الأسود والأبيض في إيقاع متناغم في لوحته الفنية التي تحمل القواعد نفسها لكن بطريقة حديثة معاصرة.

وفي لبنان وفي سياق أخبار الخط والخطاطين، فقد غيب الموت الشيخ يوسف القاضي، شيخ الخطاطين اللبنانيين، والذي كان على جانب موهبته المتميزة في فنون الخط شاعراً وأديباً، ومن القلائل المجيدين في اللغة العربية.

يشار إلى أن الشيخ يوسف درس الأدب والفنون الشعرية على يد العلامة الشيخ إبراهيم المنذر أمير المنابر، كما درس قواعد الخط العربي على يد الخطاط الشيخ نسيب مكارم، وقد صدر للخطاط الراحل كتاب بعنوان: الأمسيات ضمّنه ذكرياته وأعماله الفنية والخطوط التي قام بها في حياته وشيئاً من منظوماته ومقطعاته ومساجلاته الطريفة مع عدد من الشعراء ونتفاً من غزلياته ووطنياته واجتماعياته، كما أن له بعض

المخطوطات التي كان أعدها للنشر في ميادين الخط والإبداع.

من جهة أخرى فقد أنجز الخطاط السوري مؤمل عكرمة ما يقال عنه أنه أكبر لوحة للخط العربي، والتي ستكون كما ذكر اللوحة الأكبر في العالم وهي مصنوعة من الورق المقوى.

وأكد الخطاط عكرمة أنه يهدف من وراء إنجاز هذه اللوحة إلى تعريف المشاركين من خبراء وطلاب يمثلون دولاً أوروبية وعربية على الفن العربي الأصيل المتمثل في الخط العربي، وقال إنه ضمن لوحته كتابة (٢٨) بيتاً شعرياً بالخط الديواني المعروف بالسهل الممتنع بشكل منفرد، في حين قام الفنان الجزائري مصطفى كشكش بتصميم الوحدة الزخرفية التي تفصل بين أبيات الشعر المكتوبة على اللوحة فيما قام طلاب المعهد بتلوين الوحدة الزخرفية بين الأبيات الشعرية.

وأضاف عكرمة أن اللوحة في طريقها للتسجيل في موسوعة (غينيس) للأرقام القياسية من حيث طولها وزمن التنفيذ وهو الأهم والمستوى الفني الذي اعتمد على الخبرة، وحث الخطاط السوري الجهات العربية المعنية بالشأن الثقافي على الاهتمام بالخط العربي باعتباره فناً أصيلاً يعبر عن التراث والحضارة العربية داعياً إياها إلى دعم الخطاطين من خلال إقامة المعارض وورش التدريب وعقد لقاءات فنية محلية وإقليمية.[٣]

رقابة الكتب في المغرب:

يرى عدد من المثقفين والمراقبين المغاربة أن ثمة انفراجاً بات يتمتع به المشهد الثقافي في المغرب، فيما يتعلق على وجه الخصوص بإجراءات الرقابة على الكتب، وتحديداً الكتب الدينية والإبداعية.

وفي هذا المجال قال الباحث والناقد محمد البعناني: إن المغرب أصبح يتمتع خلال السنوات الأخيرة بهامش جيد من الحرية حيث تقلصت لائحة الكتب الممنوعة والتي كان أشهرها رواية الخبز الحافي لمحمد شكري التي سمح بتداولها عام ٢٠٠٠، وذلك بعد مرور ٢٨ سنة من صدورها، وذكر البعناني أن الرقابة المغربية كانت تمنع تداول عدد من الكتب حيث كانت الكتب السياسية تحتل المرتبة الأولى على لائحة الكتب الممنوعة تليها الكتب الفلسفية ثم الأدبية فالدينية، مضيفاً أن السلطات المغربية قامت بحملة تطهير لبعض المكتبات بعد الهجمات الإرهابية عام ٢٠٠٣ بدعوى أنها تحرض على الجهاد ضد الدولة.

واعتبر الباحث أن الرقابة الرسمية لا يمكن أن تمنع القراء من الكتب في ظل وجود سوق سوداء لبيع الكتب الممنوعة ونسخها وتبادلها

بين الطلبة كما أن انتشار الإنترنت قلص دور الرقابة بشكل كبير، لافتاً إلى أن بعض المؤلفين يتمنون أن تمنع كتبهم من التداول لأنها دعاية مجانية ستحقق لمؤلفاتهم أرباحا كبيرة وستمنحهم شهرة واسعة.

ما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أن وزير الثقافة المغربي منع في الدورة الأخيرة للمعرض الدولي للكتاب بالدار البيضاء مشاركة بعض دور النشر بسبب إصرارها على عرض كتب دينية، واصفا أصحاب دور نشر الكتاب الديني المعترضين على قراره بأنهم سماسرة الكتاب الديني.(٤)

بنات الرياض بالألمانية:

وقعت الكاتبة السعودية الشابة رجاء الصانع روايتها: بنات الرياض الصادرة بالألمانية في أول ترجمة أجنبية لها، نشرتها دار دوسمان في برلين، على أن تتبعها الترجمة الإنجليزية قريباً.

وقال نائب مدير دار النشر الألمانية في تقديمه للصانع: إن حوار الثقافات الذي يجري الحديث عنه منذ سنوات يتمثل في ما قدمته الكاتبة السعودية الشابة التي تمثل الجيل الجديد في بلدها ومنطقتها، مشيراً إلى ذلك بأن روايتها احتلت المرتبة الثامنة في لائحة التوب تن للكتب في ألمانيا بعد أسبوعين على نشرها.

ونفت الصانع في حوار معها أن تكون متمردة على مجتمعها المتمسك بالكثير من العادات والتقاليد، لكنها تحلم بالتغيير كشأن الكثيرين من أبناء جيلها، مؤكدة أن أفكارها جاءت من جيل يتطلع إلى التغيير، ورأت أنها تفتخر بشعبها، والكتابة عن السلبيات لا يعني أنها لا تحب بلدها.

يذكر أن رواية الصانع طبعت أول مرة في لبنان سنة ٢٠٠٥، وقد حظيت برواج واسع، لاسيما بين القراء السعوديين، الأمر الذي جعلها تعيد طباعتها في السعودية بعد الاهتمام الذي أبدته حول روايتها الأوساط الإعلامية والثقافية.(٥)

مروي ضمن الحضارات الخالدة:

صنفت منظمة اليونسكو الحضارة المروية القديمة ضمن الحضارات الإنسانية الخالدة، وبذلك تعهد المجتمع الدولي برعايتها وصيانة مخلفاتها والحفاظ عليها، وبرغم الاهتمام العالمي بهذه الحضارة التي تعود إلى ما قبل العام ٥٩٢ ق م إلا أن اللغة التي وجدت في جدران معابدها وجبانات ملوكها ما تزال لغزاً عصياً ولم يتمكن العلماء من فك رموزها وطلاسمها.

تقع مدينة مروي على بعد ٢١٣ كلم شمال الخرطوم، وحسب ما يورد المؤرخون فقد انتقلت إليها العاصمة من نبتة عام ٥٩١ق.م

كما أن دولة مروي قـد عاصرت حكم الفرس والبطالمـة في مصـر، ويوجـد بالمنطقة التي تعرف عند المؤرخين بمروي البجراوية نوعان من المعابد المعبد الآموني، والمعبد المروي.

يرجع تاريخ تأسيس مملكة مروي إلى القرن الثالث قبل الميلاد، ولم تكن الحضـارة المروية حضـارة بسـيطة تسـتمد أوجها من حضارة «نبتـا»، ولكـن كانت تمثل نهضـة حضـارية عظيمة تلت قروناً من الركود والتخلف، ولقد بلغت نهضـة مـروي ذروتها في القـرن الأول الميلادي أي بعد أفول حضارة نبتا بفترة طويلة وبعد انتقـال مراكز القوة والثراء في كوش إلى الجنوب.

وخـلال القرنـين التاليـين بـدأت دولة الجنوب طريقها في الانحدار السريع، وسرعان ماتحولـت تلك المدينـة العظيمـة إلى مدينة مهجـورة مـع بداية القـرن الرابـع الميلادي وأصـبح اسـمها منسـياً، ومـن حسـن حظ الأثريين أن العصر المروي كان عصراً للعمران وقـد تركت لنا حضـارة مـروي بعض القرى أطلالاً، هذا بجانب أطلال المدينة العاصـمة وفي الجنوب كانت مدينة المصـورات الصفراء هي مركز الأحداث لعدة سـنين، وفي الشمال كانت توجد أطلال الحضارة المروية بوفرة في مناطق النوبة السـفلي وبطن الحجر، وهناك نص من العصر المروي يرجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد حيث بدأ أهل النوبة ولأول مرة في التاريخ في استخدام لغتهم الخاصة في الكتابة والتي قاموا فيها في بادئ الأمر باستخدام بعض الرموز الهيروغليفية القديمة.

وقد عـرف المرويون اللغـة الهيروغليفية وكتبوا بها بجانـب لغتهم المروية والتي لم يفلح أحـد في فك رموزهـا إلى يومنا هـذا، وتعد حضاراتها من الحضـارات المهمة في المنطقة التي تعـرف بالسـودان القـديم، وقد عرف المرويون اللغة الهيروغليفية وكتبوا بها بجانب لغتهم اللغة المروية، حيث وجد بالمنطقة حوالي ٢١١هرمـاً تابعاً للملوك والنبـلاء، أما العامة فكانـت لهم مقابر تخصـهم ليـس عليها أي علامات مميزة.

وقد عثر المنقبون في هذه المنطقة إضـافة إلى ما سبق على حمام ملكي ومعبد آخر يدعى معبد الأسـد، وبذلك تعتبر منطقة مروي من أشـهر عواصـم العالم فيما قبـل التاريخ، كما أن نفايـات الحديـد الموجـودة بالمنطقة هي خير شـاهد على حجـم التصـنيع الذي كان سائداً.(٦)

مهرجان الموسيقى الروحية بفاس:

احتضـنت مدينة فاس المغربية فعاليات الملتقـى الثالـث عشـر لمهرجـان الموسـيقى الروحيـة، والـذي تزامنت إقامتـه في دورته الحاليـة مع مـرور ثمانية قـرون على مولد الشاعر الصوفي الشهير جلال الدين الرومي، وذلك وفق ما أعلنت مؤسسة روح فاس الراعية

للمهرجان بأن المؤسسة اختارت تخصيص هذه الدورة لشخصية فريدة كانت حاضرة دائماً في الدورات السابقة للمهرجان.

وقد شارك في هذا الملتقى فنانون عالميون من بينهم: الفنانة الأميركية الشهيرة ديفا باربارا هندريكس، وجون كليغ الملقب بـ الزولو الأبيض من جنوب أفريقيا، والموسيقيان الصوفيان نزيه أزيل وقدسي إرغونير من فرنسا، وذلك بإضافة إلى مشاركة البرتغالي كورو غريغوريانو، والبرازيلية تانيا ماريا، والفرنسي كلير زالامانسكي، والموريتانية عائشة شيغالي والباكستاني أخطر شريف أروب فال والمغربيان امبارك وبهجة رحال، إضافة إلى مشاركة بعض الفرق الصوفية للسماع والذكر كالقادرية من المغرب والمولوية من باكستان.

يذكر أن فعاليات هذه الدورة شملت أيضا عدة منتديات فكرية وروحية لمناقشة العلاقة بين المقدس والحداثة، وذلك بمشاركة علماء ومفكرين ورجال دين عرب وأجانب من بلدان مختلفة.(٧)

موغادور الفينيقية:

تعتبر مدينة الصويرة المغربية من أقدم المدن الفينيقية في شمال إفريقيا ومن أكثرها أهمية نظراً للدور التجاري الذي لعبته كمرفأ تجاري فينيقي، إغريقي، روماني، وقد عرفت المدينة سابقاً باسم موغادور، والذي أتى من الاسم الفينيقي ميكدول والذي يعني الحصن الصغير، وما إن أطلق اسم الصويرة على المدينة بدلاً من موغادور حتى استخدم هذا الاسم لتسمية جزيرة صغيرة توجد قرب مدينة الصويرة، والتي تعتبر من أهم المواقع الفينيقية بغرب البحر الأبيض المتوسط.

وكان الفينيقيون جعلوا من موغادور قنطرة للرسو حين كانوا يسافرون عبر البحر إلى الإكوادور، وفي عهد الملك الموري يوبا «أو جوبا» الثاني، عرفت الجزيرة ازدهارا مهما إذ كانت توجد بالموقع مصانع لاستخراج الصباغة الأرجوانية التي كان يتم تصديرها إلى روما، ودلت الحفريات الأثرية على استيطان الجزيرة خلال الفترة الرومانية إلى حدود القرن الخامس الميلادي، بعد ذلك استقر بها البرتغاليون والسلاطين السعديون، إذ كان الفاتح الحقيقي والواضع مدينة الصويرة في مسارها الجغرافي والتاريخ هو السلطان سيدي محمد الثالث بن عبد الله الذي أوكل مهمة إعادة بنائها في نسختها الحالية إلى تيودور كومود في سنة ١٧٦٠ م.

ويعتبر عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله عهد التأسيس الحديث للمدينة والذي يعود إلى سنة ١٧٦٠م، وهي السنة التي أنشأ فيها ميناء الصويرة الذي فتح في وجه التجارية

الخارجية بغية تطوير المغرب لعلاقاته مع أوروبا، كان من بين مقتضيات أمن المغرب في مفهوم السلطان محمد الثالث تحصين الثغور والمدن الرئيسية الساحلية الشيء الذي جعله يكثر من بناء الأبراج والحصون، وتحقيقاً لذلك أعطى اهتماماً خاصاً للمهندس تيودور كورنى المتخصص في بناء الحصون العسكرية بأفنيون AVIGNON وكلفه بوضع التصميم العام للمدينة.

وأصبح ميناء الصويرة زمن سيدي محمد بن عبد الله أهم ميناء، أضحت معه موغادور تلعب دوراً تجارياً وتعنى بالمراقبة التجارية البحرية بعدما أجبر القناصل والتجار الأوروبيون بآسفي، أكادير، الرباط على الإقامة بموغادور مركز تجمع الأنشطة التجارية للجنوب المغربي. كما أصبحت تمثل نقطة التقاء جميع القوافل الإفريقية والتبادل التجاري حتى اعتبرها الأولون بوابة تومبوكتو.

وقد دلت الحفريات الأثرية التي أجريت بالجزيرة على وجود بقايا أركيولوجية تتمثل في أواني فخارية وأمفورات يرجع أقدمها إلى النصف الثاني من القرن السابع قبل الميلاد، كما دلت على أن جزيرة موغادور عرفت فترة فراغ ما بين القرن الخامس والأول ق.م، إلا أن وجود بعض القطع الفخارية ترجع للقرن الرابع ق.م يدل على وجود علاقات تجارية بين الجزيرة وباقي المدن الموريتانية بالمغرب القديم.

وتحتوي الصويرة بكثافة على العديد من الساحات والأسوار للآثار التاريخية الساحرة والعظيمة. هذه التحفة مليئة ببنايات أثرية متناسقة، تعد إرثاً ثقافياً من أجيال سابقة مع بنايات عصرية موضوعية ونكتشف من خلالها أسوار، سقالة «LA SQALA» بأبواب ضخمة، أما من الناحية الهندسية فتبدو تأثيرات هندسية أوروبية تظهر بالخصوص في الصقالة التي تم تشييدها على أنقاض الحصن البرتغالي، وتحصينها بالمدافع، كما عمل على تحصين المدينة بالأسوار المنيعة وجعلها تمتاز بشوارعها المنتظمة وطرازها المعماري الأندلسي الجذاب الذي يذكر بمدينة فوبون VAUBAN.[8]

معهد العالم العربي وأوضاعه المالية:

أعلن رئيس معهد العالم العربي دومينيك بوديس أن المعهد الذي يعاني من عجز مالي يبلغ حوالي ١٥مليون يورو سيتمكن من موازنة حساباته بفضل الدعم الفرنسي والضمان المالي الخاص.

وقال بوديس في لقاء مع الصحافة العربية في مقر المعهد بالعاصمة الفرنسية باريس:

على الرغم من أن تحسن أداء المعهد خلال العام ٢٠٠٧ يعد أنباء جيدة إلا أن ذلك ليس كافياً لامتصاص الديون الضخمة المتراكمة على مدى السنوات الماضية.

وأوضح بوديس أن ميزانية المعهد السنوية تبلغ حوالي ٢٠مليون يورو إلا أن تكاليفه تتخطى ذلك لتصل إلى حدود ٢٣مليون يورو ما يعني عجزاً سنوياً يقدر بثلاثة ملايين يورو، وأضاف أنه تمكن من إقناع وزارة الخارجية الفرنسية التي تسهم بنسبة ٤٣٪ في المئة من ميزانية المعهد السنوية بزيادة مساهمتها المالية بنحو ثلاثة ملايين يورو هذا العام، كما أكد على اتخاذه مبادرات بالتعاون مع دول عربية عدة بغرض تمويل المعهد وعلى ضرورة إيجاد مصادر تمويل جديدة للمعهد ملمحاً إلى احتمال أن يكون الاتحاد الأوروبي أحد تلك المصادر الجديدة إلا أن هذا المسار بحاجة إلى دراسته بشكل كامل.

وكان بوديس التقى الدكتور عمر موسى أمين جامعة الدول العربية الذي أكد له من حيث المبدأ الموافقة على المشاركة بترؤس احتفالات الذكرى العشرين لإنشاء المعهد، مشيراً إلى أنه ستتم دعوة وزراء الثقافة العرب لحضور الاحتفال الذي سيقام في شهر نوفمبر أو في بداية ديسمبر في العاصمة الفرنسية باريس.

يذكر أن ٢٢ دولة عربية إضافة إلى فرنسا تساهم في ميزانية المعهد السنوية الذي يبلغ عدد العاملين فيه ١٥٠ شخصاً، وكان معهد العالم العربي قد تأسس في عام ١٩٨٠حيث اتفقت ١٨ دولة عربية مع فرنسا على إقامة المعهد ليكون مؤسسة تهدف إلى تطوير معرفة العالم العربي وبعث حركة أبحاث معمقة حول اللغة والقيم الثقافية والروحية.(٩)

دور الإسلام باللغة التشيكية:

نشر المستشرق الإسباني خوان بيرنت كتاباً باللغة التشيكية حول «ما تدين به أوروبا للإسلام في إسبانيا» وقد تم تقديم هذا الكتاب في المركز الثقافي الإسباني /ثربانتس/ في العاصمة التشيكية براغ، وفيه ركز المؤلف على تجليات الثقافة العربية ومؤثراتها في إسبانيا.

وكان بيرنت الذي ترجم القرآن الكريم إلى اللغة الإسبانية من قبل، إلى جانب ترجمته إحدى روايات ألف ليلة وليلة، قد نشر هذا العمل لأول مرة في عام ١٩٧٨، وفيه قام بتوثيق الإنجازات الفنية والثمار التي جلبها الإسلام مثل السكر والورق وطواحين الهواء وحساب المثلثات ولعبة الشطرنج وغيرها من المعارف.

يذكر أنه لم يصدر حتى الآن في التشيك عمل يتناول ثقافة الأندلس منذ العام ١٩٧٧

لدى ترجمة دراسة للألماني هانس كوفمان، وصرح مديرثريانتس إيناكي أباد: أن تعايش الثقافات الإسبانية والعربية واليهودية، خلال قرابة تسعة قرون، أفضى إلى إقامة الحوار الذي أثرى العلم والحساب والفلسفة وعلم الفلك والخطوط والطب، وقد قام بترجمة هذا العمل جيري كاسل وطبعته دار نشر لوبوس ماريك التي قامت من قبل بنشر ثماني ترجمات باللغة التشيكية نقلاً عن اللغة الإسبانية من بينها: الشهيد سان مانويل للأديب الإسباني ميجيل دي اونامونو.(١٠)

رحيل المترجم هانس وولشليجر:

توفي عن عمر ناهز ٧٢ عاماً الكاتب والمترجم الألماني هانس وولشليجر، وذلك قبل أن يتمكن من تحقيق هدفه الأخير في ترجمة رواية جيمس جويس «فينيغان ويكس»، وكان قد سبق لوولشليجر أن ساهم مع الكاتب التجريبي المعروف آرنو شميدت في ترجمة أعمال أدجار الان بو، كما قام بترجمة روايات بوليسية لداشييل هامت ورايموند شاندلر وبعض أعمال ويليام فولكنر.

ومن وجهة نظر النقاد والدارسين يمكن اعتبار هانس مثقفاً موسوعياً بمعنى الكلمة، إذ إنه إضافة إلى عمله كمترجم كان مختصاً بعلم النفس وفق منهج سيغموند فرويد ومولعاً بامتياز بأعمال ولهلم رايش، ولم تقتصر نشاطات الكاتب على مجال الأدب وعلم النفس بل قام كذلك بإصدار الطبعة النقدية لأعمال كارل ماي الكاتب الشعبي الألماني الذي كتب روايات مغامرة تدور أحداثها في أمريكا والشرق الأوسط دون أن يغادر بيته الواقع في مدينة درسدن، كما قام بإصدار الأعمال الكاملة للمستشرق الألماني فريدرش رويكرت.

وقد نذر الكاتب نفسه لترجمة يوليسيس، إذ اكتشف في هذا العمل تحدياً لغوياً وأدبياً وثقافياً كبيراً، فجاءت ترجمته له كما يقر أغلبية النقاد أقرب إلى روح الرواية من الترجمة السابقة التي قدمها جورج غويرت في سنة ١٩٥٦ وذلك بالرغم من ابتعاده عن الترجمة الحرفية للنص واعتماده على إيجاد حلول لغوية مبتكرة من خلال توظيف اللغة الألمانية بكل أبعادها التاريخية لإشكاليات النص، ولم يخطئ النقاد الذين اعتبروا هذه الترجمة بحد ذاتها عملا إبداعيا لغويا لا مثيل له في الأدب الألماني المعاصر، يكشف عن معرفة موسوعية دقيقة لدى المترجم.

من ناحية أخرى فإن عمل وولشليجر لم يقتصر على البحث في مجالات اللغة والنفس الإنسانية، بل كتب إضافة لذلك جملة من المقالات المتعلقة بالحيوان، تم جمعها في

«الحيوان ينظر إليك أو سلطة مينغيله»، حيث يحاول إيجاد صلة بين العنف الذي يمارسه البشر تجاه الحيوانات وما كان يمارسه الطبيب النازي مينغيله من تجارب على المعتقلين في معسكرات الاعتقال النازية .[11]

سفينة نوح تبنى من جديد:

قامت مجموعة من النشطاء في مجال حماية البيئة بمبادرة لإعادة بناء سفينة نوح على جبل أرارات في تركيا، في مبادرة رمزية تذكر بالسفينة التي بنيت قبل آلاف السنين لإنقاذ مملكة البشر والحيوان من الطوفان العظيم، وذلك بهدف تحذير دول العالم من خطورة ظاهرة الاحتباس الحراري، وأهمية التصدي لظاهرة لمعالجتها والحد من آثارها على الطبيعة والحياة البشرية.

وقال فولفجانج صادق مدير حملة منظمة السلام الأخضر: إن هذا المشروع موجه بالأساس للسياسيين على وجه الأرض ولزعماء العالم المسؤولين بشكل أساسي عن الكارثة المناخية التي تحدث وعن إيجاد حل لها، موضحاً أن الهدف من عمل النجارين وهم يعملون في بناء السفينة على ارتفاع ٢٤٠٠ متر هو أن نضع على جبل أرارات إشارة تحذير تمنح الأمل وتدعو العالم إلى اليقظة، وتقول لهم إذا لم نتصرف الآن فسيفوت الأوان.

وقالت الهيئة الحكومية للتغيرات المناخية التابعة للأمم المتحدة إنه يتعين خفض انبعاثات ثاني أكسيد الكربون بواقع النصف بحلول ٢٠٥٠ لتفادي تغيرات المناخ وهو ما قال الاتحاد الأوروبي إنه سيكون أمراً خطيراً، حيث أن من أهم الظواهر التي تثير القلق بشأن تغير المناخ ظاهرة ارتفاع مستويات مياه البحار، وتؤكد الهيئة إن من المتوقع أن ترتفع مياه البحار من ١٨ إلى ٥٩ سنتيمتراً خلال هذا القرن بعد أن ارتفعت ١٧ سنتيمتراً في القرن العشرين، لكن ما يعرقل تضافر الجهود المطلوبة في هذا المجال بروز انقسامات عميقة بشأن سبل التصدي لهذا الخطر، حيث أن ألمانيا تريد من دول مجموعة الثماني الصناعية الموافقة على الهدف الذي حددته هيئة الأمم المتحدة والترويج لنظام حصص الكربون للتحكم في انبعاثات الغازات المسببة للاحتباس الحراري.

لكن هارلان واطسون كبير المفاوضين الأمريكيين في قضية المناخ قال إن الولايات المتحدة ستواصل رفض الأهداف المحددة لخفض الانبعاثات وأنظمة خفض حصص الكربون ومبادلتها وستحارب تغير المناخ من خلال تمويل التقنيات التي تستخدم مصادر نظيفة للطاقة.

وتم نقل الأخشاب لبناء السفينة على ظهر

خيول إلى الجبل وواجه المتطوعون مشاكل تتعلق بالإمداد والنقل في ظل عملهم على ارتفاع كبير في منطقة نائية، وقال النجار رينر برومشاجن «قالت شركة كبيرة لبناء السفن أنها لا تملك عمل ذلك في هذا الوقت الضيق لكن راودني إحساس أن ذلك سينجح، إنه شعور جيد للغاية أن ترى كل هذه الطاقة التي يبذلها الناس هنا والشعور بالوحدة بين القادمين من دول مختلفة للعمل معاً، وبعيداً عن الخلافات السياسية البعيدة عن منحدرات جبل أرارات يرعى الرعاة أغنامهم وتحلق طيور السنونو فوق الخيام الزاهية الألوان لأكثر من عشرين ناشطاً شاركوا في مشروع منظمة جرين بيس.(١٢)

مونرو في معرض قادم:

في سياق استعادة الحدث التكريمي الذي أقيم لها في سيدني غاليري في نيويورك بعد خمس سنوات من وفاتها، ستشهد لندن في مطلع تشرين الأول القادم افتتاح معرض خاص عن مارلين مونرو التي رسمها خمسة فنانين من أشهر فناني البوب آرت، وعرضت أعمالهم قبل أربعين عاماً في نيويورك، بعدما قرر المتحف الوطني البريطاني لفن البورتريه جمع هذه الأعمال، التي تتضمن رسومات لآندي وورهول الشهيرة وريتشارد هاميلتون، لتشكيل معرض يعكس فترة مهمة للبورتريهات كما قدمت في فن البوب.

وتضمن المعرض أعمالاً لروي ليتشينستاين وجاسبار جونز وريه جونسون، ولوحات للسير بيتر بليك والبريطاني الآخر ديفيد هوكني، وعمل هؤلاء يبين ما قدمته الحركة الفنية البريطانية لهذا النوع من الفن الذي ساد في الولايات المتحدة.

وقال ساندي نيرن مدير متحف البورتريه الوطني، أن المعرض يعكس تطورات فن البورتريه من خلال الأفلام والتصوير، مضيفاً: وهذا المعرض لفن البوب للبورتريه يخلق فرصة مثيرة لمشاهدة ما قدمته هذه الحركة الفنية آنذاك، ومقارنته مع ما وصل إليه هذا الفن اليوم، لقد تم إعادة تشكيل البورتريه من خلال أعمال رواد الحركة الفنية.

وقد احتوى المعرض ٥٢ عملاً لـ ٢٨ فناناً، من أميركا وبريطانيا، عملوا في البلدين في الخمسينات والستينات من القرن الماضي، والتي استعملت أعمالهم في الإعلان والسينما وموسيقى البوب والطباعة.(١٣)

إحالات

١- وكالة أنباء الشرق الأوسط
WWW.MENA.ORG.EG
٢- موقع ميدل ايست أن لاين
WWW.MIDDLE-EAST0ONLINE.CO
٣- موقع قناة الجزيرة
WWW.ALJAZEERA.NET
٤- شبكة المعلومات العربية المحيط
WWW.MOHEET.COM
٥- وكالة الأنباء السعودية
WWW.SPA.GOV.SA
٦- موقع القناة:
WWW.ALQANAT.COM
٧- وكالة المغرب العربي للأنباء
WWW.MAP.CO.MA
٨- موقع العرب أونلاين
WWW.ARABONLINE.COM
٩- وكالة الأنباء الكويتية «كونا»
WWW.KUNA.NET
١٠-موقع نسيج
WWW.NASEEJ.COM
١١-موقع البوابة
WWW.ALBAWABA.COM
١٢-وكالة الأنباء العربية السورية «سانا»
WWW.SANA.ORG
١٣-وكالة رويترز
WWW.REUTERS.COM

☆ ☆ ☆

متابعات

٣٤٠

كتاب الشهر

جذورنا.. الكون والإنسان

عرض وتقديم: محمد سليمان حسن*

صدر حديثاً، عن دار علاء الدين بدمشق، كتاب تحت عنوان «جذورنا.. دراسة موسوعية في الكون والتطور والإنسان». الكتاب من تأليف الباحث «أحمد عوض الرحمون» يقع الكتاب في (٤٤٢) صفحة من القطع الكبير. نقدم عرضاً له بما يتسق والمعطيات المعرفية للكتاب.

---

* باحث من سورية.

ينفرد الإنسان من بين كل الكائنات العضوية التي على كوكبنا بأنه الأكثر تميزاً وتفرداً. ويكمن سر هذا التفرد في دماغه، الذي صنع له أدواته ولغته. وبالتالي قدرته على فهم تجارب الآخرين. امتلك الإنسان العقل عبر تطورات عضوية امتدت مئات آلاف السنين، في تركيبة تربطه مع العضوية الكونية. البناء العضوي الأول كان خلوي دون نواة، شكل أول مظاهر الحياة. تكونت الخلية الأولى من مركبات عضوية غير حيّة، التي تركبت بدورها من مركبات عضوية كيميائية ثقيلة، التي نشأت بدورها في قلب نجوم الجيل الأول بالاندماج النووي، والذي بدوره نتاج نوى العناصر الخفيفة مع الالكترونات (الانفجار الكوني العظيم).

مرحلة نشوء الكون الأولى..

تشير الدراسات العلمية أن كوننا قد نشأ على أنقاض كون سابق، في حالة من التقلص المادي انحشرت في حيز محدود الضآلة، فازداد كثافة وضغطاً وحرارة. ووفقاً لهذه القوانين الأبدية، انفجرت تلك المادة (ذلك الانفجار الكوني العظيم) ليولد كوننا ويشرع بالتوسع والتبرد. نتج عن هذا الانفجار كيان كوني سماه العلماء (البلازما البدئية) وهي حالة رابعة للمادة إلى جانب الحالات الصلبة والسائلة والغازية. ويرى علماء الكونيات، أن هذه الطاقة الناتجة عن (البلازما) قد أسهمت في صياغة الشكل المستقبلي لكوننا، الذي ساهم في صياغة نظرية (الانتفاخ الكوني). في هذه الحالة، نحن على بعد (٣٨٠،٠٠٠) سنة من الانفجار العظيم وأمام إشعاع متحرر بدأ يفقد طاقته تدريجياً.

البنى الكونية الأولى..

المرحلة الثانية من نشوء الكون تألفت من بنىً كونية ثلاث هي:

أ- الغيوم الغازية: وهي نتيجة لتحرر الطاقة من أسر المادة، ووقوعها في حقل الجاذبية الثقالية التي بدأت تشكل الغيوم الغازية، متفاوتة الأحجام والكثافة والحرارة.

٢- جيل النجوم الأولى: مع تجاوز درجة حرارة هذه الغيوم الغازية درجتها الحرجة، تحولت إلى نجوم مشعة تندمج في قلبها نوى الذرات.

٣- جيل المجرات الكبرى: تشكلت المجرات الكبرى من بلايين النجوم المتجمعة مع الغازات البدئية والغبار الكوني على شكل مجرات أكبر عنقودية الشكل.

مرحلة نشوء الكون الثالثة...

بعد بليون سنة من الانفجار العظيم، ومن الذرات الأولى (الهيدروجين) بدأت مرحلة ثالثة من تطور الكون مرحلة تشكل العناصر الثقيلة في مراكز هذه النجوم الأولى. ويعتبر تشكل هذه العناصر الثقيلة الخطوة الأولى في مسيرة التطور المادي الذي أدى في مرحلة متقدمة إلى ظهور الحياة العضوية على كوكبنا ومنها نحن البشر. وتشير الأدلة المتوفرة إلى صحة ما سبق حول مسيرة التطور الكوني، مشتملاً تكون الهيدروجين ثم تحوله عبر عمليات الاندماج النووي في النجوم الأولية إلى العناصر الأثقل فالأثقل. من هذا التكوين البدئي نشأت مجرتنا ومجموعتنا الشمسية التي شملت: مجرة درب التبانة وهي المجرة التي تنتمي إليها مجموعتنا الشمسية.

و المجموعة الشمسية التي تضم إليها تسعة كواكب و(٦٠) تابعاً كوكبياً. وعدد لايحصى من المذنبات والنيازك، وتجمعات الغبار. ثم يأتي كوكب الأرض الذي هو جزء من هذه المجموعة الشمسية. إضافة إلى ذلك لايستبعد العلماء وجود أكوان أخرى في هذا الفضاء الكوني.



مقدمات ظهور الحياة..

نشأت الحياة من اللاعضوية، وفق حلقة متسلسلة من التطور «خلية عديمة النوى» تلك هي أول أبسط أشكال الحياة. من هذه المواد الكيماوية غير العضوية. نشأت المواد العضوية غير الحية، لتشكل بالحركة والتبريد أول مظاهر الحياة العضوية. فازداد عددها وتنوعها. بدءاً بالماء الناشئ تحت درجة تكثف عالية. وقد نشأت الأرض من ضمن المجموعة الشمسية بتوافر عوامل: الطاقة والروابط الكيميائية اللاعضوية ووجود الشمس. مع العلم أن الأشعة فوق البنفسجية هي التي تحول المركبات اللاعضوية إلى مركبات

عضــوية. وقد نشــأت الأرض قبل /٤,٥/ بليون سنة. ثم بدأت قشرتها بالتصلب بعدما يقرب من نصــف بليون سنة. وكانت كرة بلا غلاف جوي. أما الغلاف الجوي فقد تشــكل بدايــة دون وجــود الأوكســجين. من غازات خفيفــة وأبخرة المحيطــات كانت في البداية عبارة عن غــلاف جوي محمــول (مجموعة أبخرة وغازات) ثم تبرد مع تبرد سطح الأرض ليشكل فيما بعد مظاهر المحيطات المائية.

نظريتان حول أصل الحياة..

هناك نظريتان حول أصــل الحياة برأي العلماء.

الأولى: نظريــة «الحســاء المائي الأولي» كوســيط للحياة الأولى: وتقوم هذه النظرية على أن درجة حرارة سطح الأرض وصلت إلى مــا دون درجة الغليان، لم تعد الأمطار تتبخر فور ارتطامها بهذا الســطح. لقد صارت ماء يجري إلى مستقره في المناطق المنخفضة من ســطحها. ومنه ظهرت البحــار والمحيطات الأولى، في هــذا الحســاء تجرمت الجزئيات العضوية غير الحية لتكوين سلاسل أطول من الحموض الأمينية التي نشأت منها العضوية الحية.

الثانية: نظرية الناسخات غير العضوية: وهي بلورات غير عضوة كتلك التي يتكون منها الطين وأنواع (الطفــل الطيني). وتتكون من وحدات بناء كيميائية مثل حمض السلســيك والأيونــات المعدنية وعن ذوبان المحتويات في الماء وتشكيلها محلولاً.

الفيروسات:

ليس هناك من حدود واضــحة تفصــل مرحلــة اللاحياة عــن مرحلة الحيــاة فوق كوكبنــا. ويطلــق على هذا النطــاق الزمني (المنطقــة الرماديــة). فالفيروســات تدخل الخلية ككائنات حية، بصفتها المنشط للحمض النووي. لتشكيل خلايا جديدة.

المكونات الأولى للحياة..

الوسط المحيط هو أولى مكونات الحياة. لقد أســهمت الجزيئات العضوية غير الحية في نشــوء الحياة وتطورها. وأضفى الوسط الذي هو الماء بعضــاً منها، هي بشكل رئيس الحموض النوويــة والحموض الأمينية. لولا ذلك الاصــطفاء لمــا كان هناك حياة تنشــأ وتتطور. ضــمن صــفات تتميــز: بالميل إلى الاتحاد والتفاعل بين المركبات العضوية غير الحيّة.

الخلايا عديمة النوى:

الخليـــة الأولى عبارة عـــن كيس مجهري صـــغير مملوء بخليط مـــن الحموض النووية والبروتـــين، يســـمح بدخول الطاقـــة والمواد الغذائية اللازمة لعمل الخلية، دون ســـواها. ويمنع تأثيرات الوســـط الخارجي الضـــارة. وقد أحيطت هذه الخلايـــا بجزيئات دهنية جـــاءت مـــن الفضـــاء الخارجي لتضـــيف مزيداً من التماســـك على هذا الغشاء. وقد تمت عملية الاصـــطفاء على المبدأ الطبيعي للأفضـــل. والخلية عديمة النـــواة هي ذلك الكيس الخلوي النواة الأولى للحياة.

الخلايا ذات النوى..

الخلايا الحقيقية النوى وعضيات خلوية متكاملة، تتميز بتوافرها على عضـــو خلوي، أدى إلى تطـــور الحياة إلى ماهـــي عليه الآن إنه (النواة). الخلية تقوم بتناول الغذاء لإتمام مظاهر الحياة من الوسط الخارجي المحيط بها. مثل هذه العملية من التطور تكلفت (١ - ١،٥) بليون سنة. فقد ظهرت وحيدات الخلية عديمة النوى قبل (٣،٥) بليون سنة. والخلايا ذرات النوى حوالي (٢،٥) بليون سنة.

متعددات الخلايا ذوات النوى..

من وحيدات الخلايا ذوات النوى أفضى التطـــور إلى تشـــكيل كينونات عضـــوية ذات خلايا متعددة ذات نوى. متخذة شكل عضوية دون عمود فقري سميت باللافقاريات، ثم دفع التطور إلى نشوء لا فقاريات لها حبل ظهري ثم عمود فقري اتخذ اسم الفقاريات.

حتى الآن نحن ما زلنـــا في الماء. واحتاج الأمر وقتاً طويلاً حتى خرجت هذه الكائنات إلى اليابســـة. (٥٠٠) مليون ســـنة. لقد كان الخروج إلى اليابســـة من بعد انعدام المنافسة بين الكائنـــات الحية في الماء. وكان وراء هذا الخروج عدة أسباب:

١- الاســـتقلال عن المحيط المتأصـــل في العضوية.

٢- طفرة وراثية سخنت الدم البارد..

٢- وســـائل تنســـيق عمل البنى العضوية على اليابسة.

نظرية الارتقاء..

لـــولا وجـــود الارتقـــاء لماتت العضـــوية وانعدمـــت الحيـــاة. ولا بد مـــن التفريق بين الارتقاء والتطور.

فالارتقاء هـــو عملية التعديـــل والتبديل التـــي تطـــرأ علـــى العضـــوية والارتقاء هو التبدلات التي تحصـــل في التركيبة الوراثية لعضوية ما.

ويتحكم بالعملية الارتقائية جملة شروط

من أهمها: شروط حصول العملية الارتقائية. ومراحل العملية الارتقائية، ووسائل ارتقاء الأنواع، الصبغيات (المورثات).

ولكل نوع من الكائنات الحية مورثاته. وفي المورثات تتم الهجرة ضمن النوع الواحد، وقد تؤدي إلى ارتقاءات ضمنه. هذه الانزياحات هي تبدلات عشوائية تحصل في التوزع التكراري للمورثات. ومن المفيد في هذا الخصوص التمييز بين البيئة والمحيط أو الوسط. فالبيئة هي دراسة العلاقات بين أنواع العضوية أو المحيطات. أما المحيط فهو العضويات الأخرى والأرجاء التي تعيش فيها هذه العضويات. ومن هذا الاصطفاء تنشأ جدلية الخلق والموت، في عملية اصطفاء للكائنات الحية.

أدلة الارتقاء الحيوي..

بعد تأكيد نظرية الارتقاء، أصبح لابد لنا من البحث عن أدلة أكثر وثوقية تبدت في:

١- أدلة علم الحياة الجزيئي: تعنى بدراسة الجزيئات العضوية الكبيرة اللازمة للعمليات الحياتية.

٢- أدلة سجل الأحافير: وهو أي بقية أو بصمة أو أثر لحيوان أو نبات يعود لعصر جيولوجي سابق تم حفظه في قشرة الكرة الأرضية.

٣- أدلة هياكل العضوية وتطورها: وهي القشرة المحيطة بالعضوية والتي تؤمن لها حماية الجسم.

٤- أدلة التشريح المقارن: وهو التشابهات بين أعضاء مختلف أنواع العضوية الحي منها والميت، ويعتمد في ذلك على الأحافير المكتشفة للحيوانات الميتة.

٥- أدلة علم الجنين: وهو العلم الذي يدرس تكون وتطور الجنين في مرحلتين قبل وبعد الولادة.

٦- أدلة علم الآثار الحيوي: يركز هذا العلم على ماتحتويه عينة أثرية من جزيئات عضوية.

٧- أدلة علم المناعة: هو العلم الذي يتطرق لمقاومة الجسم لما يغزوه من عضويات غريبة عنه عبر توليد بروتينات مضادة لها تعرف بالأجسام المضادة.

٨- علم أدلة الخلية: وهو العلم الذي يهتم بدراسة الخلايا بوصفها الوحدات الأساسية للعضوية الحية.

٩- أدلة الجغرافية الحيوية: وهي دراسة التوزع الجغرافي للعضوية الحية بشقيها الحيواني والنباتي.

١٠- أدلة علم السلوك الحيواني: هو

العلم الذي يتطرق للسلوك الحيواني في شتى الظروف.

١١- أدلة تهجين حمض (د ن ا) النووي DNA: وهو الخريطة الوراثية للكائن الحي.

١٢- أدلة التهجير الكهربائي لدقائق المحاليل الغروية: التي تعمل على فرز الخلايا الحية كهربائياً.

التأريخ..

إعادة بناء تأريخ العضوية الحية العابرة هو إعادة بناء لعلاقاتها مع وسطها الطبيعي. ولعلاقات الترابط الارتقائي فيما بين أنواعها. ووضعها في مواقعها التاريخية. وترتبط الشروط البيئية بالشروط البنائية والمناخية وبالتالي تعتمد إعادة بناء تاريخ الحياة العضوية على دقة طرق التأريخ التي تحدد بمجالات عدة منها:

١- التأريخ النسبي بالتطابق.

٢- التأريخ بأحافير الحيوانات الصغيرة.

٣- التأريخ بأحافير النباتات وبخلاياها التناسلية.

٤- التأريخ بدراسة شكل الأداة.

٥- التأريخ بالتقاطع الزمني للأدوات.

٦- التأريخ بسلسلة المنتجات الصنعية في حضارة ما.

الشروط البنائية والمناخية والبيئية المرافقة لتطور الحياة:

تقسم هذه الشروط إلى عدة مراحل هي:

١- ما قبل دهر الحياة الجلية أو حقبتا الكمبري وما قبل الكمبري: ويشمل بنائياً ما قبل الدهر القديم (٤-٤،٥) بليون سنة، والدهر القديم حوالي (٢- ٢،٥) بليون سنة. أما مناخياً فقد وجد العديد من المراحل الجليدية وعضوياً ظهرت كائنات عديمة الهياكل.

٢- دهر الحياة الجلية/ حقبة الكمبري: وهو من أهم الدهور وأكثرها طولاً. فقد تكاثرت الحياة عبره وتطورت وعانت من انقراضات جماعية، يمثل البشر أرقى سلالة فيها.

٣- عصر الجليد الأعظم / الحديث الأكثر حداثة/: هو الزمن الثالث في الزمن حديث المنشأ، حوالي /١،٨٠٠،٠٠٠/ سنة. وانتهى حوالي /١١،٥٠٠/ سنة قبل الآن. من سماته أنه كان عصراً جليدياً بامتياز. وفيه تم ازدياد مناسيب مياه البحار والمحيطات، ومانتج من تفتيت للصخور والتربة. وتشبه الحياة العضوية فيه الحياة العضوية في أيامنا هذه بشقيها الحيواني والنباتي.

أصول سلالية..

١- الرئيسات بداية مشوشة في السجل الأحفوري: ينتمي الإنسان الحديث إلى رتبة الرئيسات، ويتقاسم معها صفات مشتركة. وهي رتبة تنتمي إلى صف الثدييات التي تنتسب إلى شعب الفقاريات. وتتقاسم الرئيسات صفات مشتركة كما تتباين فيما بينها في صفات أخرى ينم عن اتجاه ارتقائي سببه تباين الظروف المعيشية والبيئية التي عاشت وتطورت فيها. وتصنف الرئيسات الحية تحت رتبتين: الأولى رتبة معقوفات الأنوف وهي الرئيسات البدائية والثانية رتبة الرئيسات العليا بسيطة الأنوف..

فصيلة البشريات..

تضم فصيلة البشريات أنواعاً عديدة، انقرضت جميعها ما عدانا نحن البشر الذين نصنف تحت مسمى نوع الإنسان العاقل الحديث.

أ- الأجناس والأنواع المنقرضة:

أ - القردة الجنوبية المبكرة غير متينة البنية: وتضم (إنسان تشاد، إنسان كينيا، القرد الجنوبي نوع (جـذر)، القرد الجنوبي نوع البحيري، القرد الجنوبي نوع عفاري، القرد الجنوبي نوع الأفريقي، القرد الجنوبي نوع إنسان كينيا مسطح الوجه، القرد الجنوبي الأثيوبي.

ب - القردة الجنوبية المتأخرة متينة البنية: وتضم (القرد الجنوبي نوع الأثيوبي، القرد الجنوبي التنزاني، القرد الجنوب أفريقي).

ج - جنس الإنسان رهومو: هو جنس من فصيلة البشريات، ومن رتبة الرئيسات. ويضم الإنسان العاقل الحديث، إضافة إلى أنواع منقرضة: الإنسان الماهر، والمنتصب، والعاقل، وإنسان نياندرتال، وكرومانيون. وقد ظهر قبل ٣ ملايين سنة. وقد ظهر في عدة أماكن من العالم. ومنها في سورية.

الإنسان العاقل الحديث..

أول ظهور للإنسان الحديث كان في أفريقيا، الواقعة إلى جنوب الصحراء الأفريقية الكبرى. وقد أدى إلى ظهور ثلاث مجموعات هي:

- مجموعة الإنسان العاقل القديم المبكر في جنوب الصحراء الأفريقية الكبرى (٤٠٠،٠٠٠ - ٢٠٠،٠٠٠) سنة قبل الآن.
- مجموعة الإنسان العاقل القديم المتأخر في جنوب الصحراء الأفريقية الكبرى (٢٠٠،٠٠٠ - ١٠٠،٠٠٠) سنة قبل الآن.

- مجموعة الإنسان العاقل الحديث في جنوب الصحراء الأفريقية الكبرى (١٠٠,٠٠٠ - حتى الآن).

ولم يوجد الإنسان العاقل الحديث في أفريقيا فقط بل وجد في مناطق أخرى منها (بلاد الشام) وشمال أفريقيا، وآسيا (الصين) وأوروبا (فرنسا) وأستراليا والأمريكيتين.

☆ ☆ ☆

إصدارات

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة السورية، مجموعة من الإصدارات في حقول المعرفة كافة، هي:

☆ **إحسان عباس.. سادن التراث وحارس الذاكرة:** قام بتحرير الكتاب الدكتور حسين عمر حمادة. وهو مجموعة من الأبحاث والدراسات لباحثين ومفكرين هم: د. محمود السيد، فاروق عباس، د. عبد الله الدنان، د. فخر الدين القلا، د. حسين جمعة، د. رجائي الخانجي، د. ماجد أبو ماضي، د. عبد الكريم محمد حسين، د. سليمان حسين، د. حسين عمر حمادة. يقع الكتاب في (٢٦٩) صفحة من القطع الكبير.

☆ **حلب في العصر العثماني:** ضمن احتفالية حلب عاصمة للثقافة العربية صدر هذا الكتاب من تأليف المستشرق (أندره ريمون). قام بترجمته إلى اللغة العربية الدكتورة ملكة أبيض. يتناول الكتاب المدينة العربية حلب في العصر العثماني من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر) ويقع في (٤٢٣) صفحة من القطع الكبير.

☆ **بنية الإيقاع في التكوينات الخطية:** صدر هذا الكتاب ضمن سلسلة (فنون) للفنان العراقي (جواد عبد الكاظم الزيدي). ويضم في محتواه ثلاثة فصول هي: مفهوم التكوينات الخطية. مظاهر صيرورة الإيقاع في التكوين الخطي. نماذج تحليلية لتحقق مظاهر الإيقاع. يقع الكتاب في (١٠٠) صفحة من القطع الكبير.

☆ **ليليت والحركة النسوية الحديثة:** ضمن سلسلة قضايا نسوية صدر هذا الكتاب للباحث الأستاذ (حنا عبود). وهو دراسة في تاريخ المرأة عبر المجتمعات البشرية منذ الحضارات السورية القديمة حتى الآن. يقع هذا الكتاب في (٢٠٠) صفحة من القطع الكبير.

☆ **غريغوار مينديل:** ضمن سلسلة

علوم. صدر هذا الكتاب لمؤلفه (إدوارد إيديلسون). قام بترجمته إلى اللغة العربية (د. هشام الدجاني). يتضمن الكتاب دراسة في حياة ميندل وإسهاماته في علم الجينات والتطور الجيني الوراثي. يقع الكتاب في (١٢٠) صفحة من القطع الكبير.

☆ **مدخل إلى الفكر الإيكولوجي:** صدر هذا الكتاب ضمن سلسلة (قضايا راهنة) وهو عبارة عن مجموعة من المقالات لمفكرين وعلماء من أوروبا والولايات المتحدة. قام بترجمته وتحريره الأستاذ (معن رومية). بحث الكتاب في مفهوم الإيكولوجيا وعلاقته بالفلسفة وعلم النفس، والنقد الأيكولوجي. يقع الكتاب في (٢٠٠) صفحة من القطع الكبير.

☆ **عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب:** ضمن إصدارات مديرية إحياء التراث العربي في وزارة الثقافة، صدر كتاب تحت عنوان (عمدة الكتاب وعدة ذووي الألباب). الكتاب منسوب إلى (المعز بن باديس). قام بتحقيقه وإخراجه الباحث في التراث العربي (إياد خالد طباع). يقع الكتاب في (٢٤٠) صفحة من القطع الكبير.

☆ **المدرسة الجقمقية:** في خطوة لافتة لتوثيق مراكز البحث العلمي والفكري في سورية، صدر حديثاً كتاب تحت عنوان (متحف الخط العربي.. المدرسة الجقمقية). الكتاب من إعداد (هناء فريد خزنه كاتبي). وهو دراسة توثيقية لتاريخ هذه المدرسة. يقع الكتاب في (٧٢) صفحة من القطع الكبير.

☆ ☆ ☆

آخر الكلام

٣٥٠

ويستمر البحث عن «الأغاني»..

رئيس التحرير

لقد مضى على تأليف كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني، أكثر من ألف سنة، ومع ذلك ما زال الناس يقدمون على قراءته بشغف وحب لأنه كتاب معاصر لكل عصر، مع العلم أنه في واقعه كتاب أغان.. قالوا إنه بناء على مئة صوت اختارها «إسحق الموصلي» لهارون الرشيد.. فهيكل الكتاب قائم على هذه الأصوات المئة، وعلى ترجمات أهل هذه الأصوات من الشعراء والمغنين والمغنيات والجواري ولياليهن وإيقاع الأوتار فيما بين دن وتن!!

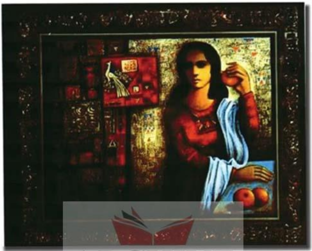
ما يحزنني كلما عدت إلى «الأغاني» أننا لم نتمكن -حتى الآن- من غناء صوت أو عزف لحن واحد من مئات الأصوات والألحان التي أتى على ذكرها «الأصبهاني».. لقد كانت هناك محاولات ودراسات كثيرة، لكنها لم تصل إلى حدّ الإقناع، وافتقدت إلى الحس والحرارة الدافقة، وكانت بعيدة عن إيقاع العصر وجمالياته وعظمة أنغامه التي تحدث عنها «الأصبهاني» بإسهاب وحب شديدين.. لقد كان كتاب «الأغاني» لوحة تاريخية واسعة للأغنية العربية في العصر العباسي، وكان صورة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية وأحياناً السياسية التي عاشها الناس في تلك الفترات.. فيها الفجائع والمضحكات والمشاهد والمواقف ونظم العادات والآداب والسلوك.. ومع كل هذا الغنى ما زلنا ننتظر حرارة الاكتشاف لتقع أكبر معجزة في تراثنا الغنائي والموسيقي الحضاري المفقود مع العلم بأن كتاب الأغاني يدلنا في جوانب كثيرة من فصوله على وصف دقيق للألحان والأنغام والأدوات الموسيقية التي كانت تستخدم في العصر العباسي..

ويستمر جهلنا بالموسيقى والتراث الغنائي القديم في عصورنا العربية الإسلامية الزاهية، فها هو الفيلسوف والموسيقي «الفارابي» يصنع كتابه الشهير «الموسيقي الكبير» الذي يتضمن موسوعة كبيرة عن الألحان التي تعلمها أو علّمها أو أسمعها الملك أو الشعب ومع كل هذا الغنى والتنوع والدلالات الموحية عن عظمة الإنجاز والعطاء والإبداع.. فقد بقيت مدونات «الفارابي» خرساء غير ناطقة ولم تفلح المحاولات الكثيرة معها.. ولم يكن حالنا أفضل مع العالم والفيلسوف والموسيقي الشهير «السهروردي» الذي أمضى أهم مرحلة في حياته في مدينة حلب أيام الملك الظاهر وألف «حكمة الإشراق» وفي الموسيقى؟!

أما عن صفي الدين الأرموي (١٢١٥-١٢٩٤م) هذا الموسيقي والعالم الكبير، الذي كان الخليفة المستعصم يقضي كثيراً من أوقات فراغه يستمع إلى موسيقاه

وعزفه على آلة العود، فقد كان من أشهر الموسيقيين العرب، وينسب إليه أنه أوجد مقاماً موسيقياً جديداً ذا ثماني عشرة نغمة، وكان «الارموي» أول من استخدم الحروف الهجائية العربية، مفردة ومركبة في الموسيقى، في تسمية درجات السلم الموسيقي، وهو أول من صَور الأدوار على عدة نغمات في مقامه الموسيقي، وكان كتابه «الأدوار» من أهم الكتب التي تبحث في علم الموسيقى العربية، وله كتاب آخر يحمل عنوان «الرسالة الشرفية في علم النسب التأليفية والأوزان الإيقاعية» وقد اشتهرت في أوروبا بعد أن ترجمها كاملة إلى الفرنسية «البارون ديرلانجيه» ونحن العرب لا نعلم عنها إلا اسمها، علماً بأن المستشرق المعروف «فارمر» قد تحدث كثيراً عن دور «الأرموي» في تطور الموسيقى العربية في العصر العباسي، يقول: «كان له كتابان نفسيان هما: (الرسالة الشرفية) و(الأدوار) الذي اتخذه كل مؤلف موسيقي بعده أساساً اعتمد عليه في أعماله..

☆ ☆ ☆



اللوحة: المرأة والطائر   الفنان: علي حسين - حلب ١٩٥٦

تمثل هذه اللوحة تجربة الفنان علي حسين الذي درس الفن بشكل ذاتي، ومارسه بكثير من الاجتهاد والتمايز، حتى تمكن من خلق لوحة زيتيّة، لها مقوماتها وخصائصها وموضوعاتها التي لاتدل إلا عليه.

عاشت لوحة الفنان حسين حالة من التململ إلى أن استقرت أخيراً عند الصيغة الواقعيّة المختزلة المتكئة على إرث فني شعبي وإسلامي، ما جعلها تكتنز على جماليات واقعيّة تجريديّة في آنٍ معاً، وهي الصيغة المتآلفة والمعبرة والجميلة التي تحملها لوحته (المرأة والطائر) بامتياز.

تتألف اللوحة من جذع المرأة الشرقيّة الوسيمة الملامح، وصورة الطائر التي ترمقها بحزن صامت، بينما استقرت تفاحة في كفها، وأخريتان على الطاولة قرب كفها الثانية، المرأة، وصورة الطائر، والتفاحات الثلاث: أبرز عناصر تكوين اللوحة، يأتي بعدها الإطار العريض المزخرف، والخلفيّة الحاشدة بالزخارف والمنمنمات والألوان المدروسة كدرجة وإضاءة.

فالإطار العريض المحيط بعناصر اللوحة الأساسيّة، جعله بألوان غامقة أضاءها قليلاً بالزخارف في أرضيته، انتقل بعدها للتدرج من الغامق إلى الفاتح، عبر إضاءة شال المرأة ووجهها وصدرها والجزء البارز من الطاولة، والمساحة المحيطة بالمرأة، إضافة إلى صورة الطائر والشريط الذي شغل ثلث الأرضيّة، ولربطه بصورة الطائر، جعله شبيهاً بتقسيماتها وألوانها.

سجل الفنان علي حسين في لوحته هذه، حالة رائعة من تآلف جماليات الإنسان والعناصر والكائنات المحيطة به، بخبرة كبيرة، ، وإمكانيّة توليفية لافتة، وقبل هذا وذاك، بموهبة أكيدة وأصيلة.

د. محمود شاهين



التكية السليمانية

خلال فترة حكم السلطان العثماني سليم الأول التي دامت ثماني سنوات (١٥١٢-١٥٢٠م)، خاض معارك عديدة في مناطق مختلفة، وكان يرافقه شاب يدعى (سنان) لديه نزعة فنية متطورة، عرّفته على إبداعات الفن الإيراني والعمارة الصفوية، وآثار العمارة الأموية والأيوبية والسلجوقية في دمشق وحلب، والعمارة المملوكية في مصر، وكان في كل زيارة وجولة يزداد تعمقاً ونضجاً وابتكاراً، وهذا ما أوصله إلى منصب كبير المعماريين في «الأستانة»، وتوزعت أعماله المعمارية والعمرانية في شتى أرجاء الدولة العثمانية، وتعد «التكية السليمانية» التي بنيت في دمشق من أهم إنجازاته في سورية.

لقد أقيمت هذه التكية على أنقاض القصر الأبلق المملوكي بأمر من السلطان سليمان القانوني، والتكية، شكل من أشكال المدارس التي تضم مسجداً وقاعات للتدريس وغرفاً لإقامة العلماء والطلبة القادمين من خارج المدينة، ولسكن الفقراء والمحتاجين.

غرف التكية مفتوحة على باحة مكشوفة، وأمامها أروقة مسقوفة بسلسلة من القباب، ويتوسط الباحة بركة مستطيلة، مع توزع جميل للحدائق في شتى أرجاء التكية.

للمسجد قبة مركزية ضخمة متربعة على جدرانه، ويبلغ طول ضلعه (١٦) متراً، وتتوزع النوافذ على رقبة القبة، وعلى ركني المسجد مئذنتان أسطوانيتان تتقدمان القسم المركزي للقبة، أما المنبر والمحراب فمن الرخام الجميل، ويستفاد حالياً من التكية كمتحف حربي، ولعرض وبيع الصناعات التقليدية التي تشتهر بها سورية.

ع.ق